مورا

في مدريد

نوال السباعي

مورا في مدريد

دار الوراق
Dar Alwarrak
للطباعة والنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

1438 هـ 2017 م

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية
أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل
على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها
حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من المؤلف

دار الوراق
Dar Alwarrak
للطباعة والنشر والتوزيع

ص.ب.: 250641 الرياض: 11391
هاتف: 00966 1 2170602
فاكس: 00966 1 2170642
e-mail: msibaie@daralwarrak.com
www.daralwarrak.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إلى الأحرار.. في محاولاتهم الأسطورية المستميتة لاسترداد "الهوية" و"الإرادة" من بين أنياب الغيلان والغربة.

فجروا ثورة الكرامة والحرية والخلاص، ثلاثين عامًا بعد تاريخ الأحداث التي يحكي بعضها هذا الكتاب..

"مورا" .. يا لها من كلمة؟! جعلتني، بسني عمري الثماني والعشرين، وذكرياتي الكثيرة التي حملتها معي من حياتي "العريضة" التي عشتها في دمشق، غريبة حتى نخاع عظامي.

غريبة بآمالي وآلامي، وآمال زوجي وأطفالي وآلامهم، وأوراقي وأقلامي، وقلبي الذي أثبتت تقارير الأطباء أنه تعِب.

"مورا" .. مجرد كلمة، كلمة واحدة فحسب، جعلتني مع كل هؤلاء، من أشخاص وذكريات ومشاعر وصور، أنكمش إليها، أنحشر فيها، أكاد أختنق، أصارع سجنها، أحاول أن أمزق بأظفاري جدران قهرها وجبروته، ولا أستطيع الخلاص، فلقد بدأت بعد ذلك بسنين طويلة أتعايش معها – للأسف أو لحسن الحظ!- كما أتعايش مع مدريد نفسها، تمامًا كما يتعايش المرء مع مرض القلب، والروماتزم.. لا علاج ولا حل.

بدأت أقْبَل الدور الذي أرغمتني مدريد على أن أعيش في بوتقته.

"مورا" .. دور أسندته مدريد إلي، وأجد نفسي مرغمة على القبول به، لم أستطع وبعد مرور السنين في مدريد أن أتخلص منه أو أنفك عنه.

كانت غرناطة كأنها دمشق، حويراتها القديمة الضيقة المنسية، رائحة هوائها، نُسيمات سَحَرِها، عبق التاريخ الذي تحمله أطراف غيماتها، قطرات مطرها، حفيف أشجارها، قرقعة الأقدام في أزقتها العتيقة، وهدير حركة المرور الصاخب في شوارعها الحديثة.. "المنثور الأصفر" الذي ينتشر على جنبات هاتيك الطرق أينما ذهبت، وحيثما تلفَّـتّ، والورد الغرناطي ابن عمّ الورد الدمشقي الذي يكبره حجمًا ويمتاز عليه بتعدد ألوانه اللافتة، ولكن لا عبق ولا عبير.

الأقواس التاريخية، ساحة "كولون"، "الرملة"، قصر الحمراء، جنَّات العريف، وخمسة أعوام من المعاناة الصامتة، والوحدة المريرة، حملتها جميعًا في قلبي عندما قررنا الهجرة إلى مدريد، بحثًا عن مدارس عربية يمكننا أن نُلحِق بها أولادنا.. الشيء الذي لم يحدث إلا بعد عشرة أعوام من تاريخ وصولنا إليها!

في مثل هذه الأيام الربيعية الباردة التي تنشر شذاها في أرجاء المدينة، على الرغم من أننا ما زلنا في أواسط شهر شباط، كنّا قد وصلنا مدريد للعيش فيها، بعد سبعة عشر عامًا قضاها أبو الأولاد في غرناطة، خمسة منها في صحبتنا.. أنا والأولاد.

خرجنا من غرناطة محمّلين بالذكريات والحسرات، وسيارتَيّ أجرة غصّتا بمتاعنا، خرجنا منها كمن اقتُلِع من حديقة أزهار، كل وردة وياسمينة في غرناطة كانت تُسَكّن ألم البعد عن دمشق، أحيائها، حدائقها، رياحينها، هوائها، ونسماتها.

وبقيت بناتي، على صغر سنّهن يندبن غرناطة، وبيتهن في غرناطة، وألعابهن التي اضطررنا إلى رمي ثلاثة أرباعها بسبب السفر.

ولولا أنني احترمت آلام الزوج وطفولة الصغيرات لقضيت الرحلة في البكاء والنحيب، ولكن – وكما يقول تشيخوف – نحيب الروح الصامت أشدّ ألمًا وأكثر وقارًا واحترامًا.

لم يعد في استطاعتي أن أرصد ذكرياتي من خلال المكان. إنني أنخلع منه مرة بعد مرة، وتصبح المدن أرواحًا وأشباحًا تجوب قلوبنا ولا تبارح، نتلمَّس في الصخر والإسفلت حياة تتسلق جدران الزمن، تغطيها بأوراقها، تتبدل ألوانها بتغير الفصول الأربعة، خصوصًا عندما تتصحر قلوب الناس الذين يسكنون هذه المدن، ويصبح الجبل والربوة والأشجار هُم الأحبة الذين يَحِنُّ إليهم المرء وهو ماض في رحلة غربته التي تبدو في كثير من الأحيان وكأنّها لا نهاية لها.

ما عاد لدي رقعة من جغرافيا أرسم فيها حكاياتي عن الزمان.. وعني، عن جذوري وأحلامي. هنا.. كنا نلعب، نتسلق الخزانة على أكتاف بعضنا حتى نصل إلى علبة الشوكولاته التي تحاول أمي إخفاءها لتكرم بها ضيوفها، هنا.. كسرتُ ذلك التمثال القبيح الذي كان أول شيء اشترته أمي من "معاشها" الأول بعد أن عُيِّنَت معلمة في حوران وهي في الثامنة عشرة من عمرها، وهنا.. أحرقتُ ذات مساء كل أوراقي ودفاتر مذكراتي، في أول حريق "أشعلته" في حياتي، في حديقة بيت جدي بعد أن حملني الجميع على أن أفعله خوف الاعتقال والتعذيب، وفي المرة الثانية كان الحريق الكبير الذي شبّ في القلب والأوراق والكلمات، في غرناطة، وكان ثمرة الغربة والخيبة، ومنذ ذلك الحين تكررت الحرائق، وتكررت الولادات من رماد تلك الكلمات وهاتيك الأوراق.

هنا.. كنت أقف كل صباح أرقب خروج الشمس حتى تستوي فوق حارتنا الدمشقية الحُبلى بحكايات الجيران تَمور بحادثات الأيام، وهنا.. كان جدي يعقد حلقة علم، يأتيه فيها بعض مُسِنِّي دمشق من أكابر القوم، يقرؤون في تلك الكتب الصفراء المرصوصة على الرفوف التي تحملها كل جدران البيت، فلا تترك فيها مساحة فارغة يمكن أن يشغلها أي شيء آخر غير الكتب، يزدردون الكعك ويشربون الشاي، يُطرِق بعضهم غافيًا، بينما نتسلل، أنا وإخوتي وأبناء عمي، زحفًا من تحت الكراسي، نختلس شيئًا من الكعك المتبقي، ونحن نضحك من شخير القوم وانتباهاتهم. هنا.. كان زفاف عمي، وفي تلك الغرفة ماتت جدتي وحيدة بين أهلها وناسها، غريبة في بيتها ووطنها، كانت غربتها أشد من غربتي في الطرف الآخر من الأبيض المتوسط، بعيدة نائية، غربتها كانت من نوع آخر ومن طعم آخر، غربة الإنسان عندما لا يجد مكانه في أسرته ووطنه وفي هذا العالم، كانت "الحِمصيّـة" بنت الحسب والنسب والأكابر، في بيت زوج كل همه في هذه الدنيا طلب العلم ورضى الله، ولم يكن من "رضى الله" في موسوعته العلمية الضخمة الهائلة أن يُحْسِن لهذه الزوجة، ولا حتى بكلمة، عاشت معه رحلة عذاب وغربة مستمرة، كادت أحيانًا تهز من قناعتي بجدوى علمه الهائل، الذي كنت المستفيدة الأولى منه في هذه العائلة، وذلك قبل أن تنمو مداركي لأفهم ملابسات النفس الإنسانية بخيرها وشرّها، ونقاط عجزها وقوّتها، وقدراتها المتفاوتة على الكراهية والحب.

قريبًا من مترين من رَجُلٍ استثنائي بكل معاني الاستثنائية، لحية بيضاء كثة جميلة معطرة دائمًا بالمسك والعنبر، رأس أصلع يشبه رأس "دافنشي" صاحب الموناليزا، يُقَدِّم البرهان على صحة نظريته الخاصة بالوفرة في الإنتاج والسوء في التوزيع.

عينان زرقاوان نافذتان مخيفتان، لم أستطع التحديق فيهما قط، خشية واحترامًا، وأحيانًا تحسبًا ووجلاً، في تلكما العينين شيء مخيف حقًّا، أهو الغضب الحاضر الدائم؟ أهو الاتهام، أهو القدرة على تقييمك وأنت صامت من دون أن تنبس ببنت شفة؟ ظهرٌ أحنته الهموم، لكنها لم تركعِه، كتفان متهدلتان أكلت السنون لحمهما، ويدان كبيرتان نظيفتان باردتان دائمًا.. يأخذك بينهما فيمسح على رأسك، ليزيل الخوف الذي تشيعه تلك العينان في نفسك، واللتان ما تفتآن تغرورقان بالدموع شفقة ولهفة وحبًّا.

أدخُل باب غرفته، آتية من الجامعة، محمَّلة بهمومي، وقبل أن أتجاوز العتبة يبادرني بترنيمته الصوفية الجميلة:

- "رجال الله.. كرام الخلق، أغيثونا بعون الله".

غاضبة مقاطعة أبادره بقولي: يا جدو أيجوز الاستغاثة بغير الله؟

يضحك -إذا كان في مزاج طيب- ويستطرد: الغوث منهم هو تذكيرهم المرء بذكر الله ليجلو الذكر قلبه.

ثم يستمر في ترنيمته: "لا تكثر لِهَمِّكَ ما قُدِر يكون".

كأنه يقرأ صفحات الأنفس، وكدر القلوب.

لا تقنعني الإجابة، وأمتعض.. أنا من أنا في حضرة عالم مثله؟ وهو من هو في ميزان الحق؟

حدثته عن الجامعة، وعما فعلته بنا الغيلان، وكيف تم اغتيال أحد الأساتذة في الحرم الجامعي، ثم غلبني الدمع، لكنني لم أكن أريد البكاء:

فوجئنا بعشرات من رجال الأمن يقتحمون علينا كلية الشريعة،

كنت هناك أحضر بعض الدروس كما اعتدت أن أفعل بين الحين والحين، أهرب من كلية العلوم ملتجئة إلى هذه الكلية القريبة لأجد نفسي فيها.

هجمت الضباع علينا من كل حدب وصوب على حين غِرّة، وساد المكان هرجٌ فظيع، وقبل أن نفهم ما الذي كان قد حدث، بدأ الشباب بالفرار من كل منفذ ممكن، كنت أراهم وهم يتسلقون نوافذ الكلية الطويلة العالية جدًّا، بحثًا عن مخرج بين حديدها المشبك والسقف، يُدخلون أجسادهم فيه ثم يلقون بأنفسهم منه مسافة ثلاثة أمتار فوق العشب، الذي يشكل الفناء الخلفي لكلية الطب المجاورة. اختفى معظم من في الكلية، وبقي قريبًا من عشرين أو ثلاثين طالبة وشابين فقط، وأستاذ واحد، وكنت أجد عليه في نفسي بسبب شيء بدر منه بحق طالب في الكلية، لكنني في تلك اللحظات الرهيبة رأيت فيه عين الشهامة، سارع الشابان وسط بكاء بعض الطالبات والرعب الذي سيطر على الجميع، إلى الأبواب الخشبية الطويلة العريضة الضخمة جدًّا لكلية الشريعة، فأغلقوها من كلا المدخلين، وجمع الشيخ الطالبات في مكان واحد، وصار يلاطفهن ويهدئ من روعهن، وبقينا ثلاثة طلبة فقط أمام الباب، إذ بدأت الغيلان بالركض نحو الكُلية كوحوش مستنفرة جاءتها من كل حدب وصوب، وبدأ الهجوم عليها بدفع الباب وضربه بالأقدام، محاولين خلعه أو كسره مع الصياح علينا والهتاف بأن "الموت للخُوّان"[1]!

فتح أحد الشابين النافذة الخشبية الصغيرة في وسط الباب قريبًا من القفل، وأخذ يتحدث إليهم في هدوء لافت، كان ابن أحد كبار علماء مدينة حماة، وقف في ثبات وتكلم معهم في

(1) شعار كان يستخدمه النظام في المدارس ووسائل الإعلام في حربه المعلنة على جماعة الإخوان المسلمين التي كان يتّهمها بتحريك ثورة مسلحة في سورية السبعينيات.

سَكِينة ولِين، قال لهم: ماذا تريدون من كلية الشريعة؟ هنا لا يوجد إلا بنات خائفات، لقد أغلقنا الأبواب لِما رأيناه من هجوم غير معقول.

وكان الضابط المخابراتي واقفًا هناك يصر على فتح الأبواب، فتدخل الشاب الثاني وقال له: ما علاقة كلية الشريعة بعملية الاغتيال يا أخي؟ وما علاقتها بالإخوان؟ هذا خلطٌ في غير مكانه، واعتداء على الأبرياء، هذه كلية جامعية لها حرمتها، فصاح الضابط في وجهه وعيناه تتقدان شررًا: قل هذا للقتلة الذين اغتالوا الأستاذ هنا!

ثم تدخل الأستاذ، واتفق معهم بعد ساعة من الأخذ والرد، على فتح أحد البابين لتبدأ الطالبات بالخروج واحدة واحدة بعد أن تَعْرِض بطاقتها الجامعية، وعندما يخرج الجميع يدخل الأمن للتفتيش.

قلت لجدي: سبحان الله تلك الساعة لم يكن عميد الكلية الدكتور البوطي موجودًا، ولو كان هناك لأقام القيامة على رؤوس رجال الأمن، بسبب هذا الهجوم الوحشي على كلية الشريعة فور وقوع عملية الاغتيال تلك.

وَجَم جدي، والغضب والألم باديان على قسمات وجهه، ثم قال: حمل السلاح لا يأتي أبدًا بخير!.. أنا لست راضيًا عمن يحمل السلاح ويقوم بهذه الاغتيالات.

قلت له وأنا أختنق بقهري: أنبقى ساكتين إلى أبد الآبدين وهم يعتدون علينا؟ انظر يا جدي كيف يتعاملون مع كلية الشريعة كأنها هي وطلابها المسؤولون عن كل ما يحدث في البلد! إنهم

يقولون لنا: كلكم إخوان، وكل الإخوان قتلة، كلكم مجرمون لمجرد أنكم في كلية الشريعة!.

قال: إذا التزمنا الهدوء ولم نحمل السلاح الأهوج أقمنا عليهم الحجة، حمل السلاح يحتاج إلى علم وفقه وتدبر، ولا يمكن أن يحمله كل من هب ودب وأكل الحب، يثير هذه الزنابير لتتهجم علينا بهذه الطريقة.

قلت: ودماؤنا يا جدو، ودماؤنا التي تسفك في كل يوم؟ ثم ما أدرانا من الذي قتل ذلك الأستاذ؟ ولماذا؟ هذه الزنابير يا جدي مُثارة مستثارة علينا، تلدغنا كما يحلو لها، ونحن جلوسٌ نُتَخَطَّف ويختفي شبابنا في السجون ويُعذبون ويُقتلون، ونحن لا نحرك ساكنًا.

قال جدي: جنون الشباب يهيئ لهم أن الأمر "نزهة"، في حين أنه حرب، ولا حرب دون إعداد واستعداد ووقوف الشعب كله لمواجهة الأعداء، وقبل ذلك تطهير النفوس، النفوس المريضة المنخورة، نصف الشعب لا يعرف ربه، والنصف الآخر جاهل بأبسط شعائر دينه! أتريدون أن تقاتلوا بهكذا شعب؟

هل تعلمين أن لحمل السلاح فقهه وشروطه وآدابه؟ وأن للمعارك والحروب فقهها وقوانينها وأخلاقها؟ وأن الناس هنا واليوم في الشام لا يعرفون لا هذا ولا ذاك؟

قاطعته: وكم من العقود سنحتاج لكي نعد ونستعد؟!.. من حقنا أن نحمل السلاح لندافع عن أنفسنا وأعراضنا.

أجابني وقد اشتد غضبه: ينبغي لمن يمتلك سلاحًا أوان الفتن أن يدفنه أو يكسره، ولا يعرض نفسه وغيره للمحنة، فإذا جاءته صبر واحتسب!

قلت: بل ينبغي لنا أن نُدْفَنَ جميعًا ونحن أحياء حتى لا نتعرض لأذاهم وذلهم والعذاب المرير بين أيديهم!

بهت جدي مما سمّاه "فجورًا" غير مسبوق من طرفي!.. كنت حفيدته الأثيرة، وصديقته، وعينه وأذنه في دمشق، وما يجري في دمشق، ما كان يتخيل ولا للحظة واحدة، أن أتجاوز حدود اللياقة أمامه بهذا الشكل - كما قال - لكنه خمّن أنني قضيت يومًا رهيبًا في الجامعة، وأن ما حدث هناك كان فظيعًا.. فسكت.

كانت تلك المرة الوحيدة التي تجرأت فيها على جدي بهذه الطريقة، لم يحدث قط أن تكلمت في حضرته بمثل هذا الغضب والحزن والألم.

سكتَ وهو يُحَوقل، وسكتُ مختنقة بدموعي، مطرقة إلى الأرض أتأمل تصميم رسوم السجادة التي أعرفها منذ وُلِدت في ذلك البيت في الجادة الخامسة من حي المهاجرين على سفح قاسيون.

بعد قليل طلب إليَّ في هدوء أن آتيه بشيء يتيمم به ليصلّي، أقام الصلاة وصلّينا، دون أن نعود للحديث في هذا الأمر بعد ذلك.

كان جدي يُراهن على موت الطاغية، والصبر والمصابرة في انتظار هلاكه المحتم وخلاص البلد منه ومن زبانيته وشرورهم، هذا ما قاله، وهذا ما كان يظنه، وهو المُقعد في سريره منذ عدة أعوام، بعيدًا عما نعانيه يومًا فيومٍ من ذل وقهر وضياع.

أنا من أنا أمام فقيه عارف بمثل قامة جدي؟ وجدي من هو في ميزان الواقع والقِسط والحقيقة؟

قضيت السنوات العشر اللاحقات أفكر فيما كان يقوله في تلك الأيام العصيبة، وأتساءل: هل كان أولئك الشباب حقًّا من

المتهورين المجانين؟ ألم يكن من حقهم حمل سلاح يدافعون به عن أنفسهم، وهم المُعَرّضون للاعتقال بسبب ومن دون سبب؟، هل أخطأوا في حمل السلاح لمواجهة كل هذا الحجم من الاستبداد الطائفي المتوحش الذي كان يزحف على سورية غولاً أسود شبحيًّا، يلتحف البعث، ويشتمل التقدمية، وينادي بالاشتراكية والقومية العربية؟

لم يكن تفكير جدي والشيخ البوطي، في هذه المحنة من وجهة نظري ونظر الآلاف من شباب دمشق، غير انفصام صارخ عن الواقع، الثورة تتفجر في عروق الناس غضبًا لحقوقهم المنتهكة، بينما كان الشيوخ والكبار يتحدثون عن الإعداد والاستعداد وتهذيب النفوس، والتزام الهدوء، والسكوت عن الوحوش ريثما تمر العاصفة.

لمّا ذهبنا في اليوم التالي إلى عميد كلية الشريعة، كان يستشيط غضبًا كما عهدناه دائمًا، وحتى لأتفه الأسباب، فما بالنا والأمر جِدّ جلل؟ كان قد استدعانا ثلاثتنا الذين كنّا هناك في ذلك الموقف وفي مواجهة الغيلان على أبواب الكلية، وحدثنا بأنه تكلم مع "الرئيس"، وقد وعده خيرًا كثيرًا، واعتذر عما جرى على أبواب كلية الشريعة، وقال لنا هامسًا: الرئيس متفهم ونبيل وهو يحب الإسلام ويعمل جاهدًا لتغيير المجتمع وإعادة بنائه من جديد، وأنه يُكِنّ له - للبوطي- الاحترام والمودة، وهو —أي البوطي- يصدقه في توجهاته لخير الشعب السوري والأمة.

ثم أضاف: هؤلاء قوم مجانين، هؤلاء القتلة الذين نفّذوا عملية الاغتيال البارحة في الجامعة، مصابون بلوثة في عقولهم.. هذا "خروج"!

خرجنا من عند أستاذنا البوطي، صامتين، لم ننظر في وجوه

بعضنا، ولم ننبس ببنت شفة، كان الأمر بشعًا جدًّا، أن يُخْدَع رجل كالبوطي العالِم النِحرير! ولمن سأشكو البوطي؟ أأشكوه إلى جدي؟ الذي يفكر بطريقة مماثلة غير أنه لا يثق بهذا الرئيس ولا بحزبه ولا بحكومته، لا يصدقهم، ولا يُكِنّ لهم أدنى قدر من احترام، ويعدّهم أعداء ألداء، مُغْتَصبي الحكم، وعلينا –كما يردد– أن نصبر ونحتسب حتى يخلصنا الله منهم!

- ألا ترى يا جدو ما يفعلون من تغييرات بالغة الخطورة في تركيبة حياتنا؟

- نحن مأمورون بالصبر.

- يا جدو.. نصبر نصبر، ولكن ريثما يهلك هذا الرئيس، سوف تكون البلد قد أُهْلِكت معه وتبدلت هويتها ومعالِمها.

- أنا لا أفتي أحدًا بحمل السلاح.

- يا جدو ألم تر ما حصل في مدرسة المدفعية قبل عامين؟ وماذا كشفت تلك العملية الرهيبة.

- ذلك عملٌ كما وصفتِه "رهيب"، وما كان يجب أن يقوم به من قاموا به، نَكِل نياتهم إلى الله، ونعتقد أنهم اجتهدوا فأخطأوا.. ذلك إثخانٌ في القتل في غير مكانه.

- أتفق معك يا جدي في هذه النقطة، لكن الناس يعدّونها عملية بطولية، ولا يجرؤ أحد على المجاهرة برأيه.

- وأين هي البطولة في قتل شباب محاصرين بهذا الشكل، وإحداث مجزرة؟.. المجازر ليس لها إلا اسم واحد فقط: مجازر.

- كان ذلك محاولة لوضع حد لتطييف الجيش ياجدي، شيء مخيف جدًّا هذا الذي حدث، وشيء مخيف أكثر كان الذي

يحدث من دون علم الناس، تسريح مئات الضباط الذين ينتمون إلى أغلبية الشعب، وجعل الجيش مقتصرًا على أقلية لا تُشكِّل اثنين في المئة من تعداد الشعب، لا بد من أن النقيب "ابراهيم اليوسف" الذي قام بهذه العملية، قد لاقى الويلات من الضباط الطائفيين في مدرسة المدفعية التي جرت فيها الحادثة.

-قصدك.. المجزرة! ما هكذا يتم التغيير، ولا هكذا يمكن مواجهة الحكام الظَلمة.

- يا جدو هؤلاء ليسوا حكامًا ظلمة، هؤلاء حكام يريدون القضاء على هذا الشعب، جملة وتفصيلاً.

- لا يمكن القضاء على الشعوب.

- بلى يا جدو.. بتغيير هويتها.

- لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.. لا حول ولا قوة إلا بالله، أنت يا ابنتي تريدين أن تلقي بنفسك إلى التهلكة.

- يا جدو.. أنا لم أفهم ما حدث في مدرسة المدفعية في ذلك الحين إلا من إذاعة لندن! نحن في بلادنا ولا نعرف ماذا يجري فيها! وهذه الحكومة ليس في نيتها فعل الخيرات، وما يفعلونه في السرّ، تقابله عمليات المقاومة السرّية هذه، ونحن.. أي عامة الشعب "آخر من يعلم".

غضب جدي، وقال: هل تفهمين أن في دارنا هذه ميكروفونات للتنصت، وأنهم قد يطرقون الباب في أيّ لحظة يَجُرّونك إلى عذاب مهين.. هل يمكنك احتمال العذاب والاغتصاب؟! لماذا لا تريدين أن تفهمي؟ نحن لا نريد لبناتنا هذا المصير، إنني أمنعك من العودة إلى الخوض في هذا الحديث بعد اليوم.

نحن مأمورون بالصبر والدعاء.. حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولاً.

تركني جدي في حالة قهر وحزن عميق، وما عدت أتجرأ على الخوض في هذا الحديث معه من جديد. ماذا نفعل؟ إلى من نلجأ نحن الشباب؟ وكيف يمكن لسورية الخروج من هذه المخاضة التي امتلأت بالدماء؟!.. هل كانت وجهة نظر جدي والبوطي هي الصواب؟ وكيف يمكن لهذا الشعب أن يستفيق من غفلته ما لم تهزه زلزلة توقظه من أحلامه القذرة، وتضعه على الطريق الصحيح.

أُحب جدي كثيرًا، وأحترمه إلى أبعد درجات الاحترام والتقدير، كما أحب البوطي أستاذنا[1]، أحترم فيه أنه الوحيد- على ما أعلم- من علماء سورية في تلك الأيام، الذي تحدث إلى الرئيس، وتصدّر لمعالجة الوضع، وتهدئة الأمور -كما قال- وحاول بكل ما يستطيع أن يوجه الناس ويأخذ بأيديهم إلى ما كان يظنه طريق الخلاص.

لكنني كنت أكره فيهما كليهما هذه الطريقة الغريبة لِما كنت أسميه إذعانًا واستكانة للبغاة المستبدين.

أننتظر أن يأتوا علينا جميعًا ونحن جلوسٌ نتفرج؟ أيستقيم أن نسكت وهم يَعتقلون حتى الأطفال من مُرتادي بعض المساجد أو المنتديات، لأن رجلاً معارضًا كان يرتاد ذلك المسجد؟ أو لأن أحدهم ألقى تحية ذات يوم على أحدهم الذي كتب شيئًا في مجلة وراء الحدود؟.. بل لقد قاموا باعتقال عائلة العلواني في حماة بأكملها، ثلاثمئة إنسان، رجالاً ونساءً، كبارًا وصغارًا ورضَّعًا،

(1) في كلية الشريعة في دمشق خلال أربعة أعوام.

ليضغطوا على "مهدي العلواني" فيسلم نفسه، كانوا يتهمونه بالوقوف وراء بعض تلك الاغتيالات التي شهدتها البلاد.

شاب في العشرين من عمره.. يخيف دولة الخوف، ويقلب المنضدة على رؤوس رؤوسها.

مع الطغاة المجرمين لا ينفع الحوار الهادئ! مع القتلة الأوباش كيف تستقيم المهادنة؟.

أعوام عمري القليلة لا تسعفني في فهمٍ هذه المواقف إلا على أنها خنوع وخضوع وذلة واستسلام! شيءٌ ما يسير في اتجاه خاطئ، البلد يتّجه نحو كارثة محققة، و"الكبار" ما زالوا يتحدثون عن تهور الشباب، وتجاوزهم الحدود.. إنه سجال "العشرين" و"السبعين" المؤبد، سجال العاطفة والعقل، سجال الإصلاح والتغيير، سجال الثورة والتأني.. سجال الإعصار والإمهال.

الواقع، أنه لم يكن في حياتنا شيء واحد فقط يسير في الاتجاه الخطأ، كانت هناك مجموعات من الأمور تنبئ بالعارِض المستقبل أوديتنا.. زورٌ، بهتانٌ، تعسّفٌ، جورٌ، تنابذٌ، تخلف، تكبُّر، ارتكاس، إنكار، انسلاخٌ تدريجي مخيف عن "الهوية".. "هويتنا".

لم نتمكن كشباب من التفاهم مع مشايخنا وأساتذتنا، كانوا في غالبيتهم قد أغلقوا عقولهم على محاربة حمل السلاح والخروج على الحاكم ومبادأته بالثورة، وكان الكبار من القيادات الشيوعية والقومية في البلد أعجز من أن يحركوا الشارع الذي يغلي، وأبعد ما يكونون عن التحقق بإرادة الجماهير، وتصور خطة للتغيير الشامل.

وبدأ النزيف.. نزيف العقول والقيادات، وكل من كان يتوسم الناس فيه خيراً، ليكون في مكان التوجيه والريادة، كذلك بدأ

مشايخنا في الشام وأساتذتنا في كلية الشريعة بالرحيل، واحدًا إثر آخر، قال بعضهم إنهم أُرْغِموا على مغادرة البلاد، وإن السلطات منحتهم ثماني وأربعين ساعة لحزم أمتعتهم والسفر الفوري.. كانت سورية تشهد عملية "تطهيرٍ سكاني صامت"، واستبدالٍ مدروس دؤوب خبيث لتركيبة الطبقة الثقافية والسياسية والفكريّة، يجرد الشعب تمامًا من القيادات الكبيرة القادرة على رسم طريق يمكن للجمهور أن يتحرك من ورائها فيه.

سألت الدكتور البوطي، وكان يقف معه الدكتور عجاج الخطيب، أحد أحب أساتذة كلية الشريعة إلى قلوب الطلبة، وأكثرهم قربًا منهم: هل يجوز لفتاة أن تفسخ خطبتها وعقد زواجها لتبقى في سورية ولا تغادرها إلى حيث يقيم زوجها للدراسة خارجًا؟

نظر إلي الشيخ البوطي، وقال: وهل هذه الفتاة مكلفة شرعًا وعقلاً بإنقاذ البلد وقيادة الجيش مثلاً؟

قلت: لا طبعًا، لكنها لا تستطيع أن تتم زواجها وتلحق بزوجها والبلد غارقة في الدم.

فتدخل الدكتور عجاج قائلاً: هذه فتاة شجاعة، لكنها تكون أشجع إن هي أتمت زواجها والتحقت بزوجها وأسست أسرة كريمة يفهم أفرادها معنى الحق ويلتزمونه، ثم يعودون إلى بلادهم لخدمتها.

قلت: لمن سنترك البلد يا أساتذتنا الكرام؟ لمن يترك هؤلاء المغادرون من المشايخ والعلماء والأساتذة والشباب البلد والناس في هذه المحنة؟

قال البوطي حينذاك كلمات، صدق فيهن والْتَزم: "أنا لن أغادر الشام بإذن الله".

***

أحببت جدي كما يحب أي حفيد جده، واحترمته كما يحترم كل طالب علم شيخه وأستاذه العالِم الفقيه الفذّ الاستثنائي، لم أسمع ولم أر أفقه منه في حياتي إلا الندرة، ونفرت من قسوته وشدته، وقد عانيت من قسوة كثيرين وشدتهم، ولم يكن أيٌّ منهم أو منهن يتمتع بعشر معشار حنان جدي ورقّته وصدقه ورجوعه إلى الحق على الرغم من تلكما القسوة والشدة.

لكن هذه المودة والثقة الكبيرة لجدي لم تُعمِني عن رؤية الوجه الآخر للقمر، حيث تثوي صراعات جدي وجدتي التي وُلِدنا وترعرعنا ونحن نعيش في ظلها.. هما لم يخفياها قط، ولم ينكراها، ولم يشعرا بالخزي والعار من ذكرها، كانت جزءاً لا يتجزأ من حياتهما وحياتنا.. وكذلك كانت حياة معظم الناس في الشام.

كانت المعارك في بيوت أهل الشام، بعضهم مع بعض، وفي البيت نفسه والأسرة نفسها، توازي في قسوتها وحقيقة وجودها، معارك هذا الشعب مع النظام.

نحن بشر، وتألق الواحد منا لا يعني أنه ملاك مُنزل، ولا نبي مُرسل، نحن بشر.. واعترافنا ببشريتنا يوفر علينا البحث عن نصف الحقائق الضائعة في طريقة فهمنا للحياة.

أولئك الذين يزينون لك طوال الوقت أن وجهيّ القمر منيران، وأن الحياة وردية ملائكية.. هم أناس منفصمون عن واقع الحياة، أو وبكل بساطة الوصف.. كاذبون.

أحببتهما – جدي وجدتي- كلٌ منهما على انفراد، وكرهت تلك العلاقة الغريبة المؤلمة التي جمعت بينهما ستين عامًا ولا مخرج ولا خلاص، هكذا هي الأمور في الشام، هكذا يتزوج الرجال بمشورة الأمهات لا بما ترتاح إليه أنفسهم وقلوبهم، رجل طبيب

عالم فقيه رباني من دار علم وأدب ودين، وشابة بارعة الجمال من دار جاه ومال وحسب ونسب، وبينهما برزخٌ من عشرين عامًا، لا تُجاريه في علمه، ولا تفهم عنه، ولا تُحْسِن من ذلك شيئًا، ولا يداريها في أنوثتها، ودلالها، واعتزازها بمَنْبَتِها وطيب أصلها، طبيبٌ فقيهٌ أديبٌ علّامَةٌ مُتبحِّر في علوم الشريعة واللغة، لم يستطع إشراك زوجته في هموم حياته العلمية، ولا في ملابسات أيامه الحافلة ولياليه المليئة بالعبادة والذكر والقراءة والفكر.

ستون عامًا، من الحياة الزاخرة بالسلم والحرب، والثورات وانهيار الدول، وتقسيم المنطقة واستعمار البلاد، وتغيُّر الهوية وتفسُّخ المجتمع، وتفكيك القناعات، وارتفاع الأسوار وتدمير الوجود، ستة عقود من الزمان تشاركا فيها الهموم والأعباء والآلام وأيام الفقر والغنى، كما تعاونا على القيام ببعض المهمات السياسية، كانت تسافر وحدها بمشورته مبتعثة من قبل "الشيخ بدر الدين الحسني" بين المحافظات، متنقلة من حمص إلى جبال العلويين، ومن دمشق إلى مناطق الدروز، لإيصال رسالة، أو تبليغ أمر جلل، كانت تعمل ليلاً نهارًا لخدمة الضيوف كبارهم وصغارهم، قريبهم وبعيدهم، كانت أمينة سره وسر شيخه الكبير، كانت الملجأ في ساعات العسرة والضيق، تشاركا كل شيء.. إلا الحب.

كانا قلبين متنافرين غريبين عن بعضهما تقاسما رحلة الحياة، كلٌ في مقعده من تلك العَرَبَة التي تنهب الأرض، دون أن يتبادلا نظرة تشفي القلب من جراحه، أو حديثًا يخفف عنهما عناء وعورة الطريق.

ما زالت عجلة مثل هذه الزيجات دائرة منذ مئتي عام، من دون أن يوقف شيءٌ كَرّها وسَحْقَها للأمن والمودة والرحمة في بيوت كثيرٍ من أهل الشام.

- يا "تيتة"[1].. لو رأيتِني يوم كنت عروسًا، كنت في غاية البهاء والجمال، لم ير أحد عروسًا مثلي! لا يغرنَّك تعبي وشكلي الآن، جدك هدّني هدًّا، لقد رأيت معه النجوم في "عز الظُهر"[2]!

يأتيني صوتها عبر الزمن، تردد هذه العبارات، دون كلل ولا ملل، دون أن يثنيها كرّ السنين عن أن تحيا على الأمل بالخلاص منه، ودون أن تدرك أن تلك الشكوى لن تغير من حالها شيئًا!.

تشكو ذلك الزوج، وكأن الشكوى تخفف الألم.. وكأن هؤلاء الذين سئموا شكواها يمكنهم أن يفعلوا لها شيئًا غير الاستماع المتململ البائس العاجز.

أن تشارك غيرك هذا الهمّ الذي يثقل كاهلك.. يبدو للمكلومين وكأنه بعض الحل، لكنه دائمًا ينتهي ليصبح بعض المشكلة، عندما ينقلب عليك أولئك الذين أودعتهم ألمك ليفضحوك، أو ليؤنبوك، وكأنك المسؤول عن عذاباتك، ففي حالة الإخفاق عن التغيير، الناس لا يخففون عن صاحب المعاناة، لكنهم ينقلبون عليه، يرمون عيّهم على خيبته، ويُسْلمون للريح أقدامهم فارين من المسؤولية!

كانت هذه حال الجدة مع الجميع، حتى أنا.. كنا نحب الجد إلى درجة العمى عما يسببه لها من أذى وألم مستمرين، كانت قسوة معاملته لها، وشدة كرهه لعزة نفسها وصلابتها، تستلب منها الحياة، كيعسوب نحل يمتص بوحشية رحيق زهرة لا

---

(1) "يا تيتة" : كلمة من أصل فرنسي بمعنى المرضع أو أصل الرضاع، تستعمل في الشام تعبيرًا عن المودة في مخاطبة الجدة، أو الحفيد بمعني "أنت عين جدتك".

(2) "رأيت النجوم في عز الظهر".. مثل شامي يدل على الاستحالة أو بالغ المعاناة والصعوبة.

ينتمي إلى دورة حياتها البيئية، كان الوجع يرتشف مقومات البقاء والاستمرار لديها، وكانت الشكوى وسيلتها الوحيدة للتشبث بالآخرين، يمنحونها بعض الشفقة وبعض التفهم، وبعض ساعدٍ تتكئ عليه كلما شارفت على السقوط.. هكذا كانت شكوى جدتي، مِرساة تُلْقيها في مياه الآخرين، أبنائها وأحفادها وأخواتها وأبناء أخواتها، تنشر بها أشرعتها، فلا هي تبحر، ولا هي تستطيع أن تأوي إلى مرافئهم.

لم يفكر أحد منا قط في حل، في أن يمد يد المساعدة الحقيقية، في أن يغير فعلاً تلك الحال المأسوية.. الكل يلقون بالتبعة عليها هي، نلوم الطرف المظلوم ونَتّهِمُه، الكل يصطف مع الطرف الظالم ويبرئه، لأنه صاحب الفضل والقوة والسلطة والرئاسة واليد الطولى، وليس مع المظلوم الضعيف المسحوق المُهَمَّش الذي يعيش أمام أنظار الجميع.. كما يعيش صرصار أبيض صغير يحتمي بزوايا الجدران توجسًا من الأقدام القادرة على سحقه في كل حين.

غربة.. غريبة ذات طعم غريب، كنت أتذوقها كلما الْتَقَت عيني بعينيّ جدتي المرهَقَتين المكلومتين، تحكيان حكايات الألم والوحدة وخيبة العمر الذي انقضى، وكلما جلستُ إلى جدي أجاذبه أطراف الحديث وأهاب التحديق في عينيه تلتمعان ببريق نشوة العلم.

غريبٌ وسط الناس، بعلمه الواسع، وفقهه المذهل، وعصاميته النادرة، وربانيته السابغة، وصفائه الرائق، وطهره وعطره، لكنه كان غريبًا كذلك ببعض أخلاقه غير الحميدة، شِدَّتُه البالغة، قسوته على زوجه وأولاده، كان يريد من أهله أن يفهموا عنه بسرعة فهم

داروين ونيوتن، ويتصرف وكأنه مازال يعيش في عصر "ابن قيّم الجوزية"، مع تطور هائل في التفكير يجعله متقدمًا حتى على أكبر المعاصرين من فلاسفة وفقهاء ومفكرين.. في حين أنه في وسط دمشق البعث والاشتراكية وحكم العسكر!

- أنت لا تفهمين، قلت لك أن تزيلي الدهن من الطعام، هذا مؤذ جدًّا، لا أظن أن من الصعب أن تقومي بإزالة الدهن عن وجه الطعام، إما أن تسخنيه وتزيليه، وإما أن تبرديه وتزيليه! أي جزء من هذين الأمرين يحتاج إلى الشرح المسهب؟ هل أحتاج أن أكرر هذا الكلام كل ساعة، وكل يوم؟ لا أريد هذا الطعام بهذا الدهن!

يصرخ في وجه الجدة، ويرتفع صوته دون أي مبرر حقيقي.

هذا الغضب الشديد منها ولأسباب لا يؤبه لها، لا يحمل إلا تفسيرًا يتعلق به هو، وليس بها هي، يتعلق بأسباب يخفيها الرجال في الأنفس، ولا يتجرؤون على البوح بها، لِتَخرُج كانفجارات البراكين بين الحين والحين، تبدو مزيجًا من الغضب واللؤم والظلم ونكران العشرة، لكنها في حقيقة الأمر لا تتعدى كونها تعبيرًا عن السأم والخيبة والخوف المرعب من الشيخوخة والعجز والنهاية.

غريبةٌ بين أهلها وناسها وفي بيت زوجها، هكذا كانت جدتي، غريبةٌ أنا في هذه الأسرة الحمصية-الدمشقية، التي جمعت الحسب والنسب المُغرِقين في ادِّعاء شرف ضائع، يوم ضاعت كل مكاسب الإقطاع في سورية، إلى شرف حقيقي تَعَلَّق بـــ "دار علوم الحديث" القائمة إلى جانب المسجد الأموي، وقبرَيّ نور الدين

وصلاح الدين، كان جدي أحد أعمدة "دار الحديث" ورجالاتها في زمن لم يعد فيه للعلم ولمثل "دار الحديث" هذه في دمشق أيّ قيمة، بين شعب يَعبُد المال والصوت[1] وسفاهات وسخافات وقشور الحياة، في مرحلة ما بعد الاستقلال، والتي وقفت فيها البلاد والعباد عن التطور والنمو والقدرة على صنع التاريخ، وبقينا هناك في مربع التفاخر بالأنساب، وأسماء العائلات الكبيرة المعروفة، عاجزين عن أن نتقدم قيد أنملة نحو المستقبل والحياة والعالم من حولنا، محصورين في أنسابنا التي نُعَظِّمُها، وشهادات أبنائنا الجامعية التي اقتصرت بشكل رئيسي على الطب والصيدلة والهندسة، وكأن لا علم ولا علوم في الدنيا إلا هذه، نتخبط في عفنٍ اجتماعي خانق، لا يكاد يفلت منه إلا القوي الشديد! حتى جاءنا "حزب البعث" بانقلاباته ودباباته ووحوشه الطائفية المتمنطقة[2] بمظلومياتها التاريخية المدّعاة، فسلب من الناس شرف أنسابهم، وشرف انتماءاتهم، وشرف وجودهم أحرارًا كراما! وبقيت القشور يتعلق بها الناس، يُقنِعون أنفسهم من خلالها أنهم "بخير".. وسيطر "البعث" على كل ما عدا ذلك في حياتنا.

تلك غربة عشتها، لامستها، استنشقت عبيرها المتميز وعرفت باكرًا طعم التميز بالانتماء إليها، بقيت تلك الغربة لي روحًا وحياة تنبض في عروقي خلال الثلاثة والعشرين عامًا التي عشتها في دمشق، كان جدي هو صديقي الصَدُوق، الذي لم أستطع نصرته بمَنْعِه عن ظلم جدتي إلا نادرًا، كنتُ.. كنا – كل الأسرة- مقتنعين تمامًا بأنها هي السبب في غضبه الدائب، وحُنقِه

(1) الصوت: الصيت والسمعة.

(2) تمنطق: شدّ وسطه بمنطقة،/المعجم الوسيط، منطق رأيه: أضفى عليه صفة المنطقية/ معجم المعاني الجامع الإلكتروني.

المستمر، وعدم رضاه ونفوره المتواصل منها، كان لدينا التباسٌ حقيقي في إدراكنا للعلاقة بين الظالم القادر على الفعل، والمظلوم العاجز عن رد الظلم عن نفسه.

كانت مسألةَ ظلمٍ بسيط غير مركَّب، ولا مُعَقَّدٍ تَعَقُّدَ العلاقة التي تجمعهما، ظلم تولُّد عن استحالة إيجاد حل لحياة مشتركة لشخصين غير متفاهمين البتة، بكل هذه البساطة، تولد كل ذلك الحجم من الألم.

لم نفهم -كل أفراد العائلة- حجم المعاناة التي كانت تعيشها جدتي إلا بعد أن رحلتْ.

وعلى الرغم من هذه الآصرة البالغة التعقيد التي كانت قائمة فيما بينهما، والتي كنا نرصدها وكأنها شيءٌ طبيعي في سياق طبيعة العلاقات العامة بين الرجال والنساء ضمن معظم الأسر الدمشقية، فلقد كنت أُكِنُّ لجدتي الشيء الكثير الكثير، من المودة والرحمة، وكان جدي بالنسبة إليّ الأب قبل أبي، وكان الأم بعد أمي، كان الثقة الوحيدة في حياتي، شعاع النور الاستثنائي في عالمي الدمشقي الكئيب ذاك.

بيت جدي.. كان واحة حياة وضياء في خضم ظلمات فترة الصراعات السياسية والفكرية التي كانت تعصف بسورية، وبهامشها حركة مقاومة إسلامية مسلحة مبهمة بالنسبة إلى الناس، لكنها، وعلى الرغم من ذلك، امتدت كالنار في الهشيم لتعُم معظم المناطق السورية، قابلها النظام بمجازر مُضمَرة، واعتقالات تعسفية شاملة، وتعذيب وبطش فظيع بالناس، وسط تلاطم أمواج عفنٍ اجتماعي ينذر بالطوفان، الذي ما لبث أن عمّ البلد بما فيها ومن فيها، طوفان مَهَّدَ لسقوط حضاري مُدَوٍّ، تَلَبّس به شعب كان

يحمل مِشعل الحضارة الإنسانية في العالم أكثر مرة خلال دورات التاريخ.

أعظم ما في ذلك الطوفان وأرهبه وأشده ترويعًا، أن أهله لا يَرون موجَهُ الطاغي، ولا يسمعون هديره العاتي، ولا يعترفون بتلبسهم به!

بيت جدي وجدتي ذاك.. كان جنتي في قلب جهنم.

***

تلك الدار الكبيرة الواسعة المترامية ذات الطبقتين والسقف القرميدي، بشرفتيها الكبيرتين الممتدتين، وغرفها المصطفة بالتوازي معهما، المفتوحة فيما بينها بأبواب خشبية ضخمة، تعزف كلما أغلقت أو فتحت موسيقاها الخاصة، تُنبئك بأن في ذلك البيت حياة.

بمكتبتها الثَرَّة الضخمة المتنوعة، الحافلة بالكتب الكبيرة والصغيرة والمتوسطة، القديم منها والحديث، الموسوعيّ والمختَصر، مضمخة كلها بعطر جدي ورائحته الأنيقة.. ما زال مسك عطره عالقًا في روحي، مكثتْ تلك الرائحة معي أعوامًا مديدة، أتحسس بقايا مِسْكِه ذاك بأناملي في رسائله القليلة إليّ، وأبحث عنها بين صفحات كتبه التي "استعرتها" من مكتبته، أملأ بأريجها جنبات نفسي الغريبة.

لم يضاهها أثر في حياتي إلا مكتبة دار أبي التي كانت تغطي معظم جدرانها –كذلك- بكُتبٍ تُصرٍّ أمي كل عام على تجديد تغليفها كلّها بورق "التجليد" الأزرق الأنيق الذي كان يستعمله تلاميذ المدارس في هاتيك الأيام، ومكتبة المركز الثقافي العربي

في حي أبي رمانة الدمشقي قريبًا من حي العفيف حيث نسكن، كنت أتردد عليها يوميًّا لاستعارة الكتب وقراءتها.

تلك ثلاث مكتبات، أولها زاخرة بكتب جدي الدينية الصفراء العتيقة التي تختزن أمهات العلم والأدب والمعرفة بالإسلام وتاريخه، والثانية مكتبة بيت أبي الحافلة بكل ما أنتجه الفكر الإنساني بالعربية وكل ما تمت ترجمته منه إلى العربية، خصوصًا من الإنتاج الفكري والأدبي الروسي، والثالثة مكتبة المركز الثقافي في حي أبي رمانة الدمشقي القريب من دارنا، والتي كانت تزدان بكل جديد وقديم من إصدارات وزارة ثقافةٍ اهتمت اهتمامًا هائلاً بترسيخ "القومية العربية" دينًا ماله ثانٍ، في بلد كانت المعرفة فيه من آخر اهتمامات عامة الناس الساعينَ ما بين "صَفَا" تَدَيّنٍ صوفيٍ بعيد عن القدرة على النهوض بالمجتمع، و"مَرْوَةِ" مجتمع يرسِف في أغلاله وعفنه!..

تلك المكتبات الثلاث شكّلت حدود وطن المعرفة الأول الـذي أنتسب إليه، فيه ابتُليت بـ"فرويد" ولمَّا أتجاوز الثانية عشرة من العمر، والتّهمت روائع "تولستوي"، كما "نجيب محفوظ" و"توفيق الحكيم"، وتعرفت فيه على "نابليون" و"ماري انطوانيت".. رافقتها إلى المِقصَلة، قبل أن تقتحم عليَّ أمي الغرفة، فتأخذ الكتاب وتمزقه ألف قطعة وتَرمي به من النافذة ليتناثر نَدْفًا من كلمات! كانت تلك هي المرة الأولى والوحيدة في حياتها التي مزّقَتْ فيها كتابًا، بعد أن حاولتْ أربع مرات منع ابنتها من قراءته ليلة أحدِ امتحانات شهادة الإعدادية! مزّقَته بعد أن أعيتها الحِيَل في حملي على الدراسة.. لكنني نجحت في ذلك العام وانتقلت إلى المرحلة الثانوية.

لا أحد يعرف كيف نجحت، ولا حتى أنا! لم أفتح كتابًا من الكتب المدرسية، ولم أدرس شيئًا يُذكر، كانت تلك المرحلة من

حياتي، بداية النهاية لعلاقتي الغريبة بالدراسة المنتظمة والمناهج الرسمية.

كل من حولنا.. مصرٌّ على أنني نجحت "بالواسطة"! في امتحانات الشهادة المتوسطة، التي يدعوها الناس بشهادة "الكفاءة"، التي كانت شهادة رسمية معتبرة ومهمة في ذلك الحين، اتّهمنا الجميع بأنني نجحت بالواسطة! وأنا التي حبسَتني المراقِبات في قاعة الامتحان عندما هممت بتسليم ورقتي، وطلبن مني أن أبقى لأساعد مجموعة من الطالبات كبيرات السن القادمات من القرى البعيـــدة لتقديم الامتحان، لم أخرج من قاعة الامتحان إلا بعد أن ساعدتهنّ جميعهن في كتابة موضوع الإنشاء، كتبت خمسة موضوعات إنشاء في ذلك الضحى في قاعة الامتحان!.. هنالك اتُّهِمت من قِبَل كل من رأى الحادثة عبر نوافذ القاعة، بأنني أنا من كنت موضع المساعدة!

اتهاماتٌ شامية بامتياز، رافقتني في كل مراحل دراستي التي فشلت في إنهائها رسميًّا، بل رافقتني إلى مدريد ومع أولادي في مدارسهم الإسبانية والعربية!

خُلُقٌ شاميٌّ بامتياز.. فحتى لو حاز أحدهم الدنيا بحذافيرها، تضيق عينه عليك، ويقوم بجميع المحاولات اللازمة والضرورية لنزع البساط من تحت أقدام كل من يتميز عنه في أي شيء يتمتع به غيره ولا يملكه هو، أو لا يستطيع تحقيقه، حتى لو لم يكن من اختصاصه أصلاً، ولا مما عرف عنه من اهتمامات.

أن تكون متميزًا بأي شيء بين أهل الشام، ولا تُصَعِّر به خَدّك للناس.. فهذا يعني أنك أصبحت عرضة للأذى المجاني غير المبرر من الجميع، وفي جميع المناسبات.

أن تكون صاحب موهبة، فهذا يقتضي أنك مختلف، وأنك – مع كامل الاحترام لكل ذوي الاحتياجات الخاصة – من "ذوي الاحتياجات الخاصة جدًّا"! وهذا بدوره يعني أن من حق الجميع إعلان الحرب عليك، واتخاذك عدوًّا لهم، وتهديدًا حقيقيًّا لوجودهم مدقِع الفقر بحدوده المعرفية والثقافية والاجتماعية والأخلاقية.

بيت جدي ذاك بأثاثه العتيق، شديد التواضع، كان مثار الشجارات العنيفة بين جدي وجدتي التي تريد أن يكون لها دارٌ كدُوَرِ معظم علماء دمشق، حديثة زاهية متأنقة، تزدان بالأثاث والطنافس والستائر التي تتحرك بمحرك آلي عن بُعد، وأحدث الأدوات الكهربائية، وكل ما يمكن أن يدل على أن هذا بيت طبيبٍ من أوائل الأطباء الذين عرفتهم سورية في تاريخها الحديث، رجلٌ كبير وعالِمٌ مرموق وأستاذ في دار الحديث، يعرفه القاصي والداني، كانت تعتقد أن بيته يجب أن يكون دارًا حديثة، تستطيع أن تستقبل فيها نساء وُجَهاء القوم، ولا تشعر بالخجل وهُنّ يَجُلْن بنظراتهن المتفحصة الغامضة المُريبة المتحرّشة المتَّهِمة، في جدران الدار المرصوفة بالكتب الصفراء، وسُقُف غرفها التي تصطف فيها عُمد الخشب غير المُعالَج، طبيعيٌ وحشيٌ مذهل، وألوان زجاج شبابيكها العجيبة الرائعة الجمال المتداخلة بالخشب المنقوش كأعشاش العصافير المتناهية في الصِغر، الهاربة من حكاية صينية قديمة.

جدتي، بسنوات عمرها التي تجاوزت الستين، وقامتها المتناسقة الفائقة الجمال، ووجهها ذي القسمات اللطيفة المليحة الناعمة، ونظافتها وترتيبها، وعينيها العسليتين الصغيرتين اللتين أرهقهما البكاء والقهر وعذابات روحها القلقة، كانت تعرف أنها جميلة جدًّا، وأن أحدًا لا يدغدغ عواطفها ويرضي حاجتها إلى امتداح جمالها، كَسَرَتْها الأيام، وتركتها لوحة بهية ذابلة الألوان،

ما كان يضر ذلك الجد لو أكرمها بكلمتين تشعر معهما بالرضى والسعادة؟ لكنه لم يكن يستطيع ذلك، كان عاجزًا عن الاحتفاء بامرأته، ولم يكن جمالها يعني له أي شيء.

في واقع الحال.. الجمال وحده عادة لا يكفي، إنه فعل جذب ناقص، لا يعني كثيرًا للرجال ولا للنساء، ما لم تتممه أشياء أخرى تجمع بين الزوجين، تساعد على وضع أسس العِمارة بينهما.

حفاوة الرجل بامرأته في واقع الحال، ليست إلا مهارة خاصة بالرجل نفسه، وبطبيعة نشأته وحياته وتجاربه، لا تتعلق دائمًا بصفات المرأة وملكاتها ومواهبها.

حياتهما معًا شبه مستحيلة، والطلاق أكثر من مستحيل، هكذا هي الأحوال في الشام، استنسخنا من "الغرب" فلسفتهم الكنسية عن الزواج، لكن التزامنا بديننا يجعل غالبيتنا تأنف مما يأتونه بحثًا عن السعادة.

بقيت الحياة الزوجية في كثير من بيوت أهل الشام حبيسة العرف والعادات والعيب وماذا سيقوله عنا الناس، على الرغم من أننا أهل ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾[1].

الحديث عن جمال جدتي، ومقارنته الدائمة بما تدعوه "قبح" كنائنها الثلاث المُعَلِّمات، كونهن "مشوَّهات" من أصول ألبانية وإفريقية –كما كانت تقول– كان ذلك شغلها الشاغل، والسبب الرئيسي في بعض نفورنا منها، وعدم تعاطفنا مع معاناتها.. ولطالما سمعتها تردد: "يا حسرتي عليكم يا تيتة طلعتوا متل أمهاتكم"! لو وُلِدْتِم مثلي لكان خيرًا لكم!".

(1) سورة النساء: الآية 130.

– وهل أفادك شيئًا يا تيتة كونك فائقة الجمال؟ الجمال كجمال لا يجلب السعادة لا للرجل ولا للمرأة!

– أنت مثل أمك.. لسانك طويل!

– يا تيتة.. الجمال لا يعني أي شيء للمرأة في الواقع، إنه يساعد على إزعاج الآخرين لها، وقد يجمع الذباب من حولها في بعض الأحيان.

– يا لطيف على هذا الكلام؟ الجمال أهم شي، وامرأة غير جميلة، هي امرأة مشحرة!

– يا تيتة.. أعرف امرأة جميلة جدًّا، لم يسعفها جمالها في إزالة الهباب[1] عن حياتها.

فتدمع عينيها وتردد بمشاعر تفيض مظلومية: أنا حظي مشحر ياتيتة.. أنا حظي مشحر.

ثم تستدرك مباشرة فتقول: أمك حظها مثل الشمس، شوفي[2] شو بشعة، وشوفي أبوك كم يحبها؟

– يا تيتة أمي بشعة؟ الله يسامحك يا تيتة، إن لديها من الصفات الرائعة ما يجعلها شمسًا في حياتنا، عدا عن أنني أعدّها أجمل امرأة رأيتها في حياتي –من بعدك طبعًا– إنها تشبه شادية[3].

فتشهق الجدة، وتضرب صدرها بيدها، وتقول وهي في حالة ذعر واستهجان:

---

(1) الهباب: جزيئات سوداء متبقِّية من الإحراق غير التّامّ للفحْم أو النّفط أو الخشب/ قاموس المعاني الجامع الإلكتروني.

(2) انظري.

(3) "شادية" ممثلة ومغنية مصرية كانت مشهورة جدًّا في النصف الثاني من القرن العشرين.

– أعوذ بالله.. ماذا تقولين؟ تشبه شادية؟ أمك قصيرة، وأنفها كبير!

– يا تيتة.. وشادية قصيرة، ثم ألست أنت التي خطبتها لأبي؟

– خطبتها وانعمى على قلبي لأنها دارسة، وكان أبوك يريد معلمة مثله.

– يا تيتة أنت جميلة، وأمي جميلة.. ولا توجد امرأة قبيحة، لكن بعض الرجال عميان.

وتسكت على مضض، وتمسح على رأسي، وهي تسكب لي الحليب، وتملأ الفنجان الكبير بقطع الكعك الجاف الذي كانت تحبه كثيرًا، وكان أبي يأتيها به بين الحين والحين، وكانت تخصني بهذه الأكلة الاستثنائية بالنسبة إليها، وتقول: هذه أكلة تركية يأكلها الأمراء في فطورهم وعصرونيتهم!

وأضحك وأمازحها، وأقول لها: والله يا تيتة أراها أكلة فرنسية، تركها الاستعمار لنا ذكرى.

وتتأفف من إقحامي للأمور ببعضها، وتقول لي: كُلي كُلي، الله يعين ذاك الذي ستتزوجينه!

ثم تستطرد: ولكن لا بأس، يجب أن تقولي لي ما الهدية التي تريدينها مني في عرسك، لقد ادخرت مبلغًا خاصًّا من أجل ذلك؟

– يا تيتة.. أي عرس هذا، ومن قال لك إنني أريد أن أتزوج، ثم إن العريس لم يأت بعد!

– لا عليك سيأتي.. أنت بنت عائلة كبيرة، من جهتي ومن جهة جدك!.

– يا تيتة.. وأين ذهبت أمي؟

– لا.. لا، هذه أمك شامية تركية لا دخل لها بنا.. نحن الحماصنة أهل الحسب والنسب.

– يا تيتة.. أنا نصفي شامي، ونصفي حمصي!.

– لا .. أنت ابنة أبيك فقط!

– يا تيتة.. أنت تنسبينني إليك في هذه المقارنة؟ ما هذا الظلم؟

– اسكُتي وكُلي، هل تقارنين دار أبي وعائلتنا بأهل الشام؟ كُلي كُلي واشربي الحليب لعلك تزدادين طولاً، فحالتك صعبة مثل أمك!.. سأعطيك من تشوكولا "ديانا"، أحضر لي عمك علبة من بيروت، وخبأت لك حصتك، أنت حبة عيني.. بس يا لطيف كم تحبين المشاكل والكلام الطالع النازل؟

وأضحك، وآكل.. وأسكت، خوف أن أضيع تشوكولا ديانا الرائعة المذاق.

***

كانت تريد بيتًا يحوي أسباب الراحة والدفء والطمأنينة، وكانت تعتقد أن ذلك من حقها.. وكان ذلك من حقها، وكان في استطاعة زوجها أن يفعل، لكنه لم يفعل، كان يكره تلك الدُور ويلفظها، ويقول إنه لا يرى فيها دور أهل العلم، بل دور السُّمعة والرياء! أراد أن يعيش زاهدًا، يخالف كل الناس ويختلف عنهم، يملك الدنيا في يده وليس في قلبه.. وقد فعل.

لكنه قبل الزهد، أراد أن يعيش حرًّا، يعيش كما يشاء، ويفعل ما يشاء، وليس لأحد أن يتدخل في طريقة حياته، كان صقرًا يحلّق في الأعالي، ولا يتحرَّج من السقوط الشائن بعض

المرات، في مياه بعض المستنقعات، ومن ثم النهوض والقيام والخروج منها واستئناف مسيرِهِ، لا يهمه الناس، لا وجودهم، ولا رأيهم، إنه حر.. غريب، حتى عن أقرب المقربين إليه.

لم يخطب ودَّ أحد، ولم يكن في حاجة إلى ذلك.. لم يستَجْدِ أحدًا، وبذل كل جهد ممكن ليكون ذلك الصقر، الذي يموت وحيدًا، كما عاش دائمًا وحيدًا، على الرغم من تدافع الناس لدى باب بيته.

عندما وقع ذات فجر وهو يتوضأ، قبل سنوات من مغادرتي دمشق، انكسر حوضه، وأصبح عاجزًا عن الحركة، أرسل إليه مفتي البلاد "أحمد كفتارو" سريرًا طبيًّا من أحدث الأسرّة التي تُستعمل للمُقعدين، جلبه خصيصًا له!

نصب الشباب السرير تحت مراقبته، استغرقوا يومًا في معالجته وتركيبه وإعداده، راح يتأمله طويلاً.. ثم سمح لهم بنقله إليه، حملوه حتى اضطجع فيه، وصار يتململ، قال لي بعد أن خرجوا: كأنني أرقد على الشوك يا جدو.

في اليوم التالي، اتصل بكفتارو، وشكره.. ثم قال له: ارسل تلاميذك لأخذ السرير.

وهكذا كان.

تصل المشاجرات بين جدي وجدتي أحيانًا حافة الطلاق "المستحيل"، في كل مرة يُفتح فيها ملف الدار وأوضاعها، هو حانقٌ غاضب، وهي عزيزة النفس تأبى الاستكانة، هو عنيد صعب المراس، وهي لا تقنع بواقعها ولا تريد أن ترضى.. وتظن أن الخلاص قريب لا محالة:

– أرأيتَ أحداً في كل دمشق يطبخ في مطبخ حجري؟

– نحن لا نقلِّد الناس!

– أنا لا أقول لكَ أن نقلد الناس، أريد أن أرتاح فحسب.

– عقود وأنت تعملين في هذا المطبخ ألم تتعوّدي عليه؟ لن أغير المطبخ! ولن أنفق قرشاً واحداً على تغيير شيء في هذا البيت.. أنا أحبه هكذا، وأريده هكذا!

– لكنك لا تعيش فيه وحدك، ولا تضطر إلى احتمال نظرات نساء المشايخ، واحتقارهن لبيتنا ولطريقة حياتنا.

– سبحان الله.. نساء المشايخ؟! من يحتقر الناس بسبب البيت الذي يسكنونه، هو المُحْتَقَر الرخيص، سيُسألن هُنّ ومشايخهن عن هذه الأخلاق الدنيئة!.

وتقول كسيرة: كل الناس يُقَيِّمون بعضهم بعضاً بوضع البيت الذي يسكنونه.

يتمتم: أعوذ بالله من هذه الخِسّة.. أعوذ بالله من قوم همُّهم الحيطان والسجاد والستائر.. علينا نحن أن نتهمهم ونسألهم من أين لهم هذا؟ ومن أين جاؤوا بكل هذه الأموال ليعيشوا تلك الحياة الغربية الغريبة الآسنة!

ترضى جدتي بهذه الأوصاف التي تنطبق تماماً على أولئك القوم الذين يترفعون على الناس بالأسمال، وتشعر بنشوة الاعتزاز بالكفاف والعفاف، وتنتهز الفرصة، فتستأنف:

– أنا ما عدت أستطيع العمل في هكذا مطبخ.

– ولذلك جئناك بخادمتين.

وتغمغم الجدة، وكلنا نسمعها، إلا الجدّ.. أو لعله لا يريد أن ينصت: جئتَ بهما لتقوما بخدمتك وتستغني عن خدماتي

تمامًا، وتتسلى بصحبتهما والحديث إليهما والشجارات معهما والاستماع منهما عن حكايات الضيعات وأهلها وما يجري فيها!

تتسلل "منى" و"حورية" من المجلس خارجتين، اتّقاءً لنشوب معركة، بينما ننظر إلى الجدة متوسلين إليها السكوت، فحكاية الخادمات في هذا البيت حكاية أخرى، ذات شجون وذكريات لا تقل استثنائية عن حكايات زوار هذا البيت من "كبار" القوم، كما حكايات الجدران والمجلى والأدراج الخشبية وأشجار السرو والياسمينة المتوحشة العشوائية التي تستقبلك لدى دخولك هذا العالم "الداخلي" السِحري السَّحَري المُنْبَتّ عن "دمشق الخارج"، الغارقة في دوامات السياسة والفكر والثورة والاستكانة والانقلابات والوجاهات والصراعات ما بين "كبار" القوم و"صِغَارِهم".. وما بين "دواخلهم"، و"مظاهرهم" الخارجية.

وتسكت جدتي على أمل استئناف معاركها، لم تفارقها الرغبة في خوضها، منذ عرفتها إلى أن ماتت قبل موت جدي بعشرة أعوام، في تلك الدار التي بقيت خمسين عامًا على حالها.

تلك كانت دار جدي، بمطبخَيْها الحجريَّين، بحماماتها المغرقة في البدائية، بكل تفاصيلها المخيفة الرائعة الخلابة الصعبة المُنْهِكة، بجدرانها الإسمنتية التي كان جدي يرفض طلاءها، بأسقفها الخشبية الفائقة التنسيق المُغْرِقة في القِدَم، كان يريدها أن تبقى على تلك الحال لا زخرفة ولا تزييف، بفسيفساء زجاجها المزركشة الملونة، تتراقص مع ألوانها أشعة الضوء صبحًا وعشية، مُشَكِّلة سيمفونية سحرية تسكب ألحانها الصامتة في تلك السكينة تُحْيي الأرواح، منذ أزمان لم تتبدل، وما كان يريد.. وما كنت أريد لها أن تتبدل!

خيانة عظمى.. كانت رغبتي الدفينة تلك التي لم أَبُح بها قط، خيانة لآلام جدتي وتطلعاتها نحو التغيير الذي لم يأت قطّ!

***

ذلك البيت كان وطني، في زمنٍ كان لِمَعنى الوطنِ فيه روحٌ تسري، في فراغِ ضياعِ التَّصور الحقيقي عن "البلد" التي تُعطي وتمنح وتحمي وتَخدُم وتُكرم وتَضُم وتلم أبناءها، كان الوطن في أذهاننا محصوراً بين نشيد "حماة الديار"، والدبابات التي كانت تجوب شوارع دمشق بين الحين والحين معلنة الانقلاب العسكري بعد الانقلاب العسكري، وبين الشقاق العنيف الذي كان يتعمق في لحمة مجتمع يتمزق، بين عاداته وتقاليده البالية التي تجهض البلد وتخنق الإنسان، وآخرين من أبنائه يريدون أن يَنْفُضُوا عن أنفسهم غبار الماضي، بالانطلاق نحو كل ما هو أجنبي وغريب، شرقيًّا كان أم غربيًّا، أصبح كل ما يأتي من "الخارج" محل تطلع وانبهار وإعجاب، حتى لو جاء من البيرو ونيكاراغوا اللتان تعانيان من التخلف وسوء التنمية، أما مع الحالة الأوروبية فهو يصل حدّ "النُّسُك"!

تقول أم خلدون في جلسة نسائية وهي تتباهى بمعطفها وفروته الضخمة: إنه من فرنسة!

وتجيب جارتنا فهمية خانم: ابني أراد أن يشتري لي واحداً عندما أخذني لزيارته في فرنسة، لكنني منعته، يكفيه تعبه في عملية أصابع قدميّ!

وتنبري ثالثة: والله ابنتي المتزوجة في ألمانيا أرسلت لي هدية في رأس السنة هي هذا الطقم الصوفي الذي ألبسه، يا جماعة غير غير.. ألمانيا غير!

تلتفت أم محمد الفلسطينية السورية لتحدثنا هي الأخرى عن تجربتها في التفاخر بشيء تنتسب فيه إلى الغرب فتقول: الحمد لله أولادي تخرجوا وأنهوا دراستهم وزوجناهم من أرفع العائلات، الكبير من دار الفرَّا من وسط القدس، والثاني تزوج قريبة المفتي الحسيني، والثالث ما شاء الله عليه تزوج روسيّة!

كثيرون كانوا يعيشون في الشام هلوسات الاستيقاظ بتبعية مَرَضية للمستعمر، يُوهمون أنفسهم بأنهم مثله، استأبّوه[1] وهو لهم منكر، مِنهُم نافر، يحاكونه في غلافه الخارجي الماديّ، كلما ازدادوا عبودية له ازدادوا انفصالاً عن واقعهم الذي يعيشونه، كان تَحَضُّرهم وتمدُّنهم ينحصر في مظاهر يتشبهون فيها بالأسياد، ولاشيء غير هذا.

شريحة أخرى من الشعب السوري كانت تعيش وهي تحلم بعودة الخلافة وحكم صلاح الدين الأيوبي، واستعادة الأمجاد بأعمال مضطربة خطيرة هوجاء، لا تعيد خلافة ولا تصنع صلاحًا للدين ولا تبني أمجادًا، في منطقة تمور بالصراعات السياسية والظلم والاستبداد، بينما كانت الفئة التي استولت على البلاد عن طريق آخر الانقلابات العسكرية فيها، تمضي في خططها في صمت ودهاء وخبث، مختطفة البلد بما فيها ومن فيها، لإرغامها على الدخول في عبودية طائفية رهيبة مموهة بادّعاءات القومية والوحدة العربية وركوب موجات الدفاع عن القضية الفلسطينية.

وإذا كان بإمكان "آل الأسد" الذين سيطروا على مقاليد الأمور، ابتلاع سورية بأكملها، فلِمَ يرضون بمنطقة ساحلية صغيرة فيها؟.. ربما كان هذا هو الوعد "الروسي– الفرنسي" التالي لتقسيمات

---

(1) **اسْتَأَبَّ فلانا**: اتخذه أبًا، وانتسب إليه / معجم المعاني الجامع الإلكتروني.

"سايكس–بيكوت" التي كسرت الوحدة الجغرافية لبلاد الشام، فبترتها عضواً عضواً، وتركتها جميعها مرمية في مستنقعات التبعية لمستعمِرِين مختلفين، تعيش واقع التجزئة والتقطيع وتكريس حدود الأوطان – القُطرية الصغيرة العاجزة المنبتة عن هويتها الأصلية وجغرافيتها الحقيقية.

وبدلاً من أن تُقسَم سورية خمس دويلات كما كانت تقترح فرنسة على الأقليات، حوّلتها روسية برّمتها وبكل جغرافيتها وبجميع سكانها إلى مزرعة خاصة لآل الأسد، الذين وَعَدوا بأن يكونوا خدمًا مخلصين للمستعمرين شرقهم وغربهم معًا!

لم يستوعب الناس – إلا القلة منهم– في حينه هذا الوضع المؤلم الذي فُرِض عليهم، في غيبة منهم بينما كانوا منهمكين بخوض معاركهم الفكرية والثقافية والاجتماعية.. بين اليمين واليسار، بين الحداثة والأصولية، بين دعوات الإصلاح التدريجي ودعوات القتال المسلح، لم يقم السوريون بواجبهم في التجمع والتكتل ونسيان خلافاتهم لإيقاف إحداث المزيد من التفتيت في وجودهم الوطني والجغرافي، ولا بذلوا الجهود اللازمة الجادّة للخلاص من تلك الوحوش التي كانت تتربص بهم الدوائر، لم يتمكنوا من النمو وتجاوز أنفسهم وأمراضها.

لم يصنعوا طبقة سياسية قادرة على قيادة البلاد، لم يسمحوا هم أنفسهم لأنفسهم بولادة هذه القيادة.. كانوا كلهم قيادات وزعماء، وكانوا يستكبرون على الحق، ويسحبون البساط من تحت أقدام كل من تُسَول له نفسه أن يبدأ المسير.

لم يقلدوا المستعمر إلا في القشور، ولم يأخذوا عنه إلا سفاسف الأمور، لم يتعلموا منه أي شيء يفيدهم وينهض بهم ويبني مستقبل بلادهم وإنسانهم.

بدا أمرًا مقضيًّا . . أن تعيش سورية كل هذا القدر من الإجحاف والعَسْف، يتماشى مع ارتكاس الناس إلى الأرض، وانسلاخهم من إنسانيتهم شيئًا فشيئًا، وتركِهِم الغيلان تتمدد في وجودهم، دون أن يتمكنوا من الارتفاع إلى مستوى الكارثة الوافدة.

هكذا كانت بداية السقوط الكبير.

الشام تغلي، وتصرفات المجرم الأرعن "رفعت الأسد" أخي الرئيس السوري في الشام قد بلغت حدًّا جعل الناس يتطلعون إلى الخلاص، فلما اندلعت ثورة إسلامية مسلحة ضد "حكم البعث" وطغيان مُخْتَطِفيه، في جسر الشغور وحلب وحماة وأدلب، اصطف معها كل من علم بها من شباب سورية، في حين أن الكبار نأوا بأنفسهم عما يجري، التصقوا بحيطان الجبن، يَدْعون بالستر وأن يكفيهم الله شر الفِتن، وتركوا حوارات الشباب مع قوى الأمن تدور بالدم والنار والرصاص، لم يدفع ذلك رجال الحل والعقد للاجتماع ومحاولة الإمساك بزمام الأمور، بعد أن أخرج النظام معظم الشخصيات الإسلامية خارج القُطْر، وأودع من تبقى من إسلاميين ثائرين، وشيوعيين معارضين، وغيرهم من مختلف الانتماءات السياسية والفكرية والدينية سجونه الجهنمية، يذيقهم فيها طعم العذاب الذي يُراد لهم من خلاله أن يتخلوا عن مواقع قيادة المجتمع والتفكير في تغيير نظام الحكم.

لا الشباب كانوا يثقون بأحد أو يستمعون إليه، ولا الكبار عرفوا كيف يتواصلون مع الشباب ويخلصون لهم النصيحة والعون.

بدأ الناس يبتاعون الأسلحة للدفاع عن أنفسهم، وانتشرت في البلد قناعات بأننا يجب ألّا نسلمهم أنفسنا أحياء، كانت حكايات الرعب تستولي على الجميع، وفظاعات الاغتصاب أصبحت هاجسًا مزلزلاً في كل البيوت.

ما زال صوت الرصاص يَئِزُّ ويَئِنُّ في أذنيّ بعد عشرة أعوام.. ما زلت أسمع ضجيج معركة "أيمن" جارنا، ست ساعات وحده، يدافع عن نفسه ضد المصفحات وكتائب القتلة التي كانت تحاصر الحي، استشهد أيمن ولم يسلمهم نفسه، استشهد بعد أن دُكّ البناء دكًا بالرصاص.. الجيران يقولون إنه قُتِل، وأنا أُصر على أنه استشهد، قتال هذه الوحوش الضارية كان عملاً بطوليًّا خارقًا من وجهة نظر الشباب الغض.. أمي مريضة بالخوف، تبكي وتبتهل وتناجي ربها دون توقف منذ بدأت المعركة ضحى ذلك اليوم، أبي بأعوامه التي ناهزت الستين يُصر على أن حمل السلاح جريمة، ومخالفة للدين والعقل والمنطق، وأن ما يفعله هؤلاء الشباب جنون مطبق، وأنا.. بعقلية العشرين لا أفهم هذا الخوف وهذا الجبن وهذا السكوت على الظلم والاستبداد، وعلى استعبادنا بهذه الطريقة الفظيعة من قبل البعث ومن ركبه من الطائفيين المجرمين.

هل أخطأ الثوار في تلك الأيام في حمل السلاح؟ هل كانت ثورتهم خارجَ الزمان والمكان؟ هل كان عليهم أن يصمتوا إلى الأبد؟ هل قصّروا في الإعداد والاستعداد؟ أكانوا منسلخين من واقعهم ومجتمعهم ولم يفهموا ما يجري حولهم؟

كل شيء يبدو ضبابيًّا، غامضًا، غريبًا، بعيدًا، على الرغم من أنه أقرب إلينا من حبل الوريد الذي ينبض ترقبًا وذعرًا، ورائحة البارود والتوجس والموت، تتمدد في كل حي ومدينة وقرية في أرجاء هذا الوطن المكروب.

استشهد أيمن جارنا، انتهت المعركة بين جيش من الفجرة مدججين بأسلحتهم، ورجل واحد لا يتجاوز عمره اثنين وعشرين عامًا، شحطوا[1] جسده خارج البناء، رموه في إحدى سياراتهم

(1) شَحَّطَ القَتِيلَ فِي دَمِهِ: جَعَلَهُ يَضْطَرِبُ فِيهِ وَيَتَخَبَّطُ/معجم المعاني الجامع الإلكتروني.

ومضوا به.. وبقيت آثار المعركة في كل مكان!.

لم يساعد أيمن أحد، لم يقف معه أحد، لم يتدخل أحد، لم ينبس أحد ببنت شفة، لم يذهب أحدٌ لتفقد أمه بعد مرور أكثر من اثنتي عشرة ساعة على "الحادثة".. **الحارة تبدو مقفرة يَصْفِر فيها الصمت والهوان والخذلان والرعب والدناءة والضياع والأنانية والذل وفوح الدم. . كأن أهلها قد ماتوا جميعًا مع أيمن.**

لقد ماتوا!

ذهبتُ حاملة معي قنينة حليب وخبز وثلاث إجاصات صفراء وعلبة جبنة البقرة الضاحكة.. كنت أريد أن أذهب، أن أسأل عن أم أيمن، كان ذلك أقل الواجب في أعناقنا وفاءً لدم الشهيد.. أعددت الجواب في حال الاستجواب: "أتيت لجارتي الثكلى هذه ببعض الطعام"!.. ربما مطمئنة إلى استجابة الله لتضرع أمي أن يحمينا من الفجَّار والكفَّار والحكام والظُّلّام وأولاد الحرام، ومن دون مزيد من التفكير بالأمر.. ذهبت.

كان باب البناء مفتوحًا، كل شيء فيه ساكن ساكت، لا حياة ولا حركة، إلا الخوف، صعدت ذلك الدرج المصبوغ بدم أيمن، جدرانه مُسْوَدّة مَرشوشة بآثار الرصاص والقنابل.. حاذرت أن أدوس ذلك الدم المقدس الطاهر ذا الرائحة العطرية العجيبة، رائحة المسك كانت تعبق في المكان، كانت رائحة مسك حقيقية.. لم تكن اختراعًا ذُهانيًّا، ولم تكن حالة من الهستيريا كما قال أبي!

كان الباب مفتوحًا، وكانت أم أيمن جالسة في الصالة الكبيرة المزروعة كل أركانها وجدرانها بالرصاص، وكأنها ثقوب سقف سوق الحميدية التي تتمدد عبرها حُزم الضوء كالأنجُم.. لا أدري

كيف صمدت "الثريا" المعلقة في السقف فلم تقع، على الرغم من تكسر كل أجزاء بلورها التي لا تقل عن مئة قطعة.

شَعْر أم أيمن الذي غزاه الشيب منكوش منفوش، ملموم بعضه بحجاب صغير أبيض منقوش بخطوط زرقاء، بدا وكأنه محاولة لكبح جماح شعرٍ يريد أن يُعَبِّر وحده عما يجيش في صدر تلك المرأة.

عيناها تكادا أن تخرجا من محجريهما، تبدُوان كجمرتي نار من وراء عدَستي نظارتها، توقفت في منتصف الطريق وهي ماضية نحو أرنبة أنفها الأحمر المتورم، اتكأت بجسدها الضخم كله وبيد واحدة فقط إلى طرف كرسي وضعته أمامها، بدت متأهبة لاستئناف معركة.. جالسة كثور ذبيح لم تغادر روحه جسده بعد، تتردد أنفاسها محشرجة في صدرها، تنظر إلى الباب المفتوح منذ ساعات، منذ أن سحبوا جسد ابنها خارج البيت.. لم تتحرك من مكانها، ولم تنظر إليّ، وضعتُ كيس الطعام أرضًا، وجلستُ جانبًا دون أن أنبس بكلمة، نسيت إن كنت في تلك الساعة أبكي، أم كنت من رهبة الموقف قد أصبت بالتوحّد!

بعد وقت بدا لي دهرًا.. التفتتْ إلي وقالت في سخط شديد: ما الذي أتى بك؟ مالك خايفة؟ ما كل الناس خايفين؟ ليش إنتي مالك خايفة؟ كل الجيران مرعوبين؟.. ألا ترين أن البناء خاوٍ، وأن الجميع قد غادروا؟

قلت لها: جئتك ببعض الطعام يا خالة.

نظرت إليَّ نظرة فارغة، وقالت: أنت شيخة كمان مثله؟ "شقفة شيخة"! مشايخ "معاويص"(1) أغبياء، لك تضربوا أنتو والمشيخة تبعكم!

---

(1) عَاصَت الْمُشْكِلَةُ: امْتَنَعَ حَلُّهَا، خَفِيَ.
عاص الكلامُ: صَعُبَ فهمُه، خفِي معناه / معجم المعاني الجامع الإلكتروني.

صمتتْ طويلاً وهي تنظر إلى الباب المفتوح كأنها تنتظر عودة ابنها.. ثم وبعد وقت بدا لي دهرًا، ومن دون أن تلتفت إليَّ، قالت: لقد قتلوه.. قتلوه ولم ينجده أحد!

لكنها استطردت: قاتَلهم ولم يلتفت لعويلي ورجائي وأنا مختبئة تحت طاولة المطبخ، من أين أتى ابني بالقنابل والمسدسات؟ ابني دكتور الأسنان، كان مسلحًا وأنا لا أدري؟ أنا معه في البيت ولا أدري!

وفي تحدٍ وحنق وسخرية أضافت: حملتم السلاح لقتال الحيوانات التي تحكمنا، أتظنون أن في مقدوركم هزيمتهم، "أسلمتِ يا فارة، لا زادوا المسلمين، ولا نقصوا النصارى"[1].. هذه "آخرة" ذهابه ورواحه إلى المساجد لصلاة الصبح والعشاء! تعلم هناك أن يقتل ويقتل!

تمتمتُ موشوشة: تَعَلَّمَ هناك ألّا يسكت على الضيم، لم يتركوا لنا خيارًا آخر يا خالة، ذبحونا وحرقوا أنفاسنا.. لم يَقتل ابنك أحدًا، لم يفعل إلا أن دافع عن نفسه، ولم يَسمح لهم باعتقاله حيًّا، كان يدافع عن نفسه يا خالة.

نشجتْ[2] وهي تختنق بالألم.. ولكن لم يرف لها جفن، وكأنها لم تسمع ما قُلت، بقيت هناك على حالها تهدر أنفاسها في صدرها كنهرٍ يتأهب للانكسار عبر شاهق ليتدفق كشلال، وهي تردد: قتلوه.. ولم ينجده أحد!

***

---

(1) مثل شامي مفاده أن لا فائدة من خياراتك.

(2) **نشج الباكي**: غص بالبكاء من غير انتحاب/ معجم المعاني الجامع الإلكتروني.

بعْنا دار جدك"!..

جاءتني رسالة من دمشق بذلك الخبر الذي كان مفجعًا، بالضبط كما كان خبر موت جدي قبل ذلك بعام، في تلك الرسالة كان الإعلان النهائي للقطيعة بيني وبين ذلك "الوطن"، لم يعد لي في دمشق –ما عدا أمي وأبي– أي شيء يستحق أن أفكر في زيارة دمشق من أجله! لم يكن الأمر، أنني لا "أستطيع"، ولا يمكنني مجرد التفكير في زيارة دمشق، زينتُ الأمر بيني وبين نفسي وكأنني لا "أريد"! كأنه.. كأنه قرارٌ انتقامي شخصي اتخذته من عند نفسي! كأنني أنا صاحبة القرارات فيما يتعلق بكل تفاصيل حياتي! وكأن امرأة دمشقية يمكنها أن تقرر وتعزم، في زمن بدا فيه كل شعبها عاجزًا عن اتخاذ أي خيار يدفع نحو الاتجاه الصحيح للأمور!.. كأن أمي لم تكتب لي ألفيّ رسالة تُصر فيها على عدم عودتي إلى دمشق، وعشرة آلاف أخرى تطلب إلي فيها مستعطفة أن أتوقف عن الكتابة إكراما لخاطرها المكسور، ولأنها لا هي ولا أبي –كما قالا– يحتملان لا الاعتقال ولا التعذيب ولا البهدلة!

اختلطت حكايات أمي في رأسي، ما عدت أعرف أيها كان حقيقيًّا وأيها كان اختراعًا لمنعي من زيارة دمشق خوفًا عَلَي.

الأم الخائفة يمكنها أن تفعل أي شيء لحماية أبنائها..

قالت إن "الوحوش" قد زاروهم في البيت يسألون عني، وأنهم أكدوا لهم، أنهم سيفرمون يدي بفرامة اللحم، بسبب كتاب كنت قد كتبته حين كنت في سَنَتي الجامعية الأولى في كلية العلوم.

ما كنت أريد المغادرة، ولا ترك سورية وهي تختنق في الدماء والآلام.. لكن أهلي أرغموني على المغادرة، كما أرغموني على عدم التفكير في العودة.

كانت أمي تذكرني في كل رسالة بما جرى لجيراننا دار "أم عربي"، وأمام عينيّ.

اقتحمت مصفحتان مدخل الحارة، ومنعتا الدخول والخروج منها وإليها، وانتشر عناصر الأمن، بأشكالهم القميئة، ورشاشاتهم المُخيفة، في أرجاء الحي، صعد بعضهم الأبنية، وتمترسوا خلف نوافذ الأدراج، انبطح أحدهم تحت شرفة بيتنا، كان يرتدي قميصًا ضيقًا أحمر مفتوحة أزراره حتى بدا شعر صدره المقزز، نصب الرشاش أمامه وركز إحدى عينيه على منظاره، وهو يمضغ العلكة، وقد تدلى سلسال ذهبي من عنقه وارتمى على الأرض إلى جانب الرشاش، باعد بين رجليه وهو منبطح أرضًا حتى كاد سِرواله الضيق المخطط بالأبيض والأسود أن يتمزق عن خلفيته.. ومع هذا الانهماك التهريجي كلّه، بادر جارتنا أم ياسين عندما وضعت منشفة على رأسها وخرجت إلى شرفتها تستطلع الخبر، عاويًا بلهجته الغريبة عن أهل الشام: "ادخلي لبيتك يا بنت الكلب أحسن ما قوصك يا حيوانة".

كان ذلك بعد حادثة استشهاد جارنا أيمن بوقت يسير، انتشرت الضباع في كل مكان من الحارَة التي كانت تقع إلى يسار السفارة الفرنسية وأنت نازل من حي المهاجرين باتجاه منطقة الجسر الأبيض.. كانوا يتوجسون معركة مشابهة لمعركتهم مع أيمن، وقد جاؤوا لاعتقال كل رجال تلك العائلة الكبيرة التي كانت تسكن بناءً واحدًا في الطرف الآخر من حارتنا، مكونة من خمسة أسر صغيرة فتية شابة وأمهم.

كُنا أنا وأمي ننظر من وراء باب الشباك الخشبي المثقب،

نحبس أنفاسنا، ونحن نسمع أنفاس الوحش الأحمر الأرعن المتمدد تحت الشرفة مباشرة، نراقب مجريات الحدث.

بعد ساعات دخلوا البناء دون أيّ مقاومة، وأخرجوا منه النساء والأطفال، ولم يجدوا هنالك أي رجل، وخرجت أم ياسين وبعض نساء الحي إلى الشرفات، غير عابئات بعواء الضباع إذ اطمأنَّنّ أن لا معركة مسلحة تلوح في الحي، لم تعنِ الإهانة لها الكثير، اعتاد الجميع تبادل الشتائم مع رجال الأمن، واستساغوا أن يُعامَلوا بهذه الطريقة.. انتصرت أم ياسين لكرامتها، وصارت تردد: الله يعدمني ياك يا صرصور.

وقفت الأمّ المسنة في وجههم والنور يتلألأ في جبينها وقفة تحدٍ يعجز عن مثلها الرجال الأشداء في تلك الساعة، ثبتها الله وكفّ أيديهم القذرة عنها، في حين أن الجيران من الحارة الخلفية كانوا قد نصبوا السلالم والحبال وساعدوا الشباب الخمسة على التسلل من عمارتهم عبر السطح والفرار من الحي، ومن هناك إلى خارج البلد، حيث لحقت بهم نساؤهم وأطفالهم.. وفرغت الدار من أهلها الذين لطالما عَمَرَت بهم، بالحبور والعبادة والطهر والجمعات وضحكات الأهل والأصدقاء وصخب الحياة.

ربما أراد الجيران أن يُكَفِّروا عن خذلانهم أيمن، ربما استطاعوا هذه المرة أن يُنجدوا هؤلاء الشباب المطلوبين، ولم يستطيعوا ذلك في المرة الأولى، ربما كان وضع البناء ملتصقاً بالبيوت القديمة الواسعة متعددة الأسطح والشرفات والسلالم هو الذي سمح لهم بالمساعدة، ربما وربما.. المهم في الأمر أنهم استطاعوا إنقاذ أبناء "أم عربي" وصهرها من براثن الغيلان.

كل رسالة كانت ترسلها أمي، كانت تضع لي بِطَيّها خمسين دولارًا، وتذكرني فيها رمزًا بأيمن طبيب الأسنان الذي راح "شقفًا ونتفًا" –كما تقول–، وبعائلة "أم عربي" التي اقتُلِعت من الحي بأكملها، وارتحلت.

ثم جاء اليوم الذي اكْتُشِف فيه ما تحويه رسائل أمي.. فتوقفت رسائل أمي إلى غير عودة.

الاعتقالات، والتعذيب، ومداهمات البيوت والجامعات والمساجد، الاشتباكات المسلحة ليلاً نهاراً مع الثوار، أزيز الرصاص يصمُّ الآذان، والشباب يُتَخَطّفون ويَخْتَفون، صارت أحاديث الناس هَمسًا، وخَيّم الحزن على البلاد، وامتلأت البيوت بالعويل والنحيب، اتّشحت النساء بالأسود، وكان قهر الرجال رنانًا في صمتهم وإطراقهم، كان بعضهم يذهب ليلاً لتسلم جثمان الابن المفقود ويُرغَم على دفنه تحت جنح الظلام، ثم يعود وكأنه لم يفعل.

كان ممنوعًا على الناس أن يئِنّوا والسكين مغروزة في أوداجهم.

بدأ الناس بدفع أبنائهم للخروج من سورية.. كانت تلك موجة الرحيل الأولى التي عانتها البلد التي أُفرِغَت من جيل كامل من الثائرين شيبًا وشبابًا.

دفعني أهلي للسفر دفعًا، كما فعلت الآلاف من الأسر السورية، وأرغموني على مغادرة البلاد خوفًا ورهبًا.. سافرت والتحقت بزوجي في إسبانيا، وبقينا فيها نترقب لحظة العودة عامًا وراء عام، وساعة بعد ساعة.

***

إذن، باعوا بيت جدي، هكذا بهذه البساطة.. ماذا سأقول لأولادي عندما يزورون دمشق؟ هنا كان بيت جدي! وأين هي تلك الدار إذاً؟ صرتُ مثل أولادي، غريبة منقطعة، كيف سيستمدون بعد اليوم من شعوري بانتمائي إلى "وطني" انتماءهم وشعورهم بالأمن؟! وقد أصبحت أنا الأخرى دون وطن؟ انضممت إلى قافلة غربة جديدة، وُلِدَتْ فيها بناتي دون وطن ولا ذكريات ولا دار للجد يَعْرِفون فيها عالِمًا كبيرًا كان جدهم، مات وباعها ورثته بثمن لا يضاهي قيمتها التاريخية.

تلك دار حفظت لكل من دخلها بعضًا من نَفْسِه.. علماء، أساتذة، سياسيون، قضاة، فقهاء، محامون، أطباء، وأصحاب ما سُمِيَ فيما بعد بالعمل الإسلامي والحركات الإسلامية، وغيرهم كثير جدًّا من طلبة العلم، ومن العمال، وممن يسمونهم صغار الكسبة، والتجار، وأصحاب الشركات، من مسلمين ومسيحيين ويهود وشيعة ودروز وعلويين وأرمن وعرب وأكراد وتركمان وآشوريين، أتوها يطلبون القرب من "الشيخ"، أو الفتوى، أو التواصل، أو التعلم، أو المداهنة، أو اللَّف والدوران للوصول إلى مكاسب سياسية أو اجتماعية أو مادية.

تركوا بصماتهم على جدران دار جدي، وأشجارها الباسقات، وشُجيرات وردها وياسمينها، وخرير بحيرتها الذي يوشوش الزائرين ويُحَييهم برفق ولباقة، كما تركوا بصماتهم في نفسي وفكري ورؤيتي لدمشق وسورية والماضي والحاضر والمستقبل.

وكما صنعت الحكومة بجبل قاسيون، شقت بالآلات الضخمة الهادرة بطنه، حفرت، نبشت، راحت وجاءت.. وتهامس الناس عن جهنم من الأنفاق والمخابئ التحت أرضية والقواعد الصاروخية التي كان يبنيها الروس هناك، يُرَسّخون لآل الأسد وجودهم في

البلد نوابًا عنهم، ويمنعون بالخوف والتغييب تفكير الشعب بالخلاص منهم، كذلك فعل الناس أنفسهم بأنفسهم.. هُدمت الدار، كآلاف الدور الدمشقية العريقة، أزيلت من المشهد، وضاع معها تاريخ البلد وطبيعته وروحه وبَصْمَته، وبُنيت على أنقاضها عمارات وأسواق متطورة وطريقة حياة مختلفة.

لقد خربنا بيوتنا وبلدنا وهويتنا بأيدينا.

لكن دار جدي الشيخ بقيت هنا قائمة في تلافيف دماغي لا تبارح.

من قال إن الأوطان جغرافية وأرض، إنها قَطْعًا. أشواقٌ وذكريات، وقِطَعٌ من أرواح وأكباد.

بهذا الحجم من الألم، على تباين ملابساته، وعلى صِغَرِ سِنِّهِن، خسرت بناتي البيت الذي وُلِدن فيه في غرناطة، أو على وجه الدقة البيت الذي كان أول بيت ضمهن بعد ولادتهن في مستشفى "الكلينيكو" في غرناطة، وفقدن الحي الذي نشأن فيه ومع أولاده، والهواء الذي تنَفَسْنه مدة خمسة أعوام، والشرفة التي كنّ يجلسن فيها كل عصر يحادثن أولاد الجيران، ويرمين من هناك ألعابهن وأشياءهن وكل ما يصل إلى أيديهن من أدوات المطبخ وكتب المكتبة، في تبادُل طبيعي عجيب للأحاسيس بين البشر الأسوياء، وتواصُل استثنائي بين أولاد الحي وابنتي التي كانوا ينادونها طفلة "المورو" منذ بدأت تجلس في تلك الشرفة ولمَّا تبلغ الثلاثة أعوام من عمرها.

"طفلة المورو" تلك كبرت، وصارت تنزل معهم إلى الساحة التي خُصِّصَت لِلَعِب الأطفال، بين مُجمعات حي "الكارتوخا"

السكني، وفي "ممر الغابة"، كما تسمّى حارتنا الصغيرة بين تلك المجمعات في غرناطة.

فقدنا صحبة تلك الشجرة الباسقة التي كانت تَصِلُ شرفة بيتنا في الطابق الرابع، والتي تُغَيِّر ألوانها بين الحين والحين، من خضراء سندسية، إلى حمراء أرجوانية، إلى صفراء نارية، حتى تتعرى أمام قسوة برد شتاء غرناطة، الزاحف إلينا من جبل الثلج القابع هناك يرنو إلى المدينة الصغيرة العظيمة، وما فعله الدهر بها.

كانت تلك الشجرة وعلى عكس ما يقتضيه المنطق، تتعرى في البرد، وتلتحف بأوراقها الكثيفة في الحر، لماذا كانت تفعل ذلك؟ ربما تريد أن تشارك الفقراء شعورهم بالبرد في الشتاء؟ والمحجبات من المسلمات المهاجرات خياراتهن في الصيف؟ ربما؟ فمن يدري كيف تفكر الأشجار، وهي التي تملك مئات السنين راسخة في أماكنها لا تبارح، ولا تفعل الكثير غير ما نعلمه، لكنها تمتلك كل الوقت اللازم لتفكر وتفكر، على أمل أن يكتشف بعضنا شيئًا من أفكارها الاستثنائية!

*****

في الطريق ما بين غرناطة ومدريد، ها نحن من جديد.. نهرول نحو المجهول، وكنت قد أتيت منها نفسها، قادمة من دمشق عبر مطار "باراخاس" المدريدي، ثم إلى غرناطة، قبل خمسة أعوام، ملتحقة بزوجي بعد أن أنهى دراسة الطب.

بضعة أعوام يُتم فيها اختصاصه ونعود إلى دمشق، كانت تلك هي الخطة، لكننا ما زلنا في إسبانيا، وُلدت بناتنا هنا، ولا يعرفن وطنًا غير إسبانيا، لم نستطع العودة، لأَن شيئًا ما، لم يتغير في سورية وبدا أن الأمر شبه مستحيل.

غريبة هي مجريات الأمور في حياة الإنسان، غريبة هي علاقته الحميمية بالمكان، غريبة هي تقلبات الأيام والأقدار التي لا تجري أبدًا بما تشتهي السفن، فإن فَعَلَتْ ادّعى المرء أنه من أصحاب الخيارات الموفقة!

كنت قد وصلت إسبانية للتو.. حين فوجئنا في أثناء زيارتنا لإحدى الأسر الصديقة، بانقطاع البث في القناة التلفزيونية الوحيدة التي كانت يومئذٍ تبث في إسبانية، ليُعلن أحدهم على الطريقة العربية انقلابًا عسكريًّا في البلد، ويعطل الدستور!.. سمعنا الطائرات الحربية تجوب سماء غرناطة، قال الجيران إن الدبابات ترابط لدى مداخل المدينة وأهم المباني الحكومية، وأُعْلِن حظر التجول!

ما قصة هذه الانقلابات العسكرية تجري في تغييب كامل للشعوب شرقها أو غربها، وتكون فيها هذه الشعوب ودائمًا آخر من يعلم؟ ولعلها سُميّت "انقلابًا" من أجل هذا بالضبط، قلبها الأمور رأسًا على عقب!.

الناس وكأن على رؤوسهم الطير يراقبون ما يحدث وهو يُنقَل من محيط مجلس الشعب الإسباني في مدريد إذاعة وتلفزة في بث مباشر.

أصبحنا لاجئين في بيت إخواننا لا يمكننا المغادرة، أو هكذا ظننت.

– يا أخي دعنا نذهب، سنمشي بين الحارات العتيقة، ولن ينتبه إلينا أحد.

– لا يا زلمة[1].. وكيف ستذهب مع زوجتك ولا يوجد لا "هابوب ولا دابوب"[2] في شوارع غرناطة؟ أنا سآخذكم كما أتيت بكم.

– لك[3] أخي لا داعي لذلك.. ابق مع أهلك وأولادك، لا يعلم إلا الله ماذا يمكن أن يحدث..

– قلت لك أن تباتوا معنا.. فلم ترض.

– يكفينا انتظار هذه الساعات الخمس، صعب جدًّا أن نبقى، زوجتي حامل وليس سهلاً أن نكون خارج بيتنا في مثل هذه الظروف، ثم الله أعلم متى سينجلي هذا الأمر، دعنا نذهب إلى بيتنا.

---

(1) في قاموس المعاني الإلكتروني: "زلمة" قطعة اللحم تتدلى من عنق المعزاة، والأزلام، ما كان العرب يستقسمون به.
وهي كلمة تُستعمل في اللهجة الشامية في جميع أقطار "بلاد الشام"، بمعنى "يا رجل"، ومعناها في القاموس الوسيط من هذا الباب: يشبه العبد، كأنه هو: زُلْمَةً يقال: هو العبد. - وهي الأقرب لفهم الكلمة باللغة الفصحى- .

(2) عبارة "لا هابوب ولا دابوب".. تستعمل في لهجات أقطار أهل الشام بمعنى: لا يوجد أحد، لا شيء يهُبّ في الأجواء، ولا شيء يدبّ على الأرض.

(3) "لك".. لفظ يستخدم في اللهجات العامية لأهل الشام، وأصلها في اللغة: ويلٌ لك، أو لا أبَ لك.. تُستخدم في اللهجات المحلية لتأدية معاني رفع الكلفة والدعاء بعكس المراد من الويل.

– لا يمكن، لا وألف لا..

– يا أخي ما هذا العناد؟؟ سنذهب وانتهى الأمر.. وماذا سيحدث؟ هل سيعتقلوننا مثلاً؟

– ربما.. ما دام العسكر قد عادوا إلى الحكم، فقد انتهى عهد الديمقراطية، وذهبت إسبانية في ستين نيلة!.. سآخذكم إلى بيتكم وانتهى الأمر.

ركب أخونا في الله سيارته، تاركـًا عيون زوجته وأطفاله تدور في محاجرها خوفًا وهلعًا، متحديًا "السلطات" – على الطريقة العربية كذلك – وأعادنا إلى بيتنا رغم أنفنا، وأصبحنا هنالك منقطعين عن العالم، نتلقط الأخبار من جيراننا وما يتحدثون به في شرفات بيوتهم، وقد ندمنا يومها على قرارنا عدم اقتناء جهاز تلفزيون في البيت كي نتفرغ للدرس وطلب العلم في هدوء.

حدثت محاولة الانقلاب العسكري تلك الشهيرة والأخيرة، المشار إليها في التاريخ الإسباني الحديث بمصطلح "23. ف" من شباط–فبراير عام 1981، عندما اقتحمت ثلة من العسكر المجانين مجلس الشعب الإسباني، يريدون إعادة إسبانيا إلى حكمهم، بعد أن خرجت للتو من ظلمات الاستبداد والتخلف، ولولا أن الملك استطاع في حينه استنقاذ الموقف بدعم أوروبي هائل، لكنت عشت في إسبانية في ظل حكم العسكر الدكتاتوري، الذي دفعني أهلي للخروج من براثن مثيله في سورية، ولكانت إسبانية قد أُعيدت إلى مربع دول العالم المسخمة والمشحرة من جديد، بعيدة من ركب التمدن والديمقراطية، وهي التي كانت قد بدأت للتو تتذوق طعم الارتماء في أحضان العالم الغربي القوي الغني، المداهن المنافق، الإنساني المتوحِش، المتحرر المُستَعمِر، بكل ما

فيه من تقدم وارتكاس، وخير وشرور، وإيجابيات وسلبيات، واستثنائية ومتناقضات.

تلك الحادثة كانت جديرة بأن نغير رأينا في موضوع التلفزيون، لكن ذلك لم يحدث إلا بعد عدة أشهر، في أول رمضان قضيته في إسبانيا، عندما قُتِل الرئيس المصري "أنور السادات"، هرولنا لشراء تلفزيون صغير يبث بالأبيض وبالأسود، ومن وجهة النظر الرسمية فقط.. ليصبح التلفزيون لاحقًا فردًا من أفراد العائلة، وواحدًا من ألزم وسائل التعليم والتثقيف – في تلك المرحلة من تاريخ إسبانية – وأهم وشيجة لتواصلي مع المجتمع الذي أعيش فيه، وركُنًا أساسيًّا لملاحقة ما يجري من حولي، في عالم كانت تتطور فيه الأحداث بالسرعة نفسها التي تبدلت فيها أحوال قنوات البث التلفزيوني لتصبح عبر قناتين رسميتين، ثم ثالثة محلية غرناطية، ورابعة أندلسية، ولتتكاثر منذ ذلك الحين كتكاثر الخلايا الحيّة، وبجميع ألوان الطيف.

بعد خمسة أعوام قضيتها في غرناطة، ها نحن نمضي إلى مدريد، نرحل نحو مجهول قادم جديد.. وما بين أخبار المذابح والمذابح، والمجازر والمجازِر، والفظائع والفظائع، في حرب الجميع التي كان يخوضها الجميع على أرض لبنان، تصدح من مذياع السيارة تلكَ الأغنية الشهيرة المذهلة التي أهداها "مايكل جاكسون"، مع مجموعة من مشاهير المُغنّين الأميركان، للعالم مطلع هذا العام، وجعل ريعها لصالح أطفال إثيوبيا التي ضربتها المجاعة المخيفة، كونها رسالة إنسانية من "أحرار" الولايات المتحدة، تضامنًا مع المُضَيّعين الضائعين فيه: "نحن العالم.. نحن الأطفال"[1]، أغنية

(1) we are the world ..we are the children/الولايات المتحدة من أجل إفريقيا/1985.

كادت تصبح نشيدًا إنسانيًّا، يُبَشر بعالَم جديد، رغيد، أخلاقي، يملؤه الحب والتكاتف والتسامح والإنسانية، يقف في وجه ذلك الارتياع والفزع، ظن أهل إثيوبيا في حينه أنهما "النهاية والقيامة"!

وأنت تستمع إلى كلمات تلك الأغنية، التي كانت تُبث كل نصف ساعة بعد نشرة أخبار حُبلى بأخبارنا المفجِعات، تتقاذفك مشاعر النشوة بالأمل بتغير العالم نحو الأفضل، الشيء الذي عشناه فعلاً بضعة أعوام في مدريد، وكأن الأمر قد بلغ الذروة في هذه الدورة من تاريخ الغرب، لتبدأ بعدها رحلة ارتكاس إنساني وحضاري جديدة في إسبانية، وفي أوروبة، وفي العالم، وفي الإنسانية، وفي علاقة الولايات المتحدة بالعالم، وفي حياة مايكل جاكسون نفسه!

كانت مجرد أغنية–حلم.. دغدغ عواطف الضعفاء، أما الأقوياء فلقد رقصوا وتمايلوا على إيقاعها الجميل، استخدموها في دعم حملاتهم الانتخابية، وتجميل صورهم الوطنية، في حين أنهم في غُرفهم السِرِّيَّة يضعون الخطط الجهنمية، التي تؤكد: **نحن لسنا العالَم، نحن أسياده وسلاطينه وجلادوه المتفوقون!.. وفي سبيل البقاء في هذه المكانة، لا يهمنا كل ما يمكن أن تعانيه البشرية من تجويع واغتصاب، وقتل لكل أطفال هذا العالم المريض!**

***

لم أكن في غرناطة أشعر بمرارة الغربة وحنظلها، على الرغم من وحدتي الرنانة، ولم تكن "الكراهية" ورفض "الآخر" قد استحوذا على الناس في إسبانيا، حدّ إيلام الغرباء وإيذائهم وتذكيرهم كل ثانية من وجودهم فيها بأنهم دخلاء غير مرغوب فيهم.. كان الناس يتعاملون معي على أنني "المورا" زوجة الطبيب، كانوا في حَيِّنا

وفي غرناطة في تلك السنوات، فقراء متوسطي الحال، يشعرون بالنقص أمامنا، لأننا عرب البترول! ولأننا أسرة طبيب، مع أننا نسكن بينهم ونعيش مثلهم.

قبل يومين من تلك "الحادثة"، وفي الثانية عشرة ليلاً ونحن نيام، جاءتنا سيدة من جيراننا بطفلها ذي العامين، ابتلع حبة فاصولياء كبيرة، وكاد الطفل يختنق بها، فقام زوجي بإسعافه كما ينبغي لطبيب أن يفعل، دون شكوى، أو تَذَمُّر، أو أذيّة.. هدّأ من روع الأم والأب، ولم يدع الأسرة تذهب إلا بعد أن عاد الطفل إلى ضحكه ولعبه وشغبه، وعاد إلى الأبوين الشعور بالأمان، وبما أنهم من الجيران بالجنب، والمسألة بالغة الخطورة والاستثنائية، لم يرض زوجي أن يدفعوا له ثمن أتعابه.

لم نلبث غير يومين على حكاية حبة الفاصولياء، حتى فوجئت، بجمعٍ من نساء الجيران يطرقن بابنا عصراً وسط لغط وصياح وأصوات استغاثة، يطلبون الطبيب من جديد، لحالة إسعاف رهيبة، ولم يكن الطبيب في البيت، خرجتُ إلى الشرفة أستطلع ما يجري، فوجدت طفلة في التاسعة من عمرها تتخبط في دمها، رجلها عالقة في مسنن دراجتها، كلما تحركت قرضت أسنان الحديد لحمها وعظمها!

في تلك الأيام، لم تكن إسبانيا وخصوصًا مناطق الجنوب كغرناطة، كما هي عليه اليوم من التقدم الصحي والرعاية والعناية بالشعب إلى حدّ أن تصبح الدولة أمّ الجميع وأباهم، فلا يحتاج المواطن إلى طلب العون من أحد.. ولا يقرع جارٌ باب جارٍ، وخصوصًا إذا كان من المهاجرين الغرباء، حتى لو كان طبيبًا، إلا لتقديم الشكاوى والاعتراضات، ولا يُسَلِّم جارٌ على جار غير إسباني، ولا ينظر المواطن في عيني الغريب تجنبًا لحدوث أي تواصل بشري غير مرغوب فيه!

صار التواصل هنا مع الغرباء مقتصرًا على القطط والكلاب وربما بعض الأطفال حديثي الولادة! يلغي المرء وجود الآخر من وجوده، ويسحب الشعور به من شعوره، ويتصرف على هذا الأساس.. بالضبط كما نفعل عندما يبلغ أذى "بعضنا" منا كل مبلغ، نقرر حذفه من حياتنا حتى لو كان موجودًا فيها على بعد متر واحد، وربما متلبِّسًا بها تلبُّس الروح بالجسد، نتخذ القرار الضروري بأن نتخلى عن ذلك الجسد، ونتعامل معه كأنه غير موجود، وإن كان العكس هو الحقيقة.. **نحن نَبْتُر بعض أرواحنا عندما نقطع علاقتنا بالآخرين، ونتحرك في فيزياء ميتة!**

تعامل معظم أهل البلد من الإسبان مع "الغرباء المهاجرين"، لم يكن على أساس دفع أذى هؤلاء عنهم، بل على أساس عنصري عميق لا يريد الإسبان الاعتراف به، ولأن "أذى" هؤلاء "المورو" لم يكن قد "وصل" إسبانيا إلا بعد عقدين من تشويه صورة هذا "المورو"، ورفع أسوار الكراهية والبغضاء والرفض بين الطرفين، بشكل عدائي مدروس طويل المدى عبر وسائل الإعلام بكل أشكالها وألوانها.

لم أستطع احتمال المنظر، والناس في الساحة في حيص بيص، وقد أغميّ على أم البنت من هذا الوضع، فنزلتُ مع طفلَتَيّ الصغيرتين، وحملت معي حقيبة الإسعاف الخاصة بأبي الأولاد، طلبت من الناس أن يبتعدوا جميعًا، حتى تستطيع الطفلة أن تتنفس، وقمت بدور المسعف، وقد ارتدّت إلي روح فرق الكشافة، وأيام حرب تشرين، وملابسات "نظام الفتوة" التي كانت الدولة في سورية تربينا عليها، وكأننا مقاتلون على الجبهات، ونحن تلاميذ في المرحلة الثانوية، تلبستُ دور الطبيب والمسعف ورجل الإطفاء ورامبو الذي كان مِلء لافتات الإعلانات ودور السينما في تلك الأيام!.

طلبتُ من إحداهن أن تُمسِك برجل الطفلة، وقبضت على مسنن الدراجة، وأخذت أشده وهو ينغرز بين أصابعي، والناس يحبسون أنفاسهم، لا أدري من أين آتاني الله بكل تلك القوة.. كنت أشدّ رجل البنت بيقيني بأنني أستطيع أن أساعد هؤلاء الناس، وناديت يا معين.. فخرجت رجل البنت من قبضة ذلك المُسنن اللعين، الذي عجز عدة أشخاص عن إخراجها منه.

وصلت سيارة الإسعاف متأخرة، بعد أن طهرتُ الجرح ولففت قدم البنت، وأخذت ابنتيّ وذهبت كما أتيت.

منذ ذلك اليوم، وحتى اليوم الذي غادرت فيه غرناطة.. وكل الحي كباره وصغاره ينادوننا: بالعائلة المورا "المباركة".

أشياء بسيطة جدًّا، وصغيرة جدًّا، لا نحتاج إلى أكثر ولا أكبر منها. . يمكن أن تكون بطاقة مودة ومحبة للآخرين، تُقدِّمُنا إليهم على أننا بشر مثلهم.

صغيرة هي اليوم غرناطة في أحضان إسبانيا.. تَمْلُكُ "لوركا"، وجامعتها التي كانت وحيدة في تلك الأيام، و"قصر الحمراء" الذي يُنْبِّئُك عن مدينة كانت من العَظَمَة بمكان يُدهِش كل من يفكر في تصاريف الأقدار، وما آلت إليه الأحوال.. عظيمةٌ بتاريخها "الإسلامي" المذهل الذي ألغاه من ذاكرتهم أولئك الذين ورثوا تلك الأرض، على الرغم من حضوره لا يبارح!

بالضبط وكما فعل "عرب ما بعد الحرب العالمية الأولى"، في معظم بلادهم بسلخ هوية "الإسلام" بطريقة أو بأخرى عن كل جزئيات وجودهم السياسي والثقافي الحديث، ملتحفين عباءة القومية العربية التي أحيوها جاعلين منها هوية شاملة إجبارية حتى

لأولئك الذين لا ينتمون إليها، وبطريقة تشبه في "شيءٍ" من تفاصيل توحشها "شيئًا" مما فعله القشتاليون بالأندلسيين في سياق دأبهم لاستئصال وجودهم من التاريخ.. استلّوا "الإسلام" من "الإسلام" ومنعوه من أن يستمر في كونه بصمة وهوية أمة، تضاءل وتقلص تاريخها فأصبح كمشًا[1] من هوشات[2] عربية لا تهتم بتاريخ ولا بحضارة ولا بمدنية ولا بالأخلاق ولا بالإنسانية.. ولا بصناعة أمل يمتد بعيدًا في آفاق المستقبل!

بهذا النسق عينه مع الفارق الهائل في التوحش والدأب، جعل الإسبان تاريخ الأندلس من المُحَرَّمَات التي لا ينبغي تداولها، حتى تكفل النسيان بالنسيان على الرغم من الذكرى الحاضرة في التاريخ والمكان والشجر والحجر والهواء والغيمات، وأصبح القوم لا يعرفون من سُؤددِ تلك المدينة، وهاتيك الممالك، وذلك المجد الغابر إلا عمارات فاتنة، ما زالت قائمة شاهدة على أن "قومًا" في سلسلةِ "أقوامٍ"، كانوا قد "استَعْمَروا" تلك البقاع، ومَروا بها، وأثاروا الأَرض وحرثوها، و.. كانوا على ذمة التاريخ "عربًا مسلمين".. كأن أهل تلك البلاد لم يدخلوا الإسلام، ولم يكونوا هم أنفسهم سَداة تلك الدولة ولحمتها!

وكذلك تفعل "العنصرية" المتولدة دائمًا من ثلاثية بطش الحكام، وتخلي الناس عن الأمانة، وعمالة النخب للأعداء، تدك الحضارات وتُقَوّض البنيان.

هكذا تروي كتبهم المدرسية الحكاية، تلقنها الأجيال، مجتَثّة عن الحقائق التاريخية التي تجد شواهدها أنى سرت في

(1) في قاموس المعاني الإلكتروني: كَمْشُ "اسم" – الكمش: الضرع القصير الصغير.

(2) في قاموس المعاني الإلكتروني: هوشة "اسم" جمعها: هوشات، هوشة: جماعة مختلطة، فتنة واضطراب. هوشات الليل: حوادثه ومكروهه.

أنحاء جنوب ووسط وشرق إسبانيا!.. فضلاً عن بقايا لغة في اللغة، وتركة سلوكية نفسية لا يخطئها الدارس الحريص.

أُلْغِيَتْ الذاكرة الجماعية لمن سكن الأندلس، بعد أن انتُزِع أهلها من أرضهم، وانتُزِع الإسلام من صدور وعقول من بقي منهم، بالبغي الموجع المفجع المخيف، وبعدما فَرّط أهل الأندلس في حمل الأمانة، سُلِبت منهم، رغمًا وحرقًا وذبحًا وطغيانًا، على مدى ثلاثمئة وثمانين عامًا من حملات الإبادة المنظمة، في واحدة من أفظع عمليات الاستئصال الإنساني الحضاري التي شهدتها الأرض، وفي واقعة من أكبر فاجعاتِ تدمير الوجود وتزوير الحقائق، مما عرفته البشرية في تاريخها المرير، المدهش، القبيح.. قبح الجريمة، المذهل الجميل.. جمال الحياة.

وهو عين ما فعلت أوروبة، ألغت تاريخ الإسلام والمسلمين الحضاري المدني الإنساني العظيم، ليس من تاريخها فحسب، بل من التاريخ! وقلصته إلى حكايات أسطورية تُروى عن مخادع السلاطين والأمراء، استلّت منه كل خير وعَظَمة وثورة في العلم وفي المجتمع وفي السياسة وفي الإدارة وفي حكم العالم وفي العمران وفي الأخلاق وفي الإنسانية وفي الحياة، حتى حَسِب المُستَعْمَرون من أبناء المسلمين أنفسهم أن لا تاريخ ولا حضارة ولا أمجاد للإسلام.

تلك هي معضلة التاريخ، إذ يرويه المنتصرون بعد المعركة الأخيرة التي خاضوها في سياق كل حرب.

واهًا للتاريخ.. ذلك الذي ينطق بحكاياته الدافئات العذبة، كما المرعبات الرهيبة المؤلمة.. جيوشٌ وحملات، وانتصارات، ومذابح، وهزائم، وآلام، ورايات مرفوعات، وروايات ُعشق وعاشقين، وأساطيرُ فرسانٍ وأبطالٍ فاتحين، وحقائق عن غيلان

ووحوش بشرية، عن هدم ودمار، وعن بناء وتعمير، ثم.. يترك شواهده على بلوغ المجد، بالأسوار المرتفعات، والنقوش الرائعات، يتركها هناك ليستنطقها المستقبل المفجوع بصدمته بها وبمن كتب تاريخها.. ولو بعد حين.

مرير هو التاريخ، مرارة الحياة! دامٍ كما هي الولادات، مخيف بويلات حروبه، وظلم الإنسان للإنسان، حنظليٌّ بشياطينه يجوبون دروب الأمان ينتزعونه من ضحكات الأطفال في أحضان أمهاتهن، أو ينتزعونهم من أحضان تلك الأمهات المفجوعات، كما حدث في تلك الممالك الغابرات الحاضرات.

كئيب هو التاريخ.. كما هو الموت الصامت الباهت، وهل التاريخ إلا اختصاراتٌ ما بين الولادات والبداية.. وحكايات الموت والنهايات؟!

***

ما زالت أصوات ذلك اللغط والصخب الذي حدث في ذلك اليوم حول بيتنا تصل أذني، تملأ نفسي بالبسمة والاستغراب.. كنت حديثة عهد بالحي وبالمدينة وباللغة، إذ سمعت جلبة عظيمة وصياحًا، وأصوات سيارات الشرطة، وفجأة انتقل كل هذا اللغط إلى باب داري التي تقع في الطابق الرابع من هذا البناء.. طرق الباب شرطيان، وأدّيا التحية في أدب، وأخذا يقصان علي القصة، وأنا لا أفهم شيئًا، ثم تدخلت جارتي، فطلبت مني أن أذهب مع الجمع إلى أسفل البناء، فلما نزلت.. تبرّع أحد "غرباء" الحي – فالإسبان شعبٌ لا يتكلم إلا لغته –، وسألني باللغة الإنكليزية نيابة عن الجمع، السؤال التاريخي التالي:

هناك "جحشان" مربوطان في رأس الحارة، لم نعرف من أين أتيا.. فقلنا نسألك، لعلهما "جحشاكِ"؟!

كنت يومها المسلمة الوحيدة في الحي، لم يكن أي من إخواننا الطلبة قد تزوج بعد، ولم تكن حركة الهجرة قد جعلت من وجود "المورُوس" – كما يسمينا القوم – أمرًا منتشرًا.

أصابتني دهشة ما بعدها دهشة.. وما بين الضحك وبالغ الاستغراب، قلت لهم: أسكن في الطابق الرابع من دون مصعد! لا أدري كيف يمكن اصطحاب بغلين كهذين إلى الطابق الرابع!!

ثم أردفتُ: أنا من دمشق، من سورية!

فأجابت إحدى جاراتي على الفور: وأنا من "سُرْيا" Soria، – بتسكين الراء، وهي قرية إسبانية صغيرة تقع في مدينة تحمل الاسم نفسه على مرمى حجرين من مدريد شمال شرقي إسبانيا – وعندنا كذلك "جحاش" تشبه هذين.. فما المشكلة، ولم الاستغراب؟

بعد التحقيق.. تبين أن البغلين المسكينَيْن اللذين يفوق حجم كل منهما حجم حصان الملك، كانا قد هربا من السيرك الذي نصب خيامه قريبًا من الحي استعدادًا لاحتفالات أعياد الميلاد.

غالبًا ما يُلغي البشر قدرتهم على التفكير مع إلغاء بعض ذاكرتهم.. وهكذا فعل كثيرون – منا ومنهم–، صارت تصورات القوم عنا نحن "الغرباء" القادمون من بلاد المسلمين، غريبة وعجيبة ومثيرة للشفقة والتندر، وصارت تصوراتنا عنهم، شاذة وطريفة ولا تمت إلى الواقع بكثير صلة.

لم ألبث إلا قليلاً حتى جاءتني شرطية، ومعها زميلان يحرسانها، قلت في نفسي: يا للجحشين وحكايتهما، اللهم آتنا صبرًا وحلمًا.. كانوا ثلاثتهم يلهثون بعد أن صعدوا سلالم بيتنا

الثمانية، فتحت الباب وتبادلنا التحية، وبادرت فأعطيتهم قارورة ماء وثلاث كؤوس ليشربوا قبل أن أفهم ماذا يريدون.

فاجأتني الشرطية بالسؤال: هل يسمح لك زوجك بأن تعطينا الماء؟

دُهِشتُ وقلت لها: هذا سؤال شديد الغرابة! وإن كنتم قد عدتم من أجل البغلين أو الجحشين.. فأنا لا علاقة لي بكل أنواع الحيوانات، لا الأليفة منها ولا المفترسة.. ما عدا "الأسد"، فإن علاقتي به كسورية وثيقة جدًّا!

قالت: لا، لا ندري عن أي بغلين تتحدثين، أسألك ما إذا كان زوجك يسمح لك بأن تعطينا شربة ماء؟! يجب أن نعرف؟

قلت لها: هل أتيتم إلى هنا لتعرفوا إن كان زوجي يسمح لي بأن أعطيكم شربة ماء؟ يا سيدة.. نعم يسمح لي.

قالت: نادِه لنتأكد!!.

قلت لها زوجي في المشفى، ولن يعود قبل ساعتين.

تبادلت وصاحباها النظرات والتأسفات، وأخذوا يهبطون الدرج، وهي تردد أنهم سيعودون عندما يأتي.

بعد ساعتين، وهو يضع المفتاح في قفل الباب، كان عناصر الشرطة الثلاثة لدى باب البيت، يتحدثون إليه، معتذرين أشد الاعتذار لاضطرارهم لشرب بعض الماء الذي قدمته لهم زوجته دون إذن!

دعاهم إلى الدخول، وبعد أن بلغت دهشتنا كل مبلغ، أبلغونا أنهم يريدون اصطحابي - بعد إذن زوجي- إلى المشفى لمساعدة سيدة مسلمة جريحة، إذ لم يجدوا غيري في هذه الناحية، ويبدو أن

أحدهم في المشفى قد ذكر لهم أن هذا الطبيب السوري متزوج من امرأة يمكنها أن تقدم المساعدة!

ذهبنا إلى المشفى، بعد أن حدثونا عن أن تلك السيدة ترقد هناك بين الحياة والموت، وقد طلبت منهم أن يأتوها بامرأة من أبناء جلدتها تتحدث إليها.

وصلتُ إلى الغرفة الموضوعة تحت الحراسة، ودخلت، لأرى شابة في العشرين من عمرها، ممزقة! لا توجد كلمة أخرى تعبر عن الوضع الرهيب الذي رأيته غير هذه، كان وجهها محوطًا بجميع أنواع القطن والشاش والملصقات الطبية، يدها اليسرى مكسورة، رأسها قد عانى من جرحين، 34 غرزة مخيطة في 17 غرزة، وضلعاها مكسورتان!

اقتربتُ منها، فاستيقظَت، وما إن مَيَزتني حتى همست: "الله يرحملكم الوالدين عافاكم.. خذوني عند الأهل ديالي، عافاكم خذوني، وغا يدفعو ليكم الثمن يلي بغيتو من بعد"[1] .

سألتها عن هذه الحال وقلبي ينفطر أسى، وكل ظني، أن شاحنة عسكرية مُحمَّلة بالقنابل العنقودية كانت قد دهستها! قالت لي وكلماتها لا تكاد تخرج من فمها: أنا عروس، جئت مع زوجي منذ شهر إلى غرناطة قادِمَين من طنجة، ومنذ اليوم الأول وهو يعاملني معاملة الدواب، ثم حاول "الاعتداء جنسيًّا" عليَّ مابين ضرب مبرح وإهانات وشتائم، وأنا لا أفهم، ولا أعرف ما الذي يجري، فلما بدأتُ بالشكوى والبكاء أستفسِره عما يفعله معي، انهال علي باللكم الفظيع وضرب بالحزام الذي صار يتعمد أن

(1) باللهجة المغربية، والمعنى: أرجوكم أتوسل إليكم إذا كنتم تعرفون الله، خذوني إلى أهلي، أبوس أيديكم خذوني إلى أهلي، وسيدفعون لكم كل ما تريدون لاحقًا.

يسلخ به وجهي، ففتحت الباب وفررت من المنزل، فلحقني بالشاكوش – المطرقة– والسكين فلما اجتمع الناس علينا، – وكان الإسبان في تلك الأيام لا يزالون من شعوب العالم الثالث، يجتمعون لإغاثة الملهوف والدفاع عن المظلوم ولو كان غريبًا مُسلمًا!– صار يصيح كالمجانين، إنها زوجتي الناشز العاصية، أنا زوجها وعليها طاعتي!

عندما جاءت الشرطة: هدد من يقترب منه أن يضربه بالشاكوش، صائحًا بالجميع: أنا مسلم، وهذه زوجتي ولي عليها حق الطاعة، وأن هذا هو ديننا!

نقلوا المرأة إلى المشفى، فصار الرجل يولول ويقول لهم: إنهم لا يستطيعون أخذها إلى المشفى دون إذنه حتى لو ماتت.. فالمرأة في الإسلام يجب أن تطيع زوجها في كل أمورها، وقرآننا يأمر الرجل بتأديب زوجته الناشز!!.. واسألوا أهل العلم والدين، اسألوهم أيها الكفار المشركون!!

في مركز الشرطة، كانت المشرفة الاجتماعية والطبيب الشرعي، يشرحان للرجل أن ما فعله هو جريمة "اغتصاب" مع أقصى أنواع العنف، والرجل يصيح كالملسوع: هذا حقي، وهي زوجتي وقد دفعت مهرها.. ومن حقي أن أفعل معها وبها ما أريد!

الطبيب يحاول أن يشرح له أن هذا الذي فعله ليس من حق أي إنسان أن يفعله في أي إنسان آخر، فالعلاقة الجنسية شيء، والاغتصاب شيء آخر مختلف تمامًا، وهو ما يفعله مجرمو الحروب إذ يغتصبون النساء والرجال ويؤذونهم باستعمال جرعات رهيبة وحشية من العنف الجسدي والنفسي.

جاؤوا بطبيب مسلم كان يعمل في المشفى، فجلس يتحدث إلى الرجل ساعة، ويربت على كتفه ويهدئ من روعه، ولم يعرف أحد ما الذي جرى بين الرجلين، كل ما يعرفونه أن ذلك الطبيب لم ينقل إليهم شيئًا من المحادثة، قال لهم بأن الرجل مجنون، ولكن... هذا الذي فعله من حقه شرعًا!! ثم اعتذر عن التدخل لحل الأمر!

ساعتان ونصف، استغرق شرحنا لرجال الشرطة، أن هذا الطبيب العربي جبان وجاهل ولا يفهم في الإسلام، وأن ذاك الآخر ليس إلا مجرد مجرم مختل، يريد أن يبرر إجرامه بالنصوص الدينية التي لا يفقه منها شيئًا! وأنه إن كان هنالك من نص في ديننا يخص هذه الحادثة، ويخص العلاقة بين الزوجين، ويخص النساء، فهي أوامر الله والرسول بالترفق والتلطف والأنس والإحسان بين الزوجين، وليس الاعتداء والتوحش والامتلاك الحيواني!

جلسوا ينظرون إلينا في ارتياب وشكّ، ونحن نشرح لهم أن المرأة في الإسلام كالرجل أمام الله عز وجل، وأن الزواج في الإسلام ليس عبودية بل شراكة، وأن هذه الأفكار الغريبة جاءتنا من ثقافة محاكم التفتيش الأوروبية وليس من ديننا!

كنا نتحدث إلى الشرطة وإلى الطبيب الشرعي، وكأننا نتحدث بلغة مرّيخيّة لم يسمعوا بها من قبل، كانوا يتلفتون يمنة ويسرة، ويتبادلون النظرات فيما بينهم، لا يعرفون من يُصَدّقون!!.. كلانا نتكلم باسم الاسلام، وباسم الله ورسوله!!

جاؤوا بالرجل مكبلاً، يتطاير شرر الجنون من عينيه، جلس قبالتنا، وراح أبو ساجدة يتحدث إليه في هدوء ورفق، فإذا به يبصق في وجهه، ويصيح: يا فاسق يا كافر لئن خرجتُ من هنا

لأقتلنك، تُبدِل كلام الله ورسوله!.. يا ديوث، وهذه "القحبة"[1] إلى جانبك تؤيدك فيما تقوله!

انقض عليه رجال الشرطة فساقوه خارج القاعة، ليحموه من ردة فعل زوجي، الذي أخذ ينظف وجهه، وأنا أرتجف خوفًا وحزنًا، لم أكن أعرف ماذا تعني هذه الكلمة، لكن وقعها علينا كان أشد من معناها في تلك الجلسة–المعركة، خرجنا من هناك صامتين يمزق قلبينا القهر من طول دربنا ووعورته.

معاركنا الحتمية مع أنفسنا كانت أشد قسوة وتوحشًا من جولاتنا اليومية مع الآخرين.

لم ينادني أحد بالساقطة منذ غادرت سورية، فهنالك وفي ليلة القدر في آخر رمضان عشته في دمشق، أحيينا الليلة في مسجد بدر قبل سفري بأشهُر قليلة، ولدى خروجنا بعد صلاة الفجر، وكنا أربع شابات نتجاذب أطراف الحديث نسير غير بعيد من إخوتنا الذكور، بعد ليلة رائعة قضيناها في العبادة والدعاء.. مررنا بمجموعة من رجال الأمن ترابِط قريبًا من المسجد في تلك المنطقة الدمشقية المرموقة التي يسكنها بعض مسؤولي الدولة، أسرعنا الخطو ولم نلتفت إليهم على الرغم من تحرشهم بالنظرات والضحكات وإحداث جلبة برشاشاتهم التي أخذوا يحركونها لإخافتنا، كانوا سكارى وأرادوا استدراجنا، ربما ليتسلوا بإذلالنا وتخويفنا، وقد ملّوا طول السهر والحراسة، أومأنا لإخوتنا الشباب أن يبقوا بعيدًا، فأكبرهم لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره، ولا نريد لهم أن يتورطوا في مصيبة عند هذا الفجر، ومضينا في طريقنا نكمل أحاديثنا ولا نلتفت إليهم، وكأنهم غير موجودين، أثار

(1) قحبة: امرأة بغي فاجرة فاسدة / المعجم الرائد.

ذلك غضبهم، وبدؤوا بالسباب والشتائم، وكنت الأقرب من المجموعة إلى حيث يقفون، ففوجئت ببصقة كبيرة تنزل على كتفي، وصوت قبيح يناديني: أيتها الساقطة الحقيرة، وين أهاليكم يا بنت الحرام، طالعين من الجامع يا عاهرات، عاملين حالكم عم تصلّوا.

هذه هي المرة الثانية في حياتي التي أُنعت فيها بهذه الكلمة الموجِعة، وفي مركز الشرطة، بينما كنّا نحاول أن نوضح للناس أن ديننا بريء مما يرتكبه بعض الخُرْق باسمه!.

الله أعلم كم من المرات سأنادى بالعاهرة وأوصف بها.. من أعدائنا، أو من الأعداء الذين هم من أنفُسِنا، ما دامت "معاركنا" مستمرة وعلى كل الجبهات.

دفاعنا عن الإسلام الحقّ في وجه مسلم أهوج جاهل في إسبانيا، جعلنا عرضة للقدر نفسه من الأذى، الذي كنا نتعرض له في عُقر دُورنا في دمشق، حين كنا نمارس حقنا الطبيعي في أداء بعض شعائر ديننا التي تزعج رجال الأمن، وتضطرهم للسهر مخافة انفلات الأمن!

امتهان المرأة أمر عاديٌ جدًّا في دمشق الستينيات والسبعينيات، ليس من طرف قوى الأمن المنتهِكة حقوق جميع من في البلد فحسب، ولا من مختلف شرائح المجتمع، بل من أهلها وعائلتها وزوجها وأقرب المقربين إليها ممن هم مظنة الدفاع عنها وحمايتها ورعايتها وخدمتها.

لم يكن موضوع "الانتقام للشرف"، و"غسل العار" الذي تعارف عليه المجتمع السوري -كما كل المجتمعات الشامية-، إلا واحدًا من أسقط وأخطر تجليات امتهان المرأة في بلادنا، كان المجتمع

والقانون ومعظم "رجال الدين" يبررون للذكور قتل نسائهم، زوجة كانت أم بنتًا أم أختًا وربما.. "والدة"، بسبب ظن، مجرد ظن!

بينما كان الحبل يُترك على غاربه لسقَطِ الذكور يَهتِكون الأعراض، يعتدون على الحرمات، يؤذون بنات الناس، يخدعونهن ويستميلونهن ويستدرجونهن ويضحكون عليهن!

إرغام البنت على الزواج ممن اعتدى عليها صورة أخرى من أبشع صور امتهان المرأة وانتهاك حرمتها كإنسانة في بلادنا.

ولطالما استُدعي أبي وأمي كونهما مُعلِمين، من أجل حل مشكلات من هذا الطراز في بيوت الناس المستورة، ما كانوا يريدون الفضيحة، فيستدعون المعلمة أو الأستاذ لينظرا في المسألة، ويحاولا مساعدة الأهالي في ايجاد الحلول دون فضائح، ودائمًا كان هنالك "ذكرٌ"، مُتَسلط مُعتدٍ، أو متنمرٌ يحمل سيف الجلاد، ويمنح نفسه حق الرب والدين والمجتمع ليقطع رأس إحداهن!

في الغالبية العظمى من القصص كانت البنت مظلومة، وكانت التهمة عارية عن الصحة!.. حتى بلغ الأمر أن ابن جيراننا الذي سافر للدراسة في أمريكا، كان أهله قد خطبوا له إحدى بنات الحارة، والتي لا يعرفها ولم يرها في حياته، لأنه كان قد سافر حين كانت طفلة صغيرة، وكانت البنت متدينة وتخشى أن يتسبب سفرها إلى أمريكا في أن تغير أو تتغير، فطلبت من أهل الخطيب عنوانه، وقالت إنها لن تقبل بالخِطبة قبل أن تكتب له رسالة، وكتبت له بأنها: "شابة متدينة ملتزمة إلى أبعد حدود الالتزام، فإما أن يقبل بها بهذا الشكل ويتعهد بألا يتدخل أبدًا في طريقتها في الحياة، ويحترم خيارها هذا ويشاركها فيه، وإما فإنها ستعتذر عن قبول الخطبة".

جاء جواب الرجل بالإيجاب، وتمت الخطبة..

بعد أيام استُدعي أبي في الثالثة فجرًا إلى بيت أهلها، لأن أخاها سحب السكين وغرزه في عنقها، وهو يردد أنها راسلت الرجل لتُحَدّثه عن أنها ليست عذراء، وأنها أضاعت شرفها بينما كانت تَدّعي أنها ترتاد المساجد! وأن هذا الذي أتاها خاطبًا من أمريكا، و.. لأنه "ديوث" حُكْمًا – كما قال الأخ حامي الشرف والأعراض– قد قَبِل ليستر عليها!

ولم تنته حكاية اتّهام الأخ لأخته في عرضها – بالضبط كما فعل عنصر المخابرات معنا ونحن خارجات من مسجد بدر صباح ليلة القدر–، على الرغم من تدخل الوالد، ومختار الحي، وإمام المسجد الذي اقترح بدوره على الأهل عَرْض البنت على طبيبة نسائية للتأكد من عذريتها!

رفضت البنت، وقالت لهم: أنا البريئة التي يجب أن أقدم الدليل على براءتي، وهو المعتدي الظالم الذي اتهمني وتريدون أن تثبتوا اتهامه!.. والله لا أفعل حتى لو ذبحتموني!

قال لها الشيخ متلطفًا: الله يرضى عليك يا ابنتي هذا أخوك ويريد الحفاظ على شرفك!

قالت البنت: يريد الحفاظ على شرفي باتهامي في عرضي، بسبب أنني أرسلت رسالة للرجل الذي سأتزوجه أستفسر فيها منه عن مستقبل حياتي معه؟.. أيّ طريقة هذه للحفاظ على الشرف، لو كان رجلاً حقًّا، لستر على أخته حتى لو سقطت في مهاوي الحرام والعار، لكنني لم أفعل، وهو ليس برجل!

قال الأب: وأين هي الرسالة؟ ولِمَ لم تعرضيها على أحدنا ليقرأها!

قالت البنت: ألست أنت يا أبي من أخذت الرسالة بيدك ووضعتها في البريد؟ ثقتك بي جعلتك لا تسألني حينها، والآن بعد أن ذهبت الرسالة، وبسبب تشكيك ابنك المريض المُشوش عُدْت تشكّك في الأمر!

تم الزواج ومن دون فحص طبيبة نسائية، ورَغِمَ أنف الأخ المتسلط الذي لم يمنعه شعوره المتضخم المَرَضي بالتسلط، من الخوض في عِرض وشرف أخته ظلمًا وبهتانًا وسقوطًا أخلاقيًّا رنّانًا.

تمّ الزواج.. وما فتىء هذا الأخ الأحمق، يردد اتهاماته عن أخته.. عرضه وشرفه!

الشرف يقتضي أن تحمي شرفك بالقيام على رعايته، وأن تصونه مودة ورحمة، وأن تعمل على "استرداده" إن ضاع لسبب من الأسباب، وأن تبتغي وجه الله في الستر والترفق في العلاج، وليس في الفجور وإشاعة الفحش في اتهامات أختك أو ابنتك أو زوجك أو ابنة عمك.

من الشرف أن تكون رجلاً، ومن الرجولة أن تصون عرضك فلا يؤذى، وأن تحيطه بسياج الستر إن خُدِش.

يقتضي الشرف الرجولة، وتقتضي الرجولة المروءة، وتقتضي المروءة مواقف الحزم والرحمة كل في موضعه.

أي منطق هو هذا الذي تُعامل بموجبه النساء في بلادنا على هذه الشاكلة، وفي غير بلادنا كذلك، وخصوصًا في إسبانيا، حيث جرائم قتل النساء يومية؟!.. إلا إن المجرمين الذين يقومون بهذه الأفعال الشنيعة خارج بلادنا، يَنْبذُهم المجتمع ويُلاحِقهم القضاء ويُعاقِبهم القانون، أما عندنا فيجد المجرمون والمجتمع

والقضاء والقانون، مبررات لأفعالهم الشنيعة في قراءاتهم الشاذة، وفهمهم العقيم لنصوص الدين وتعاليمه.

لم يمنح الدين أحدًا من الأفراد وعامة الناس حق تطبيق حدوده، ولا يملك أحد الحق في ذبح أحد أو تعذيبه أو إيذائه، فما بالنا بالأرحام، والقلوب التي يُفتَرَض بها أن تفيض حنانًا ومودة وحرصًا، أي سقوط؟ وأي ارتكاس؟ وأي كفر؟ وأي إخلاد للتوحش؟ وأي ارتداد عن منطق الفطرة؟ وأي انتكاسة أخلاقية إنسانية نعانيها؟

من أعطاك "حق" اتهام أختك أو ابنة عمك في عرضها؟ من منحك "الحق" في انتزاع روحها بيديك المجرمتين الآثمتين؟ من فوّضك أن تكون "إلهًا" من دون الله في أرضه وبين خلقه؟.. ممن كلفك بالقيام عليهم خدمة ورعاية وعناية وحماية وسترًا وعطفًا ومودة؟

إنها الفوضى العارمة، والانخلاع الكامل من روح الشريعة وأخلاق الدين، وتبرير إهراق الدم.. دمك باسم الدين وحدوده!

لا يُغسل الشرف بالدماء الحرام، ولكن برُقي التعامل الإنساني الأخلاقي الإسلامي الذي يعلمنا جمال الستر، ولطف التعاطي مع الجرح، وكرم الأخذ بيد المتعثر لينهض ويقف على قدميه ويعود.

ما بين مجرمينا المجانين، ومجرمي النظام ومجانينه، تُرتَكب – باسم الشرع البريء من فهمنا العقيم له – جرائم فظيعة بحق الناس في بلادنا، وبحق النساء خاصة، وتُسَجل كلها ودائمًا في ملف ذلك "المجهول المبني للمعلوم المُلْزِم للسكوت"، في دول الخوف والجهل، الخوف الذي يكمم كل الأفواه، والجهل الذي يُكبِّل كل تطلع للخلاص، في البيت وفي المجتمع وفي الدولة.

يا لظلمنا بعضنا بعضًا، يا لظلم الناس نساءهم وأعراضهم، يا للظلم كم هي عاقبته وخيمة على المجتمعات والناس.

لا يمر مثل هذا الحجم الرهيب من الظلم فيما بيننا، والسكوت عنه، مَرَّ "العفو" على شعبٍ أبدًا.

على هامش ذكرياتي الموجِعة مع عصابات الأمن في دمشق، وتعاملها مع الناس بتعسف وامتهان، ومع النساء بخاصة، تذكرت ونحن عائدان إلى بيتنا مُحملان بِحُزنٍ مُلجِم، كل حكايات النساء في دمشق، كل العذابات التي كنّ يتناقلنها في جلساتهن وأسمارهن، كل الدموع التي كانت تُذرف فيما بينهن فلا يعلم بها الرجال، لأنها شأنٌ خاصٌ مغلق على عوالم النساء المنفية إلى صناديق الأسرار وظلال الحظوظ العاثرة، وعلى الرغم من أن معاناة كثيرات منهن لا تمت بكثير صلة إلى معاناة تلك الشابة، محطومَةً في غربتها مابين الحياة والموت في مشفى غرناطة، فإن هذا المنطق عينه الذي أدى بهذه المرأة المغربية أن تنتهي إلى هذا المصير، هو عينه السائد أجواء المجتمع الدمشقي، الذي تُعامَل كثيرات من نسائه من منظور العبودية والاسترقاق والقهر والجبر.. حقيقة يعيشها الجميع، وينكرها الجميع، ويستكبر عن الاعتراف بها الجميع، ولم يفلت من براثنها إلا القلة النادرة.

حين سألتُ الدكتورة حنان، عن سبب عودتها وزوجها من فلسطين المحتلة، بعد أن أنهيا اختصاصهما وحزما أمتعتهما ورحلا من غرناطة، قالت لي: ما استطعت أن أحتمل الوضع هناك.

– تقصدين أوضاع الاستيطان الاسرائيلي المتوحش؟

– لا يا أم ساجدة، حكاياتنا مع الإسرائيليين مختلفة، أتحدث عن أوضاع النساء بالذات، اختصاصي كطبيبة نسائية جعلني في مواجهة وضع مُريع تعيشه النساء، مزدوج المتاعب في غزة في ظل الاحتلال.

– عن أيّ أوضاع تتحدثين بالضبط، لأن مشاكل المرأة في مجتمعاتنا كافة متشابهة؟

– حالات الإسعاف التي كانت تأتيني، كانت تدمرني، ليس لأنني لا أحتمل ملابسات عملي، بل لأنني وجدت نفسي عاجزة منبوذة، في مجتمع لا يريد أن يعترف بأنه على باطل مخيف.

– هذا الوضع تعيشه النساء في دمشق، وفي الدار البيضاء، وفي القاهرة.. وفي كل مكان في بلادنا، وعلينا أن نصبر ونبذل كل ما نستطيع لتغيير أوضاعنا.

– أنت تقولين هذا، لأنك لم تعايني ما عاينت من حالات اغتصاب زوجية، وإصابات بالضرب المبرح المُعْطِب، وجروح مخيفة، ونساء صبايا يأتين باكيات منتحبات يردن "الخِلفة" ولما يمضي على زواجهن شهر أو شهران، خوف تعنيف الأهل والمجتمع أن لم يخرجن من ليلة العرس حوامل، عدا عن حالات الانهيار النفسي والصحي لكل من تلد بنتًا.. أشياء مخيفة، أفظع ما فيها أن النساء أنفسهن يجدن لها المبررات السقيمة!

– لا حول ولا قوة إلا بالله، ألا يوجد قانون؟ ألا يوجد فقهاء؟ أليس هناك من حل؟

– أي قانون يمكن أن يوجد في ظل الاحتلال المجرم؟ وأي فقهاء هؤلاء الذين تتحدثين عنهم؟ إذا كانوا هم من يؤصلون في

المجتمع لهذا الوضع! وأما الحل.. فحدثيني أنت عن الحل الذي وجدتموه في سورية حتى نطبقه في فلسطين في ظل الاحتلال! المجتمع منخور، وضغط الاستيطان الرهيب على الناس يجعل انفجارهم يتوجه نحو الداخل، داخل الأسرة حيث الوضع مؤلم جدًّا، وأنا لم أستطع وحدي احتمال هذا القدر من الألم، ولا مواجهة المجتمع، أصبح الجميع من حولي يعدّونني عميلة لإسرائيل، أجتهد لتقليل نسل الفلسطينيين وأدعو إلى فجور نسائهم!

– كأنك تتحدثين عما كنت أراه وأسمعه في دمشق من زميلاتنا الطبيبات في الجامعة، لا يختلف عنه في حرف ولا وصف.. كن يقضين مناوباتهن في خدمات الإسعاف وسط هذه المواجع التي تبدو وكأنه لا خلاص منها.

يتحدثن ببرودة تثير التقزز، عن مثل هذه الحالات التي تواجههن في ليالي الإسعاف، كالضرب المُبَرِّح الذي يبلغ في بعض الأحيان درجة الجريمة، يأتي الأزواج أنفسهم بنسائهم إلى المشفى، يتركونهنّ مكومات بآلامهن على الرصيف الخارجي وينصرفون، وقد يأتين مع الآباء والإخوة، وكان مما يذكرنه أن تعنيف الأهل للمرأة التي يأتون بها إلى الإسعاف يكون عادة أشد إيذاءً لها من جروحها وإصاباتها، ذلك أنهم كانوا يأتون بهن تحت التهديد والوعيد كيلا يفشين أسرار البيوت، وكانت تلك النسوة يحكين للطبيبات عندما يختلين بهن للفحص النسائي، متوسلات إليهن السكوت عن حقيقة ما يجري!

استأنفت: أخطر ما في حالات أقصى أنواع العنف الزوجي هذه، أنه لا يتجرأ أحد على تجريمها، كأن من حق الزوج أن يفعل بزوجته ما يشاء، وذلك خلافًا لكل تعاليم الإسلام في هذا المجال!

إنهم لا يأخذون من الدين إلا ما يُرضي أهواءهم! ما كان أي فقيه يتجرأ على الكلام في هذا، وما كان أي طبيب أو طبيبة يُقْدِم على قول شيء، لأن ذلك عيب وحرام ويمكنه أن يقضي على مستقبلهم المهني!.. والوضع متطابق في كل من مصر والمغرب، هل تعرفين الدكتورة هدى المصرية؟ إن سمعتِ ما تحكيه لوجدتِ فعلاً أننا أمة مريضة واحدة ذات بلاوي ونيلة منيلة واحدة؟!.

لم يكن الأمر يتعلق بالأحوال السائدة في دولة بعينها في مشرق المنطقة أو مغربها، كانت حالة عامة، تشبه الوباء الذي لا يتعلق بشراسة وخشونة وجهل جيل من الرجال في بلادنا، ولكن بخلل كبير في عملية التربية، ومن فهمٍ مختلٍ لنصوص الدين، وخلط قبيح بينها وبين العادات والتقاليد.

كم نحتاج أو كم يحتاج الآخرون حتى يغيروا الصورة النمطية عنا في أذهانهم؟.. هل الصورة النمطية عنا والمزروعة في أذهان الآخرين تمثل حقيقتنا التي لا نريد أن نعترف بها؟ نأبى التعميم دفعًا للتهمة عن أنفسنا! أكانت تلك تهمة أم مرضًا خبيثًا يجب الاعتراف به وتشخيصه حتى نتمكن من معالجته والتعافي منه؟ كنت أسأل نفسي طوال طريق عودتنا من مركز الشرطة إلى البيت.

نحن لا نعترف بواقعنا الاجتماعي العام المرير البعيد عن الإنسانية والأخلاق، يحاول كل منا منفردًا التنزه والنأي بنفسه عنه وإنكاره، فلا عجب إن تخبط الآخرون في تعاملهم معنا بغير منطق ولا احترام.

***

مدريد أمام ناظري على بعد عدة كيلومترات، تلفها السحب الملوثة بدخان غُبار المصانع المُتناثِرَة على حدودها وعلى طول الطريق المؤدي مباشرة إليها، قد صَبَغ الجفاف حُقولها بلون أصفر قد انْطَفأ نورُه، بدت المدينة على بُعد عشرين كيلومتراً من عاصمتها المركزية رمادية داكِنَة، يَصِلُ ضجيج حركة المرور الهائلة فيها عنان السماء، كانت تلك سنوات قحطٍ، شَحَّت فيها الأمطار وجفَّت الأنهار وتغيرت معالم مدريد البيئية، وهي الخضراء الندية المزدانة بالأشجار والحياة.

ندخل مدريد، مع ما تبقى من متاعنا الذي حملناه من غرناطة، وفي حقيبة العناية بطفلتي ذات الأحد عشر شهراً، كُرَّاستان وثلاثة كتب، أحدها ما فتىء يلازمني أينما نزلت وحيثما حللت، وهو كتاب "الأحاديث القدسية"، كتاب أبيض صغير لطيف، يحمل عطر جدي الذي يُضَمخ ويُمَيز كتبه وبيته وحياته ويديه، ويُذكرُني به وبأيامي معه في دمشق، كأن جدي يناولني إياه من خلال السنين مخترقًا الحدود والغربة.. أسمع صوته: افتحي الخزانة الخامسة على اليسار يا جدو، في الرف الثالث من الأسفل، هاتي الكتاب الأبيض الصغير المندس هناك.

يمسك به، يقلبه، يضع نظارته على أنفه، يقرأ، يتأثر، تدمع عيناه.. ثم يناولني الكتاب، اقرئي "يا جدو" الحديث الثامن عشر بالرواية الثالثة.

أخذت هذا الكتاب معي في رحلتي التي كنت أعلم في أعماقي أن لا عودة منها أبدًا، احتسبته حقًا شخصيًّا.. كان حبلاً سُرِّيًّا ما زال يربطني بجدي، الذي كنت أشعر بأنني لن أعود لرؤيته بعدها في هذه الحياة.

أول عهدي بغرناطة وعندما زرت جامعتها للمرة الأولى والأخيرة،

كنت أرقب شبابها وشاباتها بشيء من الغبطة، وبحنين لأيامي في كلية العلوم وكلية الشريعة في جامعة دمشق، شيء ينبض هنا يميز هؤلاء الشباب جذريًّا من شباب جامعة دمشق، أناقتهم البسيطة جدًّا، ثقتهم بأنفسهم، ما يقولون، وما يفعلون، وكيف يقولونه ويفعلونه، كان ذلك واضحًا، مُشِّعًا، يملأ المكان بعبق خاص.. لعلها الحرية بكل أبعادها تمنح الناس تألقًا وجمالاً ونشاطًا وقوة وحياة وثقة بأنفسهم وبالآخرين، لعلها الكرامة الإنسانية تُنمي الصدق فلا حاجة بالمرء أن يكذب على نفسه ولا على الآخرين، لعلهما معًا.. فمن دونهما لا يكون الإنسان إنسانًا؟

تلك كانت أجمل السنوات وأغناها في تاريخ إسبانيا الحديث، باكورة عقدين زاخرين بالتطور والازدهار والنمو والحقوق والحريات والعزة واسترداد تقدير الشعب الإسباني لنفسه.. كانت تلك بدايات حبو إسبانيا نحو عالم آخر في بُعد آخر جديد تمامًا على شعب لطالما عانى نصف قرن من الحرب والفقر والهجرة، ومن استبداد العسكر بوجوده وإبقائه على هامش أوروبة الاستعمارية الناهضة.

كان "بعضهم" في جامعة دمشق يَدَّعون أنهم أحرارًا، وكانت حريتهم سمجة لزجة قذرة منافقة وكاذبة، لا تشبه هذه الحرية التي تنتشر هنا كعبق زهر النارنج في هواء المدينة.. الحرية هنا طبيعية، أصيلة، نظيفة، لا تشعر بأنها مزيفة، أو غريبة أو مستعارة، يمارس القوم حرياتهم كما يعيشون الحياة، لا يعتدون على خيارات الآخرين، ولا يحاربون بحرياتهم حريات الآخرين، هكذا كانت الأجواء الجامعية في غرناطة في هاتيك الأيام.

انقطعتْ في غرناطة كل صلة لي بعالم الشباب، وعالم الجامعات، وانقطعتُ للعناية ببناتي الصغيرات، لكنني كنت قد حملت معي

من عالم أولئك الشباب في ذلك اليوم اليتيم الذي زرت فيه جامعة غرناطة، كنزًا أدبيًّا صغيرًا كبيرًا، اشتريته بثلاثمئة بيسيتة كانت تساوي في تلك الأيام دولارًا واحدًا تقريبًا، من على "بسطة" كانت تُعرَض عليها الكتب للبيع لدى باب الجامعة، وما كنت أحسن اللغة الإسبانية بعد لأقرأه، شجعني على شرائه أنني لم أجد في المركز الإسلامي الذي كنت أتردد عليه في غرناطة ما أريد من كتب، معظم ما فيه كتب إسلامية، كنت قد قرأتها في دمشق، وهضمتها، ونقحتها، ووضعت ملاحظاتي عليها، وأعدت قراءة ما بين سطورها في كلية الشريعة، مع نخبة من كُتّابها أنفسهم، أو تلامذتهم، بعضها قرأته وعرضته على جدي، ونشبت بيني وبينه "المشادات" بشأن ما كان فيها من أفكار لم تكن لتعجبه.. خصوصًا ما تعلق منها بالفكر السياسي الإسلامي المعاصر، كان يرى أن هذه طامّة.. أن نخترع إسلامًا ليس من الإسلام، وأن نجعل المسلمين حزبًا أو جماعة، نُخْرِجُ من خلالها – بصورة عملية مباشرة أو غير مباشرة، ومن حيث نريد أو لا نريد – كل من عداهم من الإسلام!.

– "يا جدو".. المسلمون ليسوا في حاجة إلى هذه التنظيمات السياسية، إنها تنظيمات تُحَجِّمُ الإسلام، وتجعله حزبًا أو جماعة أو حركة.. والإسلام هو أمة.

– لكن ذلك يا جدي ضروري، فالناس لم يعودوا مسلمين!.

– أعوذ بالله، من أين أتيتِ بهذا الفكر التكفيري؟ كل من وُلِد في الإسلام مسلم، لا يخرجه من الإسلام إلا تصريحه بالكفر البواح!.. استعيذي بالله مما تقولين.

– معظم من حولنا لا يعرفون من الإسلام شيئًا، وحكامنا كفّار، وعلينا أن نجمع جهودنا لقتالهم ونشر الإسلام!

– الله أكبر عليكم.. من أنتم؟ من هذا الذي علمك هذا الذي تقولين؟

– قرأت وفهمت وتعلمت أن حاجتنا ضرورية إلى هذه الجماعات لإخراج الناس من عبادة الناس إلى عبادة الله!

– لعلك تقرئين كتب سيد، ومصطفى؟! كم قلت له وأبلغته أنني غير راض عنه بسبب علاقته بالإخوان المسلمين.. نعم هو ابن أخي وتلميذي، لكنه لم يسمع مني عندما نصحته، المسلمون ليسوا في حاجة إلى تنظيمات سياسية إسلامية، المسلمون يحتاجون العودة إلى دينهم الحق.

كان يقصد بمصطفى.. القائد مصطفى السباعي، وبسيد.. الكاتب الشهيد سيد قطب!.

فكر ديني وأدب ديني وسياسة وتاريخ، من المنظور الإسلامي، محاولات مستميتة لحفظ الهوية التي كادت تذوب وتضيع في خضم دياجير عواصف التيارات السياسية والفكرية، التي كانت تهب على المنطقة التي استعجلت الفرح بظنها أنها خرجت لتوِّها من سطوة الاستعمار.. خرج من الباب، لكنه احتفظ بألف مسمار ومسمار في جدار وجودنا الثقافي والسياسي والجغرافي والجغرافي – البشري والاقتصادي والفكري.

محاولات مجهَضَة على الرغم من صدقها وكثرتها ومثابرتها وكفاحها المستميت في سبيل أهدافها الكبيرة والنبيلة، والتي كانت تصطدم بالأعداء المتوحشين الداخليين والخارجيين من جهة، وبقصور آلياتها عن التفاعل والحيوية اللازمين للتعامل مع واقعنا الاجتماعي المتعفن، ومع واقع العالم الاستعماري الذي يحيط

بنا، بسبب انطلاقها ومراوحتها ضمن نمط تفكير حزبي منغلق متخلف، ظن أصحابه أنهم به، وبشعاراته الرنانة التي تدغدغ عواطف الناس وأشواقهم لوصل ماضيهم بحاضرهم، قادرون على قيادة الشعوب، ومواجهة معضلاتها الخطيرة، من استبداد واستعمار وتفكك المجتمع وتلاشي الإنسانية والهوية!

كانت محاولات في الظل، في العتمة، في الزنازين، وبين أيدي جلاوِزَة لا يعرفون الرحمة، كانت وليدة أجواء الإقصاء تحت الأرض، فلا جَرَم أن جاءت ضيقة الأفق، عاجزة عن التغيير.

الكتابة تحت الأرض غالبًا ما تتغنى بالحرية، لكنها لا تستطيع تعريفها، التفكير تحت سياط الجلادين، يمنح المفكرين الراسخين في العلم قدرة على الحلم بالخلاص، ولكن نادرًا ما يتمكنون من تحديد الخطوات اللازمة للسير نحو تحقيقه.

نحن شعوبٌ ضائعة دون أن تدري بأنها ضائعة، ومِنطقة مُسْتَلَبَة تبحث عن نفسها، تتناوشها سهام الاستعمار الخفيّة، بينما تجري علينا واحدة من أكبر عمليات التغييب والاستلاب والتمزيق وتدمير الهوية طوعًا وقسرًا، تارة عن طريق الغزو المعرفي والمعيشي الغربي الأمريكي والأوروبي، وتارة عن طريق الاحتواء الثقافي الشامل الشرقي الروسي، وتارة بسطوة الرعب الذي شلّ قدرة الناس، كما رغبتهم في التفكير الذاتي والتغيير الذي يجب أن يبدأ من عندهم هم أنفسهم.

كل تلك الكتب كانت محاولات استثنائية عنيدة مواظِبة، لمقارعة ذلك الغزو الاستعماري النفسي والثقافي والوجودي، لإعادة صياغة رؤيتنا للإسلام الغريب بين المسلمين، كانت جهودًا جبارة تبذلها القلة النادرة لـ"إعادة تشكيل العقل المسلم"، كما

عَنْوَن كتابه "عماد الدين خليل"، الكاتب الإسلامي العراقي، كان عنوان كتابه هذا في حينه.. ثورة!

بعض عناوين الكتب تكون أكثر أهمية من محتواها، وتختصر منهجًا، وتطرح أجوبة مهمة عن أسئلة حضارية بالغة الخطورة.

لكنها لم تكن تخرج في مجملها من حيز طرح الفكر والتنظير إلى مجال الفعل والعمل على أرض الواقع.

لا نكاد نجد في مكتبة المركز الإسلامي في غرناطة، أكثر من هذا.. كتب تحوم حول مهمة حفظ الهوية، والإصرار على استنهاض الهمم للخلاص من الاستبداد والتخلف والاستعمار، ولا شيء غير هذا.

الروح والفكر متعطشان لأدب عالمي مختلف، أو فكر إنساني يفتح آفاق رؤيتنا للحياة، أو شعر أو حكايات أو خواطر وانطباعات، تحكي عن البشر وللبشر آلام البشر وأحلامهم، تناقشهم فيما يعيشونه، تأخذ بأيديهم لتضعهم على أول الدرب، تعلمهم الخطو في كهوف الظلام، والسباحة في بحار المجهول.

لا شيء من هذا.. في ظل العطالة العربية العامة عن حركة الترجمة، ونقل العلوم والآداب والفكر الإنساني إلى القارئ العربي، تحفزه على التفكير والتدبر وسعة الأفق واستيعاب كل ما يجري معه ومن حوله.

ذلك الكتاب الذي اشتريته كان كُتيبًا صغيرًا لـ"غابرييل غارثيا ماركيز"، "حكاية بَحّار كان قد غرق"، جذبتني تلك العبارة المكتوبة على غلافه الذهبي باللون الأحمر القاني والخط العريض اللافت "جائزة نوبل للآداب 1982"، بحرٌ ولججٌ وبحارة.. ونوارس،

وحكايات هجرة، وحكايات غرق، وحكايات حياة، ذلك هو "غابرييل غارثيا ماركيز"، أحد سحَرة الكلمة، أحد عشاق الإنسان، أحد أصحاب الأقلام الخالدة، أحد الغرباء الكبار.. الذين يمكن لبعض أدبهم أن يؤنسك في غربة الروح والمكان.

هناك كُتّاب كبار، تحترمهم وتعترف لهم بالإبداع، ولكنك لا تحبهم، وهناك كُتّابٌ كبار، تحترمهم وتعترف لهم بالإبداع، ولا يبارحون، يتركون بصمتهم في نفسك وحياتك وكتاباتك.. "غابريل ماركيز" كان أحد هؤلاء.

ذلك الكُتيب كان الثاني من الكتب التي لا تفارقني، كان معي داخل محفظة ابنتي الرضيعة، في رحلتنا من غرناطة إلى مدريد، ومازال معي حتى الساعة.. أينما تلفتُّ في مكتبتي يجب أن أراه في مكانه المخصص له، إنه يشكل أحد الحدود الجغرافية لمكتبتي الشخصية، ضمن المكتبة الهائلة التي جمعها "أبو ساجدة" في بيتنا من كل حدب وصوب، والتي اضطررنا إلى تركها وراءنا في غرناطة في جملة ما تركناه.. لم تكن المرة الأولى التي نترك فيها مكتبة باللغة العربية وبهذه الضخامة في إسبانية، ونعود فنؤسس لمكتبة جديدة في بيتنا، ولم تكن الأخيرة.

"الكتابة عمل انقلابي".. لنزار القباني الشاعر السوري، الكبير والاستثنائي، هو الكتاب الثالث في جعبتي، وكان الأستاذ "نبيل شبيب"، مدير تحرير مجلة الرائد الإسلامية في ألمانيا، قد أهدانا هذا الكتاب في جملة ما أهدانا من أعمال "نزار القباني" حين زرناه، ونصحني بقراءته، رغبة منه في أن أستمر في كتابة الشعر، قال ضاحكًا: "نزار قباني" قليل الأدب في كثير مما يكتب، أما شعره فهو الأدب!.. اقرئيه فنحن في حاجة إلى شعراء جدد يكتبون كنزار القباني!

كنت أكتب الشعر في دمشق، وتخيل الجميع أنني سأصبح شاعرة عظيمة في غرناطة الأندلسية، لكن غرناطة قتلت الشعر في نفسي، غرناطة كغيرها من الأمكنة لا تصنع الشعراء لكونها غرناطة، الشعر في حاجة إلى حرية وحياة، ولم أعرف طعم أي منهما فيها، لقد انحبس الشعر في نفسي، ولا أجرؤ على القول أنه مات، ولم أكتب في غرناطة إلا خمسة أبيات أو ستة من منظومة شعر حديث، ودّعتُ فيها رفيقتي في كلية العلوم التي لم ترد على رسائلي.. الله أعلم ما فعلت بها وبابنها الأيام؟ انقطعت أخبارها عني ولم أعد أعرف عنها شيئًا، ضاعت في زحمة الضياع السوري الشامل، ضاعت في لجة التغريبة السورية الكبرى تتمدد بصمت في وجود السوريين، تلتهم أحشاءهم وتقطع شرايينهم وهم غائبون مغيبون.. أو هكذا يبدو.

كنت أراها في مراوحتي مابين كلية العلوم وكلية الشريعة، خطوات ثقيلة، وكاهل مرهق كأنه يحمل دهرًا.. تقف صامتة على موقف باص الحلبوني في قلب دمشق، نركب الباص نفسه، ولا تنبس ببنت شفة.

مرة تأخر الباص كثيرًا، اقتربت منها كلّمتها وتعارفنا، وأصبحنا رفيقتَي طريق يومي من الجامعة وإليها.. حكت لي، أنها زوجة "شهيد"، كانت تهمس، وتتلفت يمنة ويسرة، فتلك كلمة محرّمة علينا، وأنه اقتيد إلى المعتقل وقضى تحت التعذيب الوحشي، وتلك معلومة يُعَرِّض البوح بها صاحبها للقتل، وأنها حين استُشهد كانت حاملاً في الشهر السابع، ورزقها الله بمحمود، سمّته على اسم أبيه.. وأنها ستبقى على العهد، ولن تنسى أبدًا، حتى لو نسي كل السوريين أبناءهم المظلومين وراء القضبان وتحت الأرض.

اعتقلوه وقتلوه.. ثم اتصلوا بوالده في الثالثة فجرًا، طلبوا إليه أن يأتي لتسلّم جثمان ولده ويدفنه، كذلك جرت العادة عندما يُقتل الشباب تعذيبًا أثناء اعتقالهم.. وهكذا فعل دون أن ينبس بكلمة، لفّ ولده بسجادة صالة البيت، حمله على كتفه، فجرًا قبل أن يطلع الصباح، حفر القبر ودفنه بمساعدة أخيه الأصغر، وعادا إلى الدار وقد اشتعل رأسه شيبًا.

التراب يغطي حذاءه وملابسه ويديه ورئتيه وروحه وعينيه ووجوده، أصبح الوالد يهتز ويرتجف ينظر ذات اليمين وذات الشمال فلا يرى أحدًا ولا شيئًا، أصابه البكم والوجوم.. فلا كلام ولا سلام ولا حياة، أما الأخ فقد تم تسفيره بعد يومين إلى حيث أخواله في الكويت، وإلى غير رجعة، هكذا تمت مراسم الثكل والحرمان.

الكلّ يعرفون أن ولده قد قضى صبرًا، لكن أحدًا لم يتجرأ على تعزيته وتصبيره.

أمه.. كانت تدور تعزي الناس في أمواتهم كلما قرأت نعوات معلقة على حيطان دمشق، ما أبشع عادة إشهار نبأ الموت هذه وأقبحها، كانت تقتلع النعوة، وتحك آثارها على جدران الحارة بأظافرها، تقول للمتسائلين: أي غباء هذا؟ تهدرون أموالكم، وتشوهون حائطكم، وتعرضون حماقات تفاخركم، من أجل ميت مات على فراشه كما يموت الحمار والبعير! تذهب إلى مجالس العزاء، تجلس هناك تقرأ سورة الصمد ثلاث مرات، وتنفخ على الموجودين، ثم تبدأ بالضحك حدّ القهقهة، حتى تأتي ابنتها فتأخذها من يدها وهي تعتذر من الناس وتنصرفان.

كان ولدها أحد الثوار، الذين قرروا مقاومة هذا النظام بكل وسيلة ممكنة، قاموا إذ أقعد الشعب الخوف، وثاروا على الرغم

من الخذلان العام من حولهم.. اعتُقِلوا ومزقتهم سادية وحوش أعدّها النظام لكل من تُسول له نفسه الوقوف في وجهه.. قُتلوا ودَفعت أسَرهم الثمن أضعافًا مضاعفة.

ما أفظع أن تتلبس بمحنة تنزل بك وحدك، لا تستطيع أن تحكي عنها، ولا أن تشارك بها أحدًا، يحمل معك عنك شيئًا من هول غرقك في جرحها وحزنك.

لا شكوى، ولا تنفيس عن براكين القهر التي تتفجر في القلب سُمًّا يقتلك ببطء، ولكن في نبل وكبرياء استثنائيين.

مرة.. وجدتها وفي عينيها بريق أسىً وتألق غريبان، قالت لي ونحن نحضر درسًا في بنية النواة الحيوانية: سأحكي لك سرًّا، ثقتي بك عمياء، ولكن عديني بالله أن تصونيه:

كل فجر، وأحيانًا لدى العصر، وأنا أهدهد طفلي أرقب طلوع الشمس أو ميْلَها، يأتي العصفور نفسه، يرفرف بجناحيه، يزقزق بقربي، يأكل مما في يدي من خبز، يرقص حول صغيري.. ثم يغادر.

هل تؤمنين بالمعجزات؟.. سألتني وهي تفرك يديها وتنظر إلي مستنجدة.

لا أؤمن بالمعجزات في أيامنا هذه، فالبشر هم معجزة الله الحقيقية والوحيدة، التي تتمكن من وقف كل هذا الحجم من الطغيان والتغول والعذاب، الذي نزل بمئات الآلاف من السوريين الأحرار، ممن فكروا في تلك الأيام أن يخالفوا شعبهم المستكين، ويقفوا في وجه هذا النظام المجرم المسيطر على سورية، فأصبحوا هم وآباؤهم وأولادهم وإخوتهم وزوجاتهم ومعارفهم وجيرانهم وأصدقاؤهم ورفاقهم، ما بين نازح ومهاجر ومعتقل وجريح ومعطوب جسديًّا أو نفسيًّا.

والصمت سيد الموقف، صمتٌ رنان رهيب يتجلى في قدرة عجيبة على إحداث الضجيج، والتعايش معه، صوت أم كلثوم يلعلع في كل وقت، صوت الشاحنات المهترئة تخترق الأزقة الضيقة تصطدم بجانبيها، صوت بائع العرقسوس يصيح، صوت أبو زهير يضرب ابنه اليافع ويلعن أباه في وسط الحارة، صوت عراك بين جارتنا وحماتها.. كل شيء يعوي عواء ذئاب ثكلى جريحة عند أفواه أوكار سُرقت منها جِراؤها.

المصيبة.. أننا وعلى الرغم من كل هذه المعاناة، كنا شعبًا بلا قضية! ما كان أحدٌ في هذا العالم يعرف أو يعترف بمحنتنا الفظيعة تلك، لم يكن في سوريا بيتٌ لم يعرف أهله طعم المحنة في صمت وتصبر، لم يكن هنالك بيتٌ لم يذق طعم الفقد، ما بين شهيد أو جريح أو سجين أو مغيب أو مفقود أو هارب.

ما كان أحدٌ يريد أن يصدق أننا في محنتنا السورية نكاد نلامس حدود المحنة الفلسطينية.. كنا شعب المحنة المصمتة، التي لا يقتنع ولا يعترف بها أحد!.

*****

الغريب للغريب طوق نجاة في لجج الجهل والترقب والخوف.. هكذا يقولون، وهكذا يُخيل إلينا.

تبرع أحد الإخوة في مدريد بوقته "الثمين"، كما قال، بعد أن طار إلى "أهلها" خبر قدومنا عليهم، فبحث لنا عن دار أجرة تليق بأُسر الأطباء، كما قال كذلك، وكان الوحيد الذي تكرّم ممن كنا نعرفهم في مدريد، فبذل جهداً لمساعدتنا في دار غربتنا الثانية في إسبانيا، ومعظمهم من أبناء الجالية السورية والفلسطينية والمغربية الذين يُصنَفون بالإخوة في الله ورفاق الدرب والغربة، كنا نلتقيهم في المؤتمرات الإسلامية التي كانت تعقد كل عام، يجتمع فيها الناس من أطباء وصيادلة وطلبة علم وزوجاتهم وأطفالهم، يُعرَفون بالالتزام بدينهم بدرجات متفاوتة، والالتفاف حول المراكز الإسلامية الصغيرة الناشئة في غرناطة ثم في مدريد، يبحثون فيها عن الوطن الضائع من أيديهم التي حاولت قرع باب الحرية، لكنها لم تفلح في فتحه، يبحثون عن الأهل الذين أصبحوا وراء حدود الغربة، يبحثون عن حياة مشتركة، وهموم مشتركة، وآفاق مشتركة يجدون فيها أنفسهم. يتشبّث بعضهم ببعض فلا يضيعون.

إخوة.. لا أعرف أسماءهم، السوريون هنا من بين كل من نعرف.. بلا أسماء! كلهم يُنادون بعضهم بعضًا بأبي فلان وأم علان.

عادة درجنا عليها.. ألّا نحفظ الأسماء، حملناها معنا من دمشق، حيث كنا نعيش ويلات قمع النظام للثورة التي نشبت مابين السبعينيات والثمانينيات، الأسماء خطيرة! ومن أجل سلامتك وسلامة الآخرين، عليك أن ترغم نفسك على نسيان أسماء إخوانك وأصدقائك ورفاق غربتك، عليك أن تنسى أسماءهم، وألقابهم، ومن أي مدينة جاؤوا، ولماذا أتوا إلى إسبانيا، وماذا كانوا يفعلون في سورية حتى اضطروا للخروج منها، أو ماذا فعلوا في إسبانيا فوجدوا أنفسهم وقد سُدّت في وجوههم سُبُل العودة إلى سورية، كان الأمر أشبه بأساليب التعذيب النفسي، اِنْسَ الاسم، لا تَسلْ، لا تتذكر، اطرده من الذاكرة!.. و"أنتِ على وجه الخصوص، أنتِ.. هل تسمعين أنت يا "أم ساجدة" – يعني أنا بسنوات عمري الأربع والعشرين – اِنسَي الأمر تمامًا، لا تُخَزِّني شيئًا من هذا في ذاكرتك، فذاكرة أصحاب الأقلام خطيرة، وما أدرانا متى وأين سوف تنفجر بهذه المعلومات"؟

هكذا نسيت اسمي في غرناطة، حتى إذا ناداني أحدٌ به، استغربت واستهجنت ذلك الاِسم الغريب البعيد الذي أصرّت جدتي على تسميتي به بسبب أغنية كانت تحبها! لم أحبه قط، وما عاد – لحسن الحظ – جزءاً من حياتي ولا من وجودي، وخصوصًا أنني وحتى في بيتي، لم أعُد أنادى كذلك إلا باسمي الجديد: "أم ساجدة"!.

فبيتي لم يكن في واقع الأمر بيتي.. كان امتدادًا مكانيًّا ومعنويًّا للمركز الإسلامي في غرناطة، بيتي كان خلية نحل، تمور بالحياة والحركة ونشاطات شباب ذلك المركز، نشاطاتهم "الخطيرة"! التي مَنَعت معظمهم من العودة إلى سورية، مثل: صلاة الفجر جماعة في بيتنا وقراءة شيء من القرآن بعدها، الاجتماع على فطور شطائر الزعتر والبندورة، أو الفول المُدمس والحمّص،

إفطارات جماعية في رمضان، صلاة العيد والخروج إلى مطعم للاحتفال وكأننا أسرة واحدة، حلقة عِلم أسبوعية يقرؤون فيها كتابًا مُملاً ثقيل الظل، يتعلق بالفقه أو بأسباب النزول، ترتيب مكتبة المركز الإسلامي، الاجتماع فيها للدراسة قبيل الامتحانات.

مراجعة برامج للثقافة الإسلامية وضعها أحدهم، ولم يستطع أحد استكمالها، أو تطبيق خمسة في المئة منها خلال الخمسة أعوام التي قضيتها في غرناطة، جمع تبرعات لمنكوبي الحروب المفترسة المدمرة في أفغانستان وفلسطين، أو أي بلد تنزل بها النوازل الطبيعية من حولنا كالمغرب والجزائر، رحلات جماعية نخرج فيها جميعنا إلى "البنتانو" – الغابة، الحقل– في غرناطة، يقوم الشباب فيها بشواء اللحم وعمل السّلَطة واللبن الرائب، يأكلون ويلعبون الكرة ويشربون الشاي، يتناقشون ويختلفون ويتشاجرون ويتصالحون، يُفصفصون بزر البطيخ، و"ينحرون" بطيخة عملاقة اصطحبوها معهم، يشربون الشاي من جديد، ثم يعودون إلى بيوتهم في غرناطة.

وكان من أهم نشاطاتهم المتميزة، حضور مؤتمرات ثقافية اجتماعية في كل عام مرة أو مرتين، نأتيها من عدة أنحاء من إسبانيا، للاستماع إلى محاضرات ضيف إسلامي معروف، يحدثنا عن غربتنا وعن الهوية التي يجب أن نتمسك بها فلا نذوب ولا نتلاشى.

تلك كانت نشاطاتنا الخطيرة، بالغة الخطورة التي جعلت حكوماتنا والحكومة الإسبانية تضع علينا كل إشارات الاستفهام والتعجب!.

ابتكرنا في غربتنا "أُسْرة كبيرة" ممتدة مكان تلك التي فقدناها، وصنعنا في مسجدنا ذاك وطنًا بديلاً، وطنًا لا يحارِب عقيدتنا

والتزامنا بديننا، وأسرة لا يحكُمها الخوف والرُّعب وتقاليد تُكَممنا وتمنعنا من الحركة، وتحرمنا من ممارسة حقنا في الحياة.. وإن كانت درجات قدرتنا على التعامل مع هذه الواحة من الحرية، تختلف بحسب طاقة كل منا الشخصية وجرأته على فكّ زَرد حديد قيود العبودية تلك التي استصحبها معه تُطَوّقه وتخنُقه.

اتخذ أولئك الشباب من بيتنا في غرناطة دارًا، ومن أبي ساجدة أبًا، وبالتالي.. كنت "أنا" أمَّهم في الله!.. أُمًّا تصغرهم أو تتساوى معهم في السن، وكان في ذلك قمة سعادتي، ومنتهى ما أمّلته من العيش في خضم العمل الإسلامي، والحياة لله، ولكن كان في ذلك أيضًا ضياع المتعة والشعور بسنوات الشباب، وكان فيه بعض نكد الحياة التي لم يعد من حدود تفصل فيها ما بين الشخصي والعام.

"أم ساجدة".. اسمي الجديد.. كان ذلك وجعًا في الروح مزلزلاً -حُلوًا في آن.. انقطاعٌ عن الوطن، عن تاريخك الشخصي، عن مرحلة الشباب والدراسة، عن الخصوصية، انكفاءٌ على الذات الجديدة، داخل البيت الجديد، والوضع الجديد مع أناس أتعرف عليهم للمرة الأولى في حياتي، لا شيء مشتركًا بيننا البتة، إلا ظننا "الانتساب إلى الله"!.

كثيرًا ما تساءلت، إن كنا حقًّا قد أتينا من البلاد نفسها، وأحيانًا من المدن أو الأحياء نفسها؟ أن تأتي من حي معين، أن تكون ابن أسرة معينة، أن تكون أمك معلمة أو خياطة أو متفرغة لإدارة بيتها.. هذا يحدد سمات شخصيتك وتفكيرك وسلوكك ويجعلك مختلفًا عن غيرك.. فسيفسائية ما بعدها فسيفسائية، وغنى بشري هائل، تنوع ثقافي عجيب، تتصارع كل مكوناته في بوتقة تشظٍّ كبير مؤلم، نعاني منه كشعوب متفرقة، وكمنطقة تغلي.

تبدو مجتمعاتنا كبلورٍ عتيق مكسور متناثرة شظاياه إلى ألف قطعة وقطعة، نبدو في مرآة غربتنا للوهلة الأولى وكأن شيئًا لا يجمعنا، لا طريقة التفكير، ولا أسلوب الحياة، ولا أولويات الخيارات، لا شيء.. بحرٌ متلاطم، كل من فيه ينتَحِلُ وصلاً بليلى المتروكة تذوي وحدها.

أحيانًا تظن أنك لا تعرف هؤلاء الأشخاص، ولا تستطيع التفاهم معهم، ولا الاستئناس بهم، ولا تجد ذلك الخيط الرفيع الذي يمكنه أن يضم شتاتهم.. لكن شيئًا كبيرًا وعميقًا في واقع الأمر كان يجمعنا فعلاً على الرغم من كل تلك الأشياء التي تفرقنا، رباط غليظ يشد بعضنا إلى بعض، نتمسك به فلا نضيع ولا نذوب في هذا البحر اللُّجي المخيف، كنا مهدّدين في غربتنا هذه كل حين بالغرق.. وكانت تلك "العلاقات في الله" المنارة والمرساة وسبيل النجاة الوحيد.. على اختلاف درجة فهم كل منا لها، ودرجة تحققه بها، ودرجة صدق وعمق شعوره بها.

"العمل الإسلامي"! ذلك إذًا الاسم الجديد الذي يجمعنا، نحن أبناء الاضطهاد والضيم والتغييب، من "المتدينين" الآتين من كل مكان، تشكلت منا هذه الشريحة الجديدة في الوطن كما في المهجر، وُلِدت في خضم صراعنا كشعوب مع المستبد المجرم الإقصائي الذي يحارب ويشوّه ويموّه ويغيّر ويستلب "هويتنا" في عقر بلداننا، ويمنعنا من أن نكون مواطنين نتمتع بكامل حقوق المواطنة إن نحن تحققنا بها! ثم **برزت مشكلة هذه الهوية في غربتنا، غول حقيقي يريد أن يفترس الجميع . يشعرون به ولا يكادون يرونه، يلمسونه لكنهم لا يستطيعون استيعاب وحشيته وقدرته على الابتلاع والازدراد والسحق والتمزيق.**

إصرار النظام الفاشي الإقصائي الطائفي المجرم في سورية، على تذويب هويتنا الجماعية كشعب، دفع الطيبين العاديين الخائفين من الذوبان، للبحث عن هويتهم، من خلال هذا الذي تواضَع الناس على تسميته بالعمل الإسلامي.. "عنوان" جديد غريب لافت مخيف، وفّر لنا أمنًا في صميم الغربة، وهوية في لبّ الضياع، ووجودًا في ذروة ألم الخوف من التلاشي.. ومظلة تقينا من إقلاع السماء وسط هبوب الأعاصير..

***

– والله عجيب.. كيف لم تحفظي اسمي حتى اليوم، أربعة أعوام ونحن في الجامعة، نلتقي دائمًا في مسجدها، نأكل قريبًا بعضنا من بعض، ونصلّي معًا.. وفي كل مرة تسألين عن اسمي؟!.. أتفعلينه عامدة، أم أن في الأمر نكتة لم ألتقطها.

– صدقًا.. إنني أغبى من عليها، عندي مشكلة ما في دماغي، لا أستطيع حفظ الأسماء.

– أيْ مشكلة هذه؟ كلما التقينا تسألينني عن اسمي.. هذا مزعجٌ جدًّا!.

– أرجو ألّا تغضبي، وأن تسامحيني.. لقد عودت نفسي ألّا أحفظ الأسماء.

– ماذا؟ هذا غريب جدًا!

– لا أستطيع أن أشرح لك الموضوع، لكنني رأيت أن هذا أفضل لي ولكل من ألتقيه.

– لا تخيفيني..

– لا.. لا تخافي، الموضوع يتعلق بما أكتبه، ولا شيء غير ذلك.

– ما تكتبينه في صحيفة الحائط في مسجد الجامعة جميل ويعجبني.. ما علاقة ذلك بالأسماء؟ أنت لا تكتبين في السياسة؟ ولا تتدخلين فيما لا يعنيك؟

ثم أردفت وهي تضحك: أنت "حبابة" و"عاقلة".. أليس كذلك؟

قلت ضاحكة، وبينما كنا نبتاع شطيرتي فلافل ونحن ندخل إلى الجامعة: لا.. لا أتدخل فيما لا يعنيني! ما هذا الكلام المغرض؟ كلام أعدقاء!

ودّعنا بعضنا في ودّ وتسامح، ذهبت هي إلى مبنى كلية الطب المجاور، ودخلت بهو كلية العلوم.. ومنذ ذلك اليوم، وعلى الرغم من أنني لم أعد لرؤية "أُمامة"، إلا أن اسمها لم يفارق ذاكرتي.. أذكره كلما ناداني أحدهم بأم ساجدة، وكلما ناديت إحداهن بأم أحدهم!

كانت تجربة "نسيان الأسماء"، عنوانًا جديدًا لمرحلة جديدة في حياتي، يصرخ كل ما فيها بمسمىً واحدٍ.. "الغربة"! لكنه في الوقت عينه كان رياضة "حيوية" و"مسلية"! تتصل بشبابِك الذي لم تعشه، وبعمر "الولدنة"، تشعرك بخطورة الحدث والناس والوطن البعيد والحرية والغربة، رياضة عقلية قهرية فاتنة، فيها من المغامرة ما يشبه اللعب، وفيها من الخطورة ما يشبه القتل! اتصلتْ بأيامي في جامعة دمشق، كنا نخشى أن نحفظ أي اسم، خوف أن نقع في أيدي المخابرات، وأن نقع في أيدي المخابرات في دمشق كان أكثر من عادي ومتوقع في كل لحظة، فنضطر إلى الإبلاغ عن "الأبرياء" تحت التعذيب الذي كان الجميع يرهبوننا به ليلاً نهارًا.

الحديث عن "البراءة"، يوشي بأننا "مذنبون"! والتهمة: الكتابة!.. أنت إسلامي وكاتب و.. "امرأة شابة"! إذًا أنت ملاحق

ومُتّهم من قِبل الجميع: النظام الحاكم، المجتمع الأجرب، أهلك، إخوتك، أبناء الجيران.. بقالية الحارة، محل بيع القرطاسية في حيّك، الجماعات الإسلامية الموبوءة بسوء الظن والتخشب، وشيخك نفسه أو موجهك الديني.. الذي لا يمكنه أن يستوعب، **ماذا يعني أنك "تكتب"؟ و"لماذا"؟ . . و"يخرب بيتك على هذه العَمْلِه السوداء"؟ و"من هذا الذي دسّك علينا لتكتب"؟**

هل هناك بالنسبة إلى شابة متدينة ملتزمة في العشرين من عمرها، ما يمكن أن يُكتَبْ في غير أحكام الماء الطهور والحيض والنفاس وواجب المرأة في طاعة زوجها؟ هل هناك بالنسبة إلى شاب متدين ملتزم في العشرينيات من عمره شيء يمكنه أن يكتبه خارج حدود المُربع المخصص والمنضبط لفهم الدين وقواعده وأصوله وتاريخه، كما علمه شيخه حرفيًّا لا زيادة ولا نقصان؟ إن هذا لشيء عُجاب!

ذهبت مع أسرتي إلى حمص لحضور عرس، فدعتني ابنة عمي لحضور حفل، أومأت وهي تغمز لي بطرف عينها، أنه حفل خاص جدًّا، تركتُ العرس وذهبت معها، وخصوصًا أنني أكره الأعراس ولا أطيقها، كانت أعداد الفتيات من الحضور في ذلك الحفل الخاص كبيرة جدًّا، كان حفلاً دينيًّا مهيبًا، أقيم لتكريم شابة في مثل عمري، قالوا إنها ألّفَت كتابًا!

كنتُ هنالك جالسة بين الحضور، أتمعن في وجه الشابّة الكاتبة الكبيرة، وأقلب صفحات الكتيب الذي وزعوه علينا والتي لا تتجاوز الثلاثين صفحة، يتحدث في الفقه أو في السيرة، والمعلمة "القائدة" تبالغ في امتداح الشابة إلى درجة لا يمكن

احتمالها.. وكان هذا الجو الحمصي العام، يحملني رغم أنفي إلى "جوّي" الشامي الخاص!.. عندما أتت بي "شيختي" إلى بيتها، لتستجوبني بخصوص كتابي الأول، وبحضور شيختين أخريين مراقبتين لا أعرفهما:

– من كتب لك هذا الكتاب؟ قولي الحق، ولا تكذبي!

– أنا كتبته!

– أنت كاذبة! ومنافقة!

– يا"آنسة"[1] أنا كتبته..

– ثلاثمئة صفحة، وتقولين إنك كتبته، ووحدك، ولما تفقس عنك البيضة! لا يمكنك الكذب علينا بهذه الوقاحة! قولي الحقيقة؟

– عندي أكثر من ثلاثة آلاف صفحة مكتوبة غير هذا.. أنا أكتب منذ كنت في الخامسة من عمري، وحضرتك تعرفين هذا.

– أعرف أنك جيدة في الإنشاء، ولكن أن تكتبي كتابًا في ثلاثمئة صفحة! كيف طبعتِه؟ وما أدراك أنت ما الكتابة، وما الطباعة؟

– أمي هي التي ساعدتني على البحث عمن يطبعه، والسيد رضوان دعبول، صاحب "دار البشير" للطباعة والنشر، هو الذي تكفل بالأمر.

– لمَ لمْ تحدثيني عنه؟ ولمَ لم تقولي لي بأنك تؤلفين كتابًا؟

– أنت أوقفت الحلقات يا أستاذة، واستثنيتني من الدعوة إليها لما أعدْتِها!

---

(1) "آنسة" بمعنى أستاذة في الاستعمال الشعبي الدمشقي.

– وعلى الرغم من ذلك، كان يجب أن تتصلي بي أنت وتحدثيني عن أنك تؤلفين كتابًا، الله أعلم بما كتبته فيه؟

– ألم تقرئيه يا أستاذة؟ لقد أتيتك به فور أن تمت طباعته، عندما وصلتني أول أربع نسخ، جئتك بواحدة.. وقد أخذتِها مني، ورميتِها على الكنبة، وقلت لي: اذهبي الآن ثم نرى!

لماذا يكون التكريم البالغ نصيب بعضهم، والشك البالغ نصيب آخرين؟ سؤال بقيت أفكر في جوابه طويلاً، أقلبه على كل الوجوه الممكنة! نحن أيضًا نتعامل مع بعضنا البعض، بآليات تعامل عصابات الأمن معنا، بعضنا مدعوم، وبعضنا مخذول! بعضنا مدسوس والآخر منحوس! بعضنا ابن السيد والآخر ابن الغسالة، وعلى الرغم من أنني كنت ابنة سادة من السادة، فلقد اعتُبِرت – ولله ألفُ ألفِ حَمْدٍ ومنة– ودائمًا محسوبة على المخذولين والمَنحوسين وأولاد الغَسّالاتِ البَشرية!

ربما.. لأن أولئك يتحركون في الفلك الخاص المرسوم بدقة.. يدورون فيه لا يتجاوزونه، لا يخرجون عن المسار، تَصُبّ كل جهودهم المقننة في خدمة الجوقة[1]، أما بعضهم الآخر فقوانين الجاذبية "الأرضية" و"النجومية" لديهم معطلة، يخرجون عن السياق، وعن النَص، ويأبون الدوران في مدارات أحد.

إنها بكل بساطة علاقة الآلهة بالعبيد.. إنه استنساخٌ لآلية التواصل بين الخالق والمخلوق، ومن حول كعبتهم يطوف الأرِقّاء مُسبِّحون بحمدهم، وكلما أمعنوا في التذلل والولاء، تصعّروا وارتقوا لدى الأرباب وارتفعوا!

يستعصي من ذاق طعم حريته في عبودية الله على اتخاذ أي "معبود" غيره. . فيتحرر بها من قهر كل أنواع الأرباب المزيفين.

(1) **الجَوْقُ**: كلُّ خَلِيطٍ من الرِّعاءِ أمرهم واحد/ معجم المعاني الجامع الإلكتروني.

درسٌ بليغٌ تعلمته من جدتي لأمي، العجوز الأميّة المريضة التي لا تكاد تبين، رأتني مرة في حالة هياج، أدخل وأخرج، وأحمل صواني الطعام الرمضاني لأوصله سيارة رفيقة لي في حلقة الدرس التي أحضرها، كانت قد أتت لنذهب فنوزعه على بعض الفقراء المعدمين في حي "الشيخ محيي الدين" الدمشقي قريبًا من دارنا.

سألتني الجدة: ما بك يا ابنتي؟ صلّي على النبي، لمَ كل هذا الاضطراب والمبالغة في الاهتمام؟

قلت لها: سيؤذّن المغرب يا تيتة، وهذه صديقتي أتت بسيارتها لتأخذني، وينبغي أن أقوم بالعمل بشكل جيد..

سألتني: حتى لو أتت بمصفحتها، تشرفنا بها وبسيارتها، لا يستحق الأمر كل هذا الاضطراب من جهتك.. لم أرك تهتمين كذلك لأحد من قبل.

قلت لها مبررة اهتمامي بالعمل مع تلك الأخت: إنها ابنة وزير يا جدتي، ابنة وزير!

فما كان جواب الجدة إلا كلمة واحدة: طز!

أمام دهشتي الكبيرة جدًّا، ضحكت جدتي الشامية "أم ياسين" وقالت لي: طز وستين طز، "طز" كلمة تركية يا تيتة، تعني "مالح"، أو تعني أي شيء آخر.. لا ابنة وزير، ولا ابنة الرئيس الجحش نفسه تستحق منك أن تعيريها أي اهتمام بسبب منصب أبيها! نحن لا نعبد إلا الله، ولا نعمل إلا له، ولا كبير عندنا غيره.

كانت تلك "الطز".. أبلغ صدمة فكرية أخلاقية سلوكية عرفْتها في حياتي! غيّرت مجرى اهتمامي بالناس من حولي، وطريقة

رؤيتي إلى نفسي وإلى الآخرين.. ولم يعد عندي من كبير منذ ذلك اليوم، إلا الله.

أحدثت "فرملة" في سيري في اتجاه خطأ.

ربما عرفت وتعلمت هذه الحقيقة من قبل، لكن جدتي رسختها في ذهني عن طريق تلك الصدمة اللغوية الأخلاقية.

يكاد خوف الشباب في الشام من سوء ظن الناس بهم وسوء معاملة المجتمع لهم، أن يوازي الخوف من التعذيب والاعتقال الحاضِرَين في حياتهم، هكذا يعيش مئات الآلاف من الشباب الغاضبين الثائرين ضد النظام، إسلاميين كانوا أم شيوعيين أم من نشطاء الأكراد القوميين، أو من أي انتماء لا ترضى عنه قوى الأمن في سوريا، إلى حدّ أنني وفي كل سجدة كنت أسجدها في صلواتي، كنت أطلب إلى الله أن لا أُمتَحن بثلاث: السجن والاغتصاب وذكر أسماء من أعرف من الإخوة والأصدقاء والأصحاب والأقارب الأبرياء.. فيُبْتَلون بسببي بما أعلم، وما لا أعلم.

وإذا كنت أنا نفسي لا أدري ما التهمة التي يمكن أن أُعتَقل بسببها، إلا الكتابة عما نعيشه من ظلم وفساد وإجرام وأوهام!

يستوي في ذلك أن تكتب عن عفن المجتمع الذي نعيش فيه، أو عن توحش السلطات التي تحكمنا.

كانت تلك ثنائية الرعب والقهر والخوف ولجم الحياة في عروقنا.

لم يكن هذا الأمر نكتة.. كان ذلك طريقة حياة، وكان موضوع نسيان الأسماء أحد الأشياء المتعلقة به، كما أحد الأمور التي وصلت ما بين أمسي ويومي في غربتي، ضمن هذه الجالية الصغيرة المُغلقة على عذاباتها، وذكريات الأوطان والأهل، التي خلفها الناس وراءهم، في رحلتهم نحو ما ظنّوه حرية وانعتاقًا، كشفت لنا

الأيام أننا وعندما خرجنا من تلك الأرض، كنا قد حملنا معنا بذرة الاستبداد الشيطانية، كانت مزروعة في أحشائنا، تنمو مع نمو الجاليات وتكاثر أعدادها، وما كنا نظنه تحرراً من قيود الدولة المستبدة والمجتمع المعطوب، انقلب في غربتنا إلى استرقاق لا يرحم، لبعضنا البعض، وجحيم معارك اجتماعية لا تهدأ ولا تُهادِن في عمق البعد الزمني والمكاني الجديد الذي أصبحنا فيه.

جوٌ ملتَئمٌ – متنافرٌ، وبكثير من حذافير عفنه وضموره وقصوره وتخلفه واستبداده وقدرته على القمع والشك والاستلاب، مُصَغرٌ مستنسخٌ عما كنّا نعيشه في ذلك الوطن، من عادات وتقاليد وأنماط فكرية وسلوكية وأخلاقية مَرَضِيَّة تالفة قميئة، جوٌّ موبوءٌ بكل شيء إلا بالحياة والحرية،على الرغم من الهجرة، التي كان من المفروض أن تعني فيما تعنيه، البحث عن الحياة والحرية!.. حيث كانت كلمة "الانعتاق"، لا تتعلق دائمًا بالسلطات الحاكمة المستبدة، بل بالأسرة، واستبدادها بالابن، الذي خرج من بلده في حالات كثيرة ليتخلص من عبء عقوق الوالدين، بسبب استحالة تفاهمه معهما على كثير من شؤون حياته.

الاستبداد لم يكن أمرًا خاصًّا بالأنظمة الحاكمة، كان مرضًا عضالاً يعاني منه مجتمع بأكمله.

استبدلنا في غربتنا.. باستبداد الأسرة وتعسفها استبداد "الجالية" وتعسفها، وتنطع "الشيخ" وتطفيفه، بتنطع "مجموعة العمل الإسلامي" وتطفيفها.

تلك واحدة من أكبر المحن التي عشتها في غرناطة ثم في مدريد، ولم أكن أعلم أنها ستمتد معي إلى ما يشبه اللانهاية!.

***

تركنا غرناطة إذاً، وما كدنا نفعل.. وجئنا مدريد للبحث عن عمل في مستشفياتها التي كانت تشهد تطوراً مُطّرِداً، وتطلب أعداداً كبيرة من الأطباء في تلك الأيام، كما لتستطيع بناتنا الالتحاق بالمدرسة العراقية أو الليبية الموجودتين فيها، ولم يتحقق أيٌ من الأمرين، فلا اشتغل أبو الأولاد في أي من هذه المستشفيات، ولا رضي إلحاق أولاده بهذه المدارس التي كان يقول إنها تحمل فكر "البعث" الإجرامي المُجَرْثَم، أو فكر القذافي المختل وكتابه الأخضر.

قال: لقد حُرِمنا العودة إلى بلادنا بسبب هؤلاء القتلة، لا لِنُسَلم إليهم أولادنا ليصيغوا عقولهم كما يريدون.

لا أدري.. هل كنّا قد ارتكبنا غلطة لا تُغتفر، أم أن ما فعلناه كان عين الصواب؟ ففي واقع الحال لم تكن تلكما المَدْرَسَتان – على الرغم من سيطرة بعث صدام وجماهيرية القذافي عليهما، تُعَلِّمان التلاميذ مناهج البعث العراقي ولا نظريات الجماهيرية الليبية بحذافيرهما، كان الأساتذة ومعظمهم من المهاجرين الفارين من حُكم الرجلين، يُعلمون الأولاد ما تُمليه عليهم ضمائرهم، واحتياجات الأولاد في الغربة، وواقع الحال في إسبانيا.

في مدارس مدريد العربية كان خروج المُعلمِين عن النص هو القاعدة، على الرغم من أن جدران المدرستين قد غصّت بأقوال وصور القائدين المرذولين.

المناهج المفروضة من قِبل حكوماتنا العتيدة، مناهج قميئة، متخلفة، تخدم الأنظمة، وتُؤلِّه القادة المستبدين، تارة باسم القومية، وتارة باسم الإسلام، وأخرى بأسماء مستترة للجنون!.. كما كانت مُعَدّة بشكل مدروس لافت، لتعطيل القدرة لدى الطلبة على التفكير والنمو العقلي الإنساني الطبيعي للبشر، وكان على

المعلمين ذوي الضمائر الحيّـة، أن يتصرفوا ويتخذوا التدابير التعليمية اللازمة، لإيصال مثل هذه المناهج المُوغِلة في الارتكاس، إلى تلاميذ يعيشون في مدريد نهاية القرن الميلادي العشرين.. قام أولئك المعلمون بمهمة شائكة شاقة، وأنجزوا عملاً صعبًا، وخرّجت تلك المدارس أعدادًا لا يستهان بها من خيرة شباب وشابات مدريد، دخل معظمهم كليات الطب والصيدلة، وكانت نسبة البنات بين هؤلاء ساحقة.

ترتب عن عدم عمل أبي الأولاد في تلك المشافي الحكومية المدريدية، وعدم اِلتحاق أولادنا بتلك المدارس العربية، الكثير من الأمور التي غيرت مجرى حياتنا مرات عِدة، وجعلتنا أسرة تعيش في تنقل دائم، وغربة مضاعفة مدقعة عن معظم من حولنا من أبناء الجالية، لم تكن تعجبهم القرارات التي نتخذها بصورة مغايرة بشكل جذري لكل قناعاتهم في هذه الحياة، ومنها قرار إلحاق البُنَيَّات بالمدرسة الإسبانية، أو على وجه الدقة بالمدارس الإسبانية، فلقد اضطررنا إلى تغيير تسع مدارس خلال بضعة أعوام، وكانت أُسَرٌ قليلة جدًّا في مدريد تلك التي اتخذت هذا القرار "الخطير" من وجهة نظر معظم أبناء الجالية، فمعظم من نعرف من إخواننا، ألحقوا البنات بالمدرستين العربيتين الوحيدتين آنذاك في مدريد، الليبية والعراقية، وألحقوا الذكور بالمدارس الإسبانية، حيث كان –وما زال– الخوف على الأعراض أكبر بكثير جدًّا من الخوف على اللغة أو العقيدة أو الدين.

معضلة كبيرة كانت هذه، وكانت المسألة الأولى التي احتدمت بسببها الخلافات بيننا وبين عدد كبير من الإخوة والأصحاب في مدريد.. كان مصطلح "الشرف" يتطابق في أذهان الناس مع مصطلح "الدين"، والمعني بالشرف هي "الأنثى" فقط، وليس الذكر!

هكذا بالضبط حَدَثَ الخلط ما بين مصطلحيّ "الالتزام"، و"المحافظة"!.. اختلط الحابل بالنابل.

كان "المحافظون" من أبناء الجالية أعمق وأشد تمسكًا بالعادات الاجتماعية، من "الملتزمين"، بل لقد بَدَونا شبه "متحررين" مقارنة بتمسّك "المحافظين" من أصحابنا بحذافير التقاليد العامة للسلوك والأفكار المعروفة في بلادنا.

التزامنا بالإسلام حقيقة لا وراثة، وفعلاً لا قولاً، مَنَحَنا هامشًا كبيرًا جدًّا من القدرة على النمو الإنساني، بما نعرفه يقينًا عن ديننا وحضارتنا وتاريخنا، مما مكننا من طرح الأسئلة الضرورية على أنفسنا وجالياتنا ومجتمعاتنا في الوطن، كما رَفَعَ من سويّة جاهزيتنا للتعامل مع "الآخر" الإسباني تعامل الأنداد.

كان "المحافظون" منا، يتشبثون بما نشأوا عليه، مخافة أن يَضلّوا طريقهم وسط أدغال الجهل بالإسلام.. وكانت درجة جهل المسلمين بالإسلام في غربتنا مخيفة.

كنا نراوح ما بين أقصى اليمين "المتطرف"، وأقصى اليسار "الملتزم"! في جالية مسلمة معظم أفرادها ينتمون إلى فئة "الوسط المحافظ"!

عن الانتماءات الإسلامية في جالياتنا المغتربة أتحدث بعيدًا عن السياسة.

أن يختلط ابنك الذّكَر بالإسبان، ويذوب بشكل كبير جدًّا في المجتمع الإسباني، فيشرب الخمر، ويزني، ولا يصلي لله ركعة، إلا أمام الآخرين وعندما تصطحبه معك إلى المسجد أحيانًا، كل هذا لا يُعدّ إثمًا فرديًّا واجتماعيًّا مخيفًا.. أما أن يَحدث عُشر هذا مع "ابنتك الأنثى"، وأن يُفتَضَح الأمر بين الناس.. فتلك هي الطامة الكبرى، التي يحرص الجميع على تلافيها عن طريق حماية

البنات بما يستطيعون، وغض النظر عن البنين، وعدم المبالاة بأوضاعهم، إلى حدّ تضييع كثير من أبناء المهاجرين الذكور، في الوقت الذي التَحَقَت بالجامعات ومعاهد التحصيل العليا، غالبية البنات من الجيل الأول المولود في إسبانيا من أبناء المسلمين المهاجرين الملتزمين.

***

لدى وصولنا مدريد، التفّ حولنا وقام بمساعدتنا بعض إخواننا، من السوريين والفلسطينيين والمغاربة والجزائريين والمصريين، من عامة أبناء الجالية المسلمة في المدينة، مدّوا إلينا أيادي النجدة في هجرتنا تلك، كانوا طوق نجاة وأخُوّة ومحبة، رأينا منهم الكثير من التلهف، على العكس ممن نعرفهم ويعرفوننا شخصيًّا، ممن كنا قد تقاسمنا معهم من قبل في غرناطة، الخبز والفول المدمس، وقصر الحمراء، والعمل الإسلامي، ومباريات كأس العالم في إسبانيا، كانت تجمعنا بهم أخوّة وثيقة العرى.

كثيرون يظهرون لك المودة ما دمت أنت هناك بعيدًا، أما إن أصبحت قريبًا منهم، معهم.. اختلفت مقاييس الحب والود، وحلّت محلّها مقاييس بشرية أخرى!

من غرناطة، بقيت لنا مودّة المسناوي والعبودي وغيرهما من الإخوة الأبناء، من الشباب المغاربة الإسبان، مودة لازمتنا قمرًا مضيئًا طوال حياتنا، أينما حللنا وارتحلنا، جمعنا بهما ما هو فوق الأخوّة، وما هو أكبر من روابط الدم، وأعمق مما يجمع الغرباء.

تغلبت علاقتنا بهما على عوامل الزمن، وخلافات الرأي، وبعد الشقة والسفر والتنقل الدائب، والخصامات التي تُحدِثها كل علاقة قريبة، وما ينجم عنها عادة من سوء ظنون وتصرفات.

لا تخلو الحياة على مرارتها ونصبها، من مباهج آسرة منها أن يرزقك الله بأخ تحرص عليه فيحرص عليك، تبذل مهجتك من أجله فلا ينسى لك ذلك أبدًا.

كانوا معنا وأسرهم في كل محنة، وفي كل فرح، وفي كل تعب ونصب.

حملوا معنا، وحملوا عنا..

كانت تلك المجموعة الغرناطية، أسرتنا الثانية التي اضطررنا للهجرة إلى مدريد، وتركها في غرناطة، ولكن كلّ من فيها لم يتركنا، إلا الندرة الذين غيّرتهم الأيام أو غيّرتنا.

إنها رحلة الأعمار التي لا تبقي في يديك صلبًا، إلا الماسّ العتيق الصافي المصقول.

في مدريد، لم يكن الأمر كما كان عليه في غرناطة..

كان لعلاقات الناس فيما بينهم حسابات مختلفة وقواعد غريبة.

لم تكن الأخلاق هي الحَكَمْ الذي يدير سلوك الناس وعلاقاتهم، قلة أولئك الذين يضربون من أنفسهم المثل، ملتزمين بالأخلاق في تعاملهم مع من حولهم، بدأت تلك الخيبات باكرًا، خيبات الأمل في كثير ممن "يقولون" إنهم يمثلون الإسلام في الغرب ويحملون همّه وهموم المهاجرين من أبنائه.

يمكن للمرء أن يرصد بجلاء، ذلك الانفصام البشع بين الدين والأخلاق، وبين العقيدة والمعاملات.

الأواصر التي كانت تجمع معظم أفراد الجالية القليلة العدد في مدريد أواخر القرن العشرين، لم تُـمَرَّرْ وتتوثق من خلال معادلة

الأخوة والهوية، بقدر ما كانت تتفتت وتتشظى تحت مقارِض طاحون علاقة المسؤول والمسؤول عنه!

بعض هؤلاء "المسؤولين" كانوا يقومون بجهود ضخمة لحماية حقوق الجاليات ورعايتها، والاشتغال بتسوية أوضاعها القانونية لدى الدول الغربية، مشتغلين على خدمة وجودها الناشئ في أُوروبا، لا يُنكر فضلهم إلا جاحد، أفنوا شبابهم وأوقاتهم في إنجاز المهمة التي حَمَلُوها.. لكن مهمتهم تلك، شُفِعَت بعد سنوات بوظيفة أخرى ابتدعوها ومَنْ حَوْلَهم، بدت.. وكأَنها البقاء في "الكراسي" على رأس تلك "المساجد - المراكز الثقافية"، التي صارت لاحقًا مؤسسات متشعبة، فُصِّلَت فيها المهمات والمسؤوليات، وجيء من بلادنا ببعض من يُدْعَون "أئمة" للخطابة والصلاة بالناس، وإنفاذ عقود الزواج والطلاق، لا علاقة لمهمتهم التي جيء بهم من أجلها، بمهمة أولئك "الدعاة – المسؤولين".

الفكرة المنتشرة بين جمهور الجاليات التي تلوذ بالمساجد في أوروبا، وأينما يممتَ وجهك، أنه لا يستقيم وجود هذه المؤسسات الناشئة إلا بوجودهم، فَهُم المؤسسون، وهُم أصحاب الفضل، وهم "القادة"، لا يمكن أن تستمر تلك المؤسسات إلا بأشخاصهم! ولا يُتَوَقَّع تفاهمها مع الدول "المضيفة" إلا من خلال جهودهم "الجبارة"!

وكله في سبيل الله وخدمة الإسلام والمسلمين.

"هُم".. أو "لا أحد"، "هُم".. أو يُحرق العمل كله وينهار على رؤوسنا!.

عقمت بعض المؤسسات الإسلامية في الغرب، عن إنجاب الأشخاص المختصين المؤهلين لحمل المسؤوليات وتداولها..

كما عقمت مجتمعاتنا في الوطن عن إنجاز ذات المهمة.

كان ذلك مرضًا "عربيًّا" معاصرًا شديد الخطورة، عملت على ترسيخه السلطات الحاكمة المستبدة، كما عمل على ترسيخه كل أصحاب السلطات الاجتماعية والاقتصادية والدينية المختلفة، داخل البلاد وخارجها، وخصوصًا في بلاد الشام، ومن هاجر من أبنائها.

بقي الأشخاص أنفسهم على كراسي مسؤولياتهم، ومن جميع الهيئات الإسلامية، على اختلافها ومشكلاتها البينية وتنوع مشاربها، من "وطنية" تابعة لبعض الحكومات العربية وأجهزة استخباراتها، أو من "مستقلة" ترتبط مباشرة بحكومات وأجهزة استخبارات الدول المضيفة، وفي مختلف بلدان أوروبا.. بقوا على كراسيهم تلك، المصنوعة من أوهامهم وأوهام من حولهم، بالضبط، المدة نفسها التي بقي فيها حكامنا ملتصقين بكراسيهم في بلادنا.

باقون فيها إلى الأبد، وحتى الموت، موتهم أو موتنا!

هنالك.. نشأت أولى بوادر الخلافات والانشقاقات في هذه المؤسسات، والتي كان أخطر ما فيها أن بعض "الثائرين" عليها و"المنشقين" عنها، كانوا يتصرفون بدوافع الأنانية والانتصار لذواتهم وانتماءاتهم الوطنية، أو مناطقيتهم وأحيانًا أحسابهم وأنسابهم ومصالحهم الشخصية.

سرطانٌ متفش بين الجميع، لم يكن وقفًا على العمل الإسلامي، والإسلاميين وحدهم، كان بصمة خاصة بالعرب في كل مؤسساتهم في ديار الغرب، السياسية والدبلوماسية والثقافية والدينية.. مرض عُضال تعاني منه شعوب منطقة بأسرها!.

لم نكن معنيين بالمؤسسات التابعة لحكوماتنا مباشرة، والتي دفع باتجاه إنشائها أول الأمر، النظام السوري ليَلحق بالسوريين

في منافيهم، ويبذر فيما بينهم مزيداً من الشقاق والخلاف ويستأنف حربه عليهم، فتأسست "النوادي الاجتماعية السورية" في مختلف العواصم الأوروبية المهمة، والْتَحق بها بعض مهاجري الجيل الأول وخصوصًا من الأطباء والتجار، وكل من لا يريد أن يوصم بالإسلامية، وعُدّ كل من انتسب إليها مواليًا لنظام الحكم في بلده، أو ساكتًا عنه، سواء كان سوريًّا أم غير سوري! بعكس المؤسسات الإسلامية التي عومِل كل من لاذ بها على أنه معارض "خطير"! سواءً جاء من سورية أم من المغرب، أم من فلسطين، أم من العراق، أم من الواق الواق.

"عُدَّ"، و"عومِل". . هنا فعلان ساريا المفعول مبنيان للمعلوم، قطعًا من قِبل أجهزة المخابرات الإسبانية، وأذيال أجهزة الاستخبارات العاملة في السفارات العربية، وكل من يتعامل بالشأن العربي والإسلامي في العواصم الغربية الرئيسية، سياسيًّا أو ثقافيًّا أو اقتصاديًّا.

ما يعنينا ويؤرقنا، هو وضع المؤسسات الإسلامية الأهلية، التي كان يُنتظر منها أن تُثبِت أنها مؤسسات شعبية، وُجِدت لخدمة الناس بالطريقة التي تُرضيهم، خصوصًا أن القائمين عليها يعيشون ويشتغلون في أعمال بالغة الضرورة الحيوية للجالية.. مثل افتتاح مدارس نهاية الأسبوع لأولاد المهاجرين، يتعلمون فيها شيئًا من العربية وشيئًا عن دينهم، شرح شيء للراغبين من الأجانب في التعرف إلى الإسلام، أو تعليم مبادئه الأساسية للمسلمين من الإسبان، ومعظم هؤلاء من النساء المتزوجات من الشباب المسلم في الغرب.. كذلك تعليم العربية لمن يطلب ذلك من الإسبان مسلمين كانوا أم غير مسلمين، توفير اللحم الحلال وبعض الأطعمة الوطنية التي لا

يمكن للمرء أن يجدها في مدريد الثمانينيات والتسعينيات، طبع مواقيت الصلاة، ترجمة كُتيبات بسيطة صغيرة تُعرّف بالإسلام باللغات المحلية، إجراء عقود الزواج والطلاق، إصدار شهادات الوفيات والولادات، إدارة هذه المؤسسات والقيام عليها والعناية بها وحمايتها، إجراء المباحثات المضنية مع الدول "المضيفة"، لتوفير الأجواء المناسبة والقوانين اللازمة لحماية حقوق المسلمين في أوروبا.

ارتبطت حياة القائمين على هذه المؤسسات بطريقة حيوية بهذه الخدمات الجُلى، فلا يخرجنهم مما هم فيه إلا "مجرم"، ولا يجرؤ أحد على استبدالهم، وهم بدورهم، لم يتركوا لأحد القدرة على أن يكون "ثقة" ليقوم بشيء من هذه الأعمال، التي تسنموها واحتكروها، و"تسلطوا" على الناس بها، أدبيًّا واجتماعيًّا ودينيًّا.

وأي سلطة أخطر من هذه، التي تَستخدِم "الدين" للهيمنة على عباد الله، إنها تكاد تضاهي سلطة الاستبداد العسكري، الذي يعتمد القوة لقمع الناس وسياستهم.

يخشاهم الناس، ويعملون لرأيهم فيهم ألف حساب، يسرهم رضاهم عنهم، ويؤلمهم تصديقهم لما ينقله لهم بعضهم عن بعضهم الآخر.. شكّلوا من حيث يدرون ولا يدرون، ويريدون أو لا يريدون، سلطة جديدة في المهاجِر، سلطة سيطروا بها على الناس في غربتهم، وعلى انتمائهم لهذه المجموعة الكبيرة التي تدعى "الجالية".

فمن يملك السلطة الدينية، ومهما كانت بسيطة، يملك قلوب الناس وأشواقها، ويدّعي أو يظن في نفسه أنه يدير علاقتهم بربهم وبكتابه وبجنته وبناره، يعرف أسرار الناس ودواخل أنفسهم

ومشكلاتهم ومكامن ضعفهم وقوتهم.. وهذا لعمري سلاح سطوة اجتماعية شاملة ما بعدها سطوة!.

إنه الوجه القاتم، لهذا العمل الذي يدعى بالعمل الإسلامي المُشرق، بالغ الأهمية والضرورة في الغرب.

هذه هي الحال في مدريد، وبرشلونة، وغرناطة، وألكانتة، وفي معظم المدن الإسبانية، حيث افتُتحت مراكز أو جمعيات إسلامية لاحقًا، وهي الحال عينها السائدة في لندن، وفي باريس، وفي ميلانو، وفي معظم المدن الغربية أنى وُجدت مؤسسة إسلامية لخدمة الجاليات المهاجرة.

كانت أعداد الطلبة من الوافدين الأوائل إلى مدريد وغرناطة على وجه التخصيص، هي الغالبة أيام الثمانينيات، وكانت أعداد العمال صغيرة، كنا في غرناطة ثلاث أو أربع أسر سورية ممن أعرفهم، وخمس أسر مغربية جميع أفرادها من الطلبة في كليات الطب والصيدلة والفيزياء في جامعة غرناطة، ومن أعلى الطبقات الاجتماعية في المغرب القريب المحاذي لإسبانيا، لم تكن الهجرات العمالية الاقتصادية، قد بدأت بالتدفق على إسبانيا، لتحمل معها المهاجرين من أبناء قاع المجتمعات المسحوقة في بلادنا، شرقها وغربها، ولم تكن إسبانيا قد شهدت حقبة الطفرة الاقتصادية الهائلة، التي جعلتها قِبلة للمهاجرين، بعد عقود من الزمان، كان الإسبان فيها هم الذين يهاجرون خارج بلادهم، طلبًا للرزق والحرية والمستقبل.

تسنم الطلبة العمل الإسلامي، قاموا به وأنشأوه ورسخوا قواعده، ثم.. استبدوا بالسلطة المطلقة عليه.

"مستبدون" ضئيلون، متنكرون بأسمال ثورة على الاستبداد الذي عاشوه في بلادهم وأسرهم، تسببوا باستبدادهم هذا، في دفع العمال والطلبة، من الشباب القادمين من بعدهم، للاعتراض ومحاولات التغيير، التي باءت بالفشل، لأن معظم هؤلاء، كانوا متمترسين وراء أهواء ووشائج خاصة، يريدون أن يحاربوا بها أهواء ووشائج آخرين!.

خلطة متفجرة في قلب "العمل الإسلامي" في أوروبا على هامش غربتنا فيها.

صراعات بشعة على كعكة سُلطة "معنوية" نَوْكاء[1]، كانت تتمدد مع نمو الجاليات، وتكاثر أعداد المهاجرين والوافدين والمولودين فيها.. وبدأ العمل الإسلامي بالتحول، من كونه عملاً تطوعيًّا دينيًّا لخدمة الناس، إلى عمل اجتماعي رسمي، لإدارة شؤون الجاليات المسلمة، وللتحكم فيها كذلك.

بعضهم يحتاج إلى العيش في ظل سلطة يثق بها، وآخرون يريدون الوصول إلى أي نوع من أنواع التزعم والترؤس، حتى لو كان ذلك على كومة من التبن المتعفن.. وفي هذا السياق كان يُستبعد الجميع، بمن فيهم كل من يمتلك القدرة على الفعل الإيجابي، والإصلاح والتغيير.

اختلطت الأمور، وتشبث بعضهم بكراسي "مسؤولياتهم" ينافحون عنها، يقاتلون في سبيلها، ويتآمرون فيما بينهم للحفاظ عليها، حتى لو كانت "حلقة تحفيظ للقرآن"، أو دكانًا لبيع اللحم الحلال، أو رفعًا للأذان في وقته.. كان بعضهم مستعدين لتنفيذ أحكامٍ

---

(1) "اسم": أنوَك، الجمع: نُوكٌ، المؤنث: نَوكاء، هو العاجز الجاهل، الأنوك: هو العييّ في كلامه / معجم المعاني الجامع الإلكتروني.

بالإعدام الاجتماعي الإقصائي النفسي المعنوي، في "معارضيهم" أو منافسيهم الذين يخشون منهم على سلطاتهم الهزيلة! يُقاتلون في سبيل الاحتفاظ بها طواحين الهواء على الطريقة الدون كيخوتية.

لم يكن بعضهم يتورع من أجل ذلك، عن الكذب والنفاق والدسّ بين الناس، وتأليب بعضهم على بعضهم، وتشويه سمعتهم، ليس في أوساط الجالية في مدريد فحسب، بل لقد تجاوز بعضهم كل الحدود، حتى الجغرافية منها، فراحوا يُشوهون سمعة خصومهم هناك في أرض الوطن، الذي لا يتمكن هؤلاء الخصوم من زيارته، ولا الدفاع عن أنفسهم لدى من شُوِهت سمعتهم بالأباطيل فيه.

الأنا. . وظنُّ المرء في نفسه أنه بعضٌ من "ربٍ أعلى"، مشكلة كبرى، أكبر منها أن لا يكون بينه وبين عَظَمة ومنجزات ومُلكِ الفراعنة أي نسب!

الجو موبوء بأمراضنا، وما اشتملت عليه الأنفس والقلوب، من علل أخلاقية عميقة مستفحلة، استقدمناها معنا من أوطاننا الآيلة إلى التدمير.

كم نشبه حكامنا، كم يشبهنا حكامنا. .

استبداد حكامنا بنا لم يأت إلا من الفراغ الذي ملأناه نحن ببذور فسادنا، مندسة في أحشائنا نتعامل من خلالها مع الآخرين، حتى لو كانوا من أنفسنا.. لم يكن الاستبداد في واقع الأمر إلا أحد أوجه هذا الفساد.

"مستبدون" هزيلون هم هؤلاء المرضى بالأنا، التحفوا عباءة الإسلام.. وكانت عليهم جدّ فضفاضة.

يا للهرب من هذه المستنقعات الآسنة، إنه فضيلة تستحق أن تُمنح وسام "ثلثي الرجولة" دون أدنى شك!

كل ذلك كان يجري على هامش الإقامة شبه الجبرية، غير الملموسة وغير المرئية، التي فُرِضت في مدريد على المهاجرين، لا يكادون يشعرون بها، تطورت آليات إقصاء المهاجر النفسية والجماهيرية، بسرعة كبيرة مع تطور إسبانيا وتوثق عرى شعورها بالانتماء الأوربي الغربي.. بدأ الأمر يأخذ منحى الاستنكار والشكوى، ثم الإنكار الوقح، ثم الهجوم الحادّ والعدوان النفسي المعيب، ثم التهميش المؤلم، بعد ذلك جاءت مرحلة اللامبالاة بهذا الوافد الغريب.. والتعامل مع الأمر الواقع بأقل الخسائر الممكنة!

أحياء كاملة، بمستشفياتها، ومطاعمها، ومرافقها العامة، مغلقة تمامًا في وجه المهاجر.. اللهم إلا العامل في الخدمات الخاصة والعامة.

على هامش هذا السجن الخارجي الشبحي الكبير، عشت حياتي في مدريد في سجن داخلي آخر أصغر وأشد قسوة، عزلة نفسية فرَضْتُها أنا نفسي على نفسي علّي أجد نفسي فيها، بعدما بدأتُ أعي مشكلتنا في أنفسنا كشعب، وأمراضنا المستعصية، وعللنا المدمرة لكل شيء، بدءاً بعلاقاتنا الثنائية الشخصية، مروراً بشبكة صِلاتنا العامة كجالية مهاجرة، وانتهاءً بقدرتنا كمجموعة على فهم الكارثة الأخلاقية، التي نعاني منها ونساهم من خلالها في تدمير أوطاننا.

"مقيّدة" كنت مع "مقيّدين"، يجمع بيننا حب الإسلام والالتزام بمَظاهره، من صوم وصلاة وحجاب وتمسك بالهوية وتشبث بالانتماء، والمحنة على المحنة على المحنة.. التي كانت كثيراً ما تقربنا نحن "السجناء الغرباء الأحرار" بعضنا من بعض، إلى حدّ نسيان سجننا الكبير هذا، بحدوده التي تضربها حولنا غربتنا في مدريد، وإن كنا

لا نرى ولا نفهم، وجود وجدران وأبعاد "سجننا" هذا، ومحنتنا فيه بذات الطريقة، ولا نشعر بها بالحدّ نفسه من الألم واستيعاب أبعاد العسف والضيم.

تَجْمَعُ المِحن الغرباء، ينسون معها مشكلاتهم ومشاكساتهم وخلافاتهم، ويصبحون كالجسد الواحد، هكذا كنّا بعد وفاة أحدنا في مدريد في حادث سير.. كانت تلك الوفاة الأولى بيننا، كان ذلك مرعبًا، أن نشهد بأم أعيننا كيف تَفتح أرض مدريد باطنها لينزرع فيه واحد منا، كان ذلك صادمًا.. أن تصفعك الغربة بحقيقة قاسية مريعة: أنك ستدفن هنا عندما تموت، ولا عودة!

يوم دفنّا أخانا ذاك، كنا قد دَفنّا معه جميعنا، ذلك الحلم البرّاق المأنوس المُريح الغبي، الذي اعتاد الغرباء أن يقتاتوا به في خصاصة غربتهم، أن يضمهم في أرض موطنهم الذي جاؤوا منه. . قبر.

يكفي هذا نسبًا ووشيجة بين الغرباء، وهو أعظم النسب والوشيجة.. لكنه لم يكن يكفيني، ولا يسد جوع روحي إلى الأخوة الصادقة والصداقة الحقيقية.

الأخ الصادق لا يؤذي، ولا يجرح، ولا يخذل، الصديق الحقيقي لا يتّهم، ولا يهين، ولا يتشكك.

كان كثيرون إخوة، لكنهم لم يكونوا جميعهم صادقين في أُخُوّتِهِم، لم يكونوا جميعهم رفاق درب، ولا رفاق هَمّ، ولا رفاق فكر، ولا رفاق ألم، ولا رفاق أمل.

كنا رفاق غربة ومحن. . ولاشيء غير هذا، لكلٍّ غربته، وشِرعته في غربته.

جميعنا سجناء في غربتنا المشتركة في مدريد، وكلٌ سجين ذلك المربع الصغير الذي حشرته فيه بيئته التي جاء منها، وقابليته وقدرته على النمو والتغيُّر والتغيير.

غربة داخل غربة، من تحتها غربة، من فوقها غربة.. تمامًا كلعبة العرائس الروسية الخشبية البيضوية المزركشة.

كنا إخوة.. لا تختلف علاقة بعضهم ببعض عن علاقات الإخوة في أسرة واحدة، ربما لا تسودها في بعض الأحيان مشاعر المحبة والاحترام والثقة، إلا إن روابط الدم تبقى على الرغم من ذلك قوية، متينة، ذات سطوة رهيبة، لا يمكن ولا حتى لمشاعر الحب والكره أن تلغيها أو تغيرها، يلتجئ الإخوة بعضهم إلى بعض في المُلمات، ويضطرون بعضهم لبعض في النازلات، أكثرهم شعورًا بهذه الأخوة وصدقًا في ادّعائها، يجد نفسه مرغمًا على خلع رداء كبريائه على عتبة المحن، محنٌ تشكل على مرّ الأيام امتحانات مرعبة لحقيقة الأخوّة.. في الدم، أو في الغربة، أو في الله.. ليس بعد هذا من "الأخوة" شيء!

الأخوّة تعني القيام بواجبك، تعني بذل كل جهد ممكن لعدم فرط العِقد، لا تقتضي في كثير من الأحيان والملابسات، لا صداقة ولا صحبة ولا تفاهمًا ولا أناقة ولا رعاية.

هوّة واسعة مؤلمة مفزعة، بين حقيقة "الأخوة في الله"، وما يمكن أن يفهمه الناس من هذه الكلمة "الجبارة"!.. بالضبط كتلك التي تميّز بين حقيقة أن تَمَسّك الغربة بمواجعها، وأن تثور أشباحها تجوب بأعاصيرها كهف روحك، تهز جنباتها، ولا تجد لها مأوى فيها يمنحها سلامًا.

تختلف درجات استيعاب الغرباء لإحساسهم بالغربة، كما تراوح لدى الواحد منهم من حال إلى حال، فتارة تصيبنا كشعور عميق بالمرض، وتارة تتجلى في تبلد أحاسيسنا ووقوفها لدى عتبة ذكرى أكلة في الوطن! وربما تبدت في غرابة تفكيرك وتميزه، أو ارتكاسه لينحصر في حضيض عفن العلاقات الاجتماعية، ولعلها تترتب عن رؤية خاصة للأمور، أو مبالغات في الإحساس بالألم، أو في شعور بالمسؤولية يُسقِم ويُمرِض، وربما تكمن المشكلة في الرغبة في تعلم الطيران؟

خفقُ أجنحة الروح الدائب، ليس إلا صليلَ سيوف في الآذان والعقول، وقليلٌ جدًّا من الناس من يتمتع بالجاهزية اللائقة لخوض المعارك المترتبة عن فهم معنى هنا، وقيمة هناك!

عندما يبذل المرء الكثير الكثير، من الوقت والجهد لبناء علاقة "أخوّة"، يكون طعم مرارة الخذلان حنظليًّا ينغرز في أطراف روحه ولا يرحل.

كان الجميع وما زالوا إخوة.. ولكلٍ أُخُوّتُه، ولكلٍ منهاجه في أخوّته.

أن يكون أحدهم خارج السياق، يفكر، لا يرضى، يسأل، يعترض، ينتقد، لا يستسلم، لا يقبل بالموجود، يريد الإصلاح، يطالب بالتغيير، لا يدخل في القوالب الجاهزة، ويستعصي على ثقب الإبرة.. فهو إذاً جاسوس مدسوس! هكذا كان السوريون يصنفون بعضهم بعضًا في مدريد الثمانينيات! وفي أحسن الأحوال.. مزعج، غليظ، مشاغب، طفرة، مرفوض، خطير.. يجب محاربته وتحجيمه وإقصاؤه بكل وسيلة ممكنة.

أنت خارج الإطار، تتحدى قضبان الزنزانة، لا تنتمي إلى القطيع، لا تسمح لحشرة أن تدوس رأسك، بكعب حذاء رفيع انتعلته في إحدى أرجلها المفصلية الستة، فظنت في نفسها الرفعة الاستثنائية.

تلك هي الغربة على الغربة على الغربة!.. غربة ثلاثية الأبعاد، ظلمات على ظلمات، لا يجد المرء وسط لجج ظُلْمِها وظَلامها بصيص نور، إلا بشق الأنفس.

في مثل هذا الجو الموبوء، ليس إلا أن ينكفئ المرء على جمهوريته الخاصة في بيته، يبنيها، ويعمل فيها وبها ولها، ويفر إلى الله.

الفرار من الجذام الاجتماعي كالفرار من الاستبداد والفساد.. وكِلا المرضين مفسد للروح والنفس والمروءة والحياة.

*****

وصلنا مدريد بعد ساعات طويلة من السفر والتوقف في المحطات، ويممنا شطر ضاحية من ضواحيها تسمّى "توره خون ده أردوث"[1]، وما أدراك ما "توره خون ده أردوث"؟ دخلنا تلك الضاحية وفق تعليمات الأخ الذي تبرع بوقته لنجدتنا، في هذا البحر المتلاطم الذي يسمى مدريد، حيث وجد لنا بيتًا للسكنى.. جزاه الله عنا خيرًا!.

البيت يطل على "الساحة الكبيرة"[2]، يقابل الكنيسة التي يحتل برجها مركز الضاحية، يرتفع فوق البرج مربع طويل يحمل صليبًا كبيرًا تتصدره من جهاته الأربع ساعة قُطرها متر أو يزيد.

يقع البيت في الطابق الثاني، الذي يعلو سوق الأغذية الرئيسية في الضاحية، دارٌ مظلمة، محطمة الأثاث، مهدمة الجدران، مكسورة الخاطر، تطل شرفاتها على مركز تلك الساحة، حيث الحديقة المحيطة بتلك الكنيسة، وقد جلس جمع من شيوخ وشيخات القرية يتهامسون في اهتمام بالغ، حول هذه الأسرة الغريبة التي حلّت بقريتهم، وفي المنزل المرموق الذي هو محط الأنظار وقبلة المهتمين بشؤون الأغيار، وكان أولئك العجائز الطيبون يوزعون الابتسامات الودية ويتبادلون الهمس اللطيف عن هذه الأسرة "العربية"، وكان الناس – في تلك الأيام – ما زال

(1) Torrejón de Ardoz: بلدية إسبانية تابعة لمقاطعة مدينة مدريد، يبلغ عدد سكانها 132.000 تقريبًا، ومساحتها 84,1 كلم^2.

(2) Plaza Mayor: "الساحة الكبيرة" وهو اسم الساحة.

بعضهم يُكِّن "للعرب" بقية من تعاطف تاريخي، ليس بسبب ما تركه العرب في البلاد من آثار تاريخية جميلة، هي الشيء الوحيد الذي يعدّه عامة الإسبان متعلقًا بتاريخ العرب في أرضهم، بل بسبب سياسات الجنرال "فرانكو" وصداقاته الحميمة مع البلدان العربية، و.. ما اشتهر به "العرب" في إسبانيا حتى ذلك الحين من مالٍ بترولي مدرار، وكرمٍ حاتمي لا ينقطع آناء الليل وأطراف النهار! حتى إن بعض الشباب الآتين من المنطقة الناطقة بالعربية، كانوا – في هاتيك الأيام – يتقربون إلى الفتيات الإسبانيات، بادّعاء أنهم يتحدرون من آباء بتروليين!.. يضحكون عليهن، مستجلبين اهتمامهن، من أجل الحصول على زواج مجاني وجنسية تضمن الحقوق، وحضن عائلي يقيهم برد الغربة وصقيعها، **ثم. . تتلاشى الأحلام بالنجاة، وتبدأ المعاناة في الاتجاهين، معاناة الشعور بالخذلان والخديعة من طرف الزوجة، ومعاناة ضياع الهوية الذي يتجاوز الزوج إلى الأبناء. . معاناة لا تنقطع ولا تزول.**

فضلاً عن التسوق المجنون وتبذير المال بشكل هستيري، كانت "ملاحقة النساء" هي الرياضة التي اشتهر بها "العرب" في أوروبا عمومًا، وفي إسبانيا خصوصًا، ذلك أمرٌ لم ينج منه إلا من رحم ربي.

وعلى العكس من معظم الآتين من بلاد المغرب، ذاب معظم شباب الجيل الأول من القادمين من بلاد الشام في المجتمع الإسباني، بعيدًا عن المساجد والمراكز الإسلامية، فبلاد المغرب قريبة، رمية حجر ويصبح المهاجر في بلده بين أهله، لا ينقطع حبله السرّي في إسبانيا، ولا يخلفه وطنه وأهله على قارعة الغربة، فضلاً عن أن المغاربة لم يُقتلعوا من تاريخهم ولم يُسلخوا

عن هويتهم، بالشكل الذي تعانيه شعوب بلاد الشام، ناهيك عن أن الهوية المغربية، من الصلابة والوضوح والرسوخ والتصالح مع الإنسان والوطن والتاريخ والدين، بمكان لا يستطيع المغاربة معها الذوبان حتى لو أرادوا!

المغاربة، على خلافنا، يندمجون، يتعايشون، يحاكون، يتشبهون. . ولكن ومن الصعب جدًّا أن يذوبوا.

تتلخص حكاية الذوبان هذه في استسلام كامل، يبدأ بصدام عنيف بين "مهاجر"، يظن في نفسه الخيرية والاستثنائية والتفوق وامتلاك الحق المطلق، آتٍ من مجتمعات ما زالت مستَعْمَرةً، متخلفة مقموعة مضطهَدة مضطهِدة، تغلب سيئاتها حسناتها.. مع مجتمع استعماري مستكبر، يظن أنه يمتلك القيم الحضارية الوحيدة على وجه الأرض، وأنه يمتلك معها الحق في فرضها على الآخرين، بكل الوسائل التي تحقق مصالحه وادعاءاته وظنه بنفسه خيرًا، يمضي في طريق التمدن والازدهار والحرية، تغلب حسناته سيئاته.

أكثر هؤلاء الشباب بنوا أمجادهم الشخصية بمساعدة زوجاتهم الإسبانيات، وركنوا دينهم وأصلهم إلى حين، ثم تناسوا بعد ذلك كل فضل لهؤلاء الزوجات ومأثرة، بالضبط كما ألغت تلك الزوجات كل فضل لهؤلاء الأزواج ومأثرة.. تبادل سلبي لافت للأدوار بين الوافد والمضيف، على هامش أجواء حياة اجتماعية جديدة، تفرض عليهم أنماطًا من العلاقات لم يعتادوها في بلادهم أيام السبعينات والثمانينات، معظمهم لا يعرف التعامل بالمطلق مع النساء، فما إن تُفتح لهم أبواب هذا المجتمع، حتى يسقطوا ضحايا الشعور بالنقص، والجهل بالآخر، والانبهار بطبيعة العلاقات بين الناس عامة، والنساء والرجال في هذه البلاد.

تتطور الصدامات الأولى، والصدمات، وعدم إتقان التعامل مع الآخرين باللياقة المطلوبة.. إلى تعارف إجباري، فصحبة لا تتوثق عراها إلا بعد خصام، فقصة حب وعشق، تنتهي بزواج اضطراري، بين مهاجر وافد يدرس الطب أو ما شابهه، وفتاة صغيرة أو امرأة كبيرة، متوسطة الحال، لم تصل إلى المرحلة الثانوية من تحصيلها الدراسي عادة، زواج يصبح به هذا المهاجر مواطنًا "مضافًا إليه" مجروراً بقوة الرباط الأسري المقدس، يدخل معترك الحياة والعمل، كزائدة دودية في مجتمع لن يرضى عنه أبدًا، على الرغم من تخليه الكامل عن هويته، وذوبانه شبه التام في الأسرة التي قدمت إليه ابنتها، وفتحت له دارها وصدرها، وتبنته ثقة منها بكرم "العربي"، و"مروءته".

لم يكن الناس حينها في إسبانيا، قد ركبتهم العنصرية الأوروبية، والكراهية والتكبر والحقد والرفض، والاستعلاء على عباد الله من الأغراب، ولم تكن أعداد العرب والمسلمين في البلاد تكاد تُذكر، إلا على أنهم سياحٌ أغنياء مُبَذِّرون، أو طلاب علمٍ كُسالى، اختاروا واحدًا من أسوأ البلاد الأوروبية، التي يمكن اختيارها للدراسة والاختصاص في تلك الأيام.

كأن المرء هو الذي يختار، وكأن بيد أحدنا تغيير مجريات الليل والنهار!

تجلس "روثيو"[1] في صدر المائدة كملكة اغتَصبت الحكم، تلف ساقًا على ساق، بصعوبة بالغة بسبب بدانتها المفرطة، وإصابتها البليغة في ركبتها، إثر حادث تعرضت له، تنفث دخان سيجارتها في مرارة، وتنظر إلى من حولها باستعلاء مقيت وهي

(1) Rocio اسم إسباني مؤنث فرد من أصل أندلسي، معناه باللغة العربية "الندى".

تقول: لولا جهودي، ما كان يمكن لسمير أن ينجح في عمله، ولا عيادته، ولا حياته.. أنا التي صنعت منه رجلاً.

تجيب "باكيتا"[1] التي تكبر زوجها بعشرة أعوام: هو ذاك.. لولانا لكانوا همجًا لا يعرفون شيئًا في هذه الحياة، ولولا أنني أدير عيـــادة زوجي في كل شؤونها، لكان طبيبًا فاشلًا من الدرجة العاشرة لا يملك بيسيتة[2] واحدة.. إنني أملك زوجي وأضعه في جيب سروالي الخلفي، لا يتجرأ على أن يفتح فمه ببنت شفة.

وترد "فينا ريميديوس"[3]: أنا وأمي وأبي جميعنا.. عملنا عند عبدول[4] خدمًا حتى تخرّج وأصبح طبيبًا، وافتتح دار العجزة التي تعرفون، ومازلت حتى الآن أنا وأمي نعمل فيها ليلاً ونهارًا، حتى أصبحت في هذا المستوى الذي ترونه.. إذا طلب الطلاق، فستكون الدار ودار العجزة والأولاد والسيارة من نصيبي، لأنه سيكـون خائنًا، بعد كل الذي بذلته من أجله، ليأتي الآن ويقول إنه غير مرتاح في حياته ويريد أن يتحرر.. الرجال قومٌ كفرة! والمورروس منهم قوم لا حياء عندهم!

كان ذلك الحديث يدور أمامي، في المطعم الذي ذهبنا نتعشى فيه، نحن الخمس من نساءِ أطباءَ سوريين، بانتظار وصول أزواجنا.

أحسست أن الحديث موجه إلي وحدي، وكأنني والدة

---

(1) Paquita تدليع وتصغير اسم فرانسيثكا، معناه باللغة العربية "الفرنسية".

(2) Peseta الوحدة الأساسية للعملة الإسبانية قبل دخول إسبانيا منظومة الأورو الموحدة.

(3) Fina Remedios اسم إسباني مؤنث مركب من اسمين، معناه باللغة العربية "الناعمة صاحبة الوسائل لاتعدم حيلة".

(4) اختصار اسم عبد الله أو عبد العظيم، "آبدول"، باللغة الإسبانية Abdul

أزواجهن، أو المسؤولة عن كل ما يقوم به طبيب سوري في حياته الغرناطية من تصرفات، وعن كل ما يرتكبه من حماقات.

تلك الجوقة الغرناطية – السورية تشعر بالتهديد لأول مرة، بسبب زواجنا الدخيل على نمط الحياة المهيمن على المجموعة، كنت هناك "متطفلة دخيلة"، على ما اعتادته تلك الأسر المختلطة، من منطق في طبيعة علاقات هاتيك النسوة الإسبانيات بأولئك "المهاجرين" من أبناء "الوطن"، وكنت أنا هناك، بحجابي والتزامي، أصغر من أصغرهن بثمانية أعوام، والوحيدة بينهن التي وصلت إلى الجامعة ودرست فيها بضعة أعوام، كنت هناك وبالنسبة إليهن التهديد المباشر الذي هو.. "الهوية المُغيَّبَة" في المجتمع الغرناطي– السوري الصغير!

استأنفت باكيتا: عاش معي خمسة أعوام قبل الزواج بصفتنا خطيبين.. لم يذكر فيهما مرة واحدة كلمة "حرام"، وعشنا معًا بعد ذلك سبعة أعوام كزوجين شرعيين، تزوجنا في الكنيسة، وقمنا بتعميد ابنتينا الكبيرتين في الكنيسة، لم يعترض بكلمة.. والآن جاء يحدثني عن الحلال والحرام، وعن أنه يريد أن يعود إلى أصوله، ويريد أن يعلم الأولاد الإسلام!.. لا أعترض على أن يعلمهم شيئًا، لكننا اتفقنا منذ البداية، أننا لن نلقنهم أيّ تعاليم دينية لا من ديني ولا من دينه حتى يكبروا ويختاروا.

هنا، تدخلتُ بلغتي الركيكة واستفهمت: أليس الزواج في الكنيسة وتعميد الفتاتين الكبيرتين هو من "الدين"؟!.

انتهرتني روثيو، وقالت: لا.. لا... هذا ليس من الدين، هذا من تقاليدنا هنا في أندلوثيا[1]، ألا يكفي أنه أرغمها على أن تسمّي الصبيين أسماء عربية؟!.

(1) ANDALUCIA: أندالوثيا، اسم المقاطعة الإسبانية الجنوبية التي يحدها جنوبًا مضيق جبل طارق، والاسم منحوت عن اسم الأندلس.

علّقت "فينا ريميديوس": أنا مسلمة أكثر منه، أصولي مسلمة لأنني أندلسية، ومسلمة أحترم الإسلام.. كنت في رمضان أمتنع عن الطعام والشراب احترامًا له وللإسلام، في حين أنه هو لا يحترم الصيام إطلاقًا!.. يغازل الممرضات والمريضات وخادمات التنظيف أمام عيني، ويقول لي بكل وقاحة: أنت عَجَّزْتِ، وأنا ما زلت شابًّا.

بعد كل التضحيات التي بذلتها أنا وأهلي لمساعدته.. اشتغلت في تنظيف خلفيات المرضى عشرة أعوام لأساعده، في الواقع، أزواجنا هؤلاء سفلة!

قلت لها متعاطفة: اشتغلتِ لتبني بيتك وأسرتك، وتعيني زوجك وأطفالك، لأنك امرأة شريفة كريمة.. حتى لو غيّر وبدّل، أنت تبقين ملكة في بيتك ومملكتك.. ونكرانه وجحوده لا يُنقص من حقك شيئًا.

بدا الارتياح على وجه فينا ريميديوس، وقالت روثيو: كأنك لستِ سورية! كل "العرب" الذين ذهبت "فينا" تشتكي زوجها إليهم – ومنهم زوجك – عنّفوها وألقوا باللائمة عليها، تمامًا كما فعل الكاهن في الكنيسة!.

ضحكت وأنا أقول: أليسوا رجالاً؟ إنهم لا يفهمون الدين في هذه الأيام، أي دين، إلا من زاوية ذكورتهم وحفظ حقوقهم! وإن كانوا عادة في الحقيقة، يغضون الطرف عن "المظالم" حفاظًا على كيان الأسرة أن ينهار.

ضحكت السيدات، وزالت مخاوفهن وشعورهن بالتهديد الذي يشكله وجودي بينهن، وعاد السلام إلى الجلسة، وبدأنا بتناول طعامنا الذي برد، بعد أن أصبح الجو أكثر وُديّة ودفئًا.. وتساءلن عن "ماري أنخلس"[1]، وصلت متأخرة، ألقت بجسدها

(1) Mari Angeles اسم إسباني مؤنث، ذو أصل عبري أو إغريقي، معناه باللغة العربية "مريم صاحبة الملائكة".

النحيل الطويل على الكرسي، وخلعت معطفها وسوّت حجابها، تناولت سيكارة، وراحت تنفثها بعيدًا من المنضدة، والكل صامت ينتظر أن ينجلي تجهمها.

سألتها "فينا".. هل أطلب لك فنجانًا من القهوة بالحليب؟ أومأت بالقبول، ثم انفجرت غاضبة: ملعون ذلك اليوم الذي رأيت فيه أسامة، ملعونة سورية وأهلها!

التفتت إليّ وقالت: أستثنيك.. ولن أعتذر!

لم أرد، وأخذت أشرب قهوتي من دون أن أنظر إليها، كان وجهي قد اكفهر غضبًا.

بعيون دامعة، استأنفت ماري أنخلس حديثها: ذهبت إلى المحامي وطلبت الطلاق، لن أحتمل هذا الرجل يومًا واحدًا آخر، ولماذا عليّ أن أحتمله بعد كل الذي كان منه؟

التفتتْ موجهة حديثها إلي مباشرة: قولي الحق، أنت مسلمة تحترم إسلامها، وأنا أحترمك أشد الاحترام وأتعلم منك، ولكن قولي ما يجب أن يقال، هل يجوز لهذا الرجل أن يؤلب أطفالي ضدي؟ يأخذ الولدين إلى بيت صديقه، يتركهما هناك أسبوعًا كاملاً، وأنا لا أعرف أين أولادي؟ هل يجوز له أن يسحب السكين ويغرسها في عنقي، ويهددني بالقتل إن بلّغت عنه و طلبت الطلاق؟

قاطعتها ريميديوس، وقالت: أنا لا أفهم ماذا يجري؟ عِشتِ معه ثلاثة أعوام كخطيبة قبل أن تتزوجا، ولم يبدر منه شيء، تزوجْتِه واحتَمَلتِ فقره وكسله وعدم رغبته في إتمام دراسته ولا في العمل.

قالت ماري أنخلس وهي تمسح دموعها: بلى بدر منه، لم يكن ملاكًا، لكنه كان مُحتَمَلاً، ثم ألا تذكرين ريميديوس البيت الذي كنت أسكنه، تحت الأرض بطابقين من دون حمام؟ ولم أقل

شيئًا.. صبرت ريثما ينهي دراسته، ولم ينهها، ولا يريد أن ينهيها، عملت وساعدته في كل شيء.. فلماذا انقلب إلى وحش كاسر بعد أن دخلت في الإسلام؟ لماذا؟

كان الكلام موجهًا إلي مباشرة، وبقيتُ صامتة.. ماذا أقول؟ وهو الذي صادفته مرة في العيادة التي يعمل فيها أبو الأولاد، فكان أول ما قاله لي: أرجو أن تُعَلِّمي "ماري أنخلس" أنه لو كان أحد يسجد لأحد فإن واجب المرأة أن تسجد لزوجها، فلقد أسلمت وتريد أن تأتيك لتعلميها الإسلام!

استشاط زوجي غضبًا يومها، وقال له: أيها الأحمق، وهل الإسلام هو هذا؟

قال الرجل: لا.. لكنها قد تنمرت علي كثيرًا، وعليها أن تفهم بعد إسلامها أن المسلمة لا ينبغي أن تتنمر على زوجها!

نظرت إلى الرجل بازدراء ولم أنبس ببنت شفة.

عندما زارتني ماري أنخلس في بيتي علّمتها أن "لا إله إلا الله" تعني أن لا نعبد إلا الله.

جاءنا أسامة هذا بعد فترة يشكو زوجه، ويشكوني معها، أنني السبب فيما سمّاه نشوزها! لأنني لم أعلمها كيف تكون أخلاق المسلمة مع زوجها.. تحدث عن تقصيرها في تنظيف المطبخ، ورفضها أن يأتي بأصدقائه إلى البيت، لأنها تدّعي أنها مريضة وأنها لا تستطيع خدمتهم، راح يهلوس بكلام قبيح وألفاظ ساقطة عنها وعن الأولاد.. وأنها تتدخل في شؤونه كلها، وتسأله أين ذهب، وأين سهر، ومع من كان طوال الليل؟ وهو الرجل! وليس لها أن تسأله عن شؤونه! ولا تتدخل فيها!... تصوروا – كما قال– أنها بدأت تعمل ولا تعطيني المال الذي تكسبه!

قال له أبو ساجدة: لعلك تظن أن إسلامها يعني أنها أصبحت عبدة عندك؟ لا يوجد في كل ما ذكرت مبررًا واحدًا لتعاملها هذه المعاملة السيئة، وكيف لا تريدها أن تدخر مالها لنفسها، بعد الذي رأته من تقصيرك واتكالك عليها في العمل، يا أخي من حق زوجتك أن تعرف عنك كل شيء، والرجل المستقيم ليس لديه ما يخفيه عن أهله.

قال وكأنه لم يسمع شيئًا: ألم يقل النبي حديث "لو كنت آمرًا"؟ هل تريد تغيير الإسلام؟

ضرب أبو ساجدة يدًا بيد وهو يحوقل وقال له: لا أدري إن كان هذا حديثًا، وما درجة صحته، وإن كان كذلك فتفسيره يشبه تفسير سجود إخوة يوسف ليوسف، لا أكثر ولا أقل، تحية عرفان واحترام.

ولكن ألم تفهم من كل تعاليم الإسلام وأخلاقه إلا هذا الحديث؟ ألم يَرِد كذلك "خيركم خيركم لأهله" و"رفقًا بالقوارير"، و"ما أهانهن إلا لئيم"؟ تأخذون من النصوص ما تبررون به أفعالكم، وتَدَعون جوهر الدين وروحه.

التفتت ماري أنخلس إلي قائلة: أنا مسلمة، دخلت الإسلام بمحض إرادتي، وما كان أسامة يريد لي أن أصبح مسلمة، كان يراودني عن إسلامي.. لأن إسلامي يعني حرمانه من احترام الناس له، وظنهم أنه أرغمني على ذلك! لا هو ولا أحد غيره سوف يرغمني على ترك الإسلام، أنا لم أُسْلِم من أجله، كما أنني لن أخرج من الإسلام بسببه.

لن أفعل ما فعلته ليندا[1]، أخذ زوجها أولاده وهرب إلى السعودية، فلما لحقت به وجدته قد تزوج ابنة عمته، ومنعها أحد القضاة من استرداد أولادها.. فارتدّت عن الإسلام.

أنا لن أفعل هذا.. لقد طلبت الطلاق هنا في بلدي قبل أن يفعل أسامة ما فعله زوج ليندا.

قلت له البارحة: اتق الله فيّ وفي الأولاد، فأجابني: أنا رب هذا البيت، أنا "الله" في هذا البيت.

رجلٌ مجنون كهذا لا يستحق أن يكون وصيًّا على إسلامي ولا على أبنائي.

***

تسلّمنا مفاتيح الدار، ودخلناها لنفاجأ بوضعها المزري..

إذا قلب المرء النظر فيها، ووقعت عيناه على الفرش ومسابل الأَسِرّة ووسائد الأرائك، ظن أنها خرجت لتوّها من مقالب القمامة، فإذا جلس عليها أو اضطجع تحقق ظنه وصار يقينًا، وما فتحت درجًا أو باب خزانة أو منضدة مكتب إلا ووجدت فيها صرصارين على الأقل، من الحجم الصغير الذي يثير الشفقة، أما إذا دخلت المطبخ وما أدراك ما المطبخ، فهناك روائح اللحم النيء، والسمك الطازج، والخضراوات، قد صعدت من الطابق الأسفل واستقرت في مطبخنا ذاك، حيث لا خزائن، ولا أدراج ولا منضدة ولا كراسي ولا رفوف.

كان المطبخ مجرد مجلى، وصنبور مياه، ونافذة تطل على قبو مشترك بين منزلنا "الذي يليق بأسر الناس المستورة"، والسوق التي تقع تحته مباشرة.

---

(1) Linda اسم إسباني مؤنث فرد، يعني باللغة العربية الظريفة الأنيقة الرشيقة.

وكانت للمطبخ ميزة لا ينبغي نسيانها، وهي أن صراصيره لم تكن كصراصير الصالة، بل من الحجم الكبير المحترم، الذي يثير الرغبة في الهرب، بعد تقنفذ في الجسم واستثارة لكل مشاعر الرفض والحقد والعنصرية وكراهية الآخر!

لا يثير في نفسي مثل هذه المشاعر مجتمعة، إلا مخلوقان اثنان لا ثالث لهما، "رفعت الأسد"، القميء المنحط المجرم المتوحش، شقيق الرئيس السوري المجرم المتوحش، والصرصور!.

من أين جاء هذا الحجم الصرصاري المتميز؟ سألتْ ابنتي بأعوامها الخمسة، مذعورة من هذه الهجمة الصرصارية غير المسبوقة في حياتنا، فأجبتها متوخية الدقة في الإجابة، وأنا لا أقل ذعراً عنها: إنه يا ابنتي حصيلة التغذية المتوازنة، والأمن الاجتماعي، والعناية الصحية، والاستقرار السياسي، والتربية الراقية!

هزت الصغيرة المسكينة رأسها موافقة، وانصرفت وهي تضرب يداً بيد، ثم سمعتها تشرح القضية لأختها الأصغر: "هذا "بيت الأسد" الشرير الكافر، لا يمكن أن يكون بيتاً للطيبين الأخيار المؤمنين أبداً.. أبداً "!

لم أحدث أولادي عن آل الأسد وما فعلوه في سورية، وفي مدينة حماة، اتفقنا أنا وأبوهم على ألّا نربي الأحقاد في نفوس أبنائنا، وأن نتركهم ينمون سليمي القلوب، معافين من الكراهية.. إلا إن الأولاد على صغر سنهم، يلتقطون أحاديثنا نحن الكبار، فهموا منها أن هناك غولاً ابتلع سورية، مما اضطرهم أن يعيشوا بعيداً عن جدتيهم اللتين يحبونهما كثيراً، وهو – الغول – الذي تسبب في أن يعيشوا غرباء، وألّا تتمكن أمهم من زيارة سورية كل عام، كما تفعل معظم "المامات"[1] في الصيف والعطل.

(1) جمع الأطفال العفوي لكلمة "ماما".

صحيح أننا لم نكن في رغد وبحبوحة من العيش في غرناطة، لكننا كنا أسرة طبيب لا يزال في مرحلة التخصص، وقد شغل جلّ وقته بعمارة وتأسيس الجمعية الإسلامية في غرناطة، ولا يكاد يجد وقتًا للبحث عن الرزق أو التفكير في مستقبل عائلته، لم يكن يظن ولا للحظة واحدة أنه سيستقر ويعيش ويُقيم وأسرته في إسبانيا، كانت تكفيه مساعدات الوالد المتدفقة شهرًا إثر شهر، في كرم وصبر ورضى، يدعمه حلم ذلك الوالد بعودة ولده طبيبًا مختصًّا يفتتح عيادة إلى جواره، ويعينه على لأواء الشيخوخة وآلام غربتها.

غَلَبَ تعايشه مع غربته في إسبانيا صبر أبيه على غربة شيخوخته، لم تنقطع تلك المساعدات عنه، حتى يوم وفاة والده، قبل أن يرى حلمه قد تحقق بفتح عيادة خاصة بولده في قلب دمشق، تقرّ عينه بها، وينسيه مرآها وولده فيها، تعب السنين واستنزاف الأموال.

كنا أسرة طبيب شاب، صغيرة عادية متوسطة الحال، كمعظم أُسَر الطلبة الوافدين إلى إسبانيا من بلاد "العرب"، أسرة متواضعة تتوكل على الله وتُمَشّي أمورها، وتظن أن مرحلة العمل التطوعي لخدمة الجالية المسلمة في إسبانيا سوف تنتهي، وسوف نُقَدِّم الطلبات للعمل في دولة خليجية قريبة من سورية، تُسهل زيارة الأهل ورؤيتهم، وتُعيد أبو ساجدة وأم ساجدة وأولادهما إلى بلاد العرب والمسلمين، ولكن آخر ما كانوا يتوقعونه هو أن ينتهوا إلى بيت مثل هذا، لكنها الغربة تشوه الأصول، وترهق الصدور!.

ولقد ظننت يومها أنني في كابوس فاستسلمت للكابوس ريثما أستيقظ لأتحرر منه، كما هي حالي منذ قدمت إسبانيا.. أرى دائمًا وفيما يرى نصف النائم، أنني عدت إلى الشام، وركبت

سيارة أجرة لأذهب إلى بيتنا، ومددت يدي إلى السائق بتلك الحفنة من القطع النقدية، احتفظت بها يوم مغادرتي دمشق من أجل هذا الذي أفعله بالضبط، يلتفت إلي سائق التاكسي بوجه قبيح غريب مخيف، صائحًا: ما هذه السخرية؟ هذه النقود ما عادت للاستعمال هنا!.. أكلمه، فيزداد غضبًا ولا يفهم عليّ، وأريد أن أستذكر عنوان بيتي فلا أذكره، وكلما جاهدت لأتكلم، خرج الكلام مبهمًا غريبًا غير مفهوم، لا عربيًّا ولا إسبانيًّا، والسائق يلف ويدور هائجًا مضطربًا في شوارع دمشق، فلا هو يعرف أين يذهب، ولا أنا أعرف أين دارنا!

لم تكن المرة الأولى ولن تكون الأخيرة، التي "تشردنا" فيها بسبب قناعاتنا عن الغربة والوطن والهجرة والعودة، كما حماقاتنا في فهم "العمل الإسلامي"، والكرم الحاتمي الانتحاري الأهوج المتعلق به – في تلك المرحلة، قبل أن يتم توطينه في الغرب، وتحوله إلى مؤسسات خيرية تعمل بإشراف الدول الغربية – وإدراك ملابسات العيش والأسرة والغربة وأن يرزقك الله بالأبناء ومستقبلهم وحياتهم ومآلاتهم.

جاءت زوجة ذلك الأخ الطبيب، الذي كان قد بذل جهده ووقته ليبحث لنا عن منزل يليق بنا – كما قال – وحاولت الجلوس على تلك الأريكة، يغوص كل من يجلس عليها في أوحالها وتَكَسُّر لوالبها وهشاشة خشبها، حاولتْ التخفيف عني، وهي تقول لي بلهجتها الحموية: يا أم ساجدة.. ألا ترين مصائب البشرية؟ انظري كيف يعيش الناس في نيكاراغوا؟ تفكري في المصائب التي نزلت بإخوانك في أفغانستان وفلسطين.. شوفي شو صار فينا في حماة[1]، ما بقي فيها حجر على حجر!

---

(1) "شوفي" كلمة عامية تستعمل في اللهجة الدمشقية بمعنى انظري.

نظرت إليها في حنق وغيظ، ثم خِفْتُ أن أرتكب زلة كبيرة، فآثرت الصمت، والصمت في موضعه فضيلة لا يختلف اثنان على مآثرها.. ثم شعرت بالخجل من غضبي وقهري، ومن غيظي وحنقي، كان همي إنقاذ أولادي من ذلك الوضع الذي رأيته شاذاً، **كان من واجبنا أن نعيش حياتنا كما يليق أن نعيشها ضمن استطاعتنا، لم يكن من اللائق ولا من الطبيعي أن ينزل المرء نفسه منزلة في استطاعته أن يكون في خير منها.**

كانت محدثتي الطبيبة الحموية لا تزال تخفف عني، وأنا غارقة في أريكتي وأحلامي وهمومي نصف نائمة، ونصف مغمىً علي، عندما حصل ما يمكن أن نسميه "معجزة الاستيقاظ".. عندما شعرنا بارتجاج جماعي في المخ أصابنا، وزلزلة في البيت، ورعدة في المعدة، ولم تمض إلا دقائق معدودات أفقنا فيها من فزع المفاجأة، حتى تبين لنا أن ذلك كله لم يكن إلا أجراس برج الكنيسة تعلن انتصاف النهار! قرعتْ تلك الأجراس اثنتا عشرة مرة بسبب هذه المناسبة السعيدة! وقبل أن تمضي ساعة أخرى فهمنا أن هذه الساعة التاريخية تدق كل ساعة بعدد الساعات، معلنة مرور الوقت من دون كلل ولا ملل، في ضاحية يقضي معظم أهلها وقتهم في التشمس والثرثرة، والجلوس في الحديقة المحيطة بالكنيسة، يتجاذبون أطراف قيل وقيل، وكأن تلك الأجراس اعتادت جلوسهم الكسول ذاك فأرادت أن تستنهضهم للحياة والحركة.. ولكن لا همم يمكن استنهاضها فيمن تناديهم، ممن أرهقتهم الشيخوخة والملل من الحياة.

لا نوم ولا كوابيس إذاً.. إنه الواقع المُرّ، والحقيقة الجرباء، التي جعلتنا نخرج من غرناطة الوادعة الحالمة الحزينة، لنقع في براثن هذا الغول المفترس الذي يدعى "توره خون دي أردوث" على أطراف مدريد!

ما كدنا نستسلم لهذه الحقائق "الرنانة" في ذلك البيت، حتى جاءتنا صاحبة الدار.. سيدة في الخمسين من عمرها، طويلة، ممتلئة الجسم، مفتولة العضلات، مصففة الشعر، ترتدي ثوبًا ضيقًا ليلكي اللون، وفوقه وِبِزِرَين تحت كتفيها علقت مريولاً أبيض مزركشًا بالدانتيلا[1] المفرّغة الأنيقة، ينم عن عملها في أحد محلات السوق التي يعلوها بيتنا، فهذا هو الزي الرسمي للسيدات العاملات في محال البقالة واللحم وبيع الخضراوات في الأسواق الإسبانية.. حنطية اللون، ضيقة العينين، عدائية النظرات، قد انتفخت أوداجها، واحمرت وجنتاها السميتين، وانزوى فمها الصغير رقيق الشفتين، ينبئ بمعركة.

جاءت مربدة مزبدة، فقد أبلغها إخواننا الأكارم استياءنا من الدار وما فيها ومن فيها، ودخلت معركة حامية الوطيس معنا، وهي تتعجب من أن تستنكر شقفة[2] "مورا" مثلي وجود صراصير ترعى آمنة مطمئنة في دارها:

– يعني حضرتكم لا صراصير عندكم يا سيدة؟

– لا يا سيدة، لا صراصير عندنا، يعني صرصار أو صرصارين من الحجم الصغير اللطيف!

– لعلكم جئتم من سويسرا؟

– لا يا سيدة.. نحن قادمون من غرناطة!

– وقبل غرناطة كنتم في باريس؟ الصراصير تتجول حرة طليقة في أفريقيتكم.. هذا نفاق يا سيدة!

---

(1) **دانتيلا** : نوع من الأقمشة المثقوبة المطرزة /ثوب موشى بالدانتيلا/معجم اللغة العربية المعاصرة.

(2) **شقفة** : قطعة مكسورة من شيء -المعجم الرائد-/ معجم اللغة العربية المعاصرة.

– مع كل احترامي للأفارقة، نحن لسنا أفارقة يا سيدة.. وحضرتك تنحرفين بالحديث عن مساره.

لأول مرة، أنتبه أننا آسيويون! توقفت قليلاً عند الموضوع الآسيوي، واستأنفتُ فقلت: نحن آسيويون يا سيدة!

– آسيويون يا سيدة، آسيويون؟ إذاً حضراتكم يا سادة تأكلون الصراصير، وتأتون هنا تجعلون من أنفسكم أمراء حرب!

العمى.. العمى[1] هجوم مسلح بالقنابل الانشطارية هذا!

استوقفتنا العبارة، فهذه جديدة علينا تمامًا، لم يَدْعُنا أحد من قبل بأمراء حرب! ماذا كانت تقصد تلك السيدة المجنونة؟

قال لها أبو الأولاد بعد أن تسلّم المعركة خشية أن تتهجم عليّ بالضرب، وهي التي تتمتع بقدرات جسدية بارزة للعيان: يا سيدة، لا داعي للإهانات، هذا بيت لا يستكمل شروط السكن الصحي.

– خذ يا سيد سيدتك هذه -يعني أنا- وارحلا بحثًا عن قصر يليق بحضرتيكما!

– يا سيدة، لا داعي لقلة الأدب من فضلك، حضرتك صاحبة المنزل، ونحن نشتكي لك من الصراصير، وهي هنا وفيرة، ولا علاقة لك بأصلنا وفصلنا، ومن أين أتينا وإلى أين نحن ذاهبون، هذه شكوى محددة، وحضرتك انحرفت تمامًا بالموضوع.

---

(1) عَمَى "اسم"، عَمِيَّ "مصدر"، ألمّ به العمى: ذهب بصره، وفي القرآن الكريم: سورة فصلت آية 17 ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ /معجم المعاني الجامع الإلكتروني.

– يمكنك يا سيد ترك البيت، ولن أعيد لكم أجرة هذا الشهر، ولا مبلغ الضمان الذي دفعتموه، أمثالكم لا يحلمون بالعيش في غرفة واحدة من غرف بيتي هذا!

"اللهم جيبك ياطولة البال"[1]!

ما بين "يا سيدة"، و"يا سيد"، و"حضرتُكَ" و"حضرَتُكِ"، وهي الألقاب التي كان يدعو بها المتخاطبون بعضهم بعضًا، في جميع أنواع الحوارات في إسبانيا، قبل أن يتأمرك القوم فيدعون بعضهم بعضًا بالأسماء المجردة المفردة، أُصِبنا بالدُّوار لكثرة ما صاحت، وجادلت، وأطلقت من إهانات وأذى، وصاحبنا الحموي وزوجته يحاولان الفصل بيننا وبينها، وإخراجها من الدار قبل أن يحدث ما لا تحمد عقباه.

انتعشت آمالنا برؤية عميد أسرتنا قد أخذت منه الحمية كل مأخذ، وشعر بثقل المسؤولية الخطيرة على عاتقه، وهو يرى أسرته قد انتهكت صاحبة الدار كرامتها، وأصبحت محط أنظار القاصي والداني من سكان القرية، ممن يُمضون جلّ نهارهم في التحدث عن الناس، وقد صارت لديهم مادة غنية لقتل الوقت في الحديث عن هذه الأسرة من "الموروس" الغرباء، الذين سكنوا هذا المنزل المرموق فوق السوق! ولعله كان المكان المناسب وبالضبط لعمل قائم مقام، حيث لا تخفى عليه منه خافية، كما لا يمكن فيه كتم ولا ستر شيء من شأنه عن أفراد شعبه المرابطين

(1) مثل شامي يعني "اللهم طول بالنا"/ وفي معجم المعاني الجامع "طويل البال: هادئ لا ينزعج".

أبدًا تحت ناظريه، حارسًا أمينًا على مصالحهم، كما هم رقباء ساهرون على ولاة أمرهم!

إنها لعمري مكانة لا ينالها إلا من غضب الله عليه!

رحت أراجع في ذهني، كل الذنوب العظيمة التي جَنَتْها يداي في هذه الحياة، حتى استحَقَّ عليّ هذا العقاب، ولكن وقبل أن أسترسل في استذكاري ذنوبي الشنيعة، وأبو الأولاد متأهب لحل المشكلة، وكأنه لابس درعه للذهاب إلى داحس والغبراء، حصل ما لم يكن في الحسبان!

في هذا العالم طائرة تدعى "الكونكورد"، أو "البوينغ 747"، ارتبطت في ذهني بذلك الصوت المريع الذي أحدثته لدى مرورها في الأجواء السورية في أثناء تجربتها أول مرة، حيث تم تنبيه الناس في نشرات الأخبار، حتى لا يصيبهم الفزع من شدة صوتها، الذي يشبه زعيق طائر أسطوري هائل مخيف، والذي لم يفاجئنا حقيقة، ليس لأننا كنا مهيئين لاحتمال قوته وبشاعته، بل لأننا لطالما سمعناه من قبل، وتخيلناه صوت وحش يحلّق في سماء دمشق، كلما قامت الطائرات الإسرائيلية المعتدية ليلاً باختراق جدار الصوت بين الحين والحين، منتهكة المجال الجوي السوري برحلاتها الإرهابية المعتادة فوق رؤوسنا!

في ذلك البيت في "توره خون دي أردوث" وفي تلك اللحظة بالضبط، حدث شيءٌ مشابه فظيع! لم ندرك بدايةً كُنهه، صوتٌ يشق قدرة المرء على التوازن، وينبئ بِشَرٍّ مستطير، كانت طفلتي الرضيعة نائمة، فاستيقظتْ مذعورة تطلق أصوات الرعب كمن أصابه مسٌّ، وتشبثت ابنتيّ بأبيهما، لا يدري بمن يبدأ لتسكين الروع، الذي استحوذ على أسرته، وقد عانت في صبيحة ذلك اليوم ما تعانيه أسرة مشردة في حِمى حرب ضروس.

خطر في ذهني أن إسرائيل تبِعتنا إلى مدريد، لتضرب، وتدمر، وتسحق، وتقتل، وتخترق جدران الأصوات كما يحلو لها أن تفعل، وأن إسبانيا المسكينة قد وقَعَت فريسة استيطان إسرائيلي لا يبقي ولا يذر، ولحقت ببلادنا المنكوبة! ولعلنا نحن التعِسين، تلحق بنا الحروب والبلاءات أينما ذهبنا وحيثما حللنا.. ألم تقع فور وصولي إسبانيا قبل خمسة أعوام محاولة الانقلاب إياه؟

خرجنا إلى الشرفة لاستطلاع آثار الهجوم الإسرائيلي الغاشم على مدريد! فإذا الناس جلوس متبسمون والأحاديث تُدار.. فتفرِم اللُّحوم والأعراض في دعِّة منقطعة النظير، كان القوم يمارسون رياضتهم المفضلة، "المَغْيبَة"، "الرياضة القومية الإسبانية" كما يسمونها متفكهين! وذلك قبل أن تصبح رياضتهم "الشكوى" من كل شيء.. من السياسة، من الحكومة، من المعارضة، من الاتحاد الأوروبي، من بدء تدفق المهاجرين على إسبانيا، من قلة المطر، من شدة البرد، من قيظ الصيف، من تأخر المصعد، من تقديم الساعة في التوقيت الفصلي، من مكياج مقدمة الأخبار، من قلة حياء "كاميلو خوسه ثيلا"، الروائي الإسباني، ما إن اشتُهر وراجت كتبه وصار أقرب إلى جائزة نوبل من حبل الغسيل، حتى أقام دعوى طلاق على زوجته، وتزوج بسكرتيرته التي تصغره أربعين عامًا، وكتب كل ما يملكه باسمها! "الفأرة".. هكذا كان الناس يدعونها في مدريد! حَرَمَ زوجته وابنه الوحيد من ميراثه المادي والثقافي.

إذًا لا حرب ولا احتلال ولا كونكورد ولا هم يحزنون.. كان ذلك سربًا من طائرات سلاح الجو الأميركي، لا يقل عددها عن السبع، قد عادت لتوّها من إحدى طلعاتها التدريبية المعتادة! عقولنا العربية المرهَقَةُ المُرهَبَة لا تفكر إلا في الحروب والاعتداءات

والهجوم والقصف والغزو، بـ"فضل" تهديد إسرائيل الدائب، وملابسات اعتداءاتها على بلداننا ومدننا وحياتنا مذ أدركنا وجودنا في هذه الحياة.

لم تسعفنا اللحظات التالية للاستمرار في حماقات تصوراتنا الحربية، فقد كانت وجوه الناس متبسمة، يتخافتون الهمس والاستهزاء من سذاجتنا وخوفنا، وتبرّع أحدهم فصاح: يا دكتور لا تخف لا توجد أي مشكلة، إنها الطائرات الخاصة بالقاعدة الجوية الأميركية الموجودة في الضاحية، وهي تجري هذه التدريبات يوميًّا!.

هنالك.. ومن دون أن ينبس ببنت شفة، أخذ أبو الأولاد ذلك الصديق الوحيد الذي هب لنجدتنا في مدريد فاستأجر لنا هذه الدار المعترة، وخرج كليهما "يا قاتل يا مقتول" – كما يقول المثل الدمشقي – للبحث عن منزل آخر في مكان آخر، يليق بأسرة غريبة لا ملجأ لها ولا أهل، ولكن بقي لدى عائلها من المروءة ما يمنعه من ترك أسرته المسكينة بين فكي هذا الوحش.

ضاحيةٌ كل ما فيها ومن فيها غريب ومزعج، وقد تبين أنه لم يكن لتلك الدار من ميزة، إلا قُربها من دار الأخ الذي تبرع فاستأجرها لنا، أحب الرجل أن يستأنس بجوارنا له، أحبه الله كما أحبنا!.

كان منزلنا ذاك في "تورة خون دي أردوث" أول منزل نزلناه في مدريد.

*****

يرن جرس المنبه في تمام السابعة والنصف صباحًا، ممزقًا كل الأحلام في نصف ساعة فقط من النوم الهادئ بعد أن يدخل الفجر، وقبل أن تطلع الشمس، فلا يحلو للمرء النوم إلا عشرة دقائق قبل هذا الموعد أو ذاك، فتضيع عليه الصلاة!

ضياع صلاة الفجر يعني بدء اليوم في خمول وكآبة، رانٌ على القلب يميته ويكسر ما فيه من الأشياء الجميلة، نهوض بلا استيقاظ، وهنٌ يسيطر على النفس والجسم والروح معًا، إنه من أشد الأشياء التي تسبب الحسرة، أن يضيع المرء رؤية ضوء الصبح يتسلل في أناقة وثقة ليغير سواد الأشياء.. **أول درس يلقيه عليك الكون كل يوم جديد ليمنحك شيئًا من أمان، يذكرك بأن الصبح سيطلع لا محالة مهما اشتد الكرب وسواد الليل.**

إنه الفجر الذي يضفي على الأشياء سِحره، يتنفس، وتتنفس الخلائق معه تلك النسائم الأثيرة التي لا يمكن أن يشعر بها المرء إلا في تلك الساعة.

هذا الفجر يستدعي في نفسي كل مشاعر الحنين، يذكرني بالحقيقة المصاحبة المفجعة..غربتي ووحدتي، في مدريد كذلك، على الرغم من وجود جالية لا بأس بأعداد أفرادها من سوريين وفلسطينيين ومغاربة ومصريين.

هذا الشعور بالغربة والوحدة يصيب بالاختناق، لم أعانِه في غرناطة ولا في مدريد فحسب.. بل لقد عشت في دمشق أكثر من

عشرين عامًا بين أهلي وناسي وكنت أحس هناك بأنني أكثر وحدة وأشد غربة مما أنا عليه هنا!

إنه الإدراك الكامل لحالة نقص الأوكسجين في الهواء الذي تتنفسه، وأنت تجتاز النفق الصخري العتم الضيق، يفضي بك في نهاية المطاف، إلى فضاء داخلي واسع مدهش كبير مضيء في جوف كهف. . حيث تعثر في نهاية معاناتك على "الكنز"!

الغربة والوحدة حالتان خاصتان، يعاني منهما بعضهم، ويتمتع بهما بعضهم الآخر.. يعيشهما المرء من خلال طقوس خاصة بنشوة وسعادة، وربما بكآبة وحزن، في أي أرض، وفي كل زمان ومكان، دون أن يكون لوجود الآخرين من حولك أو عدمه أيّ علاقة، أم أن هؤلاء الآدميين من حولك هم الذين يصنعون لك هذا المعروف.. تأصيل غربتك ومنحها كل الأدوات اللازمة لتكون مشروعية عليا في حياتك؟

أكان ذلك ضريبة البحث عن الذات، في مجتمع يمور يريد كسر القوقعة، ولا يعرف طريقًا إلى رشده؟ أم هو الرغبة في التخلص من قيود شذوذ العادات والتقاليد في مجتمعاتنا، اتّخذت منها آلهة تعبدها وتتبتل إليها؟ وهي التي تقيدها وتخنقها وتشدها إلى أرض اعتادت الالتصاق بها، تزحف كحية لا تستطيع النهوض ولا الخلاص من قدرها، إلا إذا لدغت نفسها أو لُدِغت من أعدائها.

أم أن هذا الشعور المرضي بالغربة الخاصة المغرقة في المبالغات والنرجسية، ليس إلا حالة إنسانية عامة؟ لا علاقة لها بطبيعة المجتمع الذي يعيش فيه الفرد وينتمي إليه أو لا ينتمي، فقد يتسبب انتماؤك إلى المجتمع بأن تصاب بجرح الغربة الغائر، بالضبط كما يمكن أن يفعل عدم انتمائك إليه.

المسألة تتعلق بك أنت، ولا تتعلق بالمجتمع.

المسألة مرتبطة بقدرتك على استيعاب ما حولك، وفهم وإدراك ملابساته. . وتقبُّل شذوذه وانحرافاته، والاستئناس بميزاته وحسناته، والتعايش مع ذلك كله على أنه عين المنحة والمعافاة.

صلاة الصبح في مدريد ليست كصلاة الصبح في دمشق، حيث أصوات المؤذنين تضيف سِحرًا إلى السَحر، فتنةُ الدقائق الأولى لانبلاج الفجر، أنين هاتيكَ المآذن العاشقات، يبعث كل الآمال والآلام الهاجعة في النفس، نداءاتهم الصباحية الواحد تلو الآخر، تشكل موكبًا للنور، يسري مُصرًّا على زرع تلك الطمأنينة الروحانية في النفوس، تزفها إلينا في تجاويد موسيقية خلّابة، لها في القلوب فعل لا يضاهيه في رونقه ونفاذه الأخاذ في الأرواح شيء.

أول الأمر ما كان الناس هنا في إسبانيا يستطيعون تحديد وقت صلاة الصبح إلا ببزوغ أول خيوط الضوء، ولولا رمضان ما ذاق كثيرون حلاوة دخول ساعة الفجر الطيبة الطاهرة المباركة، تلك الساعة التي تملأ القلب بردًا وسلامًا، ثم أصبحوا يحدّدون أوقات الصلوات عن طريق الأوراق والنشرات التي توزعها المراكز والجمعيات الإسلامية.

نحن هنا لا نقول أذّن الظهر، وقارب أذان العصر، ولكن دخل وقت الظهر، وخرج وقت الظهر، وكاد يدخل وقت العصر!

ضرورات الغربة، ضرورات العيش في مدريد، حيث لم يكن فيها مآذن ولا أذان[1]، ولولا هذه المساجد الصغيرة القليلة جدًّا، والتي وُلِدت مع وصول أولى موجات هجرات الطلبة إلى إسبانيا،

---

(1) لم تكن المساجد الكبيرة قد شيُّدت، ولا الإنترنيت قد عُرِفت ولا التلفونات الذكية قد اختُرِعت.

لمات المرء كمداً وغربة، في مدينة تستيقظ وتنام محمومة لاهثة مهرولة نحو شيء كأنه يفر منها باستمرار، محكومة بعقارب الساعات التي تفرض سيطرة صارمة على كل حركة وسكنة فيها.

من المفارقات "المدهشة"، أن هذه المساجد كانت قد أُسِست أول الأمر على أيدي طلبة، لا يمكن اعتبار معظمهم من الملتزمين بالجماعات الإسلامية، جاؤوا للدراسة، وأدركوا أنه لا يمكن لهم أن يكونوا في أي مكان لا يقوم فيه مسجد.. لا يستطيع القادم من بلادنا العيش إلا في ظل مسجد، حتى لو لم يكن مسلمًا، فالمسجد هنا ليس دارًا للصلاة فحسب، إنه المكان الذي تعقد فيه حلقات الدرس والتعليم للكبار والصغار، والذي يوفر للناس لحمًا حلالاً، وربما تجد فيه شيئًا من الملوخية والبامية، وبعض بهارات "الطاهي"[1]، وعلبة "كول وشكور"[2].

المسجد هنا رقعة من وطنك البعيد الذي تبرأ منك، المسجد هنا وطنك الوحيد إذ أنكرك الوطن الجديد وأقصاك.

كبرت الجالية، وكبرت مساجدها معها، ازدادت أعداد الناس، وأصبحت الحاجة ملحة لتطوير طبيعة وجود ووظيفة المسجد.. الذي يُنتظَر أن يشمل مكتبة، ومدرسة، ومصلى، ومغسل لمن يتوفى من الناس، ومكتب لعقد الزيجات والطلاقات، وإمام لتستفتيه في شؤون دينك، وتستنصحه في أمور دنياك.. ومكان يجتمع فيه الناس للاحتفال بالعيد وبالأفراح، أو تقبُّل العزاء في والد قضى نحبه في سورية.. يأتي القوم لتعزية ولده، لا في موت

(1) نوع مشهور من البهارات يستعمله الناس في بلاد الشام.
(2) نوع من الحلويات الشامية المشهورة المصنوعة من عجائن الرقائق والفستق والسمن والسكر.

الأب فحسب، بل في أنه حُرِم وداعه، ومرافقته إلى قبره.

تلك كانت وما زالت بعض الخدمات الجُلّى التي تؤديها المراكز والجمعيات الإسلامية التي بدأت تنتشر في كل أنحاء إسبانيا.

لولاها لضعنا، وبعيدًا منها ليس إلا الذوبان والاضمحلال، وفيها ومعها جنة ونار، ذات الجنة والنار التي كان كل منا قد اصطحبهما معه من بلاده، يجرجرهما وراءه بسلاسل غليظة تترك جراحًا غائرة في أكتاف العبيد، يتباهون ويتيهون بها في غربتهم وأسرهم!

وهل من جنة ونار إلا فيك؟.. أنت جنتك، وأنت نارك، وأنت جنة غيرك، وأنت ناره.

***

كلما رن جرس منبه الساعة صباحًا، استيقظت على وجودي في مدريد، "مورا في مدريد"، واقع أعيشه بل أُحْسَد عليه! فمدريد كانت وما زالت إحدى أهم المدن في العالم، ومن أكثرها عراقة وإغراء وجمالاً وقسوة وتكبرًا وشموخًا، فهي وعلى الرغم من عدم اعتبارها من العواصم ذات الثقل السياسي والاقتصادي عالميًّا، فإنها تمتلك "روحًا" تنبض بالحياة، إنها مركز حضاري ثقافي إنساني، يحوي كل الوسائل اللازمة لتنمية الثقافة وخدمة الإنسان ومعاناة المدنية، خصوصًا في ظل حكامها الاشتراكيين الأوائل، الذين جعلوا منها عاصمة إنسانية مفتوحة، مراكزها الثقافية كانت تضج بالحياة، جامعاتها كانت منارات دراية ومعرفة.

أدباؤها، مفكروها، ومبدعوها، كانوا نجومًا تأخذ بأيدي الناس إلى سماوات الفكر والأدب والفن والإنسانية، نعيش معهم، نلمسهم، نتعرف إليهم، نزلوا من بروجهم العاجية، وعاشوا مع الناس، في وسائل الإعلام، في المنتديات، في المشهد الاجتماعي

والثقافي، في هذه الفترة الذهبية المتألقة، من تاريخ إسبانيا الحديث، ترى "أنتونيو غالا"[1] لدى زيارتك لمعرض، تستطيع الاستماع إلى الكاتب اليميني المتعصب "فرانثيسكو أومبرال"[2]، في حفل توقيع كتاب له، في مكتبة ترتادها، وتستمتع بحديث الفيلسوف المعاصر الكاتب "فرناندو ساباتير"[3] في محاضراته في مختلف المراكز الثقافية، التي أخذت بالانتشار في أحياء مدريد، كنا نتعلم يومًا فيومًا من الطبيب الأديب المفكر الكاتب "إنريكه روخاس"[4] المختص بالصحة العقلية الاجتماعية، والذي كان رائدًا في تحويل الطب العقلي والنفسي، من حقل "أمراض الشخصية" إلى فضاء توجيه سلوك المجتمع وأفراده، وبثّ الوعي الصحي النفسي والعقلي بين الجمهور، موجهًا نحو بناء مجتمع أخلاقي إنساني سليم.. وذلك في حصته اليومية في برنامج "خسوس إرميدا"[5] الصحفي المتنوع المهارات، المعجزة الإعلامية الإسبانية الممتدة عبر أربعة عقود، المختَلَف فيه وعليه، المكروه أو المحبوب، تربى جيلٌ كامل من الإسبان في مدرسته الإعلامية، المكونة من سلسلة من البرامج الحوارية أو المنوعة أو الاخبارية[6]، الزاخرة بالحث على التفكير، وتنمية

(1) Antonio Gala الشاعر الروائي.
(2) francisco umbral الروائي.
(3) Fernando Savater الفيلسوف.
(4) Enrique Rojas Montes الطبيب أستاذ الأمراض العقلية وعلم السلوك.
(5) Jesús Hermida Pineda الصحفي الإعلامي.
(6) برامجه المنوعة مثل "عند الصباح" Por La Mañana، وما تبعها من برامج مستنسخة عنها، في عدد كبير من قنوات التلفزة الإسبانية، شكلت مدرسة تربوية تعليمية تثقيفية، تبث مابينٍ ساعتينٍ إلى ثلاث يوميًّا خلال ثمانية أعوام، خرّج خلالها خسوس إرميدا جيلاً كاملاً من الصحفيين والإعلاميين الذين احتلوا مراكز بالغة الأهمية لاحقًا في مسيرة الإعلام في إسبانيا، كما تربى فيها ومعها جيل من الأمهات وربات البيوت اللواتي كنّ الشريحة الأساسية المستهدفة لهذه البرامج=

الوعي، والتأسيس لقواعد السلوك والعلاقات الاجتماعية المتحضرة، والتبصير بحقائق الأمور في كل النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية والفكرية.

كنا نتعلم من خلال تلك البرامج قواعد الطبخ، كما أساليب التعامل مع المشكلات العائلية، والطبية، وأسس الصحة النفسية الاجتماعية والفردية، وأصول التفكير، ونطّلع على آخر ما أنتجه الفكر والأدب والفنون على اختلافها.. وأهلها وروادها من كبار الكبار، ومن الناشئة، جعل منهم هذا الإعلامي الاستثنائي "خسوس إرميدا" وجوهًا معتادة لدى الجميع، وغَيّرَ بهم ومعهم، ومع كثيرين من الإعلاميين المعاصرين له، وجه المجتمع الإسباني، في **عَقد من الزمان استطاعت وسائل الإعلام الإسبانية أن تؤدي فيه دورًا أساسيًّا واستثنائيًّا في إعادة تربية الإنسان والمجتمع، وإحداث نقلة أقل ما يقال فيها إنها هائلة في سبيل تحويل الشخصية الإسبانية في اتجاه الحداثة والنضوج والتمدن والإنسانية**[1].

كان بإمكانك وفي العشية نفسها، أن تجتمع في المركز التجاري الذي تشتري منه الخبز والخضراوات، بالسياسية والمثقفة

= التي عملت على تزويد الناس بجميع أنواع المعرفة الضرورية/ كانت نسبة المتابعة الجماهيرية اليومية لهذا البرنامج مذهلة.

(1) جزء من افتتاح برنامج خسوس أرميدا "على طريقتي" ويظهر فيه في البرنامج نفسه الكاتب الإسباني الحائز جائزة النوبل "كاميلوخوسه ثيلا"، والكاتب الإسباني الكبير "أنتونيو غالا".

http://www.rtve.es/alacarta/videos/programas-y-concursos-en-el-archivo-de-rtve/manera-jesus-hermida/2754194/

وداع القناة الثالثة التلفزيونية الإسبانية A3. لخسوس أرميدا يوم وفاته 5. 5. 2015 كونه أول مراسل إسباني في نيوورك، وأول من أعطى خبر هبوط الإنسان على وجه القمر، وأول من "اخترع" التلفزيون كوسيلة إعلام وتواصل اجتماعي.

http://www.antena3.com/noticias/cultura/jesus-hermida-periodista-que-marco-estilo-propio-television_2015050400409.html

الشيوعية الرائعة، المحامية "كريستينا ألْمَيدا"[1]، تشتري الخبز من "السوبر ميركادو" "الكامبو"[2]، تخرج نحو "الكورته إنكليس"[3] المشهور بأفخر أنواع الألبسة والخدمات، لتجد نفسك وجهًا لوجه مع شاعرة الأطفال الكبيرة المبدعة، الجدّة "غلوريا فويرتس"[4]، وبالمغنية الشعبية الاشتراكية "لوث كاسال"[5].. تُسَلِّمان على الناس، تبتاعان حاجياتهما، توزعان ابتساماتهما على الجمهور وتتواصلان معه بكل أريحية.

تلك كانت مدريد المدهشة، التي وجدتُ نفسي فيها ما بين الثمانينيات والتسعينيات[6]، من أواخر القرن العشرين، لا أنعت نفسي فيها فأقول أنا "سورية في مدريد"، "أنا مسلمة في مدريد"، لا أفعل ذلك.. لأن الواقع الذي تشهد له مدريد، هو أنني "مورا" فيها، فهي على ثقافتها وانفتاحها وإنسانيتها، لا تزال أسوارها

(1) María Cristina Almeida Castro المحاميّة والحقوقية الشيوعية الشهيرة.

(2) Al Campo السوق الضخمة المتعددة الأغراض.

(3) El Corte Inglés مركز تجاري ضخم، رفيع بالغ الأناقة.

(4) Gloria Fuertes García شاعرة الأطفال الإسبانية الاستثنائية.

(5) Luz Casal كاتبة الأغاني المغنية اليسارية المعروفة.

(6) كانت مدريد مابين الثمانينيات والتسعينيات عاصمة ثقافة عالمية فعلية، كانت دُرَّةَ إنسانيةٍ ورُقّي، وطليعةَ مستقبلٍ كان يمكن أن يكون مختلفًا تمامًا عما آلت إليه أحوالها.. إذ أحدث حكامها من اليمين المحافظ لاحقًا هدمًا وشرخًا كبيرًا بين الثقافة والمجتمع، وبعد أن كانت وسائل الإعلام في عهد الاشتراكيين منارات للثقافة والتربية الاجتماعية، أصبحت تكتظ بما يسمى إعلام القمامة، وبرامج القمامة، وثقافة القمامة!.. حتى مكتباتها، صارت وكما يجري في بلادنا، عامرة بكتب دجل المنجمين، والروايات الرخيصة، والكتّاب الذين يُلَمِّعهم الإعلام، وهم ليسوا أحدًا، إلا إنهم من جماعة اليمين الصهيوني.. فقدت مدريد "روحها"، وللإنصاف، فإن المرء لا يدري هل كان السبب هو انتقالها من حكم اليسار المنفتح المثقف، إلى حكم اليمين المنغلق المتعصب، أم أن السبب الحقيقي يكمن في التغييرات الدولية التي ضربت العالم خمسة أعوام بعد تلك الأيام.. ما بين هجمات الحادي عشر من أيلول – سبتمبر، والأزمة الاقتصادية التي زلزلت كل شيء في الغرب؟

مغلقة في وجهي، لا تراني ولا تريد أن تراني إلا "مورا" فيها، و"مورا" فقط.. هذا إن رأتني!!.

فمدريد الاشتراكية، كمدريد المحافِظة، لا تحب الغرباء ولا تريد أن تراهم، ولكن بدرجة وطريقة مختلفتين، الغرباء هنا يعيشون على هامش إنسانية مدريد، وثقافتها، وديمقراطيتها، وانفتاحها على الآخرين. كان محافظ المدينة "إنْريكه تييرنو غالبان"[1] القيادي الاشتراكي، المفكر الثوري، والكاتب الحاصل على درجات الدكتوراه المتعددة في الفلسفة والأدب والقانون وعلم الاجتماع والسياسة، ومَن جاء بعده "خوان بارّانكو غاجاردوه"[2] قد أعْلَنَا مدريد "مدينة مشرّعة الأبواب".

بكل بساطة الغياب والاستثناء، ومن المفروغ منه، أن العرب والمسلمين كانوا مُستَثنين من هذا الانفتاح والترحيب، وما خلا علاقات الملك الإسباني، الشخصية، الإبداعية، المثمرة جداً بالنسبة إلى الدولة الإسبانية، مع ملوك العرب وحكامهم! لم يفكر أحد فيهم كشعوب في أرضهم، أو كجاليات تقيم بين ظهراني الإسبان، لم يدعهم أحد ليكونوا ضمن المجموعات التي أرادت مدريد احتضانها في تلك الحقبة، حقبة الاشتراكيين الذين جلبوا إلى إسبانيا الثقافة والعلوم والتطور والقفزات الهائلة في التربية والفكر والفلسفة والإعلام، رسّخوا الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان، ودخلت إسبانيا في أثناء حكم "فيليبه غونثالث"[3] المنظومة الأوروبية الاقتصادية.

---

(1) Enrique Tierno Galván محافظ مدينة مدريد 1979-1986، المفكر، والسياسي والأستاذ الجامعي متعدد الاختصاصات. أحد أكبر رجالات التغيير والاصلاح في إسبانيا.

(2) Juan Antonio Barranco Gallardo محافظ مدينة مدريد 1986-1989 .

(3) Felipe González Márquez حقوقي، سياسي، كاتب رأي، الأمين العام للحزب الاشتراكي العمالي الإسباني، ثالث رئيس للحكومات الإسبانية، منذ موت الجنرال =

لم يكن الأمر حركة إقصاء أو عزل، كان مجرد تجلٍ للغياب، كنا بكل بساطة غير موجودين كبشر، بالنسبة إلى الغرب.. على العكس تمامًا، من وجودنا المحتَّم في أروقة السياسة والاقتصاد.

وأنا.. سأُنزل نفسي من مدريد لدى الكتابة عنها، منزلتي لديها، فمن الأمانة والصدق ومشاركة همّ ومعاناة الغربة مع كل امرأة "مسلمة" تعيش فيها.. أن أدعو نفسي كما تدعوني مدريد: "مورا"[(1)].

وعلى الرغم من كون هذا الاسم وقف على النساء المسلمات في إسبانيا، سواءٌ كُنّ مهاجرات أم حديثات عهد بالإسلام، فإنه في واقع الحال لا يقتصر عليهن، بل يشمل كل امرأة مهاجرة أتت بها أقدارها من بلادنا إلى إسبانيا، سواء أكانت مسلمة أم مسيحية، وسواء أكانت عربية أم كردية أم أمازيغية.

مرة وبينما أودع أمي في المطار، رأيت سيدة مصرية تتباهى بصليب ضخم تحمله على صدرها، ضخم إلى حدٍّ لافت للاستهجان، وكان الإسبان يمرون إلى جانبها يتغامزون ويقولون وهي لا تفهم قولهم: انظروا إلى هذه "المورا" والى هذا الصليب الذي تحمله!

كلنا من وجهة نظر مدريد "موروس"[(2)].

إنها كلمة طبعت وجودي وعلاقتي بمدريد، وسكان مدريد، وثقافة مدريد، وحركة الحياة والمدنية فيها.

أنا في مدريد، مجرد "مورا"... اسمٌ أطلقته "مدريد" عليّ،

= فرانكو وبدء عهد الديمقراطية/حكم إسبانيا ثلاث فترات حكومية متعاقبة، ثلاثة عشر عامًا 1982- 1996. شهدت إسبانيا في عهد حكوماته المتعاقبة، ازدهارًا غير مسبوق، وتطورًا اجتماعيًّا وثقافيًّا هائلاً جعلها في عداد دول العالم الأول.

(1) مذكر مورو Moro / مؤنث مورا Mora

(2) جمع كلمة "مورو" أو "مورا" باللغة الإسبانية Moros، Moras

وألزمتني به على الرغم من رفضي وثورتي وألمي واعتراضي، الذي انتهى بعد هذه السنين إلى التعايش القسري معه، كما يتعايش الواحد منا مع مرض الروماتزم، والقلب، وآلام الظهر المزمنة، فهذا الاسم ملتصق بي شئت أم أبيت، ما دمت ملتصقة بهويتي، بل حتى لو تنازلت وانسلخت عنها، وما دمنا عاجزين كمجموعة بشرية، عن إحداث أي تغيير في ساحات الثقافة، ومنظومة الإعلام التي تصيغ العقول وتفرض على الناس آليات التفكير، ومنطق محاكمة الأشياء والأشخاص والأزمنة.

وكيف لا نعجز عن ذلك، **ونحن مجموعات ضائعة مضيّعة دون "هوية"؟.. معظمنا لا يعرف تحديد انتمائه، تخبُّطنا بين الانتماءات الدينية والقومية والوطنية وحتى المناطقية.. مريع.**

وحتى التشبث بهوياتنا الوطنية، وذلك "الوطن" الذي خلفه الناس وراءهم، كان يأخذ نوعًا من أنواع المأساة غير المفهومة، والتي تدخل حدّ الملهاة المبهمة، نتيجة المبالغات العاطفية غير المنطقية، لتعلق الناس بأوطان ليسوا في منظورها الإنساني والقانوني والوطني غير مصادر دخل عابر للذل والغربة.

لم يَكْفِ الأنظمة المستبدة المجرمة، أنها استولت على مقاليد الحكم في بلادنا، بالقمع والبطش واجتثاث الإرادة واستلاب الهوية، **لكنها دفعت الناس للهجرة، ونسيتهم وضيعتهم وراء حدود الغربة والمَهَاجِر، ثم تاجرت بآلامهم وحنينهم وغربتهم وضعفهم وضياعهم، جعلت من تعب ونَصَب وهوان مواطنيها "المهاجرين"، واحدًا من أهم مصادر "الثروة الوطنية" المُستباحة.**

لم تكن مدريد مثل لندن، تستوعب اختلاف هويات الوافدين عليها، وتحافظ على درجة مذهلة من التنوع البشري ضمن الإطار

الانكليزي الثقافي العام، كانت مدريد تريد للمهاجر أن يخلع هويته عند حدودها، وكانت كلمة "الاندماج" تعني في إسبانيا "الذوبان"، كما تعني إعلان الحرب على كل من يستعصي على ذلك.

أولئك المهاجرون الذين حاولوا الانسلاخ من هويتهم، وتشبهوا بالقوم حتى يرضوا عنهم، لم يستطيعوا الانخلاع من ربقة العادات التي تلتف على أعناقهم أغلالاً. مدريد ما زالت تدعوهم بالموروس، لكنهم هُم وأبناؤهم، لم يستفيدوا كثيرًا من محاولاتهم المستميتة للانصهار مع المجتمع المدريدي. شيءٌ ما ودائمًا يكشف "اختلافهم"، أسماء بعض أولادهم، ألقاب العائلة، لُكْنَةٌ في لغتهم الإسبانية، إتقان لفظ حرفٍ عربي، عادة من عاداتهم الموروثة الشنيعة، طعامٌ خاص بالبلد الأصل يحبونه، أو يتقنون صنعه، أو يعرفون تركيبته.. إصرار على إجراء عملية طهور أبنائهم الذكور، على الرغم من تركهم كل أركان دينهم!

أي شيء يمكنه أن يكشفك، ويَحْرِمك من رضى هذا المجتمع عنك، ليجعلك "لقيطًا" فيه على طريقته، وطريقته في ذلك هي نبذ "المورو" وإقصاؤه نفسيًّا وفعليًّا، مع التفضل عليه بادّعاء معاملته المعاملة الحسنة!

الذين يمتلكون تصورًا واضحًا عن هوية جليّة، يعتزون بالانتماء إليها ويفهمون أبعادها ولا يتخلون عنها، هم وحدهم القادرون على الصمود في وجه أعاصير الذوبان والفناء.

أعجب سؤال يوجهونه لك في أي تماسّ معهم، في عيادة الطبيب، في السوق، على باب مدرسة أولادك: أنت مسرور في حياتك بيننا أليس كذلك؟

تهز رأسك، لكي لا تقول شيئًا، فماذا يمكنك أن تقول، والقوم يَمُنون عليك "حسن" معاملتهم لك! كأجنبي ومهاجر!.. في أيام لم يكن في إسبانيا بعد، وجود حقيقي ظاهر لا للغرباء ولا للمهاجرين!.

– أراكِ في غاية السعادة لوجودك هنا؟

– أين هنا؟ على باب هذا المصعد؟

– لا.. طبعًا، هنا في بلدنا!

– ....!!!

– سعيدة جدًّا أنت في إسبانيا، ومرتاحة على ما يبدو؟

– في الواقع.. لا! لست سعيدة ولا مرتاحة! ولا أدري كيف يبدو عليّ عكس ذلك!

– ....!!

– لا أفهم لم "يجب" أن أكون سعيدة ومرتاحة في إسبانيا؟

– طبعًا.. وإلا فلماذا أنت هنا؟؟ ولماذا تهاجرون إلى بلدنا؟ قبل أسبوع رأيت "الموراس" في غاية السعادة وهن يتوافدن إلى المسجد مثل الذباب.

– كان ذلك يوم عيد يا.. سيدة، يأتي الناس فيه إلى المسجد يومًا واحدًا في السنة، كما تذهبون إلى الكنيسة كل أسبوع.. وفي الواقع، يجب على المرء أن يكون في قمة السعادة في مكان يعدُّونه فيه ذبابًا!

– لو لم تكونوا سعداء هنا، لما جئتم..

– الناس لا يتركون بلادهم بحثًا عن السعادة يا سيدة، الناس يضطرون تحت ضغط الأهوال في بلادهم للخروج منها، ألم يخرج الإسبان من بلادهم إلى المغرب والجزائر وفنزويلا والأرجنتين أيام حربكم الأهلية، وسنوات القحط والديكتاتورية التي كانت تحكمكم؟

– ماذا تقولين؟ نحن عدنا إلى بلدنا، ولم نمكث في بلاد الآخـريـن، ثم نحن نتعايش مع الآخرين ونندمج في مجتمعاتهم، أما أنتم.. فانظري إلى شكلك ومنظرك ولباسك، هل هذا اندماج وتعايش؟

– ما كنت أعلم يا سيدة أن الاندماج والتعايش يعني الذوبان، وأن ينزل المرء عند تصورات الآخرين وقناعاتهم عن الحياة والوجود.. هل تعرفين أنت ما "الغوغنهايم"؟ ثم من قال لك إننا سنمكث هنا إلى الأبد، ولن نعود إلى بلادنا عندما تسقط الديكتاتوريات التي تحكمنا؟

– ....

– "الغوغانهايم" هو المتحف العجيب الهندسة الرائع التصميم الذي افْـتُتِح للتو في بيلباو!.. أرأيت يا سيدة أنا أعرف عن إسبانيا أكثر مما تعرفين أنت.

عن إذنك، الحمدلله وصل المصعد الطابق الثالث عشر أخيراً.. وما ظننته يفعل، عليّ المغادرة.. وداعًا.

تلك المحادثة عينها كانت تتكرر مع بعض جيران "أم أمجد" كلما ذهبتُ لزيارتها، فلقد كانت "أم أمجد" السورية تسكن في واحدة من المناطق المدريدية التي تتمتع برقيّ نسبي، وإن لم تكن

من أرقاها حيث لا يمكن لمورو أن يقترب، ما لم يكن عاملاً في الخدمات، أو من الندرة النادرة من أصحاب الملايين والعلاقات الدبلوماسية والسياسية الخفية والمعلنة.

***

هذه هي مدريد بقصورها الفخمة ومتاحفها الثرية وتماثيلها الكثيرة وشوارعها العريضة الطويلة، والتاريخ الذي تفوح رائحته من كل شبر من مركز المدينة وأحيائها القديمة، التي لا تشبه في شيء ضواحيها السكنية الحديثة، وخصوصًا هذه الأحياء المُحْدَثة المصطَنَعة الغريبة الطراز والنسق، والتي بدأت الحكومة المحلية ببنائها حول المدينة، للغجر، ولفقراء المهاجرين من كل جنسية وانتماء، ولمرضى إدمان المخدرات، وللنساء وأطفالهن من اللواتي اضطررن للتفرق عن أزواج يسيؤون معاملتهن ويؤذونهن، ولفقراء الإسبان من العاطلين عن العمل الذين ضربت أعدادهم رقمًا قياسيًّا ليس في إسبانيا فحسب، بل في كامل الدول الأوروبية.

لم تترك مدريد هذه الفئات المسحوقة هملاً، منحتهم الأولوية للحصول على خدمات اجتماعية، ومسكن كريم فيها، بتسهيلات وتخفيضات كبيرة، تتناسب مع أوضاعهم الاقتصادية البالغة الصعوبة، تلبية لحاجة مجتمع يحكمه "الاشتراكيون"، كان عليه أن يعمل لاحتواء المشكلة.

مدريد بساحات "مصارعي الثيران" الشهيرة فيها، وملاعب "كرة القدم" الضخمة، بحدائقها الواسعة المترامية الأطراف، وملاعب الأطفال التي تنتشر في كل حي وزقاق وساحة، يقضي

فيها الأطفال نهمهم للعب والحركة، ومراكز ممارسة الرياضة المتاحة للجميع، بأسعار تشجع الجميع على مزاولتها والعناية بأجسادهم، بمقاهيها الشعبية الكثيرة النظيفة التي تتمدد على أرصفة المدينة صيفاً، حيث يسهر الناس ويسمرون.

مدريد التي بدأ زحف المدنية الأمريكي المخيف، على أسواقها ومنازلها وأجهزة إعلامها وإنسانها ومجتمعها وهويتها، يترك بصماته شيئًا فشيئًا، عنوانًا عريضًا لمرحلة جديدة في التاريخ الحديث، دخلت فيها إسبانيا تحت مظلة العولمة الأميركية طائعة مختارة، لكي لا تغرد خارج السرب الغربي، في الوقت عينه الذي بدأ فيه الاتحاد السوفييتي بالتفكك، وقام رئيسه الأخير "ميخائيل غورباتشوف" بتوقيع معاهدة، قيل بأنها ستوقف تصنيع الأسلحة الكيميائية في روسية، وتدمير المخزون منها، مما منحه جائزة نوبل للسلام.

كانت هذه واحدة من أكبر الكذبات التهريجية الاستعراضية في التاريخ الحديث، فلا توقف تصنيع الأسلحة الكيماوية، ولا تم تدميرها، بل لقد تمددت روسية الاستعمارية في السر والخفاء، لتُصَدّر هذه الأسلحة الفتاكة لأنظمة قذرة مجرمة إرهابية كالنظام السوري، دفع بكل ثروتنا النفطية مقابل استيراد تقنيات تصنيع الأسلحة الكيماوية هذه، بإشراف روسي وتقنيات ألمانية وكورية[1].. سرٌ مفضوح، يعرفه القاصي والداني في سورية!

(1) ترسانة الأسلحة الكيمياوية السورية، التي سمح العالم للنظام السوري، باستخدامها ضد شعبه في ثورته على النظام عام 2013، كانت قد بنتها له شركات ألمانية، وبمساعدة كورية شمالية وإيرانية، وإشراف روسي كامل.

http://elaph.com/Web/News/2015/1/977092.html

https://sites.google.com/site/syriachemicalattack/-l

مدريد بصراعاتها السياسية ومشاداتها الحزبية وفضائح الحكومة ونزاعاتها الدائبة مع المعارضة، مما يضمن استمرار عملية مراقبة هياكل ومؤسسات المجتمع المدني للمسؤولين، ويمهد للتداول الدستوري للحكم.

مدريد وفي القلب منها يقع قصر الملك الذي لا يحكم، لكنه يُعدّ رمزًا لوحدة الأمة، واستقرار أركان الدولة، وفي زاوية ثانية يقبع مجلس الشعب الذي شهد عام 1981 آخر محاولة انقلاب عسكرية عانتها إسبانيا، وهناك غير بعيد مقر الحكومة في قصر المونكلوا حيث يقيم رئيس الحكومة المنتخب، وتلك هي الدعائم الثلاث لحكم حُرّ حديثٍ متطور نقل إسبانيا في أقل من عشرين عامًا نقلة عظيمة وعلى كل صعيد.

وغير بعيد من مراكز السلطة هذه، تتناثر المقرات الرئيسية للحزبين السياسيين الرئيسيين، المتناوبين على حكم دولة ذاقت طعم الحرية والديمقراطية، أحسن الشعب استعمالها، حتى بدا وكأنه شعب مارس حكمه بنفسه منذ قرون، وعلى أطراف مدريد تنتشر الدور الضخمة للصحف الإسبانية الرئيسية التي تمارس على الحكم والسياسة دور الرقيب المحاسب، والمعلم، والمثقف، ترفع من تشاء وتهوي بمن تشاء إلى مهاوي الفضائح أو النسيان.

مدريد التي تتناثر فيها المكتبات والمراكز الثقافية كالدرر، حافلة بالعلم والفكر والثقافة، والمطبوعات التي تتدفق إليها يوميًّا بكل جديد من الإنتاج الإنساني الذي يغذي أرواح الناس وعقولهم، ويجعل الكِتاب بين أيديهم ضرورة حيوية أساسية، وعلى رأس هذه المظاهِرة الثقافية المدهشة تربض المكتبة القومية

الإسبانية، في أحد أهم شوارع مدريد قريبًا من ساحة "كولون"، تضم في أجنحتها وأروقتها وصالاتها تاريخ البلد، مكتوبًا بأيدي رجالها ونسائها، مخطوطات من كل لون وشكل وتاريخ، كُتبًا من كل نوع وجنس ولغة، وثائق تعد بمئات الآلاف، ورفوفًا تعرض تطور الفكر الإنساني في إسبانيا، كما تعرض تقدم هذه الأمة التي نال خمسة من أدبائها وعلمائها جائزة نوبل.

أمة حية مناضلة تنمو باطّراد وتعمل وتجتهد، ليس بالسوية نفسها التي يتطلبها مقياس الجودة الأوروبي أو الأميركي والياباني، بل بما أَهَّلَها في سنوات الفورة الاقتصادية والثقافية الكبيرة، لتستحق مكانًا مرموقًا بين أمم الأرض في زمن بدأ العالم يشهد فيه ولادة العملاق الأوروبي الاقتصادي والسياسي، تتمايز فيه الأمم بين أمم تنمو لتستمر، وأخرى تضمحل وتتفكك وتهوي نحو درك الدمار أو النسيان، على أعتاب قرن جديد، بدأ العالم بالاستعداد لاستقباله قبل خمسة عشر عامًا من انتهاء القرن العشرين، الذي سيمضي نحو محاكم التاريخ، بأحداثه الضخمة، بالنقلة العلمية التاريخية الهائلة جدًّا التي شهدها، بإنكاره فضل الذين سبقوه ومهدوا لتحقيق هذه النقلة، بطمسه تاريخ أمم وحضارات بلغت شأوًا عظيمًا، قبل أن تُدَكَ سُقُفُها من القواعد في كل من آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. بمنجزات بعض البشر من الذين عاشوا فيه، حققوا الأمن والسلام والرفاهية على حساب عذابات الآخرين، والأهوال التي شهدها العالم، بعد حروبهم العالمية الفظيعة، واعتقادهم بأن للبحار بوابات يمكن إغلاقها على أنفسهم في جزيرتهم المتناهية في الصِغر، وسط المحيط المتلاطم بأمواج البشر المتصايحين يريدون الخروج من وديان جهنم الفقر والفساد والاستعمار.

سيمر هذا القرن الغريب الأطوار في التاريخ، بمآسيه، بمظالمه، بالفظائع التي ارتكبها المستعمِرون فيه، والدماء التي سفكوها في حروبهم فيما بينهم ومع الآخرين، كما حروبهم بالوكالة، دفعوا مفاعلاتها خارج حدودهم لتجري هنالك بعيداً.. في بلدان العالم التي سمَوها "بدول العالم الثالث"، والتي أصبحت ساحة لصراعات هؤلاء المستعمرين، شرقهم وغربهم عليها وعلى ثرواتها، محتفظين بحقهم الاستعماري في تحريك كل خيوط اللاعبين فيها من ساسة وعسكر، وكل خطوط نارها ولهيبها من بعد.

***

مدريد ما بين الثمانينيات والتسعينيات، البهية، الفتية، الحيّة، المتألقة، المعافاة، الطالعة من وسط صراعات اليمين واليسار التاريخية في إسبانيا، ومن خضم نزاعات العسكر والقوى المدنية على حكمها، بُعَيد موت الجنرال فرانكو، الذي حكم البلاد مستبداً بها أربعين عاماً، بعد نهاية الحرب الأهلية الإسبانية المتوحشة.

مدريد الخارجة لتوّها من عهد الاستبداد، لتصافح أشعة شمس الحرية، والازدهار، والنمو الاقتصادي المذهل، الذي دفع أحد وزراء اقتصادها إلى ارتكاب واحدة من أكبر الحماقات، حين قال: "هنا في مدريد يمكنك أن تصبح الأغنى، وبأسهل طريقة ممكنة"[1]!

مدريد بسكانها.. الذين ينتمون إلى البشر، وهم الغالبية، وأولئك الذين يحسبون أنفسهم فوق البشر ممن لا تجد بينهم وبين

(1) الشيء الذي جعل "رودريغو راتو" Rodrigo Rato يدفع الثمن لاحقاً بالمحاكمة والسجن بسبب تجاوزاته المالية، على هامش الأزمة الاقتصادية العالمية، في السنوات العجاف التي تبِعت تلك البقرات السمان العشرين التي لم يحسن الإسبان الاستفادة منها!

الإنسانية أيّ صلة.. وهم قلة مؤذية جدًّا على قلتها! المدريدي منهم وغير المدريدي، الإسباني منهم والأجنبي والمهاجر.

مدريد طفرة التسعينيات المذهلة التي صارت محط الرحال.. إليها ارتحل أهل الشمال والجنوب من الإسبان، طلبًا للرزق في عاصمة بلادهم، وإليها جاء شذاذ الآفاق من الشرق والغرب – شأن كل عواصم أُوروبا الجنوبية في العقدين الأخيرين من القرن العشرين–وعليها عقد الآمال مضطهدو آسيا وجياع أفريقيا وتعساء أمريكا اللاتينية وفقراء أُوروبا.

وإليها حج كثيرون من أبناء أمتنا زائرين، ينشدون أندلسًا لا تجد لها فيها أيّ بصمة على الإطلاق، فالآثار تجدها في جنوب وشرق إسبانيا، وليس في مدريد، وإن وُجدت ردمها القوم وأهالوا فوق بقاياها التراب، وآخرون منا يمموا شطرها طلبًا للعلم والدراسة والبحث والتحصيل ضمن إطار برامج التعاون الثقافي بين إسبانيا وبعض الدول العربية والإسلامية.

هذه هي مدريد التي كانت منذ عقودٍ مضت مكانًا يصعب العيش فيه، يأتيها الإسبان من جميع المدن والمقاطعات الإسبانية، استعدادًا للهجرة والعمل في بلاد أوروبية، هربًا من الحرب والفقر والجوع والاستبداد والظلم والسجون.

وأنا.. ومدريد، نعيش منذ أعوام، ما بين سلام وحرب، وحزن وفرح، وأمان وخوف، وكرامة ومهانة.. وكرامة ومهانة!

مدريد عاصمة إسبانيا المثقلة بتاريخها الحديث والقديم، وأنا "المورا" المثقلة بشعوري بوحدتي متعددة الأبعاد، وحاضر أمتي المخيف المؤلم الرهيب.

"مورا".. في نظر مدريد، وأهل مدريد، وكنائس مدريد، وأسواق مدريد، ومدارس مدريد، وأطفال مدريد، ورجال ونساء مدريد، وجميع أجهزة الإعلام في مدريد.

"مورا".. يا لها من كلمة! جعلتني بسنوات عمري الثماني والعشرين، وذكرياتي التي حملتها معي من حياتي الغنية الثرية في دمشق ثم في غرناطة، غريبة حتى نخاع عظامي، بآمالي وآلامي، وآمال زوجي وأطفالي وآلامهم – على صغر سنهم – وأوراقي وأقلامي، وقلبي الذي أثبتت تقارير الأطباء أنه تعِب.

"مورا". . مجرد كلمة، كلمة واحدة فحسب. . جعلتني مع كل هؤلاء، من أشخاص ومشاعر وصور، أنكمش إليها، أتقلص، أنحشر فيها، أكاد أختنق، أصارع سجنها، وأحاول أن أمزق بأظفاري جدران قهرها وجبروته، ولا أستطيع الخلاص، فلقد بدأتُ – للأسف أو لحسن الحظ – وبعد سنوات طويلة، أتعايش مع هذه الكلمة ،كما أتعايش مع مدريد نفسها، تمامًا. . كما يتعايش المرء مع مرض القلب والروماتزم، مرضان أنيقان صامتان مهلِكان في زمن الأورام القبيحة والخرّاجات الشنيعة. . ولكن لا شفاء ولا حل.

***

بدأت أقبل الدور الذي أرغمتني مدريد على أن أعيش ضمن إطاره.. "مورا"، دورٌ أسندته مدريد إليّ، ووجدت نفسي مكرهة على القبول به بعد عشرة أعوام من العيش فيها، لم أستطع أن أنفك عنه.

حاولت جاهدة، دخلت في معارك كلامية وثقافية وفكرية وشخصية، مع كل الذين عشت وتعايشت معهم رغم أنفي وأنفهم،

كانت النقاشات اليومية المزعجة هي خبز حياتي في مدريد وأوكسجينها.. نقاشات خاطفة، طويلة، سطحية، عميقة، متعبة، مرهقة، عقيمة، قليلـة الثمار، نقاشات استفهامية، أخرى تقريرية، ثالثة ترمي إلى الامتهان والإقصاء.. وقليلة جدًّا، تلك التي يريد أصحابها المعرفة.

في البقالية:

– من أين أنت؟

– من سورية

– وأين يقع هذا الشيء.. آه لعله هنا في شمال مدريد؟ فأنا من "خايِيْن"[1] جنوب "أندالوثيا"[2].

– أنا من سورية.. إنها بلد عربي!

– وأين يقع؟ لم أسمع به في حياتي.

– إنه على يدك اليمين إلى شرق إسرائيل.

– آه لقد عرفته الآن!

***

موظفة البريد:

– إلى أيّ "أخَوِيّة" تنتمين؟

– أخوية؟

– يعني إلى أي نظام رهباني؟ أنت راهبة أليس كذلك؟

---

(1) Jaén أصل الاسم العربي "جيان"، ولفظها بالإسبانية "خايين" بتسكين الياءين، مدينة أندلسية جنوب إسبانيا.

(2) مقاطعة أندلوثيا جنوب إسبانيا Andalucia.

– لا.. أنا لست راهبة.

– ولماذا ترتدين ملابس الراهبات؟

– أنا مسلمة..

– وأي شيء هو هذا؟

– إنه دين الإسلام، وأنا مسلمة.

– إياك أن تقولي لي إن هؤلاء الأطفال هم أولادك؟

– نعم إنهم أولادي.

– يا للهول... راهبة مع ثلاثة أطفال.. هذا من علامات اقتراب يوم القيامة لا شك!

***

عند اللّحام:

– تغسلون اللحم؟ولماذا؟

– ولِمَ لا نغسله؟ شيء طبيعي أن يغسل الناس اللحم قبل طبخه!

– قلت لك إن هذا اللحم مذبوح.. أنت سألِتني وأنا استفسرت وجئتك بالجواب.

– أنا لا أغسله لكونه مذبوحًا أو غير مذبوح.. أنا أغسله لمسألة تتعلق بالنظافة.

– بالنظافة؟ اللحم نظيف هنا ومستوف لكل الشروط الصحية، لكنك تبالغين كثيرًا في أشياء صغيرة وعديمة الأهمية، ما المشكلة إن كان العجل مذبوحًا أم مقتولاً بالصاعق الكهربائي؟ أنا لا أفهم تنطعكم هذا؟

- هذه مسألة لا تتعلق بالتنطع، إنها مسألة بالغة الأهمية بالنسبة إلينا.

- نعم أعلم، لم تبق "مورا" في الحي إلا جاءت تسألني إن كان اللحم مذبوحًا أم لا!

- ذكرت لك يا سيدتي أن هذه مسألة مهمة بالنسبة إلينا.

- أنتم يا سيدة تريدون أن تفرضوا علينا طريقة حياتكم ومأكلكم وملبسكم ورؤيتكم للأشياء، المفروض وبما أنكم تعيشون بيننا أن تعيشوا مثلنا وتندمجوا في المجتمع على طريقتنا، لا أن ترغموا مجتمعنا على أن ينزل عند رغباتكم.

- في الحي تسكن أربع أُسر مسلمة فقط، أسرتان مصريتان مبتعثتان للدراسة، وأسرة مختلطة إسبانية–سورية، ونحن، وهنّ صديقاتي اللاتي دللتهن على ملحمتك، لِما رأيته من طيب التعامل والخدمة، نحن يا سيدة لم نرغمكم على شيء، كل ما هنالك أننا نسأل عن مصدر اللحم، أليس من حقنا أن نفعل؟

- تصرفاتكم هذه تؤذي السلم الاجتماعي في بلدنا، وتجعلنا نشعر أننا على خطأ، أو أن أمرًا ما قد أصاب مجتمعنا.

***

في جامعة الكومبليتنسة.. وفي أثناء النقاش الذي كان يجري بعد إلقائي محاضرة عن المرأة المسلمة:

- هل لك أن تشرحي لنا موضوع تعدد الزوجات في الإسلام، فإننا نعدّه هنا من أحط الأمور وأكثرها إثارة للتقزز.

– إثارة للتقزز؟

– نعم.. إثارة للتقزز.

– دعني أسألك سؤالاً من فضلك.. وأرجو أن تصدقني القول.

– تفضلي.

– مع كم خطيبة كنت قد خرجت في حياتك قبل أن تتزوج؟

تلفت الرجل يمينًا وشمالاً مستغربًا أن أجيبه عن سؤاله العام بسؤال شخصي.

– طيب.. أوجّه السؤال لكل السادة الحضور في القاعة – العدد كان فوق المئتين– من فضلكم الكريم، ليتفضل برفع يده من "خَرَجَ" مع ثلاثين امرأة على الأقل في حياته.

ما بين هرج ومرج وضحك وفوضى عمّت القاعة، رفع أكثر من ثلاثين رجُلاً أياديهم.

– الآن.. أرجو أن يتفضل برفع يده من "خرج" مع عشرين امرأة في حياته على الأكثر.

وكأن الأمر صار لعبة مَرح جماعية، رفع أكثر من خمسة عشر رجلاً أيديهم.

– من فضلكم الكريم.. كم رجلاً من الحضور كان قد "خرج" في حياته مع خمس نساء فقط؟

فرفع ما يقارب العشرة أيديهم، من بينهم رجل الدين الأستاذ الجامعي، الذي كان ضمن من نظم هذه الفاعلية، بمشاركة بعض الطلبة التوانسة والمغاربة في الكومبليتنسة.

– حسنٌ جدًّا.. مَن مِن رجال هذه القاعة لم "يخرج" في حياته كلها إلا مع امرأة واحدة؟

لم يرفع أحد يده.

توجهت بالحديث إلى الشخص الأول الذي سألني ذلك السؤال، وقلت له: يا سيدي، الفرق بيننا وبينكم، هو أن موضوع التعدد عندنا "مقنن"، وأما عندكم فهو مفتوح من دون قوانين ولا حقوق ولا واجبات.

صفق الحضور جميعًا وقام بعضهم واقفًا وهو يصفق، ولما انتهت "اللعبة" الجماعية الفكرية هذه، قام الرجل نفسه فقال: أرجو ألّا تعدّي يا سيدتي "الخروج" مع امرأة مساويًا للزواج بها.

قلت له: لا يا سيدي.. أنا لا أعدّه كذلك، أنتم الذين تعدّونه.. "الخطيب" عندكم هو زوج يتمتع بكل حقوق الزوج، مع وقف تنفيذ أي من واجباته والتزاماته.

هنا وقفت سيدات القاعة يصفقن ويصفرن ويدعمنني فيما قلته.

فوجئنا جميعًا بأحد الأساتذة الفلسطينيين، يقف معترضًا، قد أزعجه أشد الإزعاج منطقي في إدارة الحوار في محاضرتي هذه، أخذ مكبر الصوت، ثم توجه إلي بالقول: أعتقد أن هذا الذي قلته مردود عليك، هذا كله هراء فارغ، كان عليك أن تزودي الجمهور بالآيات والأحاديث والعلل الفقهية الخاصة بموضوع التعدد، من مرض الزوجة أو عجزها عن الإنجاب.. أما التهريج فإنه لا يقدم إجابات علمية.

صمت الجميع بانتظار جوابي، وقبل أن أجيبه، قام رجل الدين أستاذ الفلسفة، وقال له: يا أستاذ، هذه جلسة عامة تدار فيها أحاديث عامة وليست محلاً للنقاشات الفقهية الخاصة بكم.

كانت تلك سنوات استثنائية في إسبانيا.. لم تتكرر، انقضت ولم تعد، إلا بعد سنوات طويلة، ووصول جيل آخر من المهاجرين الآتين من بلادنا، أو تمكُن المولودين في إسبانيا من إتمام تحصيلهم الأكاديمي، والقيام بهذه النشاطات التي تُعدّ خبز وجودنا الثقافي، وملح الحوارات المفتوحة الدائبة بيننا وبين نخب المجتمع الإسباني.

في أحد المراكز الثقافية.. على هامش لقاء مفتوح مع الطلبة حول مشكلات المهاجر بين ثقافتين وهويتين:

– لا أفهم لماذا ترتدين هذه الملابس؟

– أنا "متدينة".. ولماذا ترتدي الراهبات عندكم الملابس نفسها تقريبًا ولا يعترض أحد؟

– تعنين "مورا" متدينة؟ لا مقارنة بين "مورا، وراهبة!

– لا.. أنا مسلمة، وأنتم تسمونني "مورا"! ثم ان المقارنة لا ينبغي أن تكون إلا من هذه الزاوية بالضبط، هناك فِرق دينية مسيحية يتزوج فيها رجال الدين وينجبون الأولاد، ولا يستغرب الناس هذا، هل يُمنع على المسلمين فقط أن يكونوا متدينين وفي الوقت عينه آباء وأمهات.

– أنت إذن "مورا".. محمدية، تابعة لهذا الذي يدعى محمد؟

– نعم.. تابعة أنا لهذا الذي اسمه السيد العظيم الرسول محمد.

– دعي عنك هذا.. أنتم مجموعة من الكفار.. ولا شيء غير هذا!

وقعت عليّ الكلمة كالصاعقة.. "كفار"؟ نحن؟ لم أسمع قط أن وصفني أحدهم بكلمة "كافرة"! هذه هي المرة الأولى التي أكون فيها أنا هو "الآخر" الكافر! فلطالما وَصَفْنا "نحن" كل أهل

الأرض بالكفر! أما أن نكون نحن هم "الكفار"، فهذه مسألة مثيرة لبالغ التعجب والاهتمام!

– كفار يا سيدة؟

– نعم.. أنتم الكفار، الذين لا يؤمنون بالسيد المسيح!

– بلى نؤمن به نبيًّا رسولاً عظيمًا، بل أكثر من ذلك من لا يؤمن به من المسلمين يخرج من الإسلام جملة وتفصيلاً!

– هذه سفسطة... أنتم لا تؤمنون به إلهًا ولذلك أنتم كفار!

– يبدو يا سيدتي أن كلًّا منا يُعدّ الآخر "كافرًا"، وأظن أن علينا أن نجد قاسمًا مشتركًا للتقييم بالكفر والإيمان، لنستطيع أن نتفاهم كبني البشر.

– هذه ملاحظة ذكية جدًّا، ما ظننت أنه يمكن التفاهم مع المحمديين!

– بل نحن يا سيدتي أكثر الأقوام قبولاً بالآخر، واستيعابًا للاختلاف، ورغبة في التفاهم!

– يا سيدتي المحمدية.. أنا أعرفكم، أنتم أصحاب "القتل"، و"الذبح"، و"خذوهم حيث ثقفتموهم واقتلوهم".. ألا ترين ما يجري في لبنان، وما تقومون به من ذبح وفظائع واغتصابات؟

– يا سيدتي غير المحمدية.. تلك آيات نزلت في آداب المعارك والقتال والحروب في ذلك الزمن قبل أربعة عشر قرنًا، تحض الجيش على عدم الاستسلام، وعدم التخاذل في أثناء سير المعركة.. أما عن لبنان، فلسنا نحن وحدنا من يقوم بهذه الفظائع، هناك يقتتل الجميع مع الجميع،

اليهود والنصارى والمسلمون، إنها ساحة حرب عالمية باردة في دياركم، تتميز غيظًا ونيرانًا في بلداننا.

كانت المرة الأولى، التي أقف فيها عند معنى كلمة "الكفر"، بهذا الفهم المنضبط، أنا أعدّك كافرًا، وأنت تُعدّني كافرًا، لأنك لا تؤمن بما أؤمن به، ولأنني لا أؤمن بما تؤمن به[1].. إنه ملخص سورة "الكافرون"، التي لا تعدو إذًا كونها طريقة دقيقة لتوصيف قضية الكفر، التي يجب ألّا يترتب عليها بداية معركة، ولا حرب، بل هو التسليم بالحقيقة الإنسانية المطلقة، أن البشر مختلفون، وأن لكل دينه وانتماؤه وطريقته.. لكم دينكم ولي دين، الحرب تقوم في حال العدوان، والتغول، وقهر الإنسان، واستلاب حريته وكرامته.. حينئذٍ لا بد من الدفاع والرد، وحماية الإنسان من ظلم الإنسان، وهو حقٌّ يريد الجميع أن يحرمونا منه، أن يعتدوا علينا ويغزوا بلادنا، ويسرقوا ثرواتنا، ويهينوا إنساننا.. ثم وإذا قام الناس بالدفاع عن أنفسهم، سمّوا ذلك إرهابًا، وردوه إلى آياتٍ في كتاب الله! لا سياقها ولا أسباب نزولها ولا المراد منها في أيِّ حال من الأحوال يتضمن العدوان على الآخرين، بل إرهابهم ليكفوا عن الظلم والاعتداء.

إنه الإعداد والاستعداد اللازمين للاستدعاء من "الغياب"، في عالم لم يحترم قط الضعفاء، عالمٌ يُغيب المهزومين المستسلمين لإخفاقهم.

---

(1) سورة الكافرون، رقمها 109 في القرآن الكريم.

هذا "الاعتداء" الذي يقوم به من طرفنا أقوام قلة قليلون، لا تعترف بهم دولهم ولا مجتمعاتهم، يدّعون الرغبة في التحرر والخلاص، في حين أن من يقوم به من طرف الغربيين، دولٌ عظمى قوية تمتلك أدوات البطش، ترفع لواء الحريات وحقوق الإنسان.

"العدوان" و"الإرهاب". . لا يرتبط بالسلاح فحسب. . أن يحملك مجتمع مضيف، على أن تذوب فيه بسطوة القوة الناعمة والإعلام المفترس، وصلف الشعور البالغ القسوة بالاستعلاء والرفض والكراهية. . فهذا اعتداء وإرهاب واغتصاب، لكل مواثيق الحقوق والحريات التي يتباهى بها عالم القرن العشرين.

***

ذهبت وقد تعطل هاتفنا، أتصل من كوخ الهاتف العام أمام مدخل البناء الذي أسكنه، حيث يعرفني جميع سكان الحي، كانت تستعمل الهاتف شابة من جيراننا الأباعد، فلما رأتني أنتظر دوري بعدها مباشرة، بالغت في إغلاق الباب، وفي توزيع نظرات الاحتقار والكراهية، وبقيت تتحدث هناك أكثر من عشرين دقيقة إضافية، وأنا أنتظر في صبر وهدوء، أتشاغل بأطفالي من حولي، ولما خرجتْ، ردت الباب في عنف، نفثت دخان سيجارتها في وجهي، ثم صاحت بصوت مرتفع: "مورا" بنت الساقطة!

لم أستطع السكوت كما أفعل في أغلب الأحيان، وخصوصًا أنها شتمتني أمام البُنيات، ومن دون أي وجه حق، قلت لها في غضب هادئ: عفوًا.. ما الداعي إلى مثل هذا الكلام القذر يا... جارة؟

أجابتني وقد أغاظها هدوء رد فعلي: يكفي أنك تتنفسين معي هواء مدريد[1]!

يُلْجِم الحقد والكراهية الأنفس الشريفة، الصدمة بالبغضاء مؤلمة، مؤلمة جدًّا.

كنّا يومها واحدة من أربع أُسر مسلمة، نسكن حي البيلار، الذي كان يتجاوز عدد سكانه السبعين ألفًا في تلك الأيام!

كنا إذ ذاك قلة قليلة، لا تكاد تبين، وكان الحقد علينا والغيظ من وجودنا أكبر من أن يمكن إخفاؤه.

لم يكن هناك أي مبرر يستوجب مثل هذا الاعتداء السافر عليّ، كانت المرة الأولى في مدريد، التي أُشْتَم فيها بكلمة "مورا"!.

في البداية كانوا ينادونني في غرناطة بكلمة "فاطمة"، لكنها لم تكن شتيمة، كانت أقرب إلى التحرش منها إلى الشتيمة، "نكتة" كئيبة جِلفة، تَواصلٌ سمجٌ ثقيل الدم.

أحيانًا كانوا يريدون بمناداتنا بكلمة "فاطمة" مجرد لفت النظر: "هيه نحن هنا وأنت غريبة"! أحيانًا أخرى كان تحرشًا جنسيًّا مفضوحًا أو مستترًا! وفي الغالب كانت نوعًا من أنواع التذكير

---

(1) كان ذلك قبل أن تتوافد الهجرات من بلاد المسلمين المنكوبة، بعشرات الآلاف من النساء والرجال المسلمين إلى إسبانيا في أواخر القرن العشرين، وقبل أن تقع جملة الأحداث الهائلة التي جعلت كل من على ظهر الأرض يعرفون ما الإسلام، حقيقة أو واقعًا أو كذبًا وتشويهًا!.. كان ذلك في أوائل التسعينيات، حيث لم تكن الدعوات العنصرية قد عمت البلاد، ولم تكن وسائل الإعلام في حينها قد انقلبت لتصبح أبواقًا لنشر الكراهية والبغضاء - في طول أُوروبّا وعرضها، وليس في إسبانيا وحدها- توحي للشعب الإسباني بأن كل ما نزل به من مصائب وبلاء وفقر ومحن وأزمات وحتى سوء الأحوال الجوية بين الحين والحين صيفًا أو شتاءً، إنما هو بسبب الأجانب، والمسلمين منهم بشكل خاص، والمغاربة على وجه الدقة!

الفظّ، بأنكِ غريبة هنا في بلد لا يحب الغرباء القادمين من عوالم لا ترغب مدريد في استضافتهم منها!

تطورت الأمور – إذا كان يمكننا أن ندعو ذلك تطوراً – فأصبحتُ أدعى بـ"المورا"، صار هذا اسمي ولقبي وصفتي وعملي وهويتي في مدريد.

سمعت هذا الوصف أول مرة في مدينة "ألكانتة" شرقي إسبانية، كان ذلك أيام أعياد الميلاد أواسط الثمانينيات، وكنا في زيارة أخت فلسطينية هناك نمضي معهم فترة العطلة، وصلنا أنا وأم ياسر إلى رتل سيارات الأجرة، وكما هي الحال مع سيارات الأجرة، فتحنا باب السيارة الأولى في الرتل وأدخلنا حاجاتنا والأولاد، وقد استغربنا أن السائق لم ينزل لمساعدتنا في وضع أغراضنا في صندوق السيارة،كما جرت العادة، وبعد أن استقر بنا المقام في المقعد الخلفي مع ثلاثة أطفال جميعهم دون الثالثة من العمر، أغلقنا الباب، وحيَّينا السائق.. فلم يرد.

- مساء الخير
- ....
- هل تسمعنا؟ قالت له أم ياسر!
- ....
- هل تريد أن تقلنا إلى حي (كذا)؟
- ....

بقي الرجل يحملق فينا بكل صفاقة ولؤم، عبر مرآة السيارة الأمامية، قلت لأم ياسر هيا بنا ننزل!.

قالت: لا.. واجبه أن يُقلِّنا رغم أنفه – قالتها بالإسبانية متحدية!

فلم يرد الرجل، لكنه فتح باب السيارة وبصق، ثم تمتم: موروس قاذورات، وأغلق باب السيارة وكأنه لم يفعل شيئًا.

فتحتُ الباب، وبدأت بإنزال بناتي، ثم ذهبت لأخذ حاجياتي من صندوق السيارة الخلفي، بينما راحت أم ياسر تهدده بأنها ستشكوه إلى المحافظة، وأنها ستقدم بلاغًا ضده لأنه خالف لوائح النظام الداخلي لسيارات الأجرة.

ذهبنا إلى بيت أم ياسر مشيًا، مع أولادنا الثلاثة وعرَبَتَي أطفال، ونحن نحمل أكثر من خمسة عشر كيلوغرامًا من الأطعمة وحاجيات الأطفال، وكلتانا حامل في شهرها السابع، ولما وصلنا الدار، أصبتُ بأول نوبة قلبية عرفتها في حياتي، كنت يومها في السابعة والعشرين من عمري.. وكانت تلك أول مرة سمعت فيها أحدًا يناديني بكلمة "مورا".

***

كلنا هنا "موراس"[1].

لا يفرق القوم بين عربية ومسلمة، ولا بين آتية من المشرق وآتية من المغرب، كلنا أعداء دخلاء مصاصو دماء، متخلفون مختلون منحطّون لا نرقى إلى درجةِ إنسانيةِ الإسبان الاستثنائية، وتحضرهم الضارب أطنابه في التاريخ!

هذه هي الصورة النمطية التي تسكن ذهن كل إسباني، عن كل مسلمة يراها في الشارع متميزة بحجاب على رأسها، أو سحنة غريبة في وجهها، أو لكنة أجنبية واضحة على لسانها!

---

(1) MORAS "موراس"، جمع كلمة "مورا" المؤنث باللغة الإسبانية.

هذا هو القدر المقدور، ضُرِب على كل "مسلمة" في إسبانيا.. عربية أو كردية أو أمازيغية، سافرة أو محجبة، سورية أو مغربية أو فلسطينية أو باكستانية، كبيرة أو صغيرة، أميّة أو أستاذة جامعية!

كانت تلك "هويتنا" في إسبانيا، والتي جاهدنا جهاد المستميت يومًا فيومًا، وحدثًا فحدثًا، لتغييرها، دون أن نُفلِح كثيرًا، فعلى الرغم من الجهود الجبّارة التي كانت بعض النساء المسلمات يبذلنها بين الحين والحين وخصوصًا ممن يرتدن الجامعات، أو يحاولن اختراق وسائل الإعلام، بمشاركات فنية أو حوارية يقمن بها بصورة فردية أو عن طريق أطفالهن، في سبيل تغيير نظرة المجتمع إلينا، فإن وسائل الإعلام هذه نفسها ودائمًا، كانت بالمرصاد، لتقويض كل جهد إيجابي في هذا الاتجاه.

نحن هنا كلنا "عربٌ" "مسلمون"، غرباء ممقوتون، دخلاء مرفوضون.. "موروس"!

هنا أنت لا تمتلك تلك البصمة القومية العرقية المعقدة، التي لطالما تغنيت بها، واستخدمتها للاستعلاء والتميز على الآخرين، أو محاربتهم ودكّ بنيان وجودهم، مدعومًا – سواء كنت عربيًّا أم أمازيغيًّا أم كرديًّا أم نوبيًّا– بقوى استعمارية تستخدمك لتفعل هذا، من حيث تعلم ولا تعلم.

هنا أنت مجرد كذلك من هويتك الوطنية البسيطة المسطحة، التي لطالما استكبرت بها على إخوانك وأشباهك، من أبناء عمومتك الأقربين من حولك.

حاجتك في غربتك ماسّة إلى هوية صلبة جدًّا راسخة شاملة ضاربة جذورها في عمق التاريخ.. هوية نقية واضحة ترتسم معالمها

في دماغك قناعات راسخة تدافع عنها، كما تبدو سماتها سلوكًا ثابتًا غير متذبذب ولا متأرجح يستجدي التأسي بالآخرين.

تلك هي الوسيلة الوحيدة لفرض احترامك على هذا المجتمع الذي يُضيفك رغم أنفه.

تلك هي الوسيلة الوحيدة لاستدعائك من الغياب والتغييب.

في مدريد، أنت لست سوريًّا، أو فلسطينيًّا، أو مغربيًّا، أو مصريًّا، تكفلت الغربة بأن تقضي على كل الحدود التي زرعها الاستعمار فيما بيننا، ليست الحدود الجغرافية فحسب، بل النفسية والأخلاقية، أو على وجه التحديد غير الأخلاقية، التي رَفعت في وجودنا الممزق، حواجز من الكراهية والرفض والعنصرية، نزاولها بعضنا مع بعض، وهي أشد وأقذر من العنصرية التي يتعامل بها الغرب معنا!

هنا أُوروبا.. جنة الحقوق والحريات والخدمات والتغني بالإنسانية، هنا أُوروبا.. جحيم العنصرية والكراهية ونفاق الديمقراطية والانتقائية الإنسانية، وإنكار الجرائم التاريخية التي ارتكبها الغرب بحق شعوب العالم، هنا.. لا يطلب منك أحد بطاقة هويتك الوطنية أو القومية، على أبواب هذا الجحيم وويله وألسنة لهيبه.

– أنت مورو؟

– لا.. أنا سوري!

– يعني.. أنت مورو؟

– لا... لا أبدًا، أنا سوري، ألا ترى أنني أتميز بنظافتي وشكلي وبياض بشرتي، أنا لست مورو!

– أنت مورو! ما الفرق بينك وبين أي "مورو" آخر؟

– نظافتي، سلوكي، أناقتي، أنا لست مورو! المورو هو القادم من جزر المورو الفليبينية أو من بلدان مغرب المنطقة فقط.

– لندع جزر المورو جانبًا.. لأنها بعيدة ولا يأتينا من هناك أحد، وأنت تعرف أنها ليست المعنية بالموضوع، أما من جهة بلدانكم ففيها كلها طبقة اجتماعية صغيرة متميزة بنظافتها وأناقتها، وهي طبقة الأغنياء فقط، وكل بلادكم ترزح تحت نير الاستبداد والفقر والتخلف.. المغاربة والجزائريون من الأغنياء المتعلمين أولاد العائلات التي تسمى بالكبيرة، لا يختلفون عنك في شيء، بل هم يفضلونك في كثير من الأشياء، وخصوصًا تحصيلهم العلمي، وقدرتهم على استيعاب الأمور، أنت مورو، فلماذا تُنكر أصلك؟ وتحقر غيرك من الموروس!

– أنا لست مورو، ولا أتعرف على الموروس، أنا سوري!

– لكن السوريين الفقراء المهاجرين من بلدكم، لا يختلفون كثيرًا عن غيرهم من الفقراء المهاجرين من مختلف دول منطقتكم، ولا حتى في لون البشرة الذي تتباهى به، كلكم موروس، ووجود القليل من الأغنياء المتطهرين المترفعين عن الاعتراف بالانتماء إلى المجموع، لا يعني أنهم لا ينتمون إليهم!

– قلت لك، أنا لست مورو، المورو أسمر متخلف قذر! أصدقائي من الإسبان يعرفون أنني لست بالمورو.

– عندنا، كلكم موروس.. المورو هو "الآتي من بلاد المسلمين" كائنًا ما كان انتماؤه أو لونه، معظم سكان مناطق الشمال المغربي المسماة بـــ"الريف" بيض البشرة شقرٌ ذو أعين ملونة، فلا تكابر، إذا كان رفاقك يراعون شعورك، فهذا لا يعني أنك لست مورو بنظر كل الإسبان! أنت مسلم عربي مهاجر.

– أنا لست مهاجرًا!

– وما وضعك في إسبانيا إذًا يا صديقي، واسمك "إبراهيم"، لا أنطونيو ولا خابيير؟

– أنا مولود هنا.. ولا يهم اسمي!

– ومن أين جاء أبوك وأمك، ولِمَ سمّوك بهذا الاسم؟

– جاؤوا من سورية لدراسة الطب.. وأنا مسلم إسباني.

– لا يا عزيزي، أنت إسباني من أصول أجنبية، إذًا هما مهاجران لأسباب تتعلق بالدراسة، مشكلتك أنك لا تفهم، مُصطلَحَي "مهاجر"، و"مورو".. المسألة تتعلق بأنك تُعدّهما شتيمة!.

– إنهما في إسبانيا شتيمة!

– في هذه أنت مُحِقّ، في كل أوروبا تُعدّ كلمة "مهاجر" و"مورو" شتيمة، وفي ألمانيا لا يقولون "مورو"، يقولون "توركو"، أي القادم من تركية!.. والمسألة سيان.

– قلت لك أنا لست مورو، ولا توركو.. أنا سوري!.

– سورية تُعدّ جزءًا من تركيا التاريخية، أو ليست سورية اليوم جزءًا من أرضكم العربية الكبيرة؟ في إسبانية.. أنت مورو، لا أحد يعرف ما سوريتك هذه، ما يحدد هويتك، هو سلوك المجموعة، وليس تميز الفرد.

– أنا سوري، وسورية من أقدم وأعرق دول العالم.

– هههههه يا صاحبي.. أنتم بالنسبة إلينا واحد، الفروق التي ترونها فيما بينكم، لا يراها أحد غيركم، أنتم هنا بالنسبة إلينا شعبٌ واحد، إنكم الغزاة الجدد "الأعداء القدامى"!

كنت أستمع إلى تلك المحادثة بين هذا الشاب السوري في الثاني الثانوي، وجاره ومعلمه الإسباني الطالب في السنة الرابعة

في علوم الاجتماع، والذي كان يدرسه بعض المواد ويساعده للتحضر للثانوية العامة لاحقًا، كان حديثًا وديًّا، أكثر منه خلافًا ثقافيًّا وفكريًّا، على الرغم من أن "إبراهيم" كان يختنق فيه قهرًا، وكاد يبكي غير مرة.

كان ذلك الطالب الإسباني، يحاول أن يرد جاره وتلميذه السوري إلى أرض الواقع، طار منها بفقاعة لامعة من شعوره المتعاظم بسوريته وجماله وبياض بشرته، لعلها تحميه من تلبسه بتهمة الغربة! ومن امتهان الآخرين له بنعته بالمورو، وكانت بالفعل توفر له جزءًا لا يستهان به من الحِماية، في مجتمع يعبد الجمال، وتسوده ثقافة العناية بالجسد إلى درجة الهوس.

لمّا قلت له معلقة ومواسية: نحن أمة واحدة، وشعوب مختلفة، لكننا في نهاية المطاف واحد، كلٌ متكامل.. غضب، وانتهرني مصرًّا: أنا لست مورو، أنا سوري!

عندما تحدثت إلى السيدة الطيبة، جدة إبراهيم وكانت في زيارة العائلة، اكتشفت أنها ابنة بنت عمة جدتي الحمصية، راحت تسب معلم حفيدها "إبراهيم"، هذا الأبيض الأشقر الذي يرفض بأن يدعى "مورو".

قالت لي: هذا المعلم عنصري وغبي.

شربنا القهوة.. ثم أخذت تحدثني عن أبنائها، قالت لي:ابني الكبير تزوج معلمة رائعة الجمال من بيت حسب ونسب وثراء، ما فيها عيب إلا إنها "ليبية"! وابني الآخر جاركم "الله يعدمني ياه" تزوج من سورية سمراء تكاد لشدة سمرتها تكون "عبدة" سوداء! الأعمى لم يجد شابة إسبانية يتزوجها بدل امرأته هذه؟

أبو إبراهيم.. هو الوحيد الذي تزوج بمشورتي، الحمد لله

زوجته بيضاء مثل البرّاد[1]، وانظري إلى جمال أولاده.. الكل يظنون أنهم ألمان!

يخرب بيتو هل المعلم شو عنصري ونازي!

ذكرني إصرار الفتى المسكين، المحاصر بحقيقةٍ يريد أن ينكرها وبأي ثمن، بابنة أحد "الكبار" من الإسلاميين السوريين في أوروبا، كانت تعترض على زواج صديقتها من شاب جزائري، لم يعفِه كونه طبيبًا جراحًا من رفض السوريين لزواجه من فتاة سورية، فكانت تسأل العروس في تعالٍ واستهزاء: وهل من طريقة ليتم التفاهم بينك وبينه؟ بأيّ لغة تتحدثان وتتفاهمان؟

أجابتها العروس دون أن يرف لها جفن: بلغة العيون والقلوب، وهي لغة تستعصي على البعض!

عَجْزُنا عن النمو والتعلم، كان أكبر من قدرتنا على استيعاب الواقع الذي كنا نعيشه غرباء، في غرباتنا المتراكبة، وأميّتنا المزدوجة، وحاجتنا الماسة إلى تنمية مشاعرنا الإنسانية والأخلاقية. . نعيش معضلات، وليس معضلة واحدة، وبعض مشكلاتنا مع الآخر الذي نحن مهاجرون إلى أرضه ووجوده، تتعلق مباشرة بكثير من مشكلاتنا الذاتية بعضنا مع بعض، ونظرتنا إلى أنفسنا، وإلى الآخر الذي هو منا "نحن"!

في مدريد، أعجبك أم لم يعجبك، أنت "مورو"، وحتى لو لم تكن امرأة محجبة، أو شابًّا أسمر، أو تتلعثم بلكنتك الإسبانية التي تفضح غربتك، فإن اسمك يفضحك، إبراهيم، علي، محمد، يمان، بنان، نور، بهيجة.. وعلى الرغم من أن معظم "المسلمين" في إسبانيا يسمّون بناتهم باسم "سارة"، وأبناءهم باسم "إسماعيل"،

---

(1) الثلاجة.

لأنهما اسمان مشتركان بيننا وبين الإسبان، فإن "هويتك" لا تلبث أن تطل برأسها لتكشف الحقيقة: أنت مسلم وغريب، ولن يرضى عنك القوم حتى ولو اتّبعت ملّتهم وسنّتهم شبرًا فشبرًا، وخلعت كل عباءة كانت تُدثرك من صقيع الغربة، وطوفان الذوبان والاضمحلال.

منذ جئت مدريد لصقت بي كلمة "مورا"، كما يلتصق أي حاكم عربي بكرسي الحكم، وكما يلتصق أي مسؤول صغير أو كبير في موقع مسؤوليته، داخل البلد أو خارجها، مدى الحياة.. حياته أو حياتنا!

أنا في مدريد لست إنسانة، ولا مواطنة، ولا حتى "مخلوقة" من صنع الخالق، أنا هنا لست أمًّا، ولا زوجة، ولا امرأة، لست كاتبة، ولا صحفية، ولا يمكن ولا يستقيم لأحد أن يفهم هنا، إلا إنني أمية جاهلة متوحشة، جاءت من وراء البقر أو الجِمال.

أنا هنا لست إلا "مورا في مدريد".

أنا هنا لست سلمى، ولا ليلى، ولا حتى "فاطمة"، التي كانوا ينادونني باسمها في غرناطة، لست هنا أم ساجدة، ولا ابنة عبدالرحمن، لست هنا سورية، ولا مغربية، ولا فلسطينية، ولا عراقية، ولا جزائرية، ولا باكستانية، ولا صومالية، إنني هنا "مورا"، وفقط "مورا"[1].

هذه "المورا".. التي تمثل رغم أنفها الإسلام والمسلمين في جميع أنحاء الكرة الأرضية.

يستوي في ذلك أن تكون طبيبة أو خادمة، والأمر واحد إن

(1) كلمة "مورو" جاءت في الويكيبيديا باللغة الإسبانية، أنها "كلمة تستعمل في الموروث الشعبي والجمعي –وحرفيًّا – بمدلولات تحقيرية، يطلق على كل سكان شمال أفريقية أو المنطقة المغاربية". في حين أن التعريف نفسه جاء في الويكيبيديا باللغة العربية محذوفة منه هاتان الكلمتان. "المدلولات التحقيرية"!

كانت شريفة أو منحرفة، ومهما بلغت درجة فهمها لانتمائها الإسلامي، أو مدى تطبيقها لأوامر هذا الدين، أو انفلاتها منه وخروجها عليه، وسيان أتت من أكبر وأهم العائلات في بلادها، أو من الشوارع التي تُربي وتُعلم كذلك بطريقتها الخاصة، كما تُربي العائلات وتُعلم، وأحيانًا لا يكون من فارق بين التربيتين إلا التنظف والتأنق والتأنف والتصعر!

كل امرأة مسلمة في مدريد هي مجرد "مورا" في نظر مدريد، محتقرة، غريبة، دخيلة، مسلمة. . حتى لو كانت من أي انتماء ديني أو طائفي معروف في بلاد "العرب"، عربية. . حتى لو كانت كردية أو أمازيغية.

محتقرة، غريبة، دخيلة، مسلمة، عربية. . اختر أي الكلمات الخمس لتفسير كلمة "مورا" فلن تخيب لفظة "مورا" ظنك فيها.

لم آتِ بهذا التفسير الجارح المؤلم لكلمة "مورو" من القواميس الإسبانية[1]، لكن الأيام والسنين التي عشتها في مدريد جعلتني أستطيع أن أؤلف فيها قاموسًا خاصًّا عشته بسِني عمري وكتبته بآلامي، يومًا فيومًا كنت أحمل هذه الخشبة علَى عاتقي وأمضي بها في طريق حياتي في مدريد، وكل مدريد مصرّة على صلبي عليها، أنا وكل امرأة مسلمة كتب عليها العيش في مدريد.

منهن من فهمت هذا الواقع باكرًا فعاشت جحيم صراع الهوية وإثبات الذات، ومنهن من لم تلتقط الإشارات الرنانة ولم تُلم بحقيقة الوضع، اقتحمتْ المجتمع الإسباني في لامبالاة مريحة، غير عابئة بما يقول وبما يصنع، ومنهن من التقطتها وأهملتها،

(1) Moro مسلم ج. ون (يطلق على مسلمي المغرب والأندلس خصوصًا، وعلى سائرهم بعامة)/ غير الممزوج بالماء – غير طاهر-/غير معمد/ يقال: لا يوجد موروورس على الشاطئ: بمعنى من لا يُرغب في حضورهم أو اطلاعهم على سر/ حالة من السُكْر. المصدر: قاموس جديد إسباني- عربي، الصادر عن المعهد الإسباني- العربي للثقافة طبعة 1988.

لتستطيع التأقلم مع حالة "النبذ والتهميش" الدائبة، ومنهن من كابرت وتأنفت، وسمحت لها أوضاعها الخاصة أن تعيش في قوقعتها الخاصة بعيدًا، ومنهن من تصَّنَعت تبلد الأحاسيس، هربًا من القهر المضاعف والإهانة اليومية.. كذبت على نفسها وعلى الآخرين، ومنهن من رشّت على الموت سُكَّرا، تُصرّ من خلاله على أن طعم الموت حلو المذاق.

وكلها أبواب متفرقة للجحيم نفسه.. جحيم الغربة والكربة والإنكار والجحود.

تقلصت كل التعقيدات المتعلقة بـ"هويتنا" المعاصرة الضائعة المتفسخة، في إسبانيا، إلى كلمة واحدة : "مورو"!

أنت "مورو"، زوجتك "مورا"، وأبناؤك الذين ولدوا في إسبانيا، كذلك "موروس"!

أهلاً بكم في عالم "المورولانديا"، حيث يُحشر "المسلمون" في زاوية الكراهية والرفض وسوء الظن، والتصورات الهوليوودية المسبقة المرسومة بعناية فائقة عنهم في الذهن الغربي، ولا يريد الغرب أن يعترف للموروس بأي انتماء آخر، إلا هذه الكلمة، **كلمة دخلنا من خلالها منطقتنا العازلة المعزولة عن المجتمع المدريدي، يعاملنا من خلالها على أساس الفصل النفسي والثقافي العنصري، بطريقة "الأبارتايد" الجنوب إفريقية العنصرية[1] نفسها، ولكن دون ضجيج إعلامي وكثير جعجعة!**

---

(1) الأبارتايد (أو الأبارتهايد، بالأفريكانية Apartheid [ə'pɑrtheɪt] أي "الفصل"). نظام الفصل العنصري الذي حكمت من خلاله الأقلية البيضاء في جنوب أفريقيا من عام 1948 وحتى تم إلغاء النظام بين الأعوام 1990-1993، وأعقب ذلك انتخابات ديمقراطية عام 1994. هدف نظام الأبارتايد، إلى خلق إطار قانوني، يحافظ على الهيمنة الاقتصادية والسياسية، للأقلية ذات الأصول الأوروبية.
– **المصدر** : ويكيبيديا الموسوعة الحرة.

المشكلة الحقيقية "المدهشة"، لم تكن في هذه المتاهات التي تدخلنا عتمتها كلمة "مورو" أو "مورا" في إسبانيا، بل في الظلمات المتراكب بعضها فوق بعض، والتي تفرضها علينا ملابسات هذه الكلمة نفسها، ومعانيها وظلالها ومرادفاتها في النفس والعقل، في.. بلادنا عامة، وفي سورية خاصة، حتى لو لم يسمع بها أو يعرفها هناك أحد!

كل امرأة ملتزمة بالإسلام كل "متدين" ملتزم، كانت محل عداوة ورفض وكراهية واحتقار واتهام، وأبلغ أنواع سوء المعاملة المتعددة الأبعاد، في بلدها ومجتمعها والسلطات السياسية والأمنية التي تحكمهما!

كنا نحن الملتزمين بديننا، فكرًا وسلوكًا فضلاً عن الالتزام به عبادة ومظاهر، كنا وما زلنا في بلدنا، "أقلية" غريبة مضطهدة، من قبل المجتمع كما من قبل الدولة!

حقيقة صارخة لا يمكن لمنصفٍ مدركٍ، أن ينكرها، ليس في سورية فحسب.. بل في بلدان المنطقة العربية كافة من محيطها إلى خليجها ماعدا بلدين أو ثلاثة.

هنا يُقْصونك وهناك يحاربونك، هنا يهمشونك وهناك يعتقلونك، هنا يحتقرونك وهناك يحرمونك من كل حقوقك في المواطنة والإنسانية.

هنا أنت غريب. . وهناك أنت أشد غربة.

هنا يريدون لك أن يكون وجودك بينهم شبحيًّا ومؤلمًا، هناك يبذل الجميع كل جهد ممكن، لتبدو غير موجود.. يريدون لك ألّا تكون.

هنا ينادونك "هذا المورو القَذَرة"[1]، وهناك اسمك "هذا المتدين المهبول"[2]، هذا "الشويخ"، هذا "الولَي"، و"الله يزيدنا من بركاتك"!

ثم ما لبس "الوصمان"[3] أن انصهرا في بوتقة "كلمة ثالثة"، اختُرِعت لمحاربة كل من تُسول له نفسه التحقق بهويته الأصلية، حتى لو كان معتدلاً سلميًّا، أو منخلعًا متخليًا.

كلمة "مورو" في غربتنا، أصبحت صنوًا لكلمة "المتدين–الشويخ" في أوطاننا، وكلتاهما صارت رديفًا لكلمة واحدة، في الوطن وفي الغربة.. أصبحنا جميعنا متّهمين بها في بلادنا التي جئنا منها، أو في المهاجر التي ولدنا فيها.

أنت متهم بالغربة، متهمٌ بالإسلام، متهمٌ بأنك "من هناك"! وقد حلّت عليك "اللعنة" التي جعلت هذه المفاهيم الثلاثة تتلخص في كلمة واحدة وحيدة: الإرهاب.

أنت "مورو"، أنت "متدين ملتزم"، إذًا أنت "إرهابي".. مهما كنت بعيدًا من الأفكار التي تبرر للقلة النادرة من مُعْتَلّي القدرة على الفهم، من المسحوقين المهمشين المقهورين المعذبين المطاردين والبائسين.. ممن قاموا من عند أنفسهم، أو "استُعْمِلوا" من حيث يدرون ولا يدرون، للقيام بأعمال "إرهابية" فردية أو جماعية، في مواجهة الإرهاب العالمي، الذي لا يتورع عن استخدام القتل

(1) القَذر: الغائط /معجم المعاني الجامع الإلكتروني.

(2) (مَهبول) اسم/الجمع: مهابيلُ/ مفعول من هَبِلَ/ مهبول: أهوجُ، أحمقُ/ معجم المعاني الجامع الإلكتروني.

(3) وَصَمَان، وَصَمَ يصم: وصم فلانًا: عابه، لطخه بقبيح، تَنَقَّصَ من قدره/ معجم المعاني الجامع الإلكتروني.

والتدمير والكذب والنفاق، وازدواجية كل أنواع المعايير الأخلاقية والإنسانية في هذا العالم الأجرب.

***

في مدريد، أعدت اكتشاف انتمائي إلى "المنطقة الناطقة بالعربية"، وفهمت الملابسات النفسية والتاريخية لهذا الانتماء، بعد أن رأيت أبعاده الحقيقية في عيون الآخر ومرآته النفسية والثقافية.

في مدريد عرفت وفهمت، حقيقة تركيبة الجغرافية البشرية للمنطقة التي أتيت منها، والتي تُعدّ كنزًا إنسانيًّا ثقافيًّا، معجزة حقيقة، أو قنبلة ذرية انشطارية توشك أن تنفجر بين أيدينا، إن لم نحسن استيعابها ولملمة أطرافها.

في مدريد، ولأول مرة، تعرفت على المغربي، والمصري، والجزائري، والسعودي، أخي، وابن عمي، ولحمي ودمي، إنه.. أنا، إخوة الهمّ الواحد، والقهر الواحد، والقدر الواحد.

في مدريد، ولأول مرة، رأيت هذا الفلسطيني، البعيد البعيد، القريب القريب، الآتي مباشرة من الأرض المحتلة، ليس ذلك الفلسطيني المهاجر الذي يعيش غربته المضاعفة في أرضنا، ويحمل ويحتمل آلام نظرة "أخيه" إليه، تلك النظرة الاستعلائية، الفوقية، المتّهِمة، الرافضة، النائية بالنفس.. لكن هذا الفلسطيني الأسطوري، فلسطيني الأرض الفلسطينية، الذي ظلّ هناك، شجرة أورقت وأزهرت وأثمرت.. ولم تستطع الرياح اقتلاعها من أرضها.

كنت أعيد كذلك اكتشاف هذا الفلسطيني، الذي كان أنا، وكنت هو، والذي كنت أعرفه في دماء شهداء دير ياسين، وأغنية

أم كلثوم "فدائي"، و"سوسنة" محمود درويش، وأساطير الحرب الأهلية اللبنانية الرهيبة وصبراها وشاتيلها، ومخيم اليرموك على خاصرة دمشق، وأولئك الثوار الذين لطالما حلمنا بالانتساب إليهم والعمل معهم، كنت أعرف الفلسطيني بجراح فدائيي كريات شمونة، ورقص المستوطنين الحاقدين على أشلائهم التي مزقوها وأحرقوها، كنت أعرفه بانتفاضات الأقصى، انتفاضة بعد انتفاضة بعد انتفاضة.. وحده، هذا الفلسطيني، كان يذود عن شرف الأقصى، شرف الأمة.. وحده كان المرابط هناك، في مواجهة كل هذا الحجم من التغول والتسرطن والإجرام الرهيب، لكنني اليوم وفي مدريد، أصبحت أعيش معه، أصافحه، آكل وأشرب على مائدته، أستمع إلى لهجته الفلسطينية الرائعةِ الموسيقى في أذُنَي التاريخ، تتحدى التلاشي والاضمحلال، ولا تستسلم.

"أم ياسر" القادمة من غزة، و"أم طارق" ابنة القدس، و"أم دعاء" من بيت لحم، و"جدة محمود" التي نزحت إلى لبنان، ومنها إلى مدريد.. كُنَّ صلة وصلي بعالم الفلسطينيين الذين هم من لحم ودم، عالم الفلسطيني الملموس والمشهود، قصص حياتهم اليومية، وصمودهم الأسطوري في وجه التهويد، تعايشهم الإنساني المريع المتعب المنهك مع الإسرائيليين، حكايات نزف صبرهم على معابر الذل والهوان، وتحدي الرغبة في العودة مرة بعد مرة.

وكذلك فعل رضوان وأمه، تلك الأم الفلسطينية الشامخة العظيمة الكبيرة، تلك المرأة التي تشبه جبلاً، تتمشى في شوارع غرناطة كلما أتت لزيارة ابنها، بثوبها الفلسطيني التقليدي، وغطاء رأسها الأبيض الذي يحيط بوجهٍ رسمت فيه الشمس والأيام تجاعيد الصمود والاستمرار، الحاجّة أم رضوان، شكلت صدمة

في وعيّي بحقيقة القضية، وليس بالقضية المستلبة، المسروقة، التي جعلها الجميع خيال مآتة لهم، لم تكن قضيتها الفلسطينية تشبه تلك التي عرفناها بجعجعة وسائل إعلامنا، ولا تلك التي ركبتها الأنظمة العربية لتحقيق أهدافها في قمع الشعوب، واستمرارها في الكراسي، وبقاءها فيها مدى الحياة، على أشلائنا وآلامنا ونهب ثرواتنا، وتركِنا في العراء وحدنا مع أهل القضية الحقيقيين، كان تَعَرُّفي إليها وإلى ولديها، الطبيب المقيم معنا في غرناطة، والشاعر الثائر الزائر، منعطفاً في فهمي للفلسطينيين، أبناء الأرض، بأخلاقهم، برُقيّهم، بصدقهم، بثباتهم، ببساطة تعاملهم معنا، بلهفتهم كأنهم أهلَك من دون أهلِك، يحملون من الاعتزاز بانتمائهم وتقاليدهم ووجودهم، ما يتعاكس مباشرة مع مباهاتنا الفارغة المعيبة بانتمائنا وتقاليدنا ووجودنا..

علمتني أم ياسر.. طريقة طبخ الملوخية على الطريقة الفلسطينية، وكنت بعد أن عادت إلى فلسطين أهاتفها بين الحين والحين، فأسألها من خلال الخطوط المشَوَّشة أن تعيد علي خطوات صنع الملوخية الناعمة، وما إذا كان في استطاعتي أن أضيف إليها السِلق المفروم من أجل الأولاد، علمتني أم دعاء كيفية إعداد الصفيحة الفلسطينية التي تُـمَد عجينتها بالزيت وليس بالطحين، وحمّلتني أول مرة زرناهم فيها وذقناها فأعجبتنا، كل ما كانت قد أعدته من هذه الصفيحة، وعاءً ضخمًا من العمل والكرم الحقيقي والمودة، علمتني أم طارق كيف تُطبخ الكوسا المحشي بالحامض من دون مرق البندورة، علمتني أناقة الأخوة، وجمال الحياة عندما يكون فيها أمثالها، وذقت مرارة الفراغ لمّا عادت إلى القدس، دفعتُ إليها مسوّدة أحد كتبي التي لم تر النور، فكتبت

لي على حاشيته بضع ملاحظات، كانت عندي أهم من الكتاب نفسه.. وعلمتني جدة محمود لفّ ورق العنب وطبخه على أصوله، بكثير من الدهن والإتقان وبالغ المحبة.. كما يفعل أهل فلسطين المتلبننين – كما قالت.

علمتني "أمي الفلسطينية" أم رضوان، لأول مرة كيف أعجن العجين، وكيف أعمل الفطائر بالسبانخ، شرحت لي كيف يُخَزَّن اللبن اليابس ثم يُطبخ، حكت لي ألف حكاية عن معاناتها كامرأة فلسطينية في ظل الاحتلال، كأم وزوجة وفلاحة ومناضلة.

يمد رضوان يده صباح العيد فيعطي أولادي العيدية، يُعدّ نفسه عمهم الصغير أو ابن عمهم الأكبر، لم يكن أولادي يعرفون ما "العيدية النقدية"، ولم يكونوا يعرفون معنى أن يكون لهم عمٌّ أو ابن عم كبير.

وأتردد قبل الخروج من البيت مع أم رضوان بثوبها التقليدي الفلسطيني، خوفًا عليها من أذى الإسبان، فيقول لي رضوان: "يحكوا إلي بَدْهُم ياه، إحنا موش فارقين معنا كلهم ع بعضهم".. "فشروا والله يزعجوا الوالدة، واحنا الشباب وين رحنا إذا بنخليهم يزعجوها".

كانوا يمتلكون "هوية".. وكنّا يتامى!

أولئك الفلاحون الأعزّة الأباة الشامخون، أهل الأرض المحتلة، كانوا هم السادة الأحرار، وكنا نحن الأذلاء العبيد أبناء البلاد المُستَعْمَرَة التي يحكمها المستبدون وأسيادهم، ونحن نظن في أنفسنا الخير والأنفة والانعتاق.

تشققات أيديهم من العمل في الأرض، ورائحة البرتقال الساكنة مسامات جلودهم، كانت تحدثك عن حكاية أمّة، تركت

الفلسطينيين وحدهم هناك بين أنياب الوحوش، فاستعصوا على أنياب الوحوش، واستعصوا على نسيان وخذلان الأمة.

كانت الأمة هي المُسْتَعْمَرَة الصاغرة، وكانوا هم وتحت سمّ قيود الاستيطان.. أحرارًا.

تستوقف امرأة إسبانية أم دعاء، وتصرخ في وجهها: مورا.. اخرجي من بلادنا.

فتجيبها أم دعاء البالغة الذكاء، الحاضرة البديهة: يا عجبًا لك.. أليس ربك الذي تعبدين "مورو" مثلي؟ أنا من بيت لحم، ومعبودك وُلِد في بعض جنباتها! إنه ابن حارتنا، عيب عليك أن تنتمي إليه، وتهيني أهله!

إنهم هناك، أهل القضية، أهل محمد، أهل عيسى، يعيشون، ويتعايشون مع الواقع المرير، يأكلون ويشربون، يعصرون زيتهم الذي يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار، من أشجار زيتونهم المقدسة، يعجنون خبزهم بحلاوة الرباط في سبيل الله، ويصنعون فطائرهم بالسبانخ بحمض ليمون أشجارهم المستلَبة الضاربة بجذورها في صدر التاريخ.. يمشون في الأسواق، يبنون البيوت، يتزوجون وينجبون، ويصنعون الحياة، يعيشون، باقون هناك في فلسطين، مخرزًا في عين هذا العدو الوقح.

لم يستطع "العرب" مجتمعين أن يقفوا في وجهه، ووقف في وجهه هذا الفلسطيني الأعزل المغلوب على أمره. . ابن الأرض.

تشبث بها، غرز أظفاره في عين الوحش، وجعل مهمته في تهويدها صعبة شديدة الإيلام.

لأول مرة أعيش وأتعايش مع فلسطينيي الداخل، أعرفهم عن كثب، أتلمس آلامهم وأمراضهم، والندبات التي خلفها الاستيطان الإسرائيلي المفترس، والتضييع العربي المتوحش، في ثقافتهم وأرواحهم وسلوكهم الفردي والجماعي.. أرواحٌ تنبض وجعًا، وسلوكٌ يرسم ألمًا، وثقافة تنضح بالمظلومية الموجوعة، وسوء ظنٍّ وتحسسٌ – مفهومٌ - من كل سوء تفاهم، من كل خطأ مقصود أو غير مقصود، يمررونه من ثقب إبرة الجحود والنكران العام، الذي قابل به الجميع قضيتهم.. قضية الأمة.

غير أنه لا حقد في مظلوميتهم التاريخية، ولا شهوة انتقام ولا تلمظ لرائحة الدم.

عندما انفجرت انتفاضة الحجارة عام 87.. كنا في مدريد كلنا فلسطينيين، ذابت الحدود، والسدود، والحزازات بين المهاجرين القادمين من المنطقة العربية، لم يعد هنالك حمصي وديري ودمشقي وحوراني، لم يعد هناك سوري ومغربي وجزائري ومصري وموريتاني وسعودي، كنا كلنا فلسطينيين.. ومدريد وشعب مدريد يُعدون من الداعمين التاريخيين للقضية الفلسطينية، كانت تلك الانتفاضة –ككل الانتفاضات السابقة واللاحقة – الهواء المضمَّخ بالشرف في نفق اختناقنا المهين.

تلك الدماء الزكية البريئة استردت القضية بالتدريج، من حلقات غرقها وضياعها.

أرجعت إليها الاهتمام والاحترام العالميين.

أعادت ربطها بمحيطها الإسلامي.

ردّتها إلى حاضنتها العربية.

وثّقت صلتها المصيرية من جديد بجغرافيتها الشامية، التي استبدلوا اسمها فنعتوها "بالشرق الأوسطية".

كانت تلك الأحجار في الأرض المقدسة، بأيدي أولئك الأطفال المَقْدِسِيين والفلسطينيين، وطننا، وهويتنا، ومبرر اعتزازنا بانتمائنا.

عشت تلك الانتفاضة في مدريد، مع أهل الأرض المحتلة، ساعة فساعة، وشهيدًا فشهيدًا، ومعتقلاً فمعتقلاً.. دعوت الله لها في كل سجدة وعلى امتداد أيامها ولياليها، حتى ظننت أنها انتصرت بدعائي.

"بهروا الدنيا" أولئك الأطفال، وما في يدهم إلا الحجارة، هكذا فضحنا وفضح العالم شاعرنا "نزار القباني".. السوري، الذي كتب عن أولئك الأطفال، أروع ما كتب في حياته وحياة هذه الأمة، في زمن البؤس والوهن مابين قرنين:

"علّمونا

كيف الحجارة،

تغدو بين يدي الأطفال ماسًا ثمينًا..

كيف تغدو

دراجة الطفل لغمًا،

وشريط الحرير،

يغدو كمينًا

كيف مصاصة الحليب

إذا ما اعتقلوها تحولت سكينًا...

نحن موتى

لا يملكون ضريحًا..

ويتامى..
لا يملكون عيونًا
قد لزمنا جحورنا
وطلبنا منكم
أن تقاتلوا التنينا..
قد صغرنا، أمامكم ألف قرن...
وكبرتم خلال شهر..
قرونًا"[1].

واهًا لنزار، لقد أنهى حياته بأروع ما يمكن لشاعر أن ينهي به حياته، شرف الاصطفاف مع الحق، مع القضية، قضيته وقضيتي وقضية الجميع، غسل بثلاثيته تلك، أدران أربعين عامًا، من الغوص في الجنس والعشق المحرم القميء القذر، واكتسب احترام وحب حتى أولئك الذين ما كانوا يحترمونه ولا يحبونه.

إنها القضية، التي تكاد تكون الوطن الوحيد، الذي يوحد كل هذه الأشتات من الناس، المتهاوين تحت طواحين القومية والوطنية والطائفية والعنصرية، في زمن الموت العربي والكساد الأخلاقي وضياع الهوية.

إنها "القضية".. قضيتنا، تشبثنا بها هو بقعة الطهر الوحيدة، في واقعنا الملوث الموبوء.

***

(1) ديوان "ثلاثية أطفال الحجارة" 1988 / نزار قباني. الشاعر السوري.

لم تبق "القضية الفلسطينية" في دوائر الطهر الرومانسية، كما هي هالات النور المرتبطة بها في تصوراتنا ورغباتنا وأحلام يقظتنا، نحن الغرباء الطيبون، كانت تُنْصَب في كل مكان على هامش الأحداث التي تمور بها منطقتنا والعالم من حولها، سوقٌ ضخمة خاصة ببيع وشراء "القضية"! وكان لبنان الجريح الذبيح قد أصبح حلبة صراع دولية ترمي إلى ما كان يظنه الجميع تصفية القضية!

هنالك كان يذبح الفلسطينيون كالنعاج، وما بين "تل الزعتر"، و"صبرا وشاتيلا"، كانت القضية تولد من جديد رغم أنف الجزارين القتلة، بعملية قيصرية بالغة الخطورة، نعم كانت تولد من جديد في تلك السنوات الحمراء الدامية التي كان الجميع يتودع فيها منها.

قضايا الحق لا تموت بقتل أهلها وإبادتهم، لا يستطيع الباطل أبدًا هزيمة الحق بذبح أصحابه.

يذهب دم الشهداء في الأرض، يبحث عن جذور الأحرار يرويها، فتنبت في قلوبهم سنابل، في كل سنبلة سبعة أكُفٍّ وليدة، تحمل راية الحق وتستأنف بها المسيرة من جديد.

بدأت "القضية الفلسطينية" شيئًا فشيئًا تعود إلى حضن أهلها، وإلى حاضنتها العربية والإسلامية، وإلى مصداقيتها العالمية، ولكن ومع آلام ذلك المخاض الرهيب، وبالتوازي، بدأت تتكشف حقائق مروّعة عما يجري في بلادنا، وما يُخطط لها، وما يُراد بها.

الحرب بين ديناصورات "المجتمع الاستعماري الدولي"، ومِزَق آخر "دولة" جامعة مانعة في المنطقة، لم تنته بعد! والعدو.. لم يعد المستعمر الغربي فحسب، لقد بدأ الأعداء التاريخيون المستترون، يُكشرون عن أنياب مطامعهم في أرضنا من جديد.

تأتي "الخالة" "أم بيسان" التي تكره أن أناديها بالخالة، وبعض أولادها في مثل عمري.. "أم بيسان" الفلسطينية الثورية المحترمة جدًّا، تضع شالاً على رأسها احترامًا لحرمة المسجد، لا تحبها نساء المسجد، يعدَدْنها غير ملتزمة، وأنا أظن أنها تعرف الله أكثر مما يعرفنه مجتمعات.. "يترفعن" عن الحديث معها، وهي التي تغرقهن كلهن معًا في بحر علمها وروحها الجميلة الدافئة! سيدة فلسطينية مُعَتّقة، تجاوزت الخامسة والخمسين من العمر، طويلة ممتلئة سمراء، تركت "القضية" أخاديد من حزن وتحد على وجهها، صوتها أجش مبحوح بسبب الدخان الذي يميز رائحتها، مهما سكبت على نفسها من عطور، سيدة مجتمع من الطراز الثقافي السياسي النادر، وخريجة جامعة إسرائيلية في الدراسات التاريخية، أمٌّ لثلاثة شبان لا يرتادون المسجد، وزوجها لا يأتي إلا لصلاة الجمعة، لكنها، ومنذ افتُتِح هذا المسجد في مدريد، تمر بين الحين والحين لتبتاع اللحم الحلال والملوخية.. وتصلي في مسجد النساء، وتقرأ بعض القرآن وتدعو الله، ثم تخرج إلى الباحة فتجلس تستأنس برؤية الداخلين والخارجين، فإذا عثرت عليّ، وجدت ضالتها، تُحدثني وتَحكي وأنصت وأتعلم، تُلاعب البُنيّات، تُخبئ لهن دائمًا في حقيبتها الألعاب والحلوى.. فيجدن عندها عطف الجدة التي يفتقدونها بعيدًا في دمشق.

كنتُ أجلس إليها، أتجاذب معها أطراف الحديث، وكانت تكن لي مودة خاصة، لطالما قالت لي: والله أنت "حبابة" يا أم ساجدة.. ولكن ما هذا الاسم الطاعن في السن لبُنيّة مثلك؟ وكانت تناديني بهذه الكنية وتضحك، وكأنها تلقي بنكتة.

جاءت يومًا متلهفة، جلست إلى جواري على أحد المقاعد الحجرية في الساحة الصغيرة لمدخل جمعيتنا الإسلامية في

مدريد، وأخذت تنظر يمنة ويسرة، ثم وبما يشبه الهمس، تسألني إن كنت قد علمت بما حدث في "مكة"!

– للأسف الشديد المذياع متعطل عندي وإذاعة لندن التي هي مصدري الوحيد للأخبار باللغة العربية في بلادنا، قد غابت عني منذ أسبوعين، الله يفرجها، خيرًا إن شاء الله؟

همست في حذر شديد: الإيرانيون!

– الإيرانيون؟ خيرًا؟

قالت لي في أسف: لا خير يأتي من هؤلاء أبدًا.. لقد هاجموا الحرم المكي، واعتدوا على الحجاج، وأحدثوا هنالك مقتلة!

أجبت في برود نسبي، وأنا الثورية الداعمة لجميع أنواع الثورات في الكرة الأرضية: وأخيرًا قام أحدهم هناك بثورة!

قالت لي بنفور شديد: ماذا تقولين يابنتي؟ أجننتِ؟ ثورة في الحرم المكي واعتداء على المصلين والحجاج، يخرب بيتهم وبيت هيك ثورة! من يريد القيام بثورة لا ينتهك قدس الأقداس ولا يعتدي على بلاد الآخرين، يقوم بثورة في بلده! قطعًا أنت لم تري الأخبار، لو رأيت ما رأينا، لما كان رد فعلك على الخبر بهذا الشكل! كان كل شيء معدًّا ومرّتبًا، إنها مؤامرة حقيقية فعلاً.. تفجيرات وقتل ومظاهرات وتحريك للأقلية الشيعية في السعودية.. أمر كبير وفظيع!.. والقتلى بالمئات!

ردتني "أم بيسان" الفلسطينية، الفتحاوية الواعية المحيطة بكثير من الأمور، إلى الواقع الأجرب.. فعلاً أي ثورة هي هذه التي تقوم في "حرم مكة".. والتي لم يمد الواقفون وراءها في

طهران يد العون لنا بأي شيء في ثورتنا ضد النظام السوري المجرم في حينه.

قلت في استحياء: صدقت يا أم بيسان.. صدقت، ومعك كل الحق فيما تقولين، العمى يعميهم[1].. يقتلون الحجاج، ويفجرون في المسجد الحرام! سبحان الله كيف يعمى أحدنا أحيانًا عن الحقيقة؟!.

قالت أم بيسان: هؤلاء مجندون تابعون لإيران، قدموا من الكويت خصيصًا، ليُحْدثوا هذه المجزرة في مكة، وليضعوا السعوديين في مأزق!

– سبحان الله.. مجرمون قتلة! لم يجدوا أقذر من هذه الطريقة ليثيروا الفتن بين السعودية والكويت؟ إيران دولة إسلامية صديقة للعرب فكيف يحدث هذا؟

ضحكت أم بيسان، حتى كادت تنقلب في جلستها، وصارت تردد: دولة صديقة للعرب؟ فعلاً أحتاج الآن إلى سيجارة! أرأيت لِمَ أجد أن اسم "أم ساجدة" كبير عليك يا ابنتي؟

ثم همستْ: إنهم يريدون تفجير المنطقة كلها، إنك لا تعلمين كيف يتمددون في لبنان وفلسطين وسورية، يريدون أن يركبوا ظهر القضية!

بدت لي أم بيسان ضليعة في السياسة، لكنني أنفت من هذا الحديث الذي تفوح منه رائحة الطائفية، فقلت معترضة: يا أم بيسان نحن يجب ألّا نكون طائفيين، والمسلمون جسد واحد سنة وشيعة، إنها مشكلة سياسية لا أكثر ولا أقل!

---

(1) صيغة لغة تعبيرية شامية تفيد أبلغ أنواع الاستنكار. فعل شنيع.

ابتسمت أم بيسان ابتسامة المرتاب، وأجابت: أنت مازلت متسممة بأفكار البعث، أي مسلمين هؤلاء؟ ألا ترين ما تفعله "ثورة الخميني"؟ وكيف تحاول التمدد والاعتداء على جيرانها؟ هؤلاء امتطوا الإسلام ليعود حكم فارس القديم.

قلت لأم بيسان: الله يرضى عليك يا خالة، أنت ما شاء الله بارعة في معرفة كل ملابسات ما يجري على الساحة، ولكنني لا أحب الطائفية، ولا الأحاديث الطائفية.

ردت أم بيسان، وهي تهز رأسها في أسف شديد: والله إنكم لا تعلمون شيئًا مما يُحاك لكم يا أم ساجدة، خصوصًا في سورية، أكبرُك بأكثر من عشرين عامًا، وأنا يسارية فتحاوية وأكره كل اليمين العربي كره الجذام، لكنني أتنقل دائمًا في العواصم العربية والغربية بسبب طبيعة عمل زوجي في السفارات.. وما نعرفه مخيف! هؤلاء الإيرانيون يُعدون العدة لشيء مُروّع فعلاً.. سيفرغون من العراق الذي يتحرشون به، ويلتفتون إليكم في سورية.. وستذكرين كلامي هذا!

أرعبني فعلاً ما قالته أم بيسان، فأنا أعرف تمامًا طعم الخذلان الإيراني الثوري في أرواحنا!

استأنفت أم بيسان: هل ساعدوكم في مصيبتكم التي حلّت في سورية في الثمانينيات؟! أم أنهم قاموا بمساعدة النظام السوري الذي هدم حماة وذبح أهلها! كفانا حمقًا وسذاجة.. كفانا.. غدًا يذبحوننا ذبح النعاج ونحن نتفرج عليهم.. هل نحن طائفيون أم نظامكم المجرم هو الطائفي الكريه!

– والله يا خالة لا أطيق حتى أن أنظر في هذه الكتب التي يوزعها الناس والتي تتحدث عن طائفية إيران، وعن مشكلات

قادمة إلى المنطقة سيقوم من خلالها الشيعة بذبحنا واستباحة أراضينا.. ربانا جدي رحمه الله ألّا نتحدث وألّا نخوض أبدًا في أي موضوع يخص الطوائف في بلادنا، كان يقول لنا: ترفّعوا ياجدو، ترفّعوا.. واتركوا الخلق للخالق.

ضحكت أم بيسان وأردفت: دعي عنك مناداتي بالخالة.. الله يرحم جدك، كان يعيش في عوالم الأولياء، ما كان يعرف أن أيامًا سوداء ستحل عليكم وعلينا.

– بلى يا أم بيسان.. كان يكره حكم الأسد، ويقول عنه إنه مغتصب للبلد والحكم، لكنه كان يحذر من حمل السلاح، لأن هذا السلاح ليس من صنعنا، ويقول: إياكم وحمل السلاح في وجه من لا يمكنكم الصمود بالسلاح في وجهه!

غضبت أم بيسان، وقالت: يا أختي الله يرحمه.. خربوا بيوتنا المشايخ.. لا أحبهم ولا أطيقهم!

قلت معترضة ضاحكة: يا أم بيسان.. نحن ذُبِحنا في سورية بسبب الثورة المسلحة التي قمنا بها!

قاطعتني: أنتم ذُبِحتم، لأنه كان يجب أن تُذبحوا، سواء قمتم بثورة مسلحة، أم وردية، أم ارتوازية، أم بيضاء.. كهذه التي نرى بداياتها في روسية!

ثم أضافت: وكيف كان يريد جدك أن تتخلصوا من حكم الأسد؟ بالتفاهم؟ أم بالاتفاق؟ أم أن تطلبوا منه أن ينقلع فينقلع ويترككم في سلام؟

قلت لأم بيسان: أنت تدخلين إيران بسورية بالسعودية وتخلطين الأمور بالخلاطة الطائفية!

قالت أم بيسان: حبيبتي.. ألم تحدثيني أنت نفسك عن

الحجاج الإيرانيين الذين بدؤوا بالوفود إليكم في الشام، وخصوصًا على الجامع الأموي.. والله لن يرتاحوا حتى يأخذوه منكم! وستذكرين ما أقوله لك، ستذكرينه! من يهجم على الحجاج في مكة، لا يفعل ذلك لأنه يريد التخلص من نظام حكم، بل لأنه يريد الحكم في المنطقة كلها، سنرى الآن.. ماذا سيفعلون هم وثورتهم الإسلامية بعد هذه الفضيحة الكبرى التي لحقت بهم!

كانت أم بيسان على حق، وقال أبو ساجدة عندما نقلت إليه الحديث: إن أم بيسان عليمة مطلعة، وإنه يُكْبِر كثيرًا أن تتحدث بهذا الشكل سيدة يسارية.. وأن رومانسيتي الثورية وصوفية جدي وتسامحه.. قد جعلتاني لا أرى الطوفان القادم.

في تلك الليلة، استيقظت مذعورة أرتجف فزعًا مما رأيت في منامي، كانت لجة هائلة قد ارتفعت في وسط البحر، وبدأت تقترب بشكل مرعب من "المدينة" التي نسكنها، ثم تحولت إلى موجة كبيرة تشبه صهرات البراكين السائلة، بدأت تتمدد نحونا، ونحن نجري أمامها هاربين طالبين النجاة، ثم رأيتها موجة سوداء قاتمة لزجة بترولية القوام، صارت تتمدد وتتمدد، ونحن نجري ونركض في كل الاتجاهات.. ثم رأيت نفسي أفرّ نحو بناء أبيض رخامي، بدأت أصعد درجات سلَّمه، والموجة تتمدد من خلفي تطلبني، حتى وصلتُ الدرجة الأخيرة، ولم يعد أمامي من مهرب، هنالك وصل الموج وتوقف عن الصعود، وبينه وبين قدمي بضعة سنتيمترات، ولم يلمسهما.. كادت تلك اللُّجة تضربني وتصيبني لولا لطف الله.. ونجوت.

بدا لي أنني نجوت.

*****

أيام قليلة بقيت لرحيل هذا العام، هكذا تفر الأيام وتكرّ، ومرة أخرى تعود أيام النابيداد"، أعياد "الميلاد" كما يدعى هنا في إسبانيا، وما من زمن تُثار فيه أحزاني في مدريد، كما يحدث في هذه الأيام من كل عام، أيام الأعياد والحنين المؤلم الذي تثيره في النفس، شوقًا إلى أوقات الفرح، وأيام الحب والدفء الذي فقده الناس، كل الناس في عالمنا اليوم، وهم يمضون لاهثين وراء الأوهام التي تكر وتفر نحو مستقبل غامض، غريب، وربما مخيف.

كلما سمعت أغاني "النابيداد" وموسيقى تراتيله، انغمستُ في تلك البركة الدافئة من الذكريات، تلمّني وتضمّني في غربتي ووحدتي.

يعود "النابيداد" ويعود معه في كل عام، ذلك الإعلان التلفزيوني الإسباني الشهير عن حلوى الأعياد: "عد إلى بيتك.. عد يابني، عد.. إنه النابيداد"، يذكرني كلما سمعته ببيت جدي في دمشق، الذي لن أتمكن من العودة إليه أبدًا، وبذلك العيد الذي مات يوم ماتت جدتي، ما كنت أعرف أن البيوت تنهدم بموت الأم! تربينا وتعلمنا أن البيت ينهدم بموت عميده، وأن اليتيم فقط هو من مات أبوه، علمونا أن الأم تأتي في المرتبة الثانية في حياة البيت والأُسرة، لكن بيت جدي انهدم يوم ماتت جدتي، وبيت جارتنا "كارمن" أُغلق وانتهى وجود تلك الأُسرة يوم ماتت "كارمن"، عشت بما فيه الكفاية لأفهم عكس الذي علمتنا إياه

مجتمعاتنا، الكثير من البيوت تموت يوم موت الأم.. إلا أن يُتدارك الأمر فتُزرع أمٌّ جديدة فيها تعيد إليها الحياة.

حتى إن أولاد أختنا في الله "أم المعتصم" عندما زاروا دمشق لأول مرة، لم يبق أحدٌ من رجال الأمن في المطار، ومن سيدات المجتمع الدمشقي، مروراً برجال العائلة من الجهتين.. إلا اعترض على أنهم يحملون في جوازات سفرهم الإسبانية، لقب عائلة أمهم إلى جانب لقب عائلة أبيهم، كما يستدعي القانون في إسبانيا.

سأل الشرطي في المطار: أنت شو اسمك بالضبط آبنتي؟

قالت هدى التي هي أكبر أخواتها: اسمي هدى الشامي الحموي[1].

قال الرجل متعجباً لصاحبه: هادي البنت عندها كنيتين أبو مصطفى، أشو رأيك اِنتْ؟

قال أبو مصطفى: هي سورية؟

قال الشرطي الأول: مالك طاسس أنها سورية؟[2].

أجاب أبو مصطفى: لا مش طاسس، فكرتها إسبانية، تعالي أشوف آبنتي.. إنت إسبانية ولا سورية؟

قالت الطفلة: عمو أنا سورية مولودة في إسبانيا.

قال الرجل: يا عمي آبيصير يكون عندك كنيتين[3] هِين بس بنعترف عا كنية الأب!

---

(1) اسم افتراضي.

(2) وترجمتها باللغة العربية الفصحى: ألا ترى أنها سورية؟ طسّ في معجم المعاني الجامع: طسّ فلانًا: طعنه، صدمه، خاصمه وأفحمه، وتستخدم في لهجة بلاد الشام بمعنى "انظر مع الانتهار".

(3) أهل بلاد الشام، يستخدمون لفظ "كنية" بمعنى "اللقب".

لم تفهم البنت: وسألت: عمو ألا أستطيع دخول سورية؟

قهقه الشرطي، ونظر إلى صاحبه وهو يتندر: "شوف الهبلة المسكينة آبتفهام سوري".

عندما تسلّم عم البنت الأولاد، قال له الشرطي: يجب أن تصلحوا اللقب، هنا لا نعترف إلا بلقب الأب، ما هذه المهزلة؟

في السيارة التي تقلهم إلى الدار، انتهرهم عمهم كمال، بعد التأهيل والتسهيل والعناق والقُبَل، التي كادت تهلكهم حبًّا وفيض حنان، وسألهم وهو ينفث دخان سيجارته في وجوههم: وكيف يكون هذا يا عمي، بهدلتونا أمام رجال الأمن الأوباش؟ هذا لا يمكن أن يكون أبدًا، أنتم أبناء أبيكم فقط!

قالت له هدى بسنواتها الاثنتي عشرة: لكننا أبناء أمنا كذلك يا عمي.. عمو ممكن تتوقف عن التدخين من فضلك.

أجابها دون أن يلتفت إلى مسألة التدخين: لا وألف لا.. أنت ابنة عائلة أبيك فقط!.. ثم إن هذا حرام في القرآن.

تساءلت الطفلة في دهشة وتعجب: حرام في القرآن؟ عمو الدخان هو الحرام.

قال الرجل في حنق وغيظ: نعم.. الله قال: ردوهم إلى آبائهم!.. وليس إلى أمهاتهم!

قالت الطفلة بالغة الفطنة: عمو.. في القرآن مكتوب أن سيدنا عيسى اسمه "عيسى بن مريم"!.. ولما حكت لنا الحكاية ماما وقرأتها لنا في القرآن، أنا رأيت بعيني أن اسم عيسى هو "عيسى بن مريم".

استشاط العم غضبًا وقال لها: عيسى لا أب له! يجب على أمك أن تعلمك الإسلام، ولا تتفلسف عليكم بهذه الخزعبلات، ما تطلعيلنا إسبانية!

أجابت البُنية: عمو.. ماما لم تقل لنا شيئًا عن هذا الأمر، هذه أول مرة أسمع فيها شيئًا كهذا!

– إذن قولي لها أن تنتبه لما تعلمه لأولادها.

– عمو.. أمي كانت تعلمنا القرآن.

– ....

– هذا اسم ولقبين، ونحن نعرف بابا، وكل الناس يعرفونه.. فأين هي المشكلة؟ عمو، بابا قال لنا إن الدخان حرام لأنه يضر بالصحة.

تمتم الرجل: هذه هي تربية الغرب والغربيين، بناتٌ علاكات لا بد من قطع ألسنتهن.. كان على أبيك أن يعود بكم إلى سورية أو إلى أي بلد عربي تتعلمون فيه الإسلام.

استأنفت البنت وهي تشعر بالقهر والعدوان، وقد تهدج صوتها بالبكاء: عمو نحن مسلمون، ونعرف الإسلام، ونصلّي ونصوم، ونقرأ القرآن، ونذهب إلى المسجد دائمًا.

فتطوعت زوجته متدخلة بصورة انتحارية، نصرة للطفلة المسكينة التي وصلت دمشق للتوّ، قالت: هوّن عليك أبو محمد، ردوهم إلى آبائهم تعني ألّا يتبرأ الأب من ابنه، وألّا يُنسب الولد إلى غير أبيه، ولا تعني تحريم أن يكتب لقب الأم مع لقب الأب في جواز السفر.

هنا، جن جنون الرجل، وصار يصيح: والله ما كان ناقصني

إلا فلسفة حضرتك، اعيريني سكوتك.. هذا دين، هذا ديننا، وليس تينًا!

همست السيدة: لك كمال، هذه أول مرة أسمع بهذا الموضوع، أنا لا أتفلسف، فقط أعطي رأيي، مسكينة البنت أكلتها بلا ملح، حرام عليك! لقد وصلوا للتوّ، وهم لا يعرفون هذه القصص!

– قلت لك اسكتي وأعيرينا صمتك، لم يطلب أحد رأيك.

– كمال، ما من نبي ولا صحابي ولا عظيم ولا تابعي ولا قائد في الإسلام، إلا ويعرف الناس أمه وأبيه بالاسم والنسب.. أَوَقَفَ دين الناس وإيمانهم على تغيير بسيط في قوانين بلد من البلدان؟ ثم والله إنه لقانون جميل جدًّا هذا، أن يثبت لقب الأم مع لقب الأب.. ما المشكلة؟

ثارت ثائرة الرجل وقال لزوجته أمام الأولاد وعيناه تقدحان بالشرر: سدي حلقك[1]، لا أريد أن أسمع صوتك، هل فهمت؟

نظرت إليه امرأته في احتقار وهي تكظم غيظها، ثم استدارت نحو النافذة بكل جسدها، منهية تدخلها لنصرة الأولاد، وهو مستمر في صياحه وزعيقه حتى بعد وصول السيارة إلى البيت، أمسك بساعد ابنة أخيه وقال لها: شوفي[2]، بتقولي لأبيك أن يحذف لقب أمك من جواز السفر أنت ابنتنا فقط، أنت ابنة أبيك.. فهمتي؟

ثم سحب معتصم ذو الأعوام السبعة اللائذ بأخته الكبيرة، وصاح في وجهه: أنت رجل أم خروء[3]؟

---

(1) تعبير عامي قبيح يستخدم في كل لهجات بلاد الشام بمعنى "اخرس، واسكت، ولا تصدر الأصوات من حلقك".

(2) كلمة سورية عامية، وأصلها، شاف الرجل: صعد مكانًا عاليًا ونظر/ معجم اللغة العربية المعاصر.

(3) الخُرْءُ، الخُرْءُ: العَذِرَةُ. والجمع خُروءٌ وخُرآنٌ / المعجم الوسيط.

نظر معتصم ذات اليمين وذات الشمال متوجسًا، يريد أن يفهم ما الذي يقوله عمه.

فاستأنف العم: أنت الرجل هنا، من الآن فصاعدًا، نحن لا نسمح للبنات بالعلاك، الكلام معك أنت فقط!

اندس معتصم وراء معطف أخته التي كانت تُعدّ نفسها أمه الثانية، وهو صامت يرقب هذا الاستقبال العجيب، بسبب أن أسماءهم قد أثبتت في جوازات سفرهم الإسبانية بلقبَي أبيهم وأمهم!

اغرورقت عينا هدى بالدموع، وهمست في أذن أخيها: سأتصل ببابا ليعيدنا إلى إسبانيا، أنا لا أريد أن أستمر في زيارة سورية.

حدثتني أم المعتصم وهي تضحك: مضت الزيارة، وكان الأولاد في غاية السرور في دار عمهم كمال هذا، وعادت ابنتي إلى مدريد، وهي لا تزال تجهل هذه المسألة الخطيرة، التي جعلت عمها يُخرِجها من الإسلام بسببها.. وما فتئت تكرر: أنا ابنة أمي، كما ابنة أبي!

قلتُ لأم المعتصم.. هذه الحكاية تضحكك يا أم المعتصم! والله لقد أبكت فؤادي!

قالت أم المعتصم: تعلمنا الدرس، فقبل أن يسافر الأولاد لزيارة سورية للمرة التالية، اتصل "أبو المعتصم" بالأهل من الطرفين، وشرح لهم أوضاع الأطفال في إسبانيا، ومعاناتهم، ومعاناتنا الشديدة ليتعلموا شيئًا من دينهم، ورجاهم جميعًا ألّا يتعرضوا لموضوع الدين، وأننا لا نريد أن يعلمهم أحد شيئًا عن الإسلام، وأن يتركوا البنات في سلام! الشيء الذي لم يحدث، على الرغم من أن الجميع وَعَدُوهُ خيرًا!

***

تعيدني أيام "النابيداد" دائمًا هنا في مدريد، إلى ذلك العيد البعيد في دمشق، عيد واحد له في فمي طعم كل أعياد العالم، عيدنا ذاك القديم.. لم أعش بعده مثله في حياتي، يوم ذهبت أمي إلى الحج وتركتنا في عهدة جدتي وجدّي الشيخ، دللونا حتى ظننا أننا أصبحنا أيتامًا، لون ذلك العيد كان ذهبيًّا بلون ثوب العيد الذي كانت أمي قد اشترته لي قبل سفرها، جدّي الشيخ يطعمني بيده الجبن "المدقوق مع حبة البركة السوداء، ويأمر لي بكوب من عصير الليمون بالسُكَّر، ولم يكن لي من أم غيره في غياب أمي.. وجدتي المسكينة، لا تهدأ، وهي رائحة غادية، تهيئ لنا الطعام، تنظفنا، تخدمنا، تُنيمنا، تحدثنا، تشكو لنا أمنا دون كلل ولا ملل في غيابها في الحج!.. وتتندر طول الوقت على أنها قصيرة وسمينة، وأنها لا تشبهها البتة، وترجو الله ألّا نصبح كأمنا عندما نكبر، وإلا فإننا لن نتزوج أبدًا!

كلام الجدة عن أمنا يبدو وكأنه لا يؤثر فينا، فلا شيء ولا أحد يعوض مكانة الأم في حياة الإنسان، كما لا شيء ولا أحد يغير من مكانة الجدة نفسها في قلوب الأحفاد.

الكلام مجانيٌ هنا في دمشق، أو هذا ما يظنه المتكلمون! تثبت الأيام أن الكلام ليس مجانيًّا، ولا رخيصًا، إنه يُخلّف خدوشًا في النفس لا تُمحى، وكثرة النق[1] تترك ندبات في الروح، كما يفعل صنبور ماء متروك طويلاً ينقّط[2]، لكن الجدات – والناس– في الشام لا يفهمون هذا أبدًا، ولا يستطيعون استيعاب معادلة أن يكون لهم مكانهم في القلب، وللأم مكانتها في حياة ووجود

---

(1) النق، والنقّ: صوت الحجلة، وصوت الدجاجة تبيض، وصوت الضفادع، وصوت العقارب / معجم الأصوات.
(2) نَقَطَ السَّائِلُ: نَزَلَ قَطْرَةً قَطْرَةً / المعجم الغني.

أبنائها، كما لا يفهم الناس، أن كل ما يقال للأطفال وفي وجودهم، يساهم في تركيب شخصياتهم وتصوراتهم عن الحياة والأشياء، ورؤيتهم لأنفسهم وللآخرين.

تلك كانت أيام لا تنسى.

كان ذلك العيد عيدًا حقيقيًّا، يغدو فيه رجال العلم والدين والسياسة على دار جدي منذ صباح اليوم الأول لعيد الأضحى، مباركين مهنئين، فلان الفقيه، وفلان العالم الجليل، وفلان القاضي الأول، وفلان النائب في مجلس الشعب.. كان بيت جدي على تواضعه، ملتقى أهل الدين والعلم والسياسة في تلك الأيام التي لا أذكرها إلا ساحرة رائعة، كقصة سندريلا والجميلة النائمة.. ألزمنا جدّي ذكورًا وإناثًا أن نرتدي سراويل طويلة، قال إنها للسُترة، وإنه لا يفهم ذوق أمي في اختيار الملابس القصيرة للبنين وللبنات.. كدت أبكي لِما أحدثه ذلك من خدش في أناقتي ذات الأعوام الثمانية! لكنني "اقتنعت" حين قال إنه لن يُسمح لي بالجلوس مع هؤلاء العلماء إلا إن لبسته، لأنني أصبحت كبيرة!

المشكلة لم تكن في لبس السروال، بقدر ما كانت في عدم تناسق شكله ولا لونه مع الثوب الذي أرتديه، والمشكلة كانت أكبر بالنسبة إلى شقيقَيَّ الصبيين الصغيرين، اللذين اضطرا لاستبدال سِروالَيهما القصيرين الجديدين بسروالين عتيقين طويلين، مع عدم القناعة بسبب وضرورة ذلك كله، وهذه مشكلة كبيرة بالنسبة إلى طفل صغير، كان من الممكن تفاديها ببعض التلطف في الأمر من جهة أمي، لكنها هي نفسها لم تكن مقتنعة به، تعتقد أنه مبالغة في غير مكانها، وتنطعٌ، في حين أن الأمر كان بالنسبة إلى جدي أمر تحدٍ وبقاء.

قال لأمي في غضب شديد: هذه ليست أخلاقنا، هذه أخلاق الفِرنجة، وهذه ليست ملابسنا هذه ملابس الفرنجة، وأنت مسرورة بأن يكون أولادك كالفرنجة، بل تتباهين بذلك.

أجابته في انكسار غير معتاد: لا أحاول تقليد الفرنجة، ولم أفكر في الأمر من هذه الناحية، لكن هذا ما يلبسه أكابر الناس.

أضاف متحسراً مندهشاً: أي سقوط هذا أن نحاكي من يستعمرنا ويستعبدنا حتى في لباسنا؟ بل ونُعدّ من يفعله من أكابر الناس!

لأول مرة.. سكتت أمي، لم تحر جوابًا.. لم يكن الموضوع مجرد موضوع ستر ودين فحسب، بل كان قضية هوية!

ربما لم أستوعب كل ما قاله جدي، لكنه بقي يقرع دماغي سنوات طويلة بمنطقه الطاغي، وأنا أشهد فترة التحولات المخيفة التي كان يعيشها المجتمع السوري، تحولات في القشرة الخارجية، وتهجين ظاهري استعماري لا يتعدى تلك القشرة.. أصبحنا ذلك الشعب العربي المتفرنس، والذي ضاعت هويته تمامًا، فلا هو بعربي يحتفظ بأخلاق العرب الحميدة، صدقهم ومروءتهم وشجاعتهم وكرمهم، ولا هو يأخذ عن الفرنسيين حرية تفكيرهم، وأساليب بحثهم، وأسس نهضتهم وقوَّتهم وتقدُّمهم، أخذنا من العرب أحطّ ما ذهب بريحهم من أخلاق، وأخذنا عن الفرنسيين أسْفَه ما لديهم من قشور، وأدنى ما لديهم من قوانين ومفاهيم.

أصبحنا شعبًا لا يعرف نفسه، ينكر ذاته، يتبرأ من تاريخه، ذاهبًا إلى حتفه، يحتقر فلاحيه وبَدْوِهِ.. وهم الغالبية في هذا الشعب.. وهم وعاء هويته.

كنّا شعبًا يريد أن ينطلق، يريد أن يحلّق، يريد أن يخرج من

القمقم. . ولكن كان علينا أن نفهم أن التحليق والطيران يحتاجان إلى سماء.

لمّا كنت أبحث في سوق غرناطة عن سراويل لطفلتي، عَلَّقت إحدى رفيقاتي السوريات: ما سمعت بهذا؟ سراويل لطفلة مادون العامين من عمرها.. والله بهدلة.

قالت لي صاحبة الدكان التي كنّا نسأل فيها: هذه السراويل تباع فقط في دكان خاص لملابس الأطفال هنا في غرناطة، وهذه القطع الداخلية بالذات غالية جدًّا، لأنها مشغولة باليد بخيطان DMC ومزينة بالدانتيل وشرائط الحرير، ولا يشتريها إلا عليّة القوم، ثم أردفت وهي تنظر إلى جلابيبنا من دون أن تحاول أذيتنا: إنها غالية جدًّا!

كان من تقاليد عليّة القوم أن يُلبسوا أطفالهم الصغار هذه السراويل الداخلية التي تصل إلى ما فوق الركبة، دليل عناية فائقة، وأناقة، واهتمام وحفظ.. وكانت هذه التقاليد عندنا "بهدلة"!

كنت أخاف جدي وأحبه، كنت أرهبه وأحن إلى حضنه في كل حين، كان بيت جدي المأوى والملاذ في الأعياد والملمات، كان طعم العيد مختلفًا، ونحن جلوس كأن على رؤوسنا الطير في حضرة أولئك القوم المعممين المجلببين، نقوم على خدمتهم، نأتي بصواني الحلوى، ونأخذ صواني الشاي، نناول السُّكَر لأحدهم، ونعطي الآخر منديلاً طلبه، نتكلم همسًا أنا وإخوتي، ويغيظ بعضنا بعضًا بالتنافس على خدمة القوم، لنفوز بكلمة الله يرضى عليك يا عمو، ما شاء الله عليكي يا بنتي.. فما إن يذهبوا، حتى نخلع عنا كل ما عدا ثياب العيد، وننطلق عصافير تنشد الأراجيح، والفول النابت.. والعيد.

كان ذلك أشبه بمزاولة رياضة تثير كل الحواس، **كان ذلك نقش ونبش يد صغيرة ضعيفة في جدار ضخم يوشك أن ينقضّ، كان ذلك كمن يجرب أن يثبت لنفسه وللآخرين أنه يستطيع الطيران، دون أن يستوعب أنه يطير فعلاً.**

عيدنا في بيت أبي كان مختلفًا عنه في بيت جدي، أمي تَرَبَّت في "اللاييك والفرنسيسكان"، تلكم المدارس الفرنسية التي افتُتِحت في دمشق فترة الانتداب الفرنسي، كانت رؤيتها للعيد مختلفة، وإن كانت بهجة العيد لديها، كما عند معظم نساء الشام، تعني أن تُضَحي بكل ما لديها وكل ما تملك، وحتى ما لا تملك، لتكسونا وتجبر خواطرنا وتحمل إلينا الألعاب والحلوى، كانت تأتي من المدرسة عصرًا، تنظف البيت وتلم الحاجيات المبعثرة فيه، ثم تحملنا وتهرول بنا نحو سوق الحميدية، فتختار لنا من الملابس أجملها وأكثرها أناقة، ملابس تليق بأولاد المعلمين المحترمين.. ثم تتركنا لتذهب وحدها في مهمة خاصة تتعلق باتفاق سِرّي بينها وبين "السيد العيد"، الذي تقول إنها ستقدم له تقريرًا عن سلوك كل منا طوال هذا العام، وبناءً عليه يقرر "السيد عيد رمضان" أن يقدّم لنا الهدايا، ونوعها، وقيمتها.

منذ ساعات الصباح الباكر تشدو المآذن والإذاعة بالتكبيرات، نتلمس ملابسنا الجديدة بأطراف أصابعنا، نخاف عليها بصماتنا، نرقبها كما لو كانت شيئًا سحريًّا، جاءنا عبر بريد العَرَّابات، نبحث عن الحذاء اللامع بين طيات اللحاف، تركناه هناك قبل أن ننام مخافة أن يهرب، عانقناه وكنا نمتع النفس بشم رائحته المميزة، نهرول بين الحمّام والمطبخ، منظفين مهندمين معطرين مسارعين إلى النوم، قبل أن يأتي العيد ليجوب شوارع دمشق ويتفقد الأولاد الحبابين[1]، ليترك لهم العيدية.

---

(1) كلمة تستخدم في الشام بمعنى "الطيبيّن"، أصلها: **الحَبَابُ**: الطَّلُّ يُصْبِح على النَّبات.

كنت أتخيل ذلك العيد شبحًا طيّبًا مزركشًا، مخلوقًا أليفًا كبيرًا يشبه خيال المآتة، مزدانًا بكل الألوان والبهارج.. يجوب ليلة العيد شوارع دمشق وحاراتها مثقلاً بالهدايا، من كل لون وحجم وشكل، يحملها بين يديه، أو يعلقها على صدره وكتفيه.. يحدث جلبة ورنينًا وضوضاء، كنت تحت لحافي أنتظر أن توقظني جلبته ورنينه، لكنها لم تفعل قط، غير أنه كان لا يخلف وعده.. يترك إلى جانب السرير أو تحت اللحاف تلك الهدية – العيدية، نتقافز عند الفجر منتشين فرحًا بها حتى من قبل أن نفتح غلافها الجميل، ونعرف ما في داخلها.

الوالد عائد للتوّ من صلاة العيد، وزيارة المقابر.. لا أدري من أين جاء الناس بهذه العادة القبيحة، لا شيء في ديننا يأمرنا بزيارة المقابر صباح العيد، إنها عادة أكثر من جاهلية، تقديس الآباء والأموات الذين لا نرضى موتهم، ولا ننفك عن الخضوع لهم حتى عندما يصبحون تحت التراب، إلى درجة تجعل تذكُّر الموتى أحد أول مراسيم الاحتفاء بالعيد والحياة.

عائد أبي بملابسه المكوية المُنشّاة، يلبسها عيدًا وراء عيد، فلا يسمح راتب المعلم في بلادنا إلا بأن يشتري لأولاده فقط ملابس جديدة كل عيدين.

الوالدة تمارس تمتعها بعطلة العيد في المطبخ! رائحة الملوخية تملأ البيت والبناء، رائحة الملوخية شرطٌ أساسي من شروط دخول العيد بيتنا.. أمي هي الوحيدة التي تستقبل العيد بملابس التعزيل[1]! تكنس وتكوي وتنظف وتطبخ، وتسهر لإنجاز مهمة

(1) عزّل الغرفة: رتبها وأزال ما لا يحتاج إليه/ "تعزيل" تستخدم بمعنى التنظيف الشامل والدقيق.

تحضير "المعمول"[1].. عيب وعار أن تأتي الجدة والجد ثاني يوم العيد – كما جرت العادة – لزيارتنا، ولا يكون المعمول جاهزًا بكل أصنافه، المعمول المحشو بالفستق، والآخر المتطاول المحشو بالجوز، ولا بد من أقراص المعمول المحشي بالتمر.. وصواني المعمول رائحة غادية لتُشوى في فرن الحي طوال يوم وقفة عرفات، ورائحة السمن العربي "الرهيبة" تسد علينا منافذ التنفس، تفوح من بيوت أهل الحارة، ودارنا في حالة هياج عاطفي ونفسي، ووحدها أمي التي تشتغل.. تقضي أيام عطلة العيد بطولها في الشغل، بـدلاً من أن ترتاح من عناء عملها في التدريس.. وهي راضية سعيدة بنا، لا تسأل عن نفسها، ولا تهتم إلا بأن يترك العيد بصماته على بيتها وأولادها كأحسن ما يكون.

كلنا واقف مزهو بنفسه، فَرِح بمظهره كالطاووس، مستعدون للانطلاق نحو بيت جدي الشيخ، لا عيد دون الذهاب إلى منزل "جدو الشيخ" في أول ساعة، بعد أن يعود أبي من صلاة العيد، كان هذا لقب جدي الذي نناديه به، وهذا اسمه، وهذا الوصف الذي نعرفه به منذ ولدنا.. إلى أن مات.

هناك لدى باب دار الشيخ، نتواضع في مظهرنا، ونضبط فرحنا بملابسنا، فنطول القصير، نشد الأكمام، ونخرج الحجابات التي نأتي بها لدى زيارته فنستر بها شعرنا، تمامًا كما أصبح الناس يفعلون عندما يدخلون المسجد في مدريد، كان منزل جدي الشيخ في دمشق وبالضبط كالمسجد الذي كان وحيدًا في حينه في مدريد عندما نزلتها، كلاهما بيتان نأتيهما فنصلِّي فيهما جماعة، ويوضع الحجاب على عتباتهما، وتستتر الأيدي والأرجل والنحور،

(1) المعمول: حلوى تُعد خصيصًا للعيد تصنع من الدقيق والسمن والمكسرات والسُّكر.

كلاهما ندخُله في وقار وخشوع، كلاهما رائحته طيب ومسك، كلاهما فيه سكينة وصمت وسلام، كلاهما نأتيه يوم العيد، ولا عيد أبدًا من دون زيارته.

كلاهما يقيم في القلب ولا يرحل، أحدهما بيت جدي الشيخ الذي ولدت فيه، هناك في حي "المهاجرين" قريبًا من قمة قاسيون، من شرفاته أرى دمشق، تشتعل بمصابيحها المتألقة عن بعد، تزدان بها جمالاً ودلالاً، من هناك كنت أرى ساحة الأمويين، وتسلل السيارات في شوارع المدينة الجميلة الساكنة، كما كانت تبدو من بُعد لطفلة صغيرة تقف هناك لا تعرف شيئًا عن أحشاء المدن ولا ماذا يمكن للمدن أن تضم في تلك الأحشاء!

ذلك كان بيت جدي الشيخ في دمشق، وهذا في مدريد كان "بيت الله".

هنا في مدريد، نسمّي المسجد، مركزًا ثقافيًّا، أو جمعية.. نسمّيه باسم الحي الذي افتُتِحَ فيه، نتردد عليه في حب وحنين، بالضبط كالحب والحنين اللذين نحملهما في صدورنا لبيوت أجدادنا وجداتنا، إنه بيت "الجد" في غربتنا، تجمعنا به صِلات القربى والمودة.

كان أول مسجد زرته في مدريد، بيتًا كبيرًا متواضعًا جدًّا، استأجره طلبة وعمال، جعلوا منه مسجدًا ومدرسة وملحمة، ومركزًا إسلاميًّا وحياة وملتقى ووطنًا.

كنا نقف أمام باب بيت جدي، ونستعِد بكل ما أوتينا من رغبة في الاستعداد لتلافي المشكلات، قبلَ أن تمتد يد الوالد ليقرع الجرس، نلِج ذلك العالم الأخّاذ الـخلّاب، المُنْبت عن حياتنا الحقيقية في دمشق، ذلك البيت الكبير العريض الواسع

العتيق، بحديقته التي بدأت تحتضر بعد أن أنهكت الأيام الجدة، ففقدت اليد الحانية القادرة على العناية بها، بشجيرات سروِهِ الباسقـات، وبقايا قن للدجاج والأرانب كنا نلعب فيه، نعدّه قلعتنا ووكر أسرارنا، وأشجار التين والنارنج والمشمش الهندي، وشجيرات الورد والياسمين، ترامت أغصانها، عرّشت وامتدت، ثم ألقت بنفسها فاستلقت على أرض الدار، كأنها تهرول لاستقبال الزائرين بأنجمها البيضاء وبراعمها الملونة، وعبيرها الأخّاذ.

ونحن هناك أسفل الدرج الحجري الطويل المؤدي نحو الطابق العُلوي، نبدو في هيئة مزرية تخفي بهجتنا بثياب العيد، لكنه "جدو الشيخ"، وينبغي أن نظهر في حضرته بهذا الشكل تمامًا، احترامًا، وخوفًا.. ما كنا ندرك كم كانا ينطويان على كثير من الحب والحنان، إلا بعد أن طوت الأيام تلك الأيام.

الجدة مكسورة الخاطر دائمًا، لم يُغَيِّر مرور الأعوام حالها، خلّفَتها الأيام على هامش حياة زوجها الحافلة، وحيدة غريبة في بيته ومعه، تُحَدِّث الجدران والسقف، مطيلة النظر والتمعن في يديها، رسمت فيهما الحياة أخاديد الشيخوخة والتعب، متأملة أشجار بيتها الكبير، أمسى بالنسبة إليها غابة ضاعت فيها سنو عمرها وهي تبحث عن مخرج، وعلى الرغم من أنها تجاوزت العقد السادس من عمرها، لكنها بقيت حبيسة هاتيك السبعة عشر عامًا، التي كانت تتيه فيها عروسًا بشبابها الغض، وجمالها الاستثنائي، وحسبها ونسبها الحمصي العريق.

المرأة التي لا تعيش حبًّا واحترامًا مع شريك العمر، تبقى سجينة سني شبابها الأول.

الحلم بالحب والحياة يبقى عالقًا هناك ينتظر.

لم نفعل شيئًا لإنقاذها، ولا لإنقاذ تلك الحديقة التي تركناها تحتضر إهمالاً.. كنا ندين لهما بالكثير، وكان في استطاعتنا أن نقدم ولو القليل، لكننا لم نفعل، ولا أدري لمَ لَمْ نفعل، أو لعلي أدري؟ خلفناهما وراءنا، ومضينا في رحلة جنون لاهث نبحث عن بيوت وعن أوطان، وكان ذلك البيت وطننا، وكانت جدتي سقفه وقلبه.

واقفة هناك دائمًا، تنتظر، في آخر السُلَّم الحجري، بشعرها الكستنائي المصبوغ، وقامتها الطويلة المنتصبة تغالب الانكسار، بثيابها البسيطة المبالِغة في التواضع كما في الأناقة، بسترتها الصوفية الخضراء التي لا تكاد تفارقها، بنظرات عينيها العسليتين الصغيرتين الحزينتين، بكتفيها اللتين تصارعان الانحناء، كأنهما تحاولان احتضان الحنين كي لا يفر، واقفة هناك تستقبلنا بالتأهيل والمعايدات اللطيفة بلهجتها الحمصية الرائعة الجميلة التي ورثناها عنها، نداعبها بها ونعلن بها انتماءنا لحمص العديّة، فإذا ما كانت الوالدة عدلنا لهجتنا خوفًا من أن نكسر خاطرها، وعدنا شاميين مُعتَّقين لا نتكلم إلا لهجة أمنا الشامية.

كثير من العناق والقبلات نبدأ بها زيارتنا، يقبّل والدي يد أمه وتقبّل رأسه وترضى عنه، فهو ابنها وصديقها الذي علّقت عليه الآمال التي دُفِنت في ظل ذلك الزوج العالِم الطبيب الشيخ، نتقافز نحو غرفة الجد، هناك.. كان يجلس متربعًا، بكل الوقار والبهاء والجمال، ملتفًا بعباءة الشيخ "بدر الدين الحسني" شيخه وحبيبه، ورثها منه كما ورثتُ تلك السترة الصوفية الخضراء عن جدتي، لا يذكر اسمه إلا ويبكي، ممسكًا بالسبحة التي ما كانت تفارق يده لحظة من ليل أو نهار، وتلك العمامة المنزلية تزيده وقارًا وبهاءً وجمالاً، وتُعْلِمَنا بأن جدّنا هذا هو الشيخ الجليل

الطبيب العالِم المُحَدِّث الفقيه، ولم نكن نفقه من هذه الألفاظ شيئًا، عيناه تغرورقان بالدموع ما إن يرانا ونسلّم عليه.

"السلام عليكم ياجدو"..

هذه هي التحية الرسمية المتعارف عليها في بيت جدي الشيخ، كان غريبًا جدًّا هنالك أن يُحَيِّي المرء بأيّ تحية إلا هذه، "السلام عليكم"، التحية نفسها شبه "الممنوعة" في كل أرجاء دمشق، ليس بسلطة النظام الحاكم، ولكن بسطوة المجتمع المنسلخ عن هويته!

لا أحد يُحَيِّي بهذه التحية، إلا كبار السن من الرجال، أو الملتزمين جدًّا من الشباب، كانت تحية فلكلورية! تهريجية! تُستخدم في الأسواق الشعبية، والمسلسلات التلفزيونية التاريخية أو الساخرة.

تحية محظورة على النساء خاصة، فلو أن امرأة تلفظت بها في تلكم الأيام بين أقرانها لصارت أضحوكة بين الناس، ومدعاة لسخرية الجميع، هذه التحية المشايخية المضحكة كانت "محَرّمة" علينا! .

كلمة "السلام" هذه سحرتني، تفكرت فيها كأنني لم أسمع بها من قبل، وتعجبت من نفور الناس منها.

أحببتها.. وكأنني اكتشفت قارّة من فُلّ، فرحتُ بها وعدَدْتها أفضل تحية وأسْلَمُها وأرقاها وأرَقّها، لم تصاحبها في ثقافتنا أغاني فيروز، ولا أنغام موزارت، ولا جعلوا معها زقزقات العصافير.. ليتخيل كل من يتلفظ بها أن عبق الياسمين يفوح من حروفها، وأن رائحة القهوة تلفها بظلالها، كان وقعها على الناس ثقيلاً، وكان جرسها في آذانهم غليظًا.. كأن من يسلّم عليهم بها يقول لهم: "الحرب عليكم" و"الدمار"، وليس "السلام"!

أصابتني لوثة الإصرار على المخالفة، وتحدي سلطة المجتمع المارق، فالتزمت "السلام عليكم" مع كل من هب ودب، وأصبحتُ أصرّ على استعمالها إغاظة لمن حولي، ممن يصيبهم مجرد التلفظ بها، حالة من الهستيريا غير المفهومة، لشعب يُفترض أن غالبيته العظمى عرب أو مسلمون!

كان أحد أقرباء أمي وهو يسمعني أرددها، عندما أكون في زيارة بيت جدي والدها، يقول متأففًا: وما مشكلة "المرحبا".. و"الصباح الخير"؟!

قلت له: لا مشكل، لكنني أحب هذه التحية، تشعرني بانتمائي وهويتي، وهل هنالك أجمل من "السلام"، خصوصًا إن كان يأتينا بالحسنات.

قال مغتاظًا: يا بنتي اذهبي إلى بيت جدك الشيخ وعيشي عنده، واتركينا من قرف المشايخ!

ذات يوم وأنا أنتظر في موقف الباص، جاءت سيارة من تلك التي كانت تدعى في دمشق السبعينيات بـ"السرفيس" وهي سيارة أجرة عامة، تحمل من الركاب ما تتسع له، فإذا في السيارة مديرة المدرسة التي تُدرّس فيها أمي، واثنتان من زميلاتها المعلمات، ولَجْتُ السيارة، وألقيت عليهم تحيتي الجديدة، "السلام عليكم"، التفتت مديرة المدرسة إلي، وصاحت بي:

- لك يا"مفعوصة".. السلام إيش؟
- السلام عليكم!
- الله ياخدك.. شو عاملة حالك جدك الشيخ؟

قال "السلام عليكم" قال!

تبسمتُ ضاحكة من قولها، وأخذت المعلمتان تتندرا بـ"السلام عليكم" خاصتي، فقال سائق التاكسي مشاركًا في ذلك الطَيَشَان:

لعل الشيخ الذي تقصدونه هو الشيخ صاحب الحرائق؟

قالت المديرة: هو بعينه!

قال الرجل: وهذه حفيدته وغير محجبة.. الله الله على مشايخ هذه الأيام!

آلمتني جدًّا تلك الملاحظة، ولم يمض طويل وقت حتى لبست الحجاب، والتحقت رسميًّا بجدي لدى الناس، يشيرون إلي باستغراب واستهجان.. هذه بنت الشيخ صاحب الحرائق! وأصبحت "بنت جَدّ" حقيقية[1] – كما يقولون –!

كان جدي الشيخ مشهورًا في دمشق بهذا الفعل، يلتقط كل ما يجده من أوراق مكتوبة مرمية في الأرض، يجمعها ويقوم لاحقًا بحرقها، حرصًا على ألّا يدوس الناس الأحرف والكلمات، فلقد كان يُعدّ اللغة أداة منزهة مقدسة.. ويقول لغة القرآن لا ينبغي أن ترمى في الأرض مع القمامة.

لم تكن "إعادة الإنتاج وتدوير المواد" معروفة في تلك الأيام، فكان جدي يحرق تلك الأوراق، وكان الناس لا يفقهون طبيعة ما يقوم به، ولا يفهمون ماذا يقصد عندما يقول: إنه لا يجوز أن تداس الكلمات والأحرف بالأقدام.

بعد عشرين عامًا على تلك الأيام، قالت لي "كونسويلو"[2] جارتي الإسبانية المسلمة، عندما عادت من زيارة دمشق مع زوجها

---

(1) عبارة يستعملها الشاميون للتندر، "ابن جَدْ"، و"بنت جَدْ"، بمعنى "صاحب/ صاحبة كرامات" بانتمائه الى جَد من "أولياء الله".

(2) Consuelo اسم إسباني فرد علم مؤنث، ومعناه بالعربية "سلوى".

السوري وطفلتها: يا أم ساجدة، وأرجو ألّا تنزعجي مما سأقوله، الناس يرمون كل شيء في الشوارع، دمشق تبدو مزبلة كبيرة.. لا تشبه في شيء دمشق التي تحدثينني عنها!

لا يحترم الناس مدينتهم وأنفسهم؟ يرمون كل شيء في الطرقات، في حين أن التلفزيون السوري يلعلع بإعادة التدوير والحرص العالمي على البيئة! لماذا لا يحرصون على نظافة شوارعهم، وهم الشعب المعروف بنظافة وترتيب دُوره بشكل يجعلها قِطَعًا من جِنان الأنس!

تناقضٌ كبير، بين ما يجري داخل البيوت وخارجها، تناقضٌ رنان، يكاد يبلغ درجة "النفاق".. في مجال الحرص على النظافة، في مجال الآداب العامة، في مجال الأخلاق الشخصية، وفي مجال السياسة، حيث يسبُّ الجميع في بيوتهم الرئيس والحكومة والقيادة القطرية والقومية وحزب البعث، في حين أنهم يبدون خارج البيوت مسالمين منضبطين بما يريده الحاكم! وما تنفك الأمهات والجدات والخالات والعمات والزوجات والبنات قائمات بذلك الدعاء للأبناء والبنات، لزمه أهل الشام لزوم الروح للجسد: الله يحميكم من الظُلّام والحكام وأولاد الحرام!

كان رمي القمامة في الشوارع، واحدًا من أبلغ تجليات حنق السوري على كل شيء، ومن أهم علامات رفضه نظام الحكم وسيطرته على البلاد، ومن أبرز مظاهر التحدي. . تحدي أوامره وتعاليمه حتى لو كان فيها منفعة البلد والشعب نفسه.

عندما ظنّ الجميع أنني أصبحت شيوعية "منحرفة"، بسبب كتاباتي في مجلات حائط المدرسة عن جيفارا، والثورة في كوبا،

والثورة البلشفية، والقضية الفلسطينية، اجتاحتني موجة تدين مفاجئة غير مُنتَظرة، بعد مقتل أحد الشباب الشيوعيين من أقاربنا، في حرب لبنان وهو في ريعان الصبا، كنت من المعجبين بثوريته ونضاله، لتميزه بصفات قيادية لافتة، جعلته قدوة ومثلاً يلتف الجميع حوله، لكنه رحل، قُتل، هكذا بكل بساطة وعتوّ كبرياء الموت.. مات.

انتهى، فُقِد.. ذهبتُ مع أمي لحضور الجنازة، وكانت دماؤه تغطي الأرض، بقي الرجال يُغَسِّلونه ساعتين، والدم لا ينقطع، كان شيئًا مريعًا، ثم اضطروا لتكفينه بدمائه، وبدؤوا بقراءة القرآن، عندما اندفع بعض أصحابه لمنع أهله من قراءة القرآن، قالوا لهم: لم يكن يؤمن بالله!

هنالك انفجرت أمه بالعويل.. وهي تقول: بلى لقد كان يعرف الله، بلى قد كان يعرفه ويؤمن به.. عندما خرج إلى لبنان قبل أسبوع سألني أن أدعو الله أن يرزقه الشهادة.

الشهادة؟ مع أي الفرقاء كان يقاتل؟ ولماذا؟ حرب إيش هذه التي كانت تجري في لبنان؟ ولِمَ يذهب هذا الشيوعي ليقاتل هناك وليستشهد؟، وفي سبيل ماذا استشهد؟

أحدثت هذه الفاجعة بملابساتها زلزالاً وجوديًّا، قَلَبَ كثيرًا من موازين الأشياء في عقلي وروحي.

كانت الشيوعية في الشام، تعني الإلحاد أو الكفر، لم نكن نميز بينهما، لكنني بعد هذه الحادثة، كنت على يقين، أنني لن أكون كافرة ولا ملحدة أبدًا.

يضعنا الموت في مواجهة حقائق الحياة، يضعنا الموت أمام تحديات وجودنا، يضعنا الموت أمام مخاوف الفناء والتلاشي.

أردت التزام الدين وقواعده، حتى إنني طلبت من إحدى رفيقات الصف، أن تأخذني معها إلى حلقة علم كانت تحضرها، يسمونها "درس دين"، هنالك تعرفت إلى الأستاذة التي كانت البنات المحجبات في صفنا يحضرن درسها، أحببتها، وبهرني ذلك الدرس الذي سدّ في نفسي عوزها للصلة بالله، ورمم في قلبي حاجته إلى معرفته، منحني ربي في هذا الدرب الجديد الذي أخذني إليه، نوراً أرى به، وقوة للمضي قُدمًا، ومبررًا للكفاح والنضال والاستمرار من دون توقف.

خيبت ظن جدي فيّ أول الأمر، وابتعدت عن التدين الذي أراد أن يربينا عليه، وكان يلوم على ذلك أمي المتفرنسة، كما يدعوها، مات قبل أن يُدرك حجم تأثيره الهائل في أنفسنا وعقولنا الفتية، جنبًا إلى جنب مع فاعليّة تربية أمي الصارمة جدًّا، في حفظنا من الأذى، وردّنا إلى الله ردًّا بالغ الجمال والروعة.

أنا مدينة لأمي وأبي أولاً، ولجدي ثانيًا بأنني عرفت الله كما أعرفه.

ضحكت "فلك".. رفيقة مقعد الصف الثاني الثانوي، عندما رأتني بالحجاب أول مرة، وقالت: كنت كلما قرأت لك شعرًا عن "جيفارا".. دعوت الله أن يجعل قلمك هذا منارة لنصرة هذه الأمة المرهقة.

التزمتُ في تلك الجماعة بضعة أعوام، وأصبحت تلك السيدة المُدرسة "شيختي".. لكنني وعلى الرغم من ترحيبها الكبير بي، لم أكن عند حسن توقعاتها مني، لم أتحجب في طقوس احتفالية مهيبة على يديها كما كان منتظرًا أن أفعل، ولم أمض في حفظ القرآن وفق الخطة المحددة، لم أكن تلميذة مطيعة ولا مجتهدة ولا متفوقة.. كنت ممنوعة من الصرف، ممتنعة عن الإعراب.

كنت أستمع إلى القول فأتبع وفقط أحسنه! كنت أنتقد وأكتب! كنت تلميذة غريبة الأطوار!.. لم تجد فيّ تلك الأستاذة ما أمّلَتْه من حفيدة واحد من أكابر فقهاء سورية، ربما.. كنت على هذه "الشاكلة"، لأن جدي كان فعلاً واحدًا من أكابر العلماء في سورية!

بعد أن التزمت بالحجاب وحدي، ولبسته وحدي، رفضت أمي أن تشتري لي جلبابًا قصيرًا، كذلك الذي تلبسه المحجبات الملتحقات بالجماعة الدينية التي أسستها الأستاذة "منيرة القبيسي"، وكان ذلك في بدايته لباسًا غريبًا لم يعتده الناس في الشام، فإما الملاءة التركية السوداء المخصورة القبيحة الغريبة التي تُخفي وجه المرأة ووجودها، وإما اللباس على الطريقة الغربية مع "إشارب[1]" يُعقد على الرأس والعنق على الطريقة الفرنسية، يظهر كل شيء، ويخفي الرغبة في الإظهار.

بقيت تسعة أشهر بما فيها أشهر العطلة الصيفية رائحة غادية مع أمي بلباس "الفتوة"[2] المدرسي، لا أرتدي غيره.. حتى اضطرت أمي أن ترضخ لعنادي وتشتري لي "معطفًا مشايخيًّا" – كما تدعوه.

بقدر سعادتي بجلبابي القصير ذي اللون البنفسجي الغامق ذاك، كان حزني حين رأيت عينَي أمي ينطفئ فيهما بريق الأمل، وتترعرع الخيبة.

انفصامٌ هائل متعدد الاتجاهات، كان يعانيه المجتمع الدمشقي في تلك الأيام، مجتمع مسلم منغلق على قيمه العربية، وعاداته

---

(1) الاسم الفرنسي المتعارف عليه للمنديل الملون الذي تستعمله السيدات لتغطية بعض الرأس أو العنق.

(2) الزي العسكري المدرسي الذي كان مفروضًا على طلبة المدارس الثانوية في سورية.

التركية، وأخلاقه الكردية، وتقاليده الفرنسية، مجتمع يتنكر لأبعاده البدوية والقروية، يلفظ لهجاتها، يرفض لباسها الوطني التراثي، ويلتحق بتقعره اللغوي وبأزيائه ولباسه، بالمستعمر الأوروبي الذي غادره عسكريًّا قبل عشرين عامًا، تتدفق في شرايينه التيارات الشيوعية والعلمانية والبعثية.. يرتكس في تخبطه، مستَقْطَبًا مابين انتمائه إلى المشايخ من قراء وفقهاء، من الذين بدأوا يستحوذون على مفاصله، يريدون استنقاذها من محاولات النظام تقطيعها، وبين هذه الموجة الطاغية من التغريب والتشريق، وتذويب كل هويات المكونات البشرية السورية، ووضعها في خلّاط البعث!.

لا يكاد هذا المجتمع يجد الوقت الكافي لالتقاط أنفاسه والتفكير في وضعه، في هاتيك السنوات العجاف التي كان السرطان فيها قد بدأ يتمدد في أحشائه.. وهو لا يدري.

ما بين الستينيات والسبعينيات.. كانت الشام تتخبط في أوحال خلطتها الثقافية الأنثربولوجية، تعيش دون هويةٍ تجمع ولا تستثني!

أمي تشعر بالإهانة، أن التحقتُ بجماعات "المهابيل"(1) – كما تسميها– ومن دون إذن منها أو رضى، عدّتْ ذلك "خروجًا" عن سيطرتها التامة على حياتنا، كانت تشعر بالخوف علينا، وبتهديد سلطتها الأمومية، وعبّرت عن ذلك بقولها: وبعد كل الذي بذلته في تربيتكم وتنشئتكم بشرًا أسوياء، لحقت بجدك، وأصبحت "شيخة" مثله!

---

(1) مهابيل جمع مهبول وهو الأهوج الأحمق – معجم المعاني الجامع الإلكتروني.

موجعة تلك العبارة، مازالت تتردد في مسامعي، وأنا أمضي في طريق الحياة، أسمع صوت أمي ترددها وهي تختنق بدمعة عنيدة.

ما الذي كانت تريده أمي لي؟ إذا كانت هي نفسها ضائعة ضمن مجتمع ضائع، لا يعرف ولا يعترف بهويته؟ لو لم ألتحق بتلك الجماعة التي تربي البنات وتوجههن نحو الخير والفضيلة، والاجتهاد وبذل أقصى الجهد للتميز، لكنت التحقت بالحزب الشيوعي، أو بمنظمة التحرير الفلسطينية على هامش حرب لبنان، حيث كانت توابيت الشباب الذين قضوا نحبهم في القتال هناك، تتوافد على البلد، يحملها رفاقهم الثوريون اليساريون يطوفون بها الجامعة والحارة.. يرقصون بها ويدبكون ويهتفون للقضية.

قلت ذلك مرة لأمي.. نظرت إلي طويلاً، ثم أشاحت بوجهها عني، وسكتت، ولم تعد مرة أخرى لابتزازي عاطفيًّا بحكاية "التحقتِ بجدكِ"!

تلك كانت دمشق في هاتيك الأيام، سفينة تغرق بما فيها ومن فيها، يحيط بها الطوفان من كل حدب وصوب، فضلاً عن الخونة الذين كانوا يُعْمِلون أزاميلهم في قاعها ليضمنوا غرقها لا محالة!

قلة قليلة من أهلها كانت تعرف ذلك، وتبذل الجهود المستميتة لرقع الثغرات.

***

نُيَمِّمُ شطر غرفة جدي الشيخ، نكب على يده وكتفه فنقبلهما، يضمنا ويشمنا ويمنحنا الدفء والحب والحنان والطمأنينة، ويعطينا العيدية النقدية، نأخذها ونهرول خارج الدار ننزع عنا ما التحفنا به

لإرضائه، عائدين إلى زينة العيد، نركب الأراجيح التي نُصِبت قريبًا من بيت الشيخ هناك في الجادة الخامسة في حي "المهاجرين" الدمشقي، نأكل الفول النابت، نشرب مرقه الحامض بالكمون، نشتري المفرقعات، ويأتينا الوالد بعد هنيهة من الزمن مكفهرًا مزبدًا مرعدًا، لينتزعنا من فرحة نصف الساعة التي تمتعنا بالعيد فيها، وتقبض الوالدة على أيدينا مقطبة عابسة هي كذلك، ويجرجراننا إلى موقف الباص.

نفهم من الوضع، أن شجارًا نشب بين جدي الشيخ وأمي، مافتئا يتشاجرا منذ عرفا بعضهما، فهو لا يعجبه حجابها، ولا لباسها، ولا الطريقة التي تُربينا بها، ولا بد من أن شجارًا آخر قد وُلد بين جدتي وأبي، بسبب لومها الدائم له على سلوك زوجته معها!

لماذا لا نَقبل الناس كما هم؟ لماذا لا تحب الحماة كُنَّتها التي خطبتها هي بنفسها ونصحت بها ابنها؟، لماذا نتصرف ونتفوّه بأشياء تزرع الكراهية في نفوس أقرب الناس إلينا؟، الكل يلوم الكل، الكل يتدخل في الكل، الكل يتسبب في جعل الحياة أكثر صعوبة ومرارة.. لا تشعر في دمشق بطعم السِلم الاجتماعي، ولا السعادة في وجوه الناس، ولا الدفء العائلي، ولا التعاطف بين الأقرباء.

أصبحت المشاجرات بين أفراد الأسرة الواحدة ديدن معظم الناس، في بيت جيراننا لا ينامون كل ليلة، إلا بعد حفلٍ حافل من الصراخ والخصومات التي يصل صداها آخر الحارة، لا أكاد أعرف واحدة من صديقاتي في المدرسة، إلا وهي تعاني بسبب طلاق والدتها، أو زواج أبيها بامرأة أخرى، أو مشادات عنيفة بين

أمها وأبيها، أو خصامات فظيعة بين الحماة والكنة، أو بين الأخ وأخيه.. إلا من رحم ربي وهم قلة متنزهة.

مجتمعنا الدمشقي ذاك، وعلى الرغم من الحفاظ على تقاليد المودة الأسرية الإجبارية، والقيام بالواجبات تجاهها، كان في حقيقة الأمر مجتمعًا منخورًا بالكراهية، بين الأهل وأفراد العائلة الواحدة. . الكل يدّعي فيه الاستثنائية، والكل يختنق فيه تحت وطأة تفسخ اجتماعي رنان! فَقَدَ الناس أسس التواصل السليم فيما بينهم، فلا يعرفون أطر واجباتهم، ولا حدود حقوق الآخرين.

ننحشر في الباص مع عشرات الرّكاب، ونذهب مباشرة إلى زيارة بيت جدي الآخر والد أمي، وهناك لا يحاسبنا أحد على قصر ثوب ولا على ضيق سروال، ولا يُطلب إلينا الالتزام بالسلام والتحية باللغة العربية الفصيحة، هناك خالي الذي كان على عكس ما تعارف عليه أهل الشام، يوزع الهدايا على أولاد وبنات إخوته وأخواته وليس العيديات العينية، منضدة طويلة كان ينصبها في صالة البيت، صفّ عليها الألعاب والهدايا التي تجعلنا نتقافز فرحًا بالعيد وبخالنا.

شابٌ طويل جميلٌ، في وجهه نضرة سلام عجيب، أنيق نظيف، هادئ، لا نكاد نعرف صوته لكثرة ما يطيل الصمت والاستماع للآخرين، لا تفارق البسمة مُحياه، لا يخوض في أيّ مخاضة لا علاقة له بها، إنه ذلك الفرد من العائلة الذي يتمنى كل من في العائلة أن يكون هو، وأن يقوم بما يقوم به.. وهذا ما حاولت عمله في غرناطة، توفير احتفال بالعيد لأطفال الجالية - أحاكي به ما كان يفعله خالي- وكانوا يُعَدّون على الأصابع.. اتفقنا أنا و"ماري أنخلس" على أن نجعل عيد أطفالنا في يوم الفطر مختلفًا، عيدًا حقيقيًّا، يفرح فيه الأولاد ويلعبون، ويشعرون أن

هذا العيد هو يومهم، يكفيهم الفرح به وفيه مؤونة الضغط النفسي الذي يعانونه في أعياد الآخرين.

وجه العيد هذا، من أهم أوجه هويتنا الجماعية، نكتشفها يومًا فيومًا في غربتنا، ونتشبث بها، تضمّنا وتلُمّنا جميعًا على اختلاف مشاربنا وانتماءاتنا والمناطق والقرى والمدن والأقطار التي أتينا منها.

طريقة طبخ الملوخية تحدد هويتك الجغرافية بالضبط، وتقدم تشكيلة البهارات التي تستعملها في صنع معمول العيد، بصمة واضحة عن انتمائك الوطني، والعيدية.. ثم تقبيل الأيادي، كانت طابع ثقافة واحدة وحيدة لا تخطئها الأعين، بحسناتها الجميلة، وباهترائها البادي للعيان.

نحن قوم قد أتينا من منطقة واحدة، ترتل تنزيلاً واحدًا، يطربها نفس الموّال، ترقص فرحًا على نفس الأنغام، تشكو همًّا واحدًا، وتحكي حكاية مرض واحد.

من يصل أولاً إلى منضدة الخال يختار الهدية التي يريد، نجلس هناك نفكّ الألعاب ونُركِّبها ونلعب، وخالي يتجول بيننا سعيدًا بنا وبفرحنا، في حين أن أبي في غرفة الضيوف ضيف غريب، فهو زوج البنت، بعيد، مقصى، لا يُعامل هو ولا أولاده معاملة الأبناء وأولادهم!

قناعات مؤلمة مُختَلَقَة، يرددها الناس هنا وهناك لترسخ في ضمائر الأجيال، لطالما كذّبها الحب والحنان والعطف الذي كان بيت جدي هذا يُغرقنا فيهما، كانت الجدة تقول: "الصهر غريب".. بينما تضمه وتشمه وينحني هو ليقبل يدها كما فعل مع أمه قبل لحظات.

سمعت جارتنا تسأل أمي مرة في همس وريبة: هل يجب عليّ الوضوء، لقد قبّل صهري يدي! ماذا أفعل؟

إشاعات، وقناعات، وجهالات، كان يعيش في دياجيرها مجتمعٌ دمشقي مريض، لم يفلت من العدوى ببعض أمراضه، إلا القلة من بيوتات العلم والدين والمروءات العالية، كنت أسمع الكثير مما يشبه حماقة جارتنا المغرقة في جهل مريع، في بيت جدي الشامي الكريم المرح الجميل، الذي يفتخر بأصوله التركية، وبمصاهرته العالِم الطبيب الحمصي، بيتٌ ترن الضحكات في جنباته، ويعيش أهله في مرح ومودة وألفة، بيتٌ يصلّي أهله ويصومون، لكنهم لا يحبون الهبل والمشيخة المزيفة – كما يقولون –، يتفاخرون بمصاهرة الشيخ العلاّمة، لكنهم يكرهون تديني وأنا حفيدته، ويتندرون على حجابي وسلوكي في لطف ومحبة لا تفسد المودة، بيتٌ لا أذكره إلا ويلفه الظلام، لا تصل الشمس غرفه، ولا صالته الداخلية، التي كانت مظلمة إلى درجة تخيفني كثيرًا، حتى إنني كنت أحلم بها في كوابيس ثقيلة تدهمني بين الحين والحين وأنا في مدريد.

تقاليد وعادات.. تنصَبّ في آذان الطفولة، تعاليم معطوبة تكرست في بيوت يَثْقُل عليها قول "السلام عليكم"! وتستغرب رافضةً حجاب فتاة في السابعة عشرة من عمرها! طريقة غريبة لفهم الحياة والدين، الذي تلخص لدى الناس في جملة أباطيل كانت الألسن ترددها ليل نهار، لم يستطع الزمن أن يُخَلِّفها على قارعة طريق آلام هذا الشعب المسكين، حكمت حياته هذه المُسَلَّمات المقززة مئتي عام يَجْتَرُّها من دون أن يحاول تغيير شيء فيها ولا حتى مجرد الوقوف عن تردادها، **كلمات، عبارات، وقوانين اجتماعية قاسية قبيحة، تشده نحو التخلف والتفسخ والانهيار،**

تشده من شعره نحو الخلف، بقوة، كما كان يشدني أخي من شعري المجموع على شكل ذنب الحصان.

كانت البلاد تغلي بعفنها بانتظار الزلزال.

حين سألت جدي الشيخ الفقيه: هل تقبيل الصهر يد حماته يفسد وضوءها يا جدو؟ ظل يضحك ساعة حتى نفرت الدموع من عينيه!

***

وكما هي الحال في دمشق، عندما يحل زمن العيد و"يسكن" الناس سوق الحميدية والبزورية، هنا كذلك، وقبل شهر ونصف من موعد رأس السنة ويوم الميلاد، ترتدي مدريد حلة قشيبة من الزينات والصرعات، تتجدد عامًا إثر عام، تدب فيها حركة غير عادية، تنقلب مجمعاتها التجارية الضخمة إلى مراكز للبهجة والصخب، وتنطلق ترنيمات العيد من جنباتها، وتُنصب تماثيل الرموز الدينية، والألعاب المتحركة التي تأخذ بألباب الصغار والكبار، ويُقام في كل بيت وسوق ومشفى ومؤسسة ومكان في المدينة، مجسم متناهٍ في الصِغر أو بالغ الضخامة لـ"بيت لحم"[(1)]، على الشاكلة التي تَصوّر القوم أنها كانت عليها ليلة ولادة سيدنا عيسى.

يحترم الإسبان لغتهم جدًا، وقد بلغ من تعصبهم لها، أنهم لا يُطلقون على أعياد الميلاد، إلا الاسم الدقيق المنحوت منها: النابيداد.

وعلى الرغم من أن المفردات المشتقة من اللغة العربية تبلغ11% من أصل كلمات اللغة الاسبانية، فإنه لايعرف ذلك منهم

(1) "بيلين" – مع تخفيف الياءين- بالإسبانية مشتق من العربية: "بيت لحم"، وكذلك يسمى المجسم الخاص بأعياد الميلاد.

إلا المختصون، بل كان من الصعوبة بمكان أن تجد فيهم من يتكلم الإنكليزية أو الفرنسية.

الهَبّة الاقتصادية الضخمة التي شهدتها إسبانيا ما بين الثمانينيات والتسعينيات، جعلت الناس يبالغون في بهارج احتفالاتهم بالأعياد في تلك السنوات السِمّان، فلا يكاد يخلو بيت من هذا المُجسَّم، ولا من الزينة والأنوار الكهربائية والشموع والحلوى والملابس الجديدة، ويُتوّج ذلك كله باجتماع أفراد الأسرة ليلة الميلاد على مائدة العشاء، الوالدين والأجداد والأبناء وأزواجهم وأبنائهم، وبعض الجيران، وبعض المعارف ممن ليس لديهم أُسرة.. حتى إن الواحد منهم يسافر المسافات الشاسعة ليكون مع أهله ليلة الخامس والعشرين من كانون الأول/ديسمبر، حيث يتم تبادل الهدايا والتهاني، ثم يعود كلٌ من حيث أتى.

عامة العلاقات الأُسرية في إسبانيا، أكثر صحة وسلامة مما هي عليه عندنا، حيث يختنق المجتمع بزخم العواطف الفارغة من المحتوى الأخلاقي، وزحمة العادات المتخلفة، كما هي أجمل وأرقى من الأوضاع الأسرية التي نراها عند شعوب أوروبية أخرى، تشكو تفكك أواصر الأرحام فيها وجفاف ينابيع الـودة والرحمة، في غمرة التقدم والازدهار والبرد الذي أصاب مفاصل تلك المجتمعات.. **يقدم المجتمع الإسباني حلًّا وسطًا ما بين طرفي النقيض الشرقي والغربي.**

المودة والمحبة بين الأبناء والأولاد لا تترجم إلى استعباد ورقٍّ، كما لا تختفي من حياة الأسرة بفعل البعد والزواج وملابسات الحياة.

لا بُعدَ يجفف العواطف، ولا التصاقَ يجعلها رخيصة مبتذلة، وكلٌ يعرف قواعد السلوك الاجتماعي والأسري الصحيحة.

لا أحد يتجرأ على التعدي على حقوق الآخر الأسرية، لكلٍ مكانته واحترامه وحقوقه وواجباته و. . حدوده.

الانضباط الاجتماعي والأسري في إسبانيا مدعاة للفخر والاعتزاز، فبينما تعم الفوضى الاجتماعية بلدانا، متجلية في ضياع حدود الحقوق والواجبات بين الناس، تجد في إسبانيا استقرارًا اجتماعيًّا، وانضباطًا سلوكيًّا ثابتًا في حياة الأسرة والمجتمع، وضعوا أسسًا أخلاقية للتعامل فيما بينهم، مَن تجاوزها نبذه المجتمع وعدّه خارجًا عن السياق.

فإذا انقضت ليلة الميلاد ويومها، أصبح الناس مُنصرفين إلى شؤونهم وأعمالهم، وما تمضي أربعة أيام، حتى تضج المدينة من جديد ليحتفل الناس بالليلة التي يسمونها "الليلة العجوز"، يودعون فيها العام المنصرم، ويستقبلون العام الجديد في احتفالات صاخبة ماجنة لا تشبه احتفالاتهم بليلة الميلاد، التي تُعدّ عندهم طقسًا دينيًّا ألبسوه حلّة اجتماعية أسرية مهيبة.

فبينما ليلة الميلاد ليلة اجتماع أُسري ديني على الأكل والشرب والترانيم، تكون ليلة رأس السنة الميلادية الجديدة، ليلة لعب ولهو وخلاعة وفجور وانتحار وفوضى ورقص وعربدة، تودي بحياة المئات كل عام وتُخَلّف وراءها مشاهد مفزعة في مركز ووسط المدينة وأفيائها.

الفوضى التي نعانيها في بلادنا على المستوى الاجتماعي، والتي يضبطها الدين في كثير من الأحيان، توازيها هنا فوضى في السلوك الفردي يضبطه المجتمع والدولة دائمًا.

تفعل الخمر فعلها في رؤوس الشباب، وتقلب عيد بعضهم مأتمًا، وتكسيرُ واجهات المَحالِ التجارية وتحطيمُ المرافق العامة، صار عادة ثابتة لدى السكارى كل عام، كذلك تركُ أطنان من المخلفات القُمامية، أصبح وكأنه شرط لازم لتوديع العام الذي مضى!

يحتفل الناس بمُضِيِّ العام ورحيله من حياتهم، وهو شيء لا يمكنني فهمه ولا استيعابه! أمضيت زمنًا أحاول فهم فلسفة هذا الاحتفال المجنون كل عام، فوجدت الناس يودعون عامًا يظنون أنه لن يعود إليهم أبدًا، وقد ذهب بخِيره وشرِّه، وما ارتكبوه فيه من حماقات وأخطاء، فكأنهم إن ودَّعوه ودَّعوا معه ضعفهم الإنساني، وذلك الشعور بالنقص الذي يشدهم إلى الأرض، وهكذا يبدؤون عامًا جديداً وهم على قيد حياة، هي كل رصيدهم، وكل ما يملكون.. مرددين الأغنية الشعبية المحببة إلى نفوسهم: "إننا لن نحيا إلا مرة واحدة".

هذا الضجيج المدني على هامش الحضارة، يحزنني ويصدم تركيبة دماغي الدمشقية، فنحن قوم نعيش ونحيا على أمل حياة أخرى، على الرغم من إهمالنا شبه التام لما يترتب عن هذا "الإيمان" من ضريبة أخلاقية وربانية وإنسانية.

معادلات عويصة[1] معقدة تحكم طريقة تفكيرنا المعاصرة نحن "أهل الموت".. نعيش ونتصرف من خلالها على أساس حياتنا الآخرة، وقناعاتنا المغايرة لقناعات القوم.

يثير أشجاني "النابيداد" في مدريد التي تفهم الأمور والحياة

(1) عويص: شائك صعب، كلام عويص: كلام يصعب فهمه/معجم المعاني الجامع الإلكتروني.

بشكل يختلف عن فهمي لها، تُقيم أعيادها ومناسباتها الدينية الكثيرة، على أساس حركة الاقتصاد التصاعدية البحتة، فإذا ما كَشف المرء طرف الغطاء البرّاق الأخّاذ، لمظاهر هذه الأعياد الدينية الاقتصادية، وجد مجموعة من الوحوش البشرية التي تسمى المُستثمرين، تستغل أجمل وأرقى ما لدى الناس من مشاعر دينية وإنسانية وتاريخية، لاستنزاف آخر "بيسيتا"[1] من جيوب المواطنين المخدوعين بأجهزة الإعلام، تسيطر عليها وعلى كل ما فيها، شركات التجارة الضخمة داخل البلاد وخارجها، وعن طريق الإعلانات التجارية، توجه هذا المجتمع المحكوم بشهوة الاستهلاك المحمومة، تفتك بإنسانيته وبراءته، معاول النمو الاقتصادي والامتداد الحضاري المدني العمراني المادي على حساب راحته وهدوئه وإنسانيته.

***

أيام "النابيداد" في إسبانيا، أيام حنين وحزن واكتئاب، أجهـزة الإعـلام مـا تفتأ تتحدث عن هذا الاكتئاب الذي يتسبب في انتحار بعضهم، كنتُ لا أفهم لماذا ينتحر الناس في مدريد، خصوصًا في هذه الأيام، ولماذا يُخَلِّف العيد آلامًا ويأسًا لدى الناس.. كنت أتساءل عن هذا وأنا أسمع في المذياع، أن أكثر حالات الطلاق والانتحار تقع في أيام كهذه، ومعظم الرجال الذين يَقتلون زوجاتهم[2] في مدريد، وفي إسبانيا كافة، يقومون بجرائمهم في أيام الأعياد هذه.

---

(1) وحدة العملة الإسبانية قبل اليورو/الأورو.

(2) في إسبانيا تُعدّ جرائم قتل النساء وباءًا اجتماعيًّا منتشرًا، ولا يكاد يمر يوم، إلا ويعلن فيه عن جريمة قتل ضد النساء فيها، ولم تتراجع نسبة هذه الجرائم إلا شيئًا يسيرًا فيما بعد التسعينيات، على الرغم من الحملات الكبيرة التي تشنها الدولة ومؤسسات المجتمع المدني لمحاربتها.

لا أستطيع استيعاب حجم هذه الفاجعة الإنسانية، على هامش الأعياد وبهارجها في مدريد! يستمر المتحدث في المذياع في حديثه المؤلم المستفز، المشفوع بالأرقام والإحصائيات والتحليلات، وأستمر أنا في غسل الصحون وتحضير الفطور، وأتساءل هل هو شعور الناس بالخديعة؟ هل هي ضريبة اكتشاف الحقائق المخيفة والمختفية وراء الأقنعة؟ هل هو الشعور بالنفاق الحضاري؟ ما هذا الشيء الذي يحمل المرء على وضع حدّ لحياة زوجته، أو لحياته، التي لا يؤمن أصلاً بغيرها؟ **ما الذي يصيب الناس بكل هذا الحجم من البؤس الإنساني، ويجعلهم يختارون العدم على ما يؤمنون بأنه وجودهم الوحيد؟**

إنها مدريد أواخر القرن العشرين، المدينة الكبيرة المُقَنَّعة، تظنها فاتنة، فإذا ما توغلت في أحشائها وأحيائها، اكتشفت الكثير من البلاء والمعاناة الإنسانية.. مخدرات، دعارة، فقر، هجرة غير شرعية، بطالة، قبح، مرض، وتشرد.

إنه زمن الانفجار الاقتصادي الخُلَّبي[1] الفقاعي، يتدفق الناس فيه على المراكز التجارية الضخمة لشراء هدايا ومستلزمات العيد، حتى لو كلفهم ذلك اللجوء إلى الاستدانة من المصارف في حين أن مئات الآلاف يحتضنون زجاجات الخمر الرخيص، يحتسون بؤسهم، وهم يراقبون بهجة العيد من خلال شاشات التلفزة، عاجزين عن المشاركة الفعلية، عاجزين عن الفرح، وعاجزين عن الحياة.

يفقد الناس هنا كرامتهم، لحساب المصارف والشركات العملاقة، التي تُحَوّل البشر إلى قطيع من الآلات المؤنسنة، تلهث وراء ما تعرضه عليها أجهزة الإعلام من مواد استهلاكية، تهرول

---

(1) خ ل ب: الخِلابة الخديعة باللسان/ معجم المعاني الجامع الإلكتروني.

لاقتنائها، ثم تكُدّ راضخة، لتسديد الديون المترتبة عليها بسببها، هنا الكلّ مَدين لهذه المصارف، والكلّ عبد عندها! بالطريقة نفسها التي فقد الناس بها في بلادنا حريتهم، وأصبحوا عبيدًا للمستبدين، يعاملونهم كقطعان من الماشية، تُحلب وتجبى خيراتها إلى جيوب الظالمين.

هنا تستبد المصارف بالشعوب لمصلحة جهات أجنبية خفية، وعندنا يستبد المجرمون القتلة بالشعوب لمصلحة جهات أجنبية معلومة.

الغربيون مستعمَرون، بطريقة تختلف في ظاهرها عن الطريقة التي نحن بها مستَعْمَرون، لكننا نتشارك جميعًا، الخضوع الموجع لقوى استعمار شبحية عالمية.

هم يعمهون في سكرتهم ظنًّا منهم أنهم أحرار، ونحن متلبسون في سكرتنا لا نعلم أننا مستَعبَدون.

أخذت الأولاد وذهبت إلى ساحة المحافظة القريبة من داري، ليشاهدوا عرضًا لمسرح عرائس متجول، اجتمع إليه أطفال الحي، اشتريت الصحيفة ومعها ملحق خاص عن "النابيداد"، كانوا سعداء برؤية الدمى الملونة تتحرك وترقص وتغني، والمُهَرجون يُلْقون قطع السُكر الملونة على رؤوس الأولاد، وآخرون ارتدوا الملابس المزركشة، يدورون بين الصغار موزعين عليهم البالونات والدعايات التي تدعوهم وآباءهم لزيارة السيرك، الذي يُنْصَب كل نابيداد قريبًا من الباغودا حيث نسكن، كما هي الحال في كل حي من أحياء مدريد.

الملاهي والتسالي والألعاب والرياضة، ومختلف أنواع النشاطات الثقافية، هنا في إسبانيا، ليست حكرًا على الحاكم

وأبنائه، أو أبناء طبقـة اقتصادية اجتماعية خاصة، كما هي الحال في بلادنا.. بل الكل في ظل الاشتراكية الديمقراطية، يتشارك الفرح والعيد، الكل يتمتع بحقه في أن يعيش، الكل يمتلك الحق في أن تتاح له فرصة.

كل الأطفال في إسبانيا الاشتراكية، بمن فيهم أبناء الغجر والمهاجرين، يمكنهم أن يتمتعوا بالدرجة نفسها والأشياء، التي يمكن لأبناء الملك أو رئيس الحكومة أن يتمتعوا بها، كما يمكنهم جميعًا – إن أرادوا هم وآباؤهم– الوصول إلى المراتب كافة التي يحلمون بها.

كان التلفزيون الإسباني يبث حملة هائلة للتوعية في هذا السياق، ينشر ثقافة تكافؤ الفرص والدفاع عن الحقوق، التي وجدت للجميع، وكان الاشتراكيون في بعض حملاتهم الانتخابية، يؤكدون على منجزاتهم هذه، يوجهون خطابًا للشعب مفاده الضمني: إذا لم تنتخب الاشتراكيين.. فإن ابن الخادمة، سيكون خادمًا لابن المخدومة، الذي سيبقى مخدومًا!

فُتحت الجامعات للجميع، للفقراء وللأغنياء على السواء، لأبناء أصحاب الملايين، كما لأبناء العمال والفلاحين والمهاجرين، وفتحت معها للجميع كذلك المراكز الثقافية، والنوادي الرياضية العامة، والمعارض، والصالات الفنية، كان بإمكان المجتهد أن يصل.. لا يمنعه من الوصول عائق مادي أو اجتماعي.

الاشتراكيات في الغرب الديمقراطي، تعني تَشَارُك الجميع في الحقوق والواجبات، ما داموا يؤدون ضرائبهم الاقتصادية – الاجتماعية.

الاشتراكيات في مهدها الشيوعي، تعني تشارك الجميع في

العبودية المطلقة للدولة، كمرحلة من مراحل التحقق بالشيوعية، التي انهارت وبقيت الشعوب مُستَعبَدة.

الاشتراكية في بلادنا، تعني مشاركة الحاكم المستبد، جميع أفراد الشعب أموالهم وأولادهم وحياتهم وموتهم.

أخذت أتصفح ملحق الصحيفة الخاص بعيد الميلاد، دهشت وأنا أقرأ فيه أن مولد سيدنا عيسى، لم يكن في ليلة الخامس والعشرين، ولا في الشهر الثاني عشر من العام! إلا أن "المصلحة" – الاقتصادية والتنظيمية للمجتمع– اقتضت تغيير التاريخ، لتُجْمَع الأعياد في حقبة معينة من العام الذي نسميه ميلاديًّا باللغة العربية.

فُجِعت بهذه الحقيقة، وتقليدُنا للقوم عن جهلٍ وعمىً، كان أكثر إيلامًا وفجيعة!

موجعٌ اكتشاف تلك الجحور، التي دخلناها وغيرنا من الشعوب المستَعمَرة وراء المستَعْمِرين خضوعًا وتبعية، دخول الذليل وراء سيده، الذي تمكن من عقله ونفسه، وملك عليه لبه وفؤاده.. إلى درجة أن ننساق وراءهم حتى في الاحتفال بأعيادهم، التي حوّلوها وغيروها وعدّلوا تواريخها لتدخل في المنظومة الاقتصادية الرأسمالية التي يحكمون بها العالم اليوم ويستعبدون شعوبه.

ما زلت أذكر احتفال الكثيرين في دمشق بأعياد الميلاد ورأس السنة الميلادية، ونصب الشجرة المزينة شجرة الميلاد.. التي لم يبدأ الإسبان أنفسهم باستعمالها في احتفالاتهم بالنابيداد، حتى أواخر الثمانينيات من القرن العشرين! كونها عادة دخيلة! فهم لهم عاداتهم وتقاليدهم الخاصة بالنابيداد، ولم ينتشر استعمال شجرة الميلاد في إسبانيا، إلا بعد دخولها حلف شمال الأطلسي، وانتشار

الثقافة الأميركية – الأوروبية فيها، مما جعلها أكثر التصاقًا بأوروبا من غيرها من العوالم المتخلفة، التي تشترك معها بحدود الجغرافية – مثلنا –! أو حدود الاستعمار كأمريكا اللاتينية؟

"استعمار" أو "تدمير"، سيان كان اسم العلاقة التي تجمعها بمعظم الدول اللاتينية، فتلك الدول أصبحت بعد قرون من الغزو الإسباني الشامل الاستئصالي، تستجدي إسبانيا العطف والرعاية ومدّ يد المساعدات الاستعمارية لها.

كنت استمع فترة الظهر، إلى الكاتب الإسباني الشهير "أنطونيو غالا"[1] في حديث له في التلفزيون، كان يعيب على المجتمع الإسباني، دخول شجرة الميلاد إلى حياته، واستعارته تقليعة "بابا نويل" من الأمريكان، وتسللها شيئًا فشيئًا، لتأخذ مكانها في تقاليد الاحتفالات الدينية الإسبانية.

كان "أنطونيو غالا" يريد لإسبانيا أن تبقى إسبانيّة، وألا تنضوي في سياق التغيير الهائل الذي تحدثه الهيمنة الأميركية العامة على العالم.

***

دار العام، وكلما دار انتقلت "معركتي" الخاصة في مدريد ومع مدريد من مرحلة إلى أخرى، فلقد بدأت حين كنت حديثة عهد بالغربة، إعلان رفض شامل لكل شيء في مدريد، رفض جهل وخوف ودفاع عن النفس، وكانت النقاشات حامية مع الناس، والحجج ساخنة، والكلام طويل، ولا جدوى!

---

(1) Antonio Gala الشاعر والروائي وكاتب الخواطر الإسباني الشهير.

مع مرور الأيام، تحولتُ من مجرد "مورا" في مدريد، غريبة غير مرحب بها، إلى "مهاجرة" محقودٌ عليها، مرفوضٌ وجودها، غير مسموح لها بمجرد إبداء الرأي في أي شيء يخص الإسبان، حياتهم الثقافية، طبقاتهم السياسية، مجتمعهم، وكل ما يمت إليهم بصلة.

يستغرب الإسباني منك، أن تضحك مع الضاحكين على موقف هزلي جماعي عام وسط الشارع، واستغرابه أكبر إن قمت بانتقاد أحد سياسييه أو سياسة حكومته، وأغرب الثلاثة أن تتجرأ مثلا، فتقول لسائق التاكسي: يا إلهي ما هذا الازدحام المروري في هذه المنطقة!.. يلتفت إليك الرجل بعينين تقدحان شرراً، ويقول: إذا لم يعجبك ذلك، فيمكنك العودة إلى بلدك وركب الجمال هنالك!

إبداء رأيك، يعني أنك ملمٌّ بمجمل الأمور في هذا المجتمع الذي تعيش فيه، **إبداء رأيك بالنسبة إلى الكثيرين من الإسبان، يعني أنك أصبحت واحدًا منهم، وهم لن يقبلوا بذلك البتة**.. يحترمون أصحاب الكلمة والقلم منا، ولكن ماذا يعني ذلك؟ لا يعني لهم شيئًا! اذهب إلى بلدك فاكتب هناك عن بلدك وشعبك! نحن لا يهمنا الاستماع إلى رأيك، ولا يهمنا أن يكون لك رأي!

يتغير بالطبع الأمر وزاوية التفكر برأيك، إن كان ما تقوله مديحًا واستحسانًا! فهل يمكن لمورو، أو مورا، أن يجدوا في هذه البلاد إلا ما يبهرهم إعجابًا ودهشة؟ وهم الآتون من وراء حدود الحضارة، ومن تحت قيود التخلف، ومن قلب البراري المقفرة من الحياة؟

مع مرور الأيام والأعوام.. انكمشَتْ مساحة حواراتي مع الإسبان، أصبح الأمر مُنهِكًا مملاً وثقيلاً، كأنك في حرب "أهلية" دائبة، لا هدنة فيها ولا منتصر ولا حل يلوح في الأفق!

مع مرور الأيام.. **بدأت ترسخ في ذهني فكرة "شيطانية"، بأن لا فائدة من الكلام، ولا من النقاش ولا من إيراد الحجج، كانت فكرة بشعة، التفكير فيها وتَحَوُّلُها شيئًا فشيئًا إلى قناعة، كان شيئًا مخيفًا حقًا.**

كان ذلك يشبه تمدد شبح "الصمت" بين زوجين، لا يجدان بعد مرور خمسين عامًا من حياتهما معًا، أي شيء مشترك يحفزهما للحوار واستمرار حيوية الحركة والحياة.

كل منا أنا ومدريد، كان على قناعة تامة بصحة قناعاته عن الآخر، وسلامة نيته تجاهه، وصواب سلوكه معه.. بدا هذا، وكأنه المحطة الأخيرة لرحلةٍ نحو مقبرة.

هذا الجدار الصلب الذي مافتئت أتحاور معه، وأرتطم به، أصم، صلدٌ، مُصْمَتٌ.. لم ينكسر، ولم أرمِ قط إلى كسره، ولم أقتنع بالصمت، ولم أَنْوِهِ في حينه.. لا الجدران تغير من طبيعتها، ولا أنا بقادرة على ترك أكثر من بصمة باهتة، لا يمكنها حَتّ الأحجار فضلاً عن الرسم عليها بالألوان، والنحت بالكلمات والأفكار.

لا يتعلق الأمر برغبة كل منا أنا ومدريد، في تبادل "العشق"، لكنها لعبة البشر الأزلية – الأبدية.. التعارف، التواصل، التجانس، أنسنة وجودهم الموحش على هذه الأرض، الرغبة في الحوار بين الناس، وفي إذابة جليد الغربة، وتذليل مصاعب الاختلاف.

ما زلت أمشي في هذا الطريق، أقف أمام هذا الجدار، أحاوره، أناقشه، أحفر فيه بأظافري، ثم أعود أدراجي لأسترد أنفاسي، وأتأمله من بعد بكل تفاصيل الصورة، أستأنف المضي

نحوه من جديد، في الطريق نفسه أمضي جيئة وذهابًا.. وأعود لأصطدم بالجدار نفسه.

يُنَفَّذ فيَّ حكم الإعدام تحت ظله العالي، تنسكب دمائي على جنباته، تصبغ أحجاره وإسمنته بلونٍ عفنيٍ بعيد من الأحمر، يفعل فعله فيه بصمت غاضب رنان.. تَحُتُّه، تُقَشِّرُه، تُعيدُه إلى حالته الفسيفسائية الأولى، التي لا تستعصي على التحلل.

لم أيأس، مرات ومرات أضربه بقبضة يدي، فترتد إليّ مهشمة، لكنها تترك عليه بصمة من خلايا مهروسة، ومن قهر يتمدد، أحاول ثقبه بالمثقاب الكهربائي نفسه، الذي يستعملونه عادة لثقب ركبتيّ وكتفيّ في حفلات التعذيب، فيترك المثقب فيه عينين، وعينين، وعينين.. ينظر إليّ من خلالها جميعًا في غضب وتحد.. لقد منحته حياة.

بتصميم ودأب تلك الفلاحة الصينية الصغيرة، طرزت صورتها في طرف بساط الامبراطور السحري، فما إن بُسِط أمامه، حتى نُفِخت في صورتها الروح، مع كل الأشياء التي صورها الفلاحون وهم ينسجون حكايات الحياة، فاستطاعت أن تجتاز الأسوار.. هكذا صارت صورتي حيّة في ذلك الجدار، تغريبتي صارت لوحة حيّة فيه، آلامي تتنفس على صخره الجامد، نوافذ صراعي معه، تشرع مصاريعها على أنهار الدم وعذابات الذبح البشري.

أهاجمه بمطرقة صمودي وقدرتي على الصبر والاحتمال، ولا أتراجع، وإن وقفت مرارًا أعيد حساباتي، فالمعركة معه وأمامه قاسية شديدة.. والسماوات التي تتركها عليه أنامل المبدعين مغرية وجميلة.

هذه الطريق غير مسدودة، حتى لو كان في نهايتها الطويلة هذا الجدار.

فبعض المعركة، اجتياز الطريق حتى النهاية، وبعضها، مواجهة هذا الجدار..

***

أنظر إلى بناتي الجالسات أمام التلفزيون، يتناولن طعام الغداء وأعينهن مسمرة على أحداث فيلم "الحكاية التي لا نهاية لها"[(1)]، فيلم رائع، والحكاية التي يرويها مثيرة للتفكير ومحفزة للقدرة على التخيل، كنت رائحة غادية على خدمة المائدة، ورأيت شدة انتباههن، فأحببت أن أداعبهن، سألتهن أتثاقل عليهن وقد بدأت الدعايات: هل أعجبكن هذا الفيلم، كأنه ممل، أليس كذلك؟!

قالت ساجدة: مام لا تكوني ثقيلة الظل، ابتعدي عن الشاشة، الفيلم رائع.. سبحان الذي خلقك يا مام[(2)]!

وقبل أن أرد عليها، استأنفتْ منهية تأزم الموقف، وسألتني: مام لماذا يقولون في الأفلام ودائمًا "الآلهة"، أليس الله واحدًا؟!

– قلت لها: أنت تريدين أن تحرفي الموضوع الخاص بالغلاظة!

قالت: لا، أريد أن أعرف.

قلت: هذه معتقدات قديمة مام، لا علاقة لها بالدين، ولا بديننا.

قالت: ولكن هذا حرام.

---

(1) "الحكاية التي لا نهاية لها": فيلم يعتمد كتابًا من تأليف الألماني ميتشيل أندرياس هيلموت إنده/ La historia interminable MICHAEL ENDE والفيلم طبعة 1984 من إخراج Wolfgang Petersen.

(2) "سبحان الذي خلقك": تعبير شامي يقتضي الشكوى والاعتراض بتلطف.

قلت لها: حرام يا ساجدة إن رددناه نحن.

– أنا لا أريد أن أسمعه.

– قولي إذًا: الله أكبر.. لا إله إلا الله، كلما سمعتِه.

– وهل تنحل المشكلة بقولي ذلك؟

– في رأيي نعم.. وهذه أولاً ليست مشكلة، وثانيًا هذا أمر يتعلق بقناعات الإنسان وعقيدته ودرجة فهمه لدينه، ولا علاقة لنا بعقائد الآخرين، ولا قناعاتهم ولا درجة فهمهم لدينهم.

– وإن كانوا على خطأ؟

– المسألة هذه بالذات أنا لا أراها مام[1] إلا من خلال سورة في القرآن أنت تحفظينها، يقول ربنا فيها: "لكم دينكم ولي دين".

– وكيف نعرف من هو على حق ومن هو على خطأ مام؟

– كل إنسان يظن أنه على حق، ونحن نظن أننا على طريق الحق.. وواجبنا الآن وفي أعماااااارنا هذه، ألّا نتدخل في عقائد الناس، ولا نسمح لهم بأن يتدخلوا في عقائدنا.

– مام.. كلهم يتدخلون في ديننا وإيماننا، يشتموننا ويؤذوننا ويجعلوننا نشعر بالضيق والحزن.. مام، أنا لا أظن أن من يفعل ذلك هو على حق.

هل تعرفين ماذا حصل في الصف البارحة ليوسف ابن أستاذنا الذي يأتي في العطل ليعلمنا العربية، أراد الأولاد أن يشاركهم الصلاة أمام "البيلين"[2]، فقال لهم: "لا أريد الصلاة معكم أنا مسلم، أنا على حق، وأنتم كفار"!.

---

(1) تصغير كلمة ماما، استعمال شخصي خاص بهدف التحبب والتلطف.

(2) مجسم بيت لحم ليلة الميلاد.

قلت لها: وأنت ماذا قلت؟

قالت: أنا قلت لهم.. أنا أحترم دينكم، وأطلب منكم احترام ديني، أنا لا اطلب منكم أن تصلّوا معي، فلا تطلبوا مني أن أصلّي معكم.

– أحسنت.. وماذا حدث؟

– تركوني، وبدؤوا جميعهم بالضحك على يوسف، والسخرية منه، ولما دافعت عنه، صاروا يقولون لي: أنت مثله وكلاكما كافران، أنتم المسلمون أغبياء ومتخلفون، ورؤوس أمهاتكم ملأى بالقمل.

– لكن أم يوسف إسبانية، وليست مسلمة!

– قلنا لهم هذا.. لكنهم استمروا في ضربنا، ونحن أيضًا ضربناهم، حتى جاءت المعلمة فعاقبت الجميع.

– وماذا قالت؟

– قالت ليوسف أنت ولدٌ غير مهذب، وليس من حقك أن تقول للأولاد إنهم كفار، قال لها: هم قالوا لي إنني مورو وسبّوني، فصرخت في وجهه، وقالت: لولا أننا كنا في آخر يوم قبل إجازة الأعياد لاستدعيت أمك.

لكن المديرة جاءت إلى الصف بعد ذلك، وقالت لنا: إن هذه هي المرة الوحيدة والأخيرة، التي ستسمح بأن يتدخل أحد في دين أحد، أو يطلب منه الصلاة معه، أو أن يقول له كافر أو مؤمن، وأن هذه كلمات يُمنع استعمالها في مدرستنا.. وأن إسبانيا دولة ديمقراطية، يعيش فيها كل إنسان العقيدة التي يختارها، وليس لأحد أن يعتدي على دين أحد.. وأن هذه مدرسة حكومية ولن يُسمح فيها بحدوث مثل هذه المشادات.

قالت أختها الأصغر: وجاءت كذلك إلى صفنا، وقالت لنا الكلام نفسه مام.

– ولِمَ لم تخبراني بالأمس؟

– كنت أريد أن أخبرك، ولكن لما رأيتك تتكلمين مع "آلبا"[1] أم يوسف، ظننتكما تتحدثان في هذا، ثم نسيت أن أخبرك.

قلت: انتهت الدعايات، تابعا الفيلم مام، سأتصل بآلبا، وبعد انقضاء عطلة "النابيداد" سوف نذهب إلى المدرسة ونتكلم مع المعلمة.

قاطعتني قائلة: هل تعرفين ما فعل يوسف مام عندما تضارب مع الأولاد وغلبوه؟

قلت: ماذا فعل؟

قالت وعيناها تلتمعان بنشوة غريبة: لقد خلّص نفسه من بين أيديهم وطلع فوق مقعده، وراح يؤذن بأعلى صوته.. الله أكبر، الله أكبر.

قلت: أذّن في الصف؟

أجابت: أذّن في الصف، وسكت الجميع، تركوه وحسدوه، لأن صوته كان جميلاً جدًّا، ثم صرنا نضحك جميعًا، وعاد الأولاد للملاكمة، والبنات للتصفيق قبل أن تعود المعلمة.

تركتني "ساجدة" بسنوات عمرها التي تجاوزت العاشرة ببضعة أشهر، في ذهول بعد هذا الحوار، وجملة الملاحظات التي سجلتها فيه بلغتها الإسبانية الغنية، التي تساعدها على هذا التعبير

---

(1) Alba اسم إسباني مفرد ذو أصل لاتيني، ومعناه باللغة العربية: الفجر.

الدقيق عن مشاعرها وأفكارها، تعقيبًا وانفعالاً بما حدث معها في المدرسة، ثم راحت وأختيها يتابعن الفيلم، تناولن طعامهن، وتبادلن التعليق والضحك على حادثة الصف، التي يبدو أنها شاعت في المدرسة وبين الآباء، الذين بدؤوا بالاتصال ببعضهم بعضًا لتوضيح الأمور.

أطفالنا، وعلى صغر سنهم، لا يمكنهم أن يتمتعوا بشيء في البيت أو خارجه، إلا ورقابة "صارمة" نَمَت مع الأيام في أنفسهم على أنفسهم، وعلى كل ما حولهم، يؤدون على حداثة سنهم ضريبة اختلافهم وكونهم "غرباء".

من حق الآباء أن يعملوا على حفظ هوية أبنائهم، بالطريقة التي يُحْسِنها كل منهم، من حقنا أن نعمل على ألّا يذوب أبناؤنا، وعلى ألّاَ يضيعوا.. حتى لو وقعنا في أخطاء كبيرة، ومؤلمة لنا ولأولادنا أنفسهم.

من حقنا أن نفعل، ومن واجبنا أن نتعلم، ومن مقتضيات ذلك أن نخطئ ونصيب.

في واقع الأمر لقد اشتغلنا – كل الأسر في جاليتنا، وخصوصًا الأمهات – كثيرًا على ذلك، لحفظ هوية أولادنا في غربتهم وغربتنا، ومساعدتهم على ألّا يضيعوا أو يذوبوا.

كثيرًا ما يذكرني وضع أولادي في مدريد، بأولاد "الأقليات" من مكونات المجتمع السوري كالأرمن والمسيحيين، والذين كان بعضهم رفاقنا على مقاعد الدرس، مع أنهم في غالبيتهم كانوا يرتادون مدارسهم الخاصة في دمشق، يذكرني هذا بمعاناتهم مع بعض الطلبة والطالبات، الذين كانوا يتحرشون بهم ويؤذونهم ببعض الشتائم الطائفية، من دون أي مسوّغ إلا أنهم مختلفون!

خصوصًا عندما يضطرون إلى حضور حصة الدين الإسلامي، بسبب البرد الذي يمنعهم من مغادرة القاعة.

كانوا شديدي الحرص على عقائدهم، ولغتهم الخاصة، وعلى تعلم اللغات الأجنبية، كان سلوك من عرفته منهم إيجابيًّا استثنائيًّا، الخوف من مراقبة الغالبية يرهق أطفال الأقليات، ويتعبهم، ويجعلهم يشعرون بثقل مسؤولية الاحتفاظ بهوياتهم من جهة، وتقديمها للآخرين على أنها شيء جيد ومتميز، وأنهم على "حق" من جهة أخرى.

مؤلمٌ جدًّا أن يضطر الأطفال إلى حمل عبء خيارات الكبار، مؤلمٌ أكثر أن يضطر الأطفال إلى حمل مسؤولية هوية. . وأكثر الثلاثة إيلامًا أن يضطروا إلى إقناع أنفسهم والآخرين طوال الوقت بأنهم على "حق".

"الحق" بالنسبة إلى الأطفال، ينبغي أن يتعلق باحترام طفولتهم، وبراءة اتّباعهم لآبائهم، ومنحهم الفرصة ليكونوا أطفالاً أبرياء.

مجرد التفكير في ضياع أبنائنا في لجة المجتمعات الغربية، كان أشدّ علينا من الخوف من ذوبانهم فيها، وكنا نعتقد أن التمسك بهويتهم وعقيدتهم، يمكن أن يحميهم من السقوط في مهاوي مصائب كبرى مشتركة في هذا المجتمع، كالفشل في التحصيل والدراسة، أو الفشل في الانخراط في سوق الأعمال الشريفة، والتواء السلوك نحو السرقة والاختلاس والغش والقمار، وإدمان المخدرات والكحول، أو الزنى وما يمكن أن يترتب عليه من تفكك وانهيار الأسر، ودمار الأشخاص، أو انتحارهم، أو انحراف وضياع بعضهم في مهاوي التشرد أو الرذيلة.. اجتهدنا،

كلنا.. الدارس منا، والأقل حظًّا في الدراسة، المثقف، والذي لا يعرف ماذا تعني هذه الكلمة، الآتي من المدينة كما الآتي من القرية، الفقير والغني، المتدين والأقل تدينًا وحتى الملحد منا، تلك الأسر التي تتكون من أبوين جاءا من المكان نفسه والانتماء نفسه، أم المختَلَطة.. اجتهدنا، فمنّا من أصاب، ومنّا من أخطأ.

كانت تلك معركتنا الفردية والجماعية، وملحمتنا الخاصة مع أنفسنا ومع أقدارنا.

بذل كل منا قدر معرفته واستطاعته.. بعض الأولاد ذابوا مبكراً جدًّا، بعضهم ضاعوا، بعضهم ذاب وضاع، وبعضهم ضاع وعاد، وقع.. تهشمت ركبه، وكُسِر مرفقه وقلوب أبويه وأسرته، لكنه عاد، ومنهم من تلاشى، لم يَذُبْ ولم يضع.

كانت نتائج تربيتنا لأبنائنا، كأبناء أقلية دخيلة على المجتمعات الغربية، تظهر على الأولاد شيئًا فشيئًا منذ أن كانوا في الرابعة أو الخامسة من أعمارهم، كنا ندفع شيئًا فشيئًا "ثمن" كل ما فعلناه، أو لم نفعله مع أبنائنا: أخطاؤنا، صوابنا، اجتهاداتنا، قسوتنا، رحمتنا، ليننا، شدتنا، صدقنا، كذبنا، دأبنا، مثابرتنا، سهرنا، تضييعنا، توحشنا، لطفنا، وعيُنا، لامبالاتنا، اهتمامنا، تضييعنا، ابتعادنا، قربنا، درجة محبتنا واهتمامنا، درجة محبتنا وإهمالنا.

تعبت معظم الأمهات في جاليتنا كثيراً، بذلنا الكثير، ارتكبنا أخطاء كثيرة وكبيرة، عانينا من ضغوطًا نفسية وفكرية وجسدية قاسية، ما بين البيت والشارع، والأسرة والمجتمع، ومع حجم كل هذه الضغوط الهائلة على الجميع، كان الشعور بالغربة على الغربة يتنامى ويشتد، وكأنه شوكة مغروسة في القلب.

كانت أقدارنا لنا بالمرصاد، وكنا على الرغم من ذلك، واحدة من أنجح الجاليات التي رأيتها في الغرب، من جهة تعاملها

مع أبنائها ومحاولات الحفاظ عليهم وعلى هويتهم، تلك المحاولات حفظ الله بها كثيرين من أبناء السوريين والفلسطينيين، كونهم أقلية ضمن الأقلية المسلمة في إسبانيا، التي تتكون في غالبيتها العظمى من مُهاجري المغاربة[1].

ماذا يعني أن نحافظ على أبنائنا، غير أن يوفقنا الله لرعايتهم وخدمتهم؟

كان أتْعَسُنا، ذلك الذي أُوْكِل إلى نفسه، وظن أن باجتهاده وحده، يمكنه أن ينجو وأولاده، وأتعس منه، ذلك الذي مضى شوطًا بعيدًا في اجتهاده، ثم ظن أن لمهمة الأب والأم في الحياة نهاية.

***

نحن هنا مجرد أفراد غرباء في مجتمع نعيش مع أهله، ننتمي إليه بحكم وجودنا الفيزيائي فيه، وبنص قوانين الدستور والديمقراطية، على الرغم من كراهية الكثيرين من أفراده لوجودنا هذا.. الموجع لنا ولهم.

نحن هنا غرباء، غرباء بكل ما تعنيه كلمة "غربة".. غرباء نكره غربتنا ويرفضها الآخرون، معادلة مؤلمة، تشتد وطأتها كلما

---

(1) آخذين في الاعتبار المستوى الاجتماعي المتوسط، الذي كانت تتمتع به هذه الأقلية السورية والفلسطينية، في العقدين 80 و90 من القرن العشرين في إسبانيا، وأوضاعهم الاقتصادية المقبولة أو الجيدة/المرجع: موضوع الأطروحة في التربية الذي رُشِح لجائزة الدولة 2014 لأفضل أطروحة دكتوراه في إسبانيا.
"هوية، تعايش، ونجاح أكاديمي، لدى الشابات الجامعيات الإسبانيات اللاتي ينتمين إلى الأقلية المسلمة في إسبانيا" د. سلام ادلبي/كلية التربية/جامعة الكومبليتنسة، مدريد 2013- 2014.
Identidad, Convivencia y Éxito académico De las mujeres universitarias Españolasque pertenecen a la minoría musulmana .SALAM ADLBI 2013-2014 / Facultad de Educación - Universidad Complutense de Madrid

ازداد تمسك المرء بهويته، وكلما وجد أن الطريق مسدود بينه وبين وطنه الذي جاء منه.. هنالك يشتد البلاء، وتقسو الغربة.

نعيش في مدريد، على كرهٍ منا ومن أهلها، ولا نستطيع أن نعزل أنفسنا عن الجو النفسي العام الذي تعيشه مدريد، وأهالي مدريد، لا نستطيع إلا أن نفرح معهم أيام فرحهم، وأن نحزن معم أيام مآسيهم، وأن نعبّر عن إنسانيتنا التي لا يريد القوم أن يعترفوا بانتمائنا إليها.

تطورت مع الزمن صيغنا للتعامل مع الأزمنة والأشياء من حولنا، فإذا كنا ملزمين أن نعطل أيام العطل، فنحن غير ملزمين بمشاركة القوم صلواتهم، نتقاسم معهم الفرح وبهجة العيد، ولا نغرق في نصف كأس من ماء اختلاط الأمور في رأسٍ غير واضحة الأفكار.

وخصوصًا أن ثلاثة أرباع المدريديين أنفسهم، ما كانوا يحتفلون بالنابيداد إلا لمشاركة الأُسرة جَمْعَها وفرحتها، مدريد اليسارية الاشتراكية المدينة المفتوحة للجميع وعلى الجميع، كانت تحاول ألّا تلزم أحدًا بما لا يريد.

تلك الحقبة التي حكم فيها الاشتراكيون إسبانيا بأغلبية مطلقة، كنت أراها مشرقة، وحيدة، فريدة، واستثنائية في تاريخ مدريد.. وبقدر ما كانت السلطات السياسية متسامحة، مفتوحة الذراعين، تغدق الرغبة في التعايش والأمن على الجميع، بقدر ما كان المجتمع – في غالبيته – منغلقًا، عنصريًّا، وكارهًا للغرباء.

سعداءُ نحن برؤية الناس سعداءَ من حولنا في أمن وسلام، في أرضهم وبلدهم وبين أهلهم في بحبوحة ورخاء، تسرنا رؤية ابتساماتهم ورضاهم وفرحهم، لكننا لا نخلط الأوراق، ولا نميّع

القناعات، ولا نريد أن يعتدي أحد علينا ولا على عقيدتنا، كما لا ينبغي أن نعتدي على أحد ولا على عقيدته.

بعض الأسر الإسبانية، تبحث ليلة الميلاد عن "ميّتٍ من جوعه"، يدعونه تكرمًا وصدقة إلى مائدة العيد، يطبطبون على عوزه، يُهدِئون أنين الضمائر الحية بين جوانحهم.. كانت بعض الأُسر الإسبانية، تتبارى في هذا النوع من الأعمال التي يسمونها بالخيرية، ولربما دعوا إلى موائدهم، بعض الطلبة الأجانب من أصدقاء أبنائهم، كيلا يقضوا ليلة عظيمة عندهم كهذه، وحدهم.

لكن بعضهم الآخر، كانوا يكرهون أن يشاركهم المُهاجر ولو عن بُعد، فرحتهم وعيدهم، لا يريدون لأجنبي أن يفرح معهم، ولا أن تبهجه مَسَرَّتَهم، لا يريدون له أن يكون حيًّا يُرزق بينهم، عليه أن يمشي ملتصقًا بالجدار.. لا يبتسم لرؤية طفل صغير، ولا ينتشي بسماع زقزقة عصفور، ولا أن تَنْشُر الحبور في قلبه رؤية حبيبين يتبادلان نظرات اللهفة والمودة، ولا أن تضحكه مزحةٌ جماعية في غرفة انتظار الدور عند الطبيب، ولا أن يُعَبِّر عن فهمه ومشاركته لحديث الناس في الانتخابات العامة أو المحلية.. أنت غريب، قف بعيدًا، يكفي أننا سمحنا لك أن تعيش بيننا!

كانت تلك سنوات النمو والازدهار بالنسبة إلى إسبانيا، وسنوات قهر وإقصاء المهاجرين فيها.

لم يكن أحدٌ من المهاجرين يعترف بهذه الحال، خصوصًا السوريين والفلسطينيين منهم، الذين بلغ اعتدادهم بأنفسهم حدّ تقديسها، فلا يرى أكثرهم الحقائق، ولا يعترفون بأي شيء يخدش درجة هذا التقديس! كما لم يكن أحدٌ من الإسبان – إلا الندرة - يتجرأ في أي مكان على البوح بهذا الواقع الرنان، تنبض

به الأجواء، ناهيك عن وسائل الإعلام العامة المسموعة والمكتوبة، لكن الجو العام في إسبانيا بعامة، وفي مدريد بخاصة، كان مفعمًا بها.. أنت غريب، يجب ألّا يكون لك الحق في مشاركتنا البسمة، ولا حتى الهَمّ، ما دمنا مُرغمين على مشاركتك ازدهار اقتصادنا، والهواء الذي نتنفس!

***

في باص المدرسة الخاصة، مدرسة الراهبات الاستثنائية رفيعة المستوى، الذي كان يقل الطلبة، قد أصابهم الهَوَس، بسبب الانتصار الساحق الذي حققه فريقهم "ريال مدريد".. كانت هناك طالبتان في الصف الخامس والسادس الابتدائي، بنات جارتي "رجاء" السورية، حَمَلَتهما بهجَة اللحظة، وبراءة الطفولة، على مشاركة الرفاق احتفالاتهم في الباص، والغناء معهم بنشيد ريال مدريد.. "أولهْ... أولِهْ.. أولِه" – بمعنى قريب من "عاش عاش عاش"–.. فجأَة تقدمت منهن طالبة في الأول الثانوي، وأمسكت بالكبيرة منهما، هزتها بغلظة، رفعتها وألقتها بعنف شديد في مقعدها، وصاحت في وجهها: اخرسي.. أنت غريبة، لا نسمح لك بالاحتفال معنا بانتصارنا هذا! أنت لست إسبانيّة! ساد الصمت هنيهة في الحافلة، ثم مضى التلامذة في احتفالهم، وكأن شيئًا لم يحدث!

بقيتْ البنت أسبوعًا في البيت مريضة، لا تريد الذهاب إلى المدرسة، ولم يستطع الأبوان إرغامها على العودة إلى المدرسة، الأم فيكتوريا الراهبة المسؤولة عن شؤون الطلبة في المدرسة قالت على الهاتف: إنها مجرد مشادات عادية، كثيرًا ما تجري بين أولاد يستقلون الحافلة نفسها.. ليس هناك أيّ أهمية لهذا الموضوع، لا تُكَبِّروا الموضوع من أجل مصلحة أبنائكم.

ذهبتُ مع جارتي لترفع شكوى إلى إدارة المدرسة، جاؤوا بالطالبة، وجمعوها بالفتاة التي اعتدت عليها، وهي تكبرها بخمسة أعوام، قالت لها "رجاء" بأن ابنتيها مولودتان في مدريد، وهما إسبانيتان، وأرغموا الجهتين على التصافح والتسامح.

حادثة سيئة بين تلاميذ في الحافلة من المدرسة نفسها، هذا ما رددته المديرة أيضًا!

لكنها لم تكن كذلك.. كانت اعتداءً عنصريّا صارخًا على فتاة بريئة، حملت معها ألمها ذاك طويلاً، وحملت مع ألمها، ذلك الشعور بالانكسار والقهر و.. الغضب!

تلك الحوادث الفردية، المتكررة بين الحين والحين، في أرجاء مدريد، وعلى كل صعيد، كانت السماد المسموم، مهّد لاحقًا لموجات من العنصرية والكراهية المتبادلة، والتفاصل الخطير والكبير، بين الجاليات الأجنبية وأهل مدريد، خصوصًا وأن تدفق الغرباء لم يتوقف، وزاد من استفحال الوضع، قيام القوى السياسية اليمينية في إسبانيا، وقبل وصولها إلى الحكم، بحملة واسعة، لاستبدال الهجرات من جنوب أمريكا اللاتينية بالهجرات المغاربية، فبدأ مواطنو المستعمرات الإسبانية السابقة في أمريكا اللاتينية، يتوافدون بأعداد هائلة على إسبانيا، مما أجج مشاعر البغضاء والعنصرية فيها، بشكل غير مسبوق.

إذن لم تكن المشكلة في دين الغرباء، ولا ثقافتهم، ولا عدم تمكنهم من اللغة الإسبانية، كما كان يدّعي زعماء المعارضة المحافظة في إسبانيا، من وجهاء حزب الشعب، كانت المشكلة في روح الكراهية والبغضاء، المتمكنة من قلوب كثير من منتخبيه، الذين يشكلون نصف الشعب الإسباني، في بلد تتجاذبه قوى اليسار

واليمين، وتراوح سياساته وسياسيوه بين الحزبين الكبيرين، الاشتراكي والمحافظ، وبعض الأحزاب الصغيرة والقومية الانفصالية المحلية التي كانت تدور في فلكيهما.

"الكراهية" و"الرفض" و"الاستعلاء العنصري"، لم تكن مشاعر خاصة بقطاعات من الشعب المدريدي، المُستقبِل للهجرات رغم أنفه، لكنها بدأت تنتشر كذلك، انتشار النار في الهشيم، بين أبناء مختلف الجاليات، المهاجرة، التي تركت أوطانها على كرهٍ منها.

كانت السنابل صفراء يابسة في انتظار أن يرميها أحد الشياطين بعود ثقاب لتشتعل الأرض نارًا.

نزيف دائم مستمر في الأعماق، من أنت، ومن أنا، ومن نحن؟ معاناة قائمة باستمرار غربتنا تلك، على هامش تغير الحكومات، وتبدل الأوضاع الاقتصادية والثقافية في إسبانيا، ومرور حادثات الأيام ونكباتها الكبيرة بنا أو بالمجتمع الإسباني من حولنا.

معاناة دائمة بدوام وجودنا "موروس"[1]، غرباء في ديار الآخرين الذين ينعتوننا بهذه الكلمة، وينعتون المهاجرين الجدد المتدفقين من جنوب أمريكا، بكلمة تماثلها في معانيها ودلالاتها: سوداكاس"[2].. الآتون من الجنوب!

إنها كلمة، لا تقل قبحًا واتهامًا وأذى عن كلمة "موروس"، أعجب ما في الأمر، أن يسب بعضنا بعضًا الموروس والسوداكاس بهاتين الكلمتين! كانت الشقة تتباعد بين مجموعات المهاجرين، كما بينهم وبين المجتمع الإسباني، وبدا الأمر وكأنه قنبلة موقوته!

---

(1) جمع مذكر كلمة "مورو" باللغة الإسبانية.

(2) sudacas: الآتون من الجنوب، بحسب قاموس الأكاديمية الملكية للغة الإسبانية.

بدأ مجانينهم يُنظمون صفوفهم، ويشكلون فرق موت عنصرية، وشلل شبيبة ثائرة منتفضة، للدفاع عن الجالية اللاتينية، في مواجهة اعتداءات النازيين الصامتة تلدغ في خفة وتؤذي كالثعابين، في حين أن جل تفكير مجانيننا، كان ينحصر في إحداث أذى رنان، يولد الصدى الذي يمزق أغشية السمع لدى الجميع، وأولهم أبناء جاليتهم نفسها!

يتمدد الخوف، يَطبخ في النفوس الكراهية، على نار الجهل الموقدة، كنا نرى اشتعال الصدور بالقهر والشعور بالظلم، وانتهاك المجتمع الإسباني – والأوربي بشكل عام – كل قيمه، وشعاراته، ومبادئه، لدى التعامل مع المهاجر، بل مع ابنه، المولود في هذا المجتمع، والذي لا يعرف أرضًا ولا وطنًا غير إسبانيا، أنت ابنُ مهاجر، إذن: لا "أُخوَّة، ولا حرية، ولا مساواة"، وخصوصًا إن كنت متمسكًا بهويتك وبدينك.

اخلع على أعتاب أُوروبا كل شيء، لتمنحك شيئًا أو شيئين!.

واهًا لمن لا يستطيع تغيير لون جلده، ولا هندسة عظام وجهه.

الحوادث يومية، وانتهاكات حقوق الإنسان رنانة وعلى كل صعيد، وادعاء الخيرية والأفضلية مقزز، ترى ذلك في عيادة طبيبة نسائية، تكشف باحتقار ولامبالاة وامتهان بشع، على أمّ شابة مسلمة، جاءت ترى جنينها أول مرة وتسمع دقات قلبه، تراه في عيادة طبيب الأسنان، يعاملك باستقذار يجعلك تنسى معاناتك مع وخز آلاته، تراه في الأسواق التجارية الكبرى، وعيون الناس تتفحص كل ما اشتريت، مستنكرين قدرتك على شراء شيءٍ غير رغيف خبز تسد به جوعك، تراه في الباص، إذ تجلس وحدك ولا يريد أحد أن يجلس إلى جانبك، تلمسه في المدارس، حيث

يُعامل الأطفال من أبناء المهاجرين بالإقصاء والإذلال، تشعر به في الطريق، يمر بك القوم يتغامزون، يشيرون إليك بأنك ضال وغريب ودخيل، تسمعه من وراء ظهرك في ضحكاتهم وتندرهم عليك، تعيشه مع جيرانك يتمنون لو أنك لم تكن.

ترى وتسمع وتشعر وتعيش.. وأنت تمضي في حياتك، تشق طريق آلامك، تحمل "صليب" غربتك.

هم يعبدون المصلوب، وأنت وحدك هنا من يحمل الصلبان، تقطر الدماء من جبهتك، المغروسة فيها أشواك الكراهية والجهل المكعب والغربة.

إنها الغربة، وإنه التَّمَاس الحضاري الذي تعلمنا في بلادنا أن نحترمه، كما أنه وفي صميم تركيبتنا التربوية، أن نحترم الآخرين.. خصوصًا الشعوب التي استعمرتنا، شرقية أم غربية!

كان في الواقع، لزامًا علينا قبل ذلك أو معه، أن ندرك حاجتنا الملحة إلى أن نتعلم أن نحترم أنفسنا أولاً، وقبل أن نفكر في الآخرين!.

احترام ذواتنا كبشر مهاجرين غرباء، والحفاظ عليها كيلا تذوب في هذه المجتمعات الغربية، التي كان رد فعلها الأول على موجات الهجرة إليها – والتي تفاقمت بالتوازي مع تضخم وارتفاع فقاعة الازدهار الاقتصادي الرنان لعدة أعوام ما بين يدي القرن الواحد والعشرين – أن حاولت الانغلاق على ذاتها، شيئًا فشيئًا، لصيانة بصمتها الخاصة، والحفاظ على هوياتها القومية.

بَصْمَتَها.. التي طالما قاتلت وقتَلَت في سبيل نقلها إلى البلاد التي دمرتها.

وهويتها القومية.. التي لطالما فرضتها على شعوب الأرض، بقوة التوحش العابرة للقارات والأمم.. ثقافة ولغة.

لا يفهم المستعمِرون أن طريقهم لتدمير الآخرين، هو طريق ذو اتجاهين سالكين!

رغبة المجتمعات الغربية في التقوقع والانغلاق، وفضلاً عن أنها أصبحت في عالم اليوم شبه مستحيلة، جعلتها تعاني تقهقرًا إنسانيًّا وأخلاقيًّا خطيرًا، وهي المندفعة بسرعة الضوء في مدارات الثقب الأسود المخيف الذي يدعى بالعولمة، على هامش ما كان صناع الرأي فيها يسمونه "غزوًا بشريًّا"، تركز على المهاجرين، وعلى المسلمين منهم بشكل خاص، متهمة إياهم في إسبانيا، أنهم يريدون استعادة الأندلس! وضرب قيم الحضارة الغربية، واختراق نسيج البلاد الثقافي!

بلاد جعلت دينها وديدنها، تنافسًا ماديًّا ساحقًا، شكّل عجلة جبارة، تسحق في طريقها أولئك الضعفاء والفقراء والمساكين، من أهلها أنفسهم، فضلاً عن المهاجرين والغرباء، وكل من لا حول له ولا قوة للوقوف في وجهها أو أن يدخل في لحمة دوامتها الهائلة فيتلاشى.

*****

كأنه لا يكفيني أنني مورا في مدريد، وما أنا فيه من غربة وكربة، حتى نزلت بي الأقدار فأصبت بمرض في القلب، وعلى وجه الدقة.. اكتُشِف مرض القلب الذي يبدو أنه كان قد أصابني منذ كنت في الخامسة من عمري! الحمدلله حمداً كثيراً يوافي نعمه، فمرض القلب مرض معروف، أي إنه مرض محترم، وليس من أمراض هذه الأيام، التي تشيب لمجرد سماع أسمائها الوِلدان، سِلٌّ في القدم اليمنى! اِلتهاب في البصلة السيسائية! تجرثم في جذور الضفيرة الوركية! وأشياء من هذا القبيل، مما يتبارى الأطباء في اختراع صيغ وألفاظ لتسميتها، ويتسابق المرضى في ادّعائها وانتحال أعراضها وآلامها، في مدريد، كما في دمشق.. فالأمراض متشابهة، وسلوك البشر فيما يخصها متشابه.

ذهبت إلى طبيب القلب في الموعد المحدد، كانت غرفة الانتظار في قسم العيادات الخارجية القلبية، في مشفى السلام المدريدي الشهير، ممراً طويلاً تتفرع على جانبيه غرف العيادات، والغرف التي يقاس فيها نبض القلوب، وتحصى في أجهزتها حركاتها وسكناتها.

يصطَفّ المرضى على الكراسي عن يمين الممر ويساره، وجوه شاحبة ونظرات زائغة، قد أسند كل منهم رأسه إلى كتف مرافق له، ووضع يداً على قلبه والأخرى على حافظة نقوده.

كنت أصغر من أصغرهم سِنًّا بثلاثين عامًا على الأقل، أما مرافقتي فقد كانت ابنتي الصغيرة، أتمت عامين من عمرها للتوّ.

أتقدمُ على استحياء وأجلسُ بينهم، وقد وجدوا في رؤياي ما يسليهم ويجذب اهتمامهم، كما يجذب المغناطيس الحديد.. تدب الحياة فيهم على حين غرة، وتبدأ الهمهمة والهمس واللمز والتوفز والاستعداد لخوض "المعركة"!

كان الإسبان يشبهوننا إلى حد بعيد، يمكننا القول إنهم نسخة منقحة ومصححة عنا اجتماعيًا، كانت الصورة الشعاعية للشخصية الإسبانية في هاتيك الأيام، تشبه إلى حد كبير، تلك التي يمكننا الحصول عليها للشخصية "الناطقة بالعربية" في سورية.. نفوسٌ زاخرة بالحياة، بالحركة، بالدفء، بالكرم المادي والمعنوي، بالرغبة في التواصل، بترك بصمة اجتماعية فارقة.. بالتطفل، بالحِشرية، بتلك الزغزغة تدغدغ حب الاستطلاع، لمعرفة المزيد عن هذا الآخر، ليس لمجرد المعرفة فحسب، بل.. لعلنا نُعَلّمه، نساعده، نفهم منه ماذا يريد؟ ونفهمه أننا متقدمون عليه!.

أُخْرِجُ نظاراتي التي لا أسمع ولا أرى إلا بها، والتي أستعملها كدِرْعٍ واق ضد نظرات الإسبان الواخزة المؤذية، وكتابًا لــ "أنطونيو غالا" عَنْوَنَهُ "الوحدة الرنانة"، خصصته لهذه العيادة، فأنا أخصص لكل عيادة أذهب إليها كتابًا أقرأه أثناء عذابات الانتظار – وكانت في تلك الأيام تمتد في عيادة طبيب القلب إلى أربع ساعات - وذلك اغتنامًا للوقت الذي لا أحب أن أقتله بالتأفف والزفرات، وحتى يقال: هذه "مورا" مثقفة متحضرة، ولكن وعلى الرغم من هذه الجهود الجبارة، فإن أحدًا ما كان يدعوني إلا بالمورا، فحسب!.

بعد انتظار أربع ساعات بالتمام والكمال، رأيت فيها الأهوال، وما استطعت قراءة إلا ثلاث صفحات من الكتاب، الذي سقط من يدي أكثر من عشرين مرة، وأنا أرعى ابنتي طوال الوقت، أعطيها رضعة الحليب، ثم وجبة الطعام، أبدل ملابسها مرة بعد

مرة، والمسكينة تتلوى مع هذا الانتظار الطويل، جالسة مشدودة إلى العربة، أحملها، أُمَشّيها، ألاعبها، أقرأ لها كتابًا.. تنام، تستيقظ، أخلع ثيابها، أحاول أن أغسل لها وجهها، فالحر شديد جدًّا، وقد رفع أهل المستشفى درجة حرارة التدفئة، إلى ما يضطر معظم المرضى إلى خلع ملابسهم قطعة قطعة، حتى يجلس بعضهم بالقميص الداخلي، ينتظر وينظر إليّ مغتاظًا وهو يُتمتم: هؤلاء الآتون من إفْريقِيَّة يحتملون الحر لأنهم معتادون عليه!

بعد هذا الانتظار كله خلال هذه الساعات كلها، التي نرى فيها أنا ورفاقي من عجائز المرضى، الأهوال، وقد ابتُلينا بالتذمر، والتأفف، والإحباط، ثم باليأس، ثم الشعور بالتمرد، ثم الثورة، نقرر بعد همهمة ودمدمة وأخيرًا.. أن نعترض، كان الإسبان في هاتيك الأيام، لا يُؤْثِرون الاعتراض السريع لدى أي صاحب سُلطة! ولا الشكوى غير المبررة.

كان الشعب حديث عهد بالديمقراطية، فرحًا بها، يرعاها الناس كما يرعون أبناءهم، ويحرصون عليها حرصهم على حياتهم، يخافون عليها أكثر من رغبتهم في ممارسة حريتهم وتعبيرهم عن آرائهم، ما كان الناس في تلك الأيام يتسرعون في غضبهم، إلا بعد تمحيص، وتدقيق، وتمهل، ومصابرة، وصبر.. وخصوصًا وأن زملاء العيادة من المرضى، هم من أبناء الستين والسبعين والثمانين.

يقول الإسبان عن وضعنا كأمهات شابات، أنه مريع وفظيع، وخصوصًا أننا نعيش بعيدًا عن أمٍّ تساعدنا وتمد إلينا يد العون، وعن أبٍ يحمل معنا مسؤولية الأطفال، وجدٌّ وجدّة يأخذانهم من المدرسة ويعطيانهم العصرونية[1] في الحديقة ريثما تخلد الأم إلى

---

(1) **عصرونية**: كلمة عامية تعني وجبة الطعام الثالثة التي تعطى للأولاد عادة عصرًا وفي الحدائق والملاعب.

الراحة والاعتناء بنفسها قليلاً! ما كان الإسبان يعرفون أننا في الشام وفي هاتيك السنوات، لا نعرف كثيرًا عن هذا، تتزوج البنت، فتفقد علاقتها الطبيعية بأهلها – إلا من رحم ربي– الأم والأب والإخوة يصبحون جميعهم غرباء في حياتها الزوجية، لا تصلهم بها إلا المناسبات والأعياد والهواتف اليومية بين الأم وابنتها، وتقتصر علاقة المرأة بأهل زوجها على خدمتهم ورعايتهم، واحتمال شكواهم وسَقِّهِم ونَقِّهِم الدائب على رأسه لكي يرى عيوب زوجه، المقصرة بالنسبة إليهم أبدًا في كل شيء! وأما الأزواج أنفسهم في دمشق فلا يعرفون ماذا يعني تقديم العون والمساعدة في تربية أبنائهم، وكأن معظمهم لم يُجعلوا آباءً إلا لتثبيت ألقابهم لدى أبنائهم!.

كل المسؤولية تقع على عاتق المرأة فحسب.. وليس لمن حولها إلا الشكوى ومطالبتها بأن تكون "المرأة الخارقة"، ترعى خمسة أطفال على الأقل، تقوم على شؤون البيت، من طبخ ونفخ وغسل وشطف، وتمتثل لأوامر الزوج، كإنسانة آلية يجب أن تتحرك بما يأمرها وينهاها، فضلاً عن خدمة الحماة والحمو – إن وجدا – وقيامها بالواجبات الأسرية والاجتماعية، لإرضاء أهل الزوج وأصدقائه وأقربائه وجيرانه وزملاء عمله! بالإضافة إلى أن كثيرات في دمشق، يقمن إلى جانب مهامهن التعجيزية هذه، بواجب العمل والمساعدة في إعالة الأسرة!

كانت معظم النساء في دمشق، في هاتيك الأيام لا يجدن أي نوع من أنواع المساعدة العائلية، التي تتمتع بها النساء في إسبانيا.

وما تعيشه معظم الأمهات الشابات في ذلك الوطن، لا يختلف كثيرًا عما يعانينه في الغربة، الأُسرٍ هنا تعيش ضمن بوتقة جالية تتحرك كلها في اتجاه واحد، إذا ما تعلق الأمر بالنزهات

والرحلات والنشاطات العامة والخاصة الخرقاء في معظمها، أما ساعة الحاجات الملحة فإنك لا تكاد تجد أحداً يمد لك يد مساعدة، أو يقف معك في محنة حقيقية، أو يقوم تجاهك بما يمكن أن يقوم به الأخ الشقيق، إلا القلة النادرة الاستثنائية.

مجرد التفكير في هذا يجعل القلب يكاد أن يخرج من الجوف قهرًا وحزنًا.. كانت طبيعة التعامل بين نساء الجالية، تشبه إلى حد بعيد طريقة تعامل معظم الأرحام فيما بينهم في سورية.. أخلاق كالحسد والتنافس السلبي وبخل النفس، كانت تحكم معظم العلاقات.

وضعي مع ابنتي الرضيعة المسكينة في ذلك الرواق، حيث الضجيج يبلغ حدًّا لا يطاق، والحرارة تصل درجة الاختناق.. كان مؤلماً حقًّا، رضيعة صغيرة لا ينبغي اصطحابها إلى المستشفى، كما لا يمكن تركها مع شغالة تحتاج هي إلى الرعاية والتوجيه، كان معظم الناس في جاليتنا لا يثق بعضهم ببعض، إلى درجة تخوفهم من ترك أولادهم لدى بعضهم! مخافة أن يتفلت لسانهم بأسرار البيوت!.. كما كانوا يمنعون عنك المساعدة ومجرد طلبها!

دبر نفسك.. فهذه إحدى فروع "حارة كل مين إيدو إلو"[1]! امتدت تلك الحارة البشعة، ولحقت بنا ونشبت أظافرها في أكتافنا، على الرغم من الغربة والبعد.. فكأننا لم نتغرب ولم نبتعد.

لا أحد غيري هنا في غرفة الانتظار، يجد ما يعكر صفو انتظاره وغفوته، من التفكير في راعية أطفال لم تتجاوز السادسة عشرة من العمر، اضطررت أن أترك معها أولادي، ولا ما يقلق راحتهم، من اقتراب موعد الغداء، وانتهاء دورة الغسالة، وضرورة

(1) مصطلحٌ شامي يعبر عن حالة الأنانية، وتفسخ المجتمع، وعدم قيام بعض أفراده بواجباتهم تجاه بعض.

تلبية حاجات أسرة "كبيرة"، كأسرتي المؤلفة من خمسة أفراد!

لا مصير الغسيل المنشور خوف نزول المطر، ولا صحون الجلي التي تنتظر التنظيف، ولا هذه البنت الإسبانية نصف المجنونة التي تساعدني على أعمال البيت، فلا تقوم بعملين معًا –كما قالت – فإما رعاية الأولاد في غيابي، وإما غسل الصحون! وهذه نفسها هي التي تحسدني على استخدامها – أربع ساعات في بيتي أسبوعيًّا – نساء الجالية المبجلة في مدريد، وينعون علي أنني أُحَمِّل زوجي من المصروفات ما هو فوق طاقته، وما يفتأن يغمزن ويلمزن بسبب مرض قلبي، حتى إن حماة إحداهن التي تأتي للزيارة كل صيف، وكانت تؤدي دور حماة الجميع، قالت لي بلهجتها الحمصية الجميلة، تداعبني أمام جمع حافل:

- الله يكون بعون أبي ساجدة.. يا ترى كان بيعرف قبل ما يخطبك، إنك مريضة بالقلب؟ مسكين والله، شو أهلك قالوا له إنك مريضة، أم أخفوا عنه مرضك!

- لا والله يا حجة أهلي ما كانوا يعرفون بمرضي هذا، الذي لم نكتشفه نحن أنفسنا إلا قبل عام!

- لا... أكيد أهلك عارفين وخبّواع الزلمة مشان يُنَفِّقونك!

- طبعًا يا حاجّة أَجَلّكِ الله، أنا كنت عند أهلي بقرة، واضطروا يخبوا على زوجي، لكي يتخلصوا مني، وأنت يا حاجّة؟ هل كان أهلك يعرفون بمرض السكر، والضغط، والقلب، والروماتزم، والكبد، والبحصة، المصابة بها؟

- شو عم تقولي؟ أنا كنت مثل الفُلّة، هو أبو الأولاد الله يرحمو عاد، راح لعند اللي خلقه، هو الذي تسبب لي بهذه الأمراض كلها!

- يا حاجّة اتقي الله، أين الإيمان بالقضاء والقدر، والمحنة والابتلاء؟ الأمراض يا حاجّة كلها، تكون كامنة عند الإنسان، وتخرج مع تقدمه في العمر، ومعظمها يرثها الناس، ويولدون بها.. ثم لماذا لا يكون أبو أولادي هو الذي تسبب لي بهذا المرض، كما فعل أبو أولادك؟

- لا.. لا.. لا أعوووووذ بالله، أنا كنت مثل الفلة، ما فيي عيب ولا مرض، أعوذ بالله.. ثم ماذا تقولين؟ زوجك مثل السُكّرَة لا يمكن، لا يمكن، ما هو طبيب فكيف سيأتيك بالأمراض؟

بعدين مسكين هو شووو قال؟[1].

- وماذا سيقول يا حاجّة... قال إنه سيعيدني إلى أهلي، ويطلب منهم عطل وضرر! ويمكن يطلقني قريبًا ويخطب واحدة ثانية! عندك عروس مستكملة الشروط يا حجة؟! ولكن هذه المرة سيقوم بطلب كشف عن صحتها بالتفصيل، وسيجري دراسة جينية، دفعًا للاحتمالات المستقبلية، ولن يكتب الكتاب، حتى يتأكد من سلامتها من العيوب والأمراض، واحتمال الإصابة بها، يعني الكشف لازم يشمل أمها وأباها وإخوتها، أنت عارفة يا حاجة، أهل الشام لا يمكن أن يخطبوا لأبنائهم أي بنت عندها أي أخ مريض، أو أخت مصابة بشلل الأطفال، أو عمٍّ عنده روماتزم، أنت عارفة يا حجة أهل الشام كلهم خرطهم الخراط وقلب مات!

- يا لطيف يا أم ساجدة شو بتحبي المزح والضحك.. والله موتيني من الضحك.

(1) كلمة عامية مُحوّرة عن كلمة "إيش" وأصلها "أي شيء قاله"، أو "أي شيء فعله".

كنت هناك في غرفة الانتظار، الوحيدة الجديرة بالاعتراض، أو على وجه الدقة كنت المرشحة لقيادة حملة الاعتراض، التي لم نخرج منها بشيء، غير مزيد من الوجوه الجلطة الطويلة، ونظرات الاحتقار لأمثالنا من المرضى، لا ذنب لهم إلا أنهم أصيبوا جميعهم بشيء في القلب، واجتمعوا في هذا الممر، حفتهم فيه الزفرات، والآهات، وغشيهم فيه ما غشيهم من الأطباء والممرضات، يتفننون في قرع قباقيبهم الطبية على الأرض الصقيلة، وقع موسيقاها الأثومة يسقط مباشرة على شغاف قلوبنا المكلومة.. كلما دخل أحد وجهاء تلك العيادات أو خرج صفع الباب وراءه صفعة، توقظ كل خلية من خلايا دماغ هؤلاء المرضى، الذين استسلموا للنوم شيخوخة أو إرهاقًا أو سأمًا.

أخيرًا وجهًا لوجه مع طبيب القلب، يُحَدِّجُني بنظرة من أعلى حجابي إلى أخمص حذائي، ثم يستدير ويقول لي بقرف شديد: من أي منطقة من إفريقية أتيت؟

أجيبه وأنا أشد منه قرفًا: أنا من دمشق، ودمشق تقع في آسيا.

يصيح على حين غرة: ومتى ستوقفون هذه الحرب المشتعلة هناك؟

أصيح مثله: في سورية لا يوجد حرب.

يقول وهو يعرب عن اطلاع واسع: بلى في لبنان حرب، حربٌ رهيبة طاحنة!

- بيروت ليست في سورية.

يقول وهو يقلب الأوراق، ويعلق جزءًا من عشرة أجزاء، من ابتسامة ساخرة على طرف شفته السفلى، وفي سخرية واضحة:

– أووووه من فضلك! ماذا تقولين؟ طبعًا بيروت في سورية؟؟! اقرئي الصحف لتعرفي أن بيروت في قلب سورية؟ اسألي أخا رئيسكم عن ذلك، وميليشياته المسلحة، التي تحتل لبنان للقضاء على مسيحيي الشرق!.. كل بلادكم مثل بعضها، كل حكوماتكم متعفنة، وكلهم ضالعون في هذه الحروب التي تجري شمالاً وجنوبًا وشرقًا وغربًا، في كل دولة من دولكم، سيأتي الدور على سورية وستشهد حربًا فظيعة.

– الحرب في لبنان، حرب دولية، تديرها دول العالم هناك، بأشلاء ودماء اللبنانيين والفلسطينيين، الموضوع لا يتعلق بمسيحيين ولا بمسلمين.

ينظر إلي مرتابًا، يسكت.. يفكر قليلاً، ثم يعود إلى الصياح بي من جديد، مستفسرًا وهو يقرأ التقرير الطبي الذي أمامه.

– ولكن ما اسمك بالضبط.. فناس.. كأناس.. سيبات.. نابال.. ما اسمك؟

أكتب له اسمي بوضوح، على ورقة كانت معي وأعطيه إياها، فيتمتم، ثم يسأل من دون أن يرفع رأسه: وتعرفين الكتابة بالإسبانية؟ ويستدرك: من أين جاءك مرض القلب؟

فأقول على الفور: من العيش في إسبانيا!

يرفع رأسه غاضبًا ويرميني بنظرة قاسية، فأتبسم ابتسامة صفراء لا معنى لها خوفًا منه، يعود يقلب أوراقه، ثم يصرخ من جديد، معتبرًا أنني لا أفهم عليه إلا إن رفع صوته، كما يفعل كل الإسبان مع الأجانب، كأن رفع الصوت يوصل المعنى لإنسان لا يعرف لغتك:

– ثمانية وعشرون عامًا ولديك ثلاثة أطفال؟ إذًا كم من الأولاد ستكونين قد أنجبت، عندما تكونين في الأربعين؟ أين هو

هذا المجرم زوجك؟ لماذا لم يأت معك، وتركك تأتين مع هذه الطفلة المسكينة وحدك إلى المشفى؟

يرمق طفلتي بنظرة لطف وإعجاب، ويسأل: أم هي ولد ذكر؟ إياك أن تقولي لي، إنك ستستمرين في إنجاب البنات حتى يأتيك الولد! هذا ما قالته لي سيدة سورية زارتني في عيادتي، سبع بنات وهي حامل، قالت، إنها لن تتوقف عن الإنجاب حتى تُرزق بالصبي، وإلا فإن زوجها سيتزوج عليها من أجل أن يكون لديه صبي! أنتم قوم مجانين، مختلون، وفوق هذا لا تؤمنون بالرب... لو كنتم تؤمنون به لعرفتم أنه هو الذي يرسل الأولاد أو البنات، ولتوقفتم عن هذا العبث بحياة البشر، تخلفونهم في الشوارع للجوع والتشرد.

لا جواب لدي، فما قاله حق، وأنا مؤمنة به تمامًا.

مُسْكِتٌ قول الحق.. مُلْجِمٌ الغيظ من كلمة الحق في أفواه الثقلاء.

يتشجع الرجل، ويمضي بصوت أقل حدة:

- أنا فعلاً غير قادر على الفهم! كيف تستطيعون إنجاب الأولاد بهذا الشكل؟ كيف تستطيعون القيام بواجب تربيتهم؟ كيف يأخذ كل واحد منهم حظه من العطف والحنان والعناية والاحترام، وهم متراكمون بين أيديكم ككتل من لحم مُضَيَّع؟ هل تفكرون في مستقبلهم؟ هل تعرفون كم هي كلفة تنشئة كل ولد وتعليمه؟!.. لا... لا تقولي شيئًا! لقد زرت المغرب وزرت سورية، ورأيت بعيني هذا الوضع، كان عندي طالب سوري لديه أربعة عشر أخًا، أمهم لا تكاد تعرف واحدًا من واحد منهم!.. لا تقولي لي دمشق وآسيا وإفريقية... كلكلم واحد متشابهون!

يأخذ نفسًا عميقًا.. ويتابع: طبعًا... أنتم لا تفكرون في شيء من ذلك كله، تنجبون وترمون الأولاد في الشوارع، ثم إن على أوروبا أن تحتمل كل هذا الغثاء!

من دون أن ينظر، يلمح خارطة القهر التي ارتسمت في وجهي، بعد هجومه ذاك على مريضة تزور عيادته، يصمت وهو يكتب التقرير[1]، ومن دون أن يرفع نظره نحوي، تركني مع هواجسي عشر دقائق مرت طويلة جدًّا، وهو يتفحص تقارير الإلكترو والإيكو وتحليل الدم.

كنت أتفحص قسمات وجهه، يعرف أنني أرنو إليه في تحد وقهر وغضب، فلا ينبس ببنت شفة، أتشاغل عنه، أتجول ببصري في الغرفة، فأجد اللوحة التي على مكتبه مكتوب عليها: البروفسور "دل الكاستيو"[2] أخصائي أمراض وجراحة القلب رئيس قسم العيادات الخارجية .

لم يكن رجلاً سيئًا "دل الكاستيو" هذا، لم تكن ملامح وجهه تنم عن حقد وسوء نية، ربما يظن أنه بهجمته التوبيخية تلك، على شابة مصابة بمرض في القلب في عيادته، سوف يغير مصير الإنسانية!

أرفع رأسي فأتفاجأ، بصورة صغيرة علّقها على الحائط وراء كرسيّه مباشرة للمُنَجِم "رابييل".. المتَنَبئ الإسباني الشهير! وهو أحد الذين تنبؤوا بغزو المسلمين لإسبانيا عام الألفين وإعادة احتلالها! أشعر بخيبة أمل شديدة في البروفسور، أستاذ الجامعة الكبير الصغير "دل الكاستيو" هذا، صغير الجسم، عظيم العلم، صعب المراس،

(1) في تلك الأيام كانت تقارير الأطباء تكتب باليد، ولم تكن التقنيات قد دخلت كل مناحي أجهزة العناية الصحية في إسبانيا، فأحدثت فيها ثورة.

(2) Del castillo لقب عائلة إسباني عريق ،يعني بالعربية: "سيد القلعة".

سخيف التطلعات، تتنازعه مشاعر الغضب والرفض لهؤلاء الموروس، لكنه يحاول أن يغلفها بادّعائه الغيرة على مصلحتهم.. وبمشاعر أبوّة قاسية كريهة، يريد من خلالها حلّ مشكلته هو، وليس مشكلتي أنا!.

كان ذلك، الدكتور "دل الكاستيو" طبيب "قلبي" خلال السنوات اللاحقات، والذي كان يبدو أنه من أكثر الأطباء الذين عرفتهم إنسانية ونبلاً، وما خلا طبيبين اثنين فقط، هما طبيبة أطفالي، والطبيب المختص بأمراض التحسس لدى الأطفال، فإن معظم من عرفتهم من الأطباء والممرضات، في مجمل العيادات التي يمكن أن ترتادها أمٌّ لعدة أطفال خلال الأعوام الأولى من أعمارهم، قد دفعوني بتصرفاتهم المؤذية، لاتخاذ قرار شخصي "تاريخيّ"، بترك مراجعة أي طبيب خاص بي على أرض إسبانية، خلال خمسة عشر عامًا قضيتها أعالج نفسي في البيت، اتقاءً لشرورهم وأذاهم.

يرفع الرجل رأسه بعد ساعة من الزمن، وقد ظننت أنه نسي وجودي، ويسألني في عصبية ونزق: ماذا تعملين؟ أجيبه لأغيظه: إنني أفكر!

فيسألني من جديد بتأفف: أسألك عن مهنتك؟ هذا إن كان لديك مهنة؟

قلت: نعم.... .

وقبل أن أتم العبارة التي كنت أنوي التلفظ بها، يقاطعني بعد الـ"نعم" ويكتب في التقرير.. "عاملة تنظيف".

أتفرس في وجهه في عناد، وأقول له في حنق وتشف: أنا كاتبة!

يرفع رأسه ويثبت نظارته على أنفه، يتردد ثم يقول: وأي شيء هو هذا؟

أقول في هدوء شديد: كاااتبة... وأهجئ له الكلمة بالإسبانية حرفًا حرفًا!

"كاتبة".. المهنة التي أزاولها في أوقات فراغي، أو الموهبة التي أحملها منذ وعيت أنني أحيا في هذه الحياة، أو "البلاء" الذي وُلدت متلبسة به، أو "العاهة الخَلقية" التي أتعايش معها! "كاتبة".. الشيء الذي فهمته وتعلمته عن نفسي منذ وصلت هذه البلاد، أخذني "أبو ساجدة" لزيارة المركز الثقافي الإسلامي في غرناطة، وهناك وعلى المنضدة المتواضعة التي جلسنا إليها، تناول عددًا من "مجلة الرائد" الإسلامية الألمانية، وقال لي مازحًا: هذه هي المجلة التي ستكتبين فيها طوال حياتك!

بعد عامين، عندما زرنا "عصام العطار"[1]، و"نبيل شبيب"[2] في ألمانيا، كانا يتوجهان إلي بالكلام على أنني "كاتبة"، وكان الأستاذ الشيخ يتحدث في جمع من الناس عن الكتابة والكُتّاب قائلاً: "نحن" معاشر الكتّاب أنا وأم ساجدة ونبيل!

---

(1) عصام العطار، القيادي الإسلامي، والبرلماني السوري السابق، أحد كبار رجال سورية من جيل مصطفى السباعي ونزار القباني، وكان قد غادر دمشق للحج فمنعه النظام البعثي من العودة، قام رجال النظام بقتل زوجته "بنان علي الطنطاوي" وهي في بيتها في مدينة آخن الألمانية حيث انتهى بهم المطاف، عندما اقتحموا البيت فلم يجدوه، أديب، شاعر، كاتب، داعية إسلامي، مثقف كبير.

(2) نبيل شبيب الفلسطيني - السوري، الكاتب الصحفي، والمحلل السياسي، والأديب، أحد أهم تلامذة العطار ومرافقيه، رئيس تحرير مجلة "الرائد الإسلامية" الرائدة في أُوروبا خلال أكثر من عشرين عامًا، كانت فيها منارة علم، وتوجيه فكري، وأدبي، وسياسي، وثقافي لشرائح واسعة من المسلمين في الغرب.

أمران كنت أجهلهما عن نفسي في دمشق، اكتشفتهما هنا في غربتي، **أولهما**: أنني كاتبة، مدينةٌ أنا لإسبانيا، ولأبي ساجدة، ولعصام العطار، ولنبيل شبيب، بأنني أصبحت أعرف وأعترف لنفسي بأنني كاتبة.

والثاني: أنني إنسانة!.. ولإسبانيا في ذلك العرفان والامتنان، ففيها أدركت أنني إنسانة، وأن معاملتي لنفسي كإنسانة، ينبغي أن تتقدم على أيّ صفة أخرى.. إنسانة قبل أن أكون مواطنة، أو امرأة، أو زوجة، أو أم، أو سورية، أو وافدة، أو غريبة أو كاتبة.. اكتشفت هنا أبعاد إنسانيتي، على الرغم من كل تصرفات الإسبان، التي وبِوَعيٍ أو من دون وعي منهم، بقصد أو من دون قصد، كانت تَنْتَزِع من الغريب إنسانيته انتزاعًا، وترمي به في دياجير شعوره بأنه مُنْسَلِخٌ ومختلف وغريب!

عرفت هنا في غربتي أنني "كاتبة"، على الرغم من أنني أتيت من سورية، ولديّ كتاب مطبوع، ويباع في أسواق بيروت والرباط والرياض، منذ كنت في الثامنة عشرة من عمري، ومسوّدة كتاب آخر حملتها في حقائبي، اصطحبتها معي إلى إسبانيا على الرغم من الخطر، والمخاوف الهائلة التي يمكن أن تعترينا، من حمل هكذا وثيقة مخطوطة إلى خارج البلد، في أيام القلاقل والمجازر والملاحقات والاعتقالات التي شهدتها سورية، تلك الحقبة التي غادرتها فيها في آخر أسبوع من عام 1980.

كان مجرد اكتشاف تلك الأوراق في حقيبتي، لدى مغادرتي سورية، كفيلاً بتحويلي إلى السجن الرهيب مباشرة، لكنني لم أستطع إلا أن اصطحبها معي، تلك كانت خواطري، كتبتها خلال أعوام الجامعة، المريعة، الغنية، الثرية، والعصيبة.

في دمشق كنت مجرد "بنت مشاغبة"، "مثيرة للمشكلات"، "ذات حماس وتوفز"، أسماء كهذه تطلق في دمشق، ليس على البنات من أمثالي فحسب، بل على كل صاحب موهبة، من المحافظين، أو من المتدينين، أو من غالبية هذا الشعب المحروقة أنفاسه، وما لم تكن شيوعيًا مواليًا، أم معارضًا للنظام، أو بعثيًّا، أو تنتمي إلى إحدى الأقليات في البلد، فأنت كصاحب موهبة، غريب الأطوار، يقتلك ناسُك من حولك، بحشر أنوفهم في كل صغيرة وكبيرة في حياتك، التي تدفعهم هذه الموهبة اللعينة لنشرها على حِبال ألسنتهم! يخنقك المجتمع الدمشقي المتعفن، قبل أن تعلم الدولة بوجودك، وقبل أن يُعتقل من سولت له نفسه شراء نسختين من كتبك اصطحبهما معه من بيروت، ليرسل إليك رجال المخابرات معه برسالة مفادها، أن يدك التي تكتب بها، سواء أكانت اليمنى أم اليسرى.. ستكون نهايتها في مفرمة "آلة الكُبة"، التي يستعملونها في أقبية التعذيب لمثل هذه المناسبات!

يسألني الطبيب قاطعًا علي سياحة أفكاري: كاتبة على الآلة الكاتبة؟

قلت له متشفيّة: بل كاتبة، ك.. ا... ت.. ب.. ة... كاتبة مقالات وكتب. !E.s.c.r.i.t.o.r.a.

يتساءل باستغراب شديد: كتب؟ كتب؟

أجيبه: نعم يا دكتور.. آسفة جدًّا، لكنني كاتبة كتب.. لدي كتب مطبوعة إلى جانب البنات الثلاث، وأكتب في ثلاث مجلات.. على الرغم من أنني في الثامنة والعشرين من عمري!

يتمتم ويوشوش في غيظ واستسلام: ما ظننت أن امرأة مسلمة يمكنها، أو يمكن أن يتركوها، تفعل شيئًا غير إنجاب الأولاد وتنظيف البيوت.

في هدوء وقد أشفقت على شيبته، أُعَلِّقْ: كثيرة هي الأشياء التي لا يعرفها بعضنا عن بعضنا الآخر يا بروفسور.

يمتعض الرجل ويشعر بالخزي، ولعله يخاف أن أسجل حديثه معي، في أحد مقالاتي أو كتبي ذات يوم، يقول: في أيّ حال، لديكم الكثير مما يجب عمله لإنقاذ بلادكم.. لا تتفلسفي عليّ بأنك من سورية الأسد المجرم.. والشعب الساكت! ستنفجر بلدكم هذه التي تفخرون بها يومًا ما، أنا أعرف الكثير عنكم، هوايتي الاطلاع على أوضاع الناس في البلاد المقدسة.

أجيبه بنبرة تصالحية: أوافقك الرأي يا دكتور، ونسأل الله اللطف والسلامة بسورية وأهلها.

أرى خارطة الألم التي كانت على وجهي وفي قلبي، تنتقل إلى وجه الرجل، البروفسور، أستاذ الجامعة الكبير، الصغير، عصبي المزاج، طيب القلب، سيّئ الخلق.

نحن بشر، مجرد بشر يتألمون، يسألون، يبحثون عن شيء يتمسكون به من حق أو حقيقة.

يقول لي في نبرة أبوّة، وبصوت مقهور، وهو يتشاغل بفحص الصورة الشعاعية لقلبي: لديك صمام مصاب في القلب إصابة طفيفة جدًّا، لكنك شابة وقوية، ولا أجد أي حاجة لمناقشة أي شيء يتعلق بعملية جراحية، قبل مضي ثلاثين عامًا على الأقل، خففي من أكل الملح، وامشي كثيرًا، ومارسي الرياضة، وإياك أن تنجبي المزيد من الأولاد.. وقبل ذلك كلّه، غيّري مهنتك،

واتركي الكتابة، لترتاح أعصابك، وقللي من الكلام.. فإن لسانك طويل ومخيف!

ابتسمت على مضض، شكرت الدكتور "دل الكاستيو"، ودفعت عربة طفلتي التي أنهكتها مرافقتي، إلى عيادة طبيب القلب، والتفتُّ إلى البروفسور وأنا خارجة من عيادته، وقلت له وأنا أنظر إلى صورة المُنَجّم وراءه:

نسيت أن أخبرك يا دكتور، أن زوجي لم يستطع مرافقتي اليوم لأن لديهم عمليات مبرمجة، في مشفى "ختافة"، ولم يستطع الاعتذار لمرافقتي.

لم أترك تناول الملح لأنني وجدت الطعام من دون ملح لا طعم له ولا بهجة، مُحْبِط يسبب الاكتئاب.

كما لم أستطع ممارسة الرياضة، لأنني لم أجد مكانًا أمارس فيه الرياضة، من دون تحرش وإيذاء وضغوط هائلة، ممن يمارسنها معي من نساء الحي والجيران، مما حملني على ترك النادي الرياضي بعد أول جلسة، ولعل السبب الحقيقي لتركه أنني لا أكاد أجد لحظة فراغ واحدة، في أيامي المكتظة بخدمة بيتي، والعناية ببناتي، والمشاركة في الواجبات الاجتماعية الكثيرة التافهة، التي كانت تفرضها في هاتيك الأيام، أعمارنا، وشبابنا، وغربتنا، ووجود أطفالنا وحدهم، من دون عائلة كبيرة يأوون إليها.. أو وبكل بساطة، وكما يقول أبو ساجدة صاحب الحزام الأسود في مصارعة الجودو: إنه الإهمال، وترك الإصرار والتصميم وتحدي هذا المجتمع، الذي يفرض علينا أن نبتعد!.

لم أتوقف عن الكلام، بل ازداد لساني طولاً، وقسوة بطعم الغربة، ولم أترك مهنة الكتابة، بل جمعت لها مهنة الصحافة

والعمل الإعلامي، وبشكل رسمي لاحقًا، بعد أن كبرت بناتي، وذهبت آخر العنقود إلى المدرسة.

و.. ما لبثنا حتى أكرمنا الله فأصبح عدد أولادي أربعة.

وما زلت أكتب.. حتى لا أموت عفنًا وقهرًا، وما زال لساني يزداد في كل يوم "طولا"، يزعج ويوجع ويغيظ أولئك الذين لايريدون أن يقول لهم أحد أبدًا: أنتم على باطل ومخطئون.

***

منذ عشرة أعوام، أي منذ قدمت مدريد، لم أكن "مورا" إلى الدرجــة التي أنا عليها الآن! كنت مجرد إنسانة غريبة، لا يدرك من حولي من المواطنين الإسبان السبب الذي جاء بي إلى بلادهم، وحتى "قنفذ" حي السمسم الزهري اللون، المسمى "إسبينيتة" – شوكة القنفذ الظريفة – بَطَل برنامج الأطفال المشهور "افتح يا سمسم" بطبعته الإسبانية، حتى هذا – وكان ناطقًا رسميًّا في حينه باسم الشعب الإسباني–، كان يتساءل مستهجنًا جدًّا.. في إحدى الحلقات، لدى رؤيته أحد "العرب" في "حي السمسم": ماذا يفعل عربي في حَيّنا؟ ماذا يفعل عربي في إسبانيا؟ كان السؤال بصيغة الاستغراب القصوى! وكأن الرجل الذي بدا في الحلقة مرتديًا ملابس غريبة عجيبة، قد هبط على إسبانيا من المريخ مثلاً! وبالطبع فقد جاءت الإجابة: إنه صحفي!.

جميع سكان العمارة التي كنت أسكنها، كانوا يحيونني في ودّ، ويحتفون بأولادي كلما هبطنا وصعدنا في "المصعد –المهبط"، يقولون عنهم إنهم كأولاد الأجانب، قلت لهم: نحن أجانب فعلاً!! قالوا: لا.. لا.. إنهم يبدون كأولاد الأجانب القادمين من ألمانيا!.

كان ذلك وسامًا يرفع المرء به رأسه.. أو على وجه الدقة، كان ذلك وسامًا ترفع به المرأة رأسها! أن يقول الإسبان عن أولادك، إنهم يشبهون الألمان، تربية وسلوكًا واهتمامًا، فهذا يعني استثنائية قلّ من ينالها! فالإسبان يشبهوننا جدًّا، في موضوع إعجابهم بالألمان، والأوروبيين الشماليين البيض الشقر الزُرق العيون، كانوا يشعرون تجاههم بالنقص، الذي رممته إسبانيا سريعًا بقدرة شعبها الهائلة على النمو والعناية بنفسه، كما التعلم والانضباط، ومحاولات اللحاق بالأوروبيين قلبًا وقالبًا، قبيل سنوات الأزمة اللاحقات العجاف.

سلوك أطفالك، طريقة لباسهم، نظافتهم، انضباطهم، أسلوب كلامهم، درجة استيعابهم.. ليس سوى واحد من أهم بطاقات التعريف بك، أنى ذهبت وحيثما حللت.

كان هذا الموضوع مثار نقاش دائم، بين "مالكة" المغربية التي كانت تعمل في مختبر للتحاليل الطبية، و "أم مالك" الطبيبة السورية، التي كانت تسخر من أولاد مالكة، لأنهم يأكلون الفواكه بالشوكة والسكينة.. وكانتا على خصام مستمر، وقيل وقال وكأنهما في حرب دائبة.

قالت مالكة: أنا أبذل جهدًا لتربية أبنائي على أحسن طريقة ممكنة، لكي لا يشعروا أبدًا بالنقص، في هذا المجتمع الذي يعيشون فيه.. وهذا لا يعني أنني لا أخطئ باستمرار، وأنني قد أؤذيهم من حيث أريد أن أنفعهم.

– وهل أكل الفواكه بالشوكة هي الطريقة لذلك؟

– لا أدري.. إن كانت هي الطريقة أم لا، لكن واجبي أن أعلمهم آداب السلوك العام، وكنت سأعلمهم إياه عينه حتى لو كنت أسكن في الموزامبيق.. الأصل أن يُعدّ الطفل للحياة على أفضل ما يمكن.

– هؤلاء القوم لا يحبوننا ولا يحترموننا، ومهما فعلت، فهذه حقيقة لن تتبدل أبدًا.

– صحيح، ولكن أن لا يحبونا لأننا غرباء.. شيء، وأن يكرهونا لأننا قذرون، أو نتصرف بطريقة غير لائقة، أو أننا غير "متمدنين" ونتصرف بعشوائية منقطعة النظير .. شيء آخر.

– أنا لن أزعج نفسي بهذه التفاهات.

– يا أختي أنا لا أزعج نفسي بالتُرهات، لكن هذه هي طريقتي في تربية أبنائي.. وهي تُجديهم نفعًا في المجتمع الإسباني، لا أحد يستطيع أن يسبهم بأنهم قذرون، أو مهملون، أو يتصرفون بجشع، أو يبادرون الناس بالضرب، ولا يعرفون لغة الحوار.. أنا أربيهم بالضبط كما ربتني أمي، وليس لأنني أعيش في إسبانيا، وإن كان ذلك يعود عليهم بالنفع في هذا المجتمع.

– هنيئًا لك صبرك، وأقول لك.. هذا تضييع وقت وتفاهة!

– والله يا أم مالك، إن كانت تربية الأبناء، بمعنى تعليمهم قواعد السلوك الصحيحة التي تناسب العصر الذي نعيش فيه، تضييع وقت وتفاهة، فماذا بقي لنا في هذه الحياة؟ وماذا بقي لنا من الإسلام؟

– وما علاقة الإسلام بكل هذا الآن؟

– نحن نمثل هنا الإسلام رغم أنفنا.. وهذا هو الإسلام.

– وهل الإسلام يعني أن نأكل بالشوكة، وأن يتناول أطفالنا الصغار الفواكه بالشوكة؟

– ألم يقل الإسلام: تنظفوا حتى تكونوا مثل الشامة بين الناس؟ ألم يعلمنا ألّا نغضب، وأن الشديد ليس بالصرعة؟ ثم إنهم لا يأكلون الفواكه دائمًا بالشوكة! إنهم يأكلونها بأيديهم إن لم

تكن مقشرة! والله إن هذا لأمر عجاب.. أنا أؤدب أولادي بما أعرفه.. لا زيادة ولا نقصان، وما أعلمهم إياه، هو الذي يرفعهم ويكرمهم في هذا المجتمع.. فما مشكلتك؟ هل تريدين لي أن أعلمهم القذارة والرعونة وقلة الأدب!

– ما قلت هذا.. لكنك تبالغين كثيرًا!

تدخلتْ هنا أم ياسر الفلسطينية في الحديث، وقالت لأم مالك: يا أختي يا أم مالك.. لو قلنا "لا إله إلا الله" لوجدنا من يقول لنا: إنكم تبالغون، فدعينا نبالغ فيما نظنه حسنًا وخيرًا، يكفينا مبالغة الغالبية منا هنا في الاتجاه المعاكس.

أختنا هنا تبذل جهدًا كبيرًا لتربية أولادها، على أحسن ما تظن وما تعرف، فلمَ لا نشجعها ونتعلم منها، بدلاً من أن نؤنبها ونعاقبها كأنها ترتكب جرمًا.

ثم التفتت إلى مالكة: هات علمينا يا مالكة، كيف تُقشر الإجاصة بالشوكة والسكين.. والله لقد أذهلني أن يستطيع ابنك بسنواته الثلاث أن يفعل ذلك.

تدخلت بدوري، ورحت أقص على الجماعة، ما حدث معي في مشفى كارلوس الثالث، وأنا واقفة في الرتل أنتظر دور ابنتي، لقياس درجة الحساسية المصابة بها ونوعها، راحت البنت تبكي وتبكي وتنتحب، والكل يرمونني بنظراتهم المتّهمة، وبعضهم يتمتم: موروس أغبياء لا يحسنون التعامل مع أبنائهم، لا بد أنها قرصت الطفلة المسكينة، وابنتي تبالغ في البكاء، وأنا أحاول بكل الوسائل إسكاتها من دون جدوى.

فجأة تقدمت سيدة من الرتل، ونظرت إلي شزرًا أمام الجميع، أخذت بيد البنت، نزلت على ركبتها، وجعلت تسألها

أمام الجميع: ما بك يا حبيبتي؟ لماذا تبكين كل هذا البكاء؟ من آذاك؟

قالت الصغيرة: قطتي!

دهشت المرأة وقالت: قطتك؟

قالت: قطتي نورا!

سألتها المرأة باهتمام: ما بها نورا؟

قالت الطفلة: هربت من البيت وضاعت، وما زالت ماما تبحث عنها منذ البارحة، ولم نجدها، وقد بحثت عنها معي قبل قليل، في حديقة المشفى كذلك، ولم نجدها!

شعرت المرأة بالخزي، مسحت على رأس الصغيرة، وأعادتها إلى جانبي، وقالت في حياء: هؤلاء الصغار المساكين يتعلقون بحيواناتهم الأليفة.

انصرفت السيدة، وتغيرت نظرات الرتل نحوي، من الاتهام إلى التعاطف والاحترام والمشاركة الوجدانية، لأن ابنتي استأنفت بكاءها، كأنها قد فقدت أمها!

***

كان المصعد في البناء الذي نسكن فيه، مكانًا للّقاء بين الجيران، ومحلاً للاهتمام الفائق، بكل شاردة وواردة من قصص وحكايات كل من صعد أو هبط، كان منتدى للحوار، وتبادل أخبار الجيران، وتناقل أحداث الحي، وتحليل الأخبار السياسية والاجتماعية، المحلية والدولية، وإعادة تدويرها، و.. البحث في حالة الطقس.

بالمختصر المفيد كان المصعد في بنايتنا مركزًا رئيسيًّا لوكالة أنباء استثنائية.

"حالة الطقس"، هو الموضوع الثقيل الظل، يهرب الجميع إليه عندما لا يجدون ما يتحدثون فيه، دفعًا للحرج، وكسرًا لذلك الجبل من الجليد الذي ينمو بين الناس، في المصاعد الضيقة، لا تتجاوز مساحتها المتر وربع المتر المربع! حالة الطقس هي المنفذ الوحيد للجيران من سأم الانتظار، صعودًا وهبوطًا، مسافة عشرة طوابق، في مصعد عتيق ضيق.. ومن ثقل الصمت، وتحفز النظرات التي لا تعرف أين تحط.. على مفاتيح الجار أم على حقيبة الجارة، على أنف الجدّ الذي يسكن قبالة بيتنا، على حذاء المرأة غير الطبيعية التي تسكن الطابق الخامس!

الجيران غير الظرفاء، لا يرضون بركوب المصعد معنا أصلاً، يتحججون بأيّ حجة، كي لا يستقلوا المصعد معي ومع الأولاد.. حديث جانبي مع البواب، بحثٌ طارئ في حقيبة اليد، تذكرٌ مفاجئ لتفتيش صندوق البريد، ثم يتبعون ذلك – إن كانوا من ذوي اللطف واللباقة – بعبارة: اصعدي حضرتك، لا مشكل سنصعد لاحقًا! وكنت أفعل في معظم الحالات الشيء نفسه، لا ضيقًا بالناس فحسب، بل بسبب ضيق المصعد، والشعور بالاختناق فيه، كلما حشر الجيران أنفسهم فيه معنا، ذوقًا ولطفًا، حتى لا نشعر بالإقصاء والرفض!

جيراننا الظرفاء، وهم غالبية أهل العمارة، كانت لديهم معي مهمة إجبارية أخلاقية "بروتوكولية"[1]، تدفعهم ويوميًّا وكل صعود وهبوط لسؤالي عن أولادي، ولسؤال الأولاد عني، يستفسرون

(1) أصول التعامل الدبلوماسية.

مني عن صحة البنات، عن مدرستهن، عما إذا كنت سألزمهن بالحجاب في وقت لاحق.. مسكينات! ويستفسرون منهن ساعة فساعة، عن إحساسي بالبرد والحر، وتأقلم جلبابي وحجابي مع تغييرات درجات الحرارة، يبتسمون لنا، يُكْبِرون فيّ هذا الصبر الجبار، يقولون أنهم لم يروا قط أحدًا على وجه الأرض يتحلى بمثله، في موضوعين، أولهما صبري منقطع النظير على هذا الزوج، الذي لا يُرى في البيت، ولا في البناء، ولا في الحارة، ولا يتواجد أبدًا مع أسرته، وقد ترك في رقبتي ثلاث.. ثلاث بُنيات تنوء بتربيتهن الجبال! – كما قالت جارتي "المديرة العامة" لأحد فروع واحدة من أهم الشركات الإسبانية، التي تقطن في الطابق الثامن – والتي كانت تردد على مسامعي يوميًا: هنا في إسبانيا ولد واحد فقط، ثلاثة أبناء كثير وكثير جدًّا، هذه جريمة بحق زواجك قد تنتهي بك إلى الطلاق!

"ألْتْزاي"[(1)] المديرة العامة الشابة، هي نفسها التي كانت وزوجها، يُكنان لنا قدرًا كبيرًا من الاحترام والثقة والمودة، إلى درجة طلبهم منا التدخل لحل المشكلة الكبيرة التي نشبت بينهما، والتي أدت بهما إلى الطلاق، بعد مسلسل عشناه في البناء ثلاثة أعوام مؤسفة! اضطر فيه الجيران وغير مرة لاستدعاء الشرطة للفصل بينهما.

كلاهما في الثالثة والثلاثين من عمره، هي قاضية طويلة جسيمة كما هم بعض المتحدرين من إقليم الباسك، لكنها على ضخامتها كانت رائعة الجمال، طيبة مهذبة راقية إنسانة، لم تعاملني قط على

(1) Altzai: "آلتزاي" اسم محلة على الحدود مابين اسبانيا وفرنسة، مما يعتبر ارضا باسكيّة تاريخية، يستخدم في اقليم الباسك اِسم علم مؤنث، يمكن فهمها بالعربية بمعنى "أرض الذهب والسندس الأزرق".

أنني غريبة، أما "مونتشو"[1] الزوج فكان مهندسًا لا يقل عنها دماثة ونبلاً وجمالاً وخلقًا، وكانت أمه التي تسكن في البناء نفسه، تتدخل بينهما بصورة دائبة تفسد علاقتهما، حتى وصل الأمر به أن يضربها، وكانت تلجأ إلى بيتنا، تنشد طبيبًا يساعدها.. وكنت أجد نفسي في موقع صعب جدًّا بينهما، فهو الجار النبيل، الذي كان يبذل لي شخصيًّا، يد المساعدة في كل شيء، حتى إنه وهو يحمل طفلته، كان يبادر كلما رآني مثقلة بالمشتريات ليحمل عني ويساعدني، وعندما أقاما حفلاً عائليًّا صغيرًا، ليوم مولد ابنتهما الصغيرة، كنا وحدنا المدعوين من غير الأقرباء.. وتفضلا بإخبارنا، أنهما لم يستعملا الخمر، ولا الخنزير، في أي من الأطعمة التي نراها على المائدة إكراما لنا.

ما الذي حدث بين "ألْتزاي" الجميلة المديرة العامة التنفيذية، و"مونتشو" المهندس النبيل إذًا؟

كانا شخصين رائعين بالنسبة إلينا، ولم يكونا كذلك بالنسبة إلى بعضهما بعضًا.

ومن هذا الذي يمكنه أن يعرف بالفعل، حقيقة ما يجري بين زوجين في بيتهما؟ وما تلك الأسباب التي تحمل الناس على الخصام والخلاف، الذي يصل درجة الاعتداء الجسدي على الزوجة، كل شيء يمكن غفرانه للزوج، إلا أن يضرب زوجته، وأن يضربها ضربًا فيه اعتداء، وتوحش، وانتقام، وتشفٍّ، وإيقاع أذى جسدي ونفسي يكسرها.. ثم يظن أنه يمكن الشفاء منه أو نسيانه.

---

(1) Montxo : اسم فرد مذكر باسكي، يعني بالعربية "يوم الأحد" .

أن تعتدي على امرأتك بالضرب، فأنت رجل يفتقر إلى المروءة والفضل والرجولة. . كسر المرأة سهل جدًّا، ولعل كسر قلبها بالتفريق والتعليق، أهون من كسرها بالضرب المهين.

الأمر الثاني الذي يُجمع عليه كل جيراني، من الطابق الأول وحتى الثاني عشر، كما في كل أبنية ساحة "فون ساغرادا" التي نسكن فيها، هو احترامهم العميق – كما قالوا – وكثير من المشاركة الوجدانية، والتقدير الكبير لقدرتي على احتمال هذه الملابس، التي ما كان واحد منهم يشك أدنى قدر من الشك، في أن ذلك الزوج "المتوحش المختفي"، قد أرغمني على ارتدائها! فلا يمكن لامرأة على وجه الأرض – كما يقولون – أن تحتمل مثل هذه الملابس! إلا بسبب من الزوج أو الأب! وذلك على الرغم من النقاشات الودية الكثيرة، والشرح الطويل العريض، الذي كنت أقوم به ليلاً نهارًا للموضوع، حتى كلّ متني، ويئست من أن يفهم أحد إلا ما كان قد فهم من قبل!

ما كان يثير استهجانهم الفظيع، لم يكن تلك الملابس فحسب، والتي أصبحت فيما بعد شيئًا "مستهجنًا – عاديًا"، بسبب كثافة توافد المهاجرين إلى إسبانيا، لكنه – كما قال "سالبادور" رئيس لجنة الجيران المتّحدين–: ذلك الصبر "المقدس"، الذي تتمتع به النساء "الموراس"، على غياب أزواجهن بسبب ظروف العمل، مع محافظتهن على كل هذا القدر من العفة والإخلاص!

معظم جيراننا، كانوا ممن تجاوز الستين، وخرج على التقاعد، وجلس في شرفته آناء الليل وأطراف النهار، يرصدون حركات الداخل والخارج والآتي والذاهب، خصوصًا في حي كحي "البيلار"[1]

(1) Maria Dolores اسم إسباني مؤنث، ويعني بالعربية ماريا حاملة الآلام.

الشعبي الشهير الزاخر بالحياة والحركة، وفي منطقة كمنطقة "الباغوادا"، التي تَسَمّت باسم المركز التجاري الكبير، الذي كانت بعض أجنحته مازالت قيد الإنشاء يوم سكنّا الحي.. يجلسون هناك يُمضون أوقاتهم ينظرون ويراقبون، وكان هذا الأمر، فوق قدرتهم على الفهم، لا توجد امرأة إسبانية يمكن أن تحتمل غياب زوجها عنها نصف يوم فقط!– هذا ما قاله جاري السبعيني، صاحب الياسمينة التي تتدلى على باب البناء الرئيسي من الطابق الأول.

كان في قوله هذا، ظلم للنساء الإسبانيات، كنت أعرف كثيرات، من الإسبانيات الصابرات العفيفات، والكثيرات ممن احتملن في سبيل أولادهن، ما لا يُحتمل، حافظن على زواجهن وأُسَرِهِن على الرغم من كل ما ابتلين به من جهة الأزواج، زوج جارتي بالجنب مباشرة، خانها مع أختها، وكان يأتي بها إلى البيت في غياب زوجته وأولاده، لكنها صبرت واحتملت، ثم طردته من البيت في هدوء، ومن دون كثير ضجة، وبقيت عشرة أعوام ترعى ولديها، لم تتزوج ولم تخرج مع خطيب طوال تلك المدة، حتى كبر الولدان، وما عادا يحتاجان إلى الرعاية المشددة.

ماريا دولورس[1] الممرضة صاحبتنا، التي تسكن الطابق الرابع، وهي في الخامسة والخمسين من عمرها، جارت على صديقتها التي تسكن في البناء المقابل، استلبت منها زوجها، وأصبحا خطيبين، يقضي معظم وقته في بيتها، ثم يعود إلى النوم في بيته، وزوجته

(1) Barrio Del Pilar: حي البيلار، يقع شمالي مدريد، من أشهر الأحياء الشعبية فيها، معظم ساكنيه ينتمون إلى الطبقة الاقتصادية الاجتماعية المتوسطة، أشهر معالمه، مستشفى السلام الجامعي الضخم، ومجمع الباغودا Vaguada التجاري الكبير، والمركز الثقافي الباغوادا، وملحقٌ به مسرح مدريد/ عدد سكانه 47.000، حسب احصائيات عام 2014.

تعلم، وترى، وتسمع.. لكنها وحفظًا لكرامتها، تتصرف وكأنها لا تدري ولا ترى ولا تسمع.

مرة قالت لي، وكنا خارجتين من دكان الخبّاز: لا تأمن غدر الرجل إلا حمقاء.

نظرتْ ذات اليمين وذات الشمال، ووشوشتني: يظن أهل الساحة هنا أنني غبية مغفلة، أنا فقط ليس لدي مكان أذهب إليه، هذا بيتي، ولا أحد يستطيع أن يطردني منه، وأنا لن أطرد هذا البغل، يكفيني أنه يشتري حاجات البيت، وبيننا صمت القبور، أنا مع تلفزيوني، وهو مع ماريتهِ دولورِهِ الساقطة.. انتبهي، لا تسرقنّ منك زوجك.

قلت لها وأنا أحترم ألمها: إنها تكبر زوجي بعشرين عامًا.

أجابتني: تلك الساقطة.. كانت صديقة عمري.

يثق الناس بالغرباء حتى لو كرهوا وجودهم بينهم، يظنون أنه لا يمكن لغريب أن يفشي سرك وقد ائتمنته عليه.

وضع المرأة في تلك الأيام كان الشغل الشاغل لإسبانيا، التي بدأت تتفتح على عالم الحريات والإنسانية والحقوق، وكانت العناية بالنساء كبيرة جدًّا، وحتى المهاجرات منهن، مما شكل معضلة في العقول الذكورية المتحجرة، قاومت منح المرأة هذه المكانة الاستثنائية في المجتمع، كانوا يريدون لها أن تبقى في مكانة متخلفة عن الرجل، لا تتجاوز ما يريده الرجل من المرأة، ولا تلتفت إلى ما تريده المرأة أبدًا.

جرائم القتل المعلنة ضد النساء، كانت يومية ومفجعة في

إسبانيا، تشبه كثيرًا جرائم "القتل النفسي والإنساني" البطيء، غير المعترف بها وغير المعلن عنها في بلادنا.

كانت إسبانيا متخلفة بضع سنوات ضوئية عن ركب أوروبا، فيما يخص وضع المرأة، وهي المسافة نفسها بالضبط، التي تسبقنا بها في هذا المجال!

جارتي التي تسكن في الدار الملاصقة لدارنا، الجدة "كارمن" كانت تردد على مسامعي طوال الوقت، إنها لا تفهم، كيف يمكنني أن أحتمل العيش بعيدًا عن أمي، وأنا ما زلت "طفلة"! وأم لثلاث بنات! عجيب كيف تتزوجون باكرًا إلى هذه الدرجة؟ كيف يمكنكم القيام بالبيت والأولاد، وحمل هذه المسؤوليات التي تحتاج إلى النضج والتجربة، ومن دون مساعدة والديكم؟ عجيب أمركم أنتم القادمون من تلك البلاد العجيبة؟

كانت مشاعر الأمومة والأبوة، تفيض من قلوب بعض جيراني، خصوصًا من المتدينين من كبار السن منهم، فالأسرة في إسبانية شيء بالغ القداسة، وموقع الأم في الأسرة فوق كل موقع، واحترام مشاعرها وآلامها جزء لا يتجزأ من الشعور الديني والإنساني، وعلاقة البنات بأسرهن لا تشبه في شيء علاقة البنات بأُسرِهن في دمشق.. هنا يحمل الأب والأم كامل المسؤولية عن بناتهن، رعاية وعناية ودعمًا، هنا يتربى الأحفاد في بيوت أجدادهم لأمهاتهم، ويقوم الجد والجدة بخدمتهم ورعايتهم، وأخذهم يوميًّا إلى المدرسة، يساعدون ابنتهم في كل شأنها، حتى إن الجد يمنح الحفيد لقبه واسمه في حال تخلى الأب عن الابن، أو لم يُعرف له أب.

كأنهم هم المسلمون "المحمديون"! ما أشبه علاقاتهم الأسرية، بتلك العلاقات الأسرية التي نعرفها في بيت محمدنا؟ وما أبعدنا في بلادنا منها ومن محمدنا!

كان وضعي في وحدتي وغربتي، يثير شجون بعض جاراتي، تغلبهن دمعتهن، كلما رأينني أكابد متاعب الحياة بعيدًا عن أمي، فيتسببن من حيث لا يعلمن، بإصابتي بمزيد من الحزن والاكتئاب.. وبكثير من هلوسات الغربة التي صارت لا تفارقني.

رؤى وأحلام يقظة عجيبة، كأن أشمّ رائحة الزنبق في بيتي قبيل صلاة المغرب يوميًّا، وما كان هنالك زنبق ولا هم يحزنون! غالبية الأزهار هنا في مدريد لا عطر لها ولا عبير.. وأبحث عن الزنبق! أتجول في البيت، ولا أجد الزنبق! لكنني أشمه، أكاد ألمسه بيدي التي ترتد خائبة في كل مرة.

كنت أرى في وجوه بعضهم، وجه أختي، إنها أختي! آخرون أرى فيهم ابن حارتنا، لم أر وجهه ولم أكلمه في حياتي في دمشق، وهو الذي يسكن على بعد ثلاثة أمتار من بيتنا، لكن الأعجب من ذلك، كانت قصة أستاذ الفيزياء، الذي لا أعلم ما الذي جاء به إلى غرناطة، يوم كنت في غرناطة؟ وكنت أكرهه ولا أحترمه، بسبب طائفيته الرنانة، ورعونته، وقسوته، وحقده المعلن على "الشام" وأهلها، في ذلك الزمن، الذي كانت تتمدد فيه "الطائفية" كأفعى خفيّة شفافة، تكشف كل ما يحتويه جسدها، المتلوي الخفيف المخيف، لكنها لا تظهر للعيان كحيّة حقيقية، تزحف تحت الأنقاض، تُخَلِّفُها عمليات الهدم اليومية في حياة أهل الشام.

كيف جاء إلى إسبانيا؟ هذا الرجل القذر، الذي كنت أتجنب مجرد المرور إلى جواره في الجامعة، كان يرتدي سُمًّا، ويشتمل كراهية، ويعتمر حقدًا، وكنت أكره حصته ومادة الفيزياء التي يُدَرِّسها، رسبت فيها ثلاث مرات متتالية، ولم أذهب لمراجعته قط.. وتركت الجامعة وكلية العلوم، من دون أن أنجح في تلك المادة، التي كانت من المواد التي تفوقت فيها في المرحلة الثانوية.

صرت إلى طرف البحر الأبيض المتوسط الآخر، وإذا بي، أجد الرجل أمامي في سوق الأحد، في غرناطة، قبل أن أغادرها إلى مدريد بأيام! ذُهلت، لاحقت نظراتي الرجل، وهو يتجول بين الناس، تتبعت خَطوه، أصبحت وجهًا لوجه أمامه، رحت أحملق في وجهه، وهو يبادلني الحملقة والدهشة.. ثم تجرأت وقلت: ما الذي جاء بك أستاذ إلى غرناطة؟ ربت الرجل على كتفي، وهز رأسه في أسف، وقال لي بلغته الإسبانية: أنا لا أفهم ما تقولين أيتها السيدة الصغيرة!

هل كان ذلك هوَسًّا؟ جنونًا؟ كابوسًا؟ تخيلاً؟ طيفًا من معاناة يومية في دمشق، انتقلت ذكرياتها المقززة، لتتجسد أمامي في غرناطة؟ شبحًا من الماضي القريب، يريد أن يصل ذلك الوطن الظالم بهذه الغربة الموجعة، ألمْ أجد غير هذه الشخصية التي أنفر منها حدّ القرف؟ ماذا كان ذلك بالضبط؟

لم أشك للحظة، أنه قد لا يكون هو! كان بغيضًا، يمقته جميع الطلبة لكثرة امتهانه لأهل الشام، لا يوفر فرصة، إلا ويكيل لنا كل أنواع الهمز واللمز، سلوكه منفر، رائحته تثير الغثيان.. لكنه أتى إلى غرناطة، شبحا زائرًا من ذلك "الوطن" العاق.

نحن لا نكره هؤلاء القوم الذين استحلوا دماءنا، وأحالوا حياتنا جحيمًا، واضطرونا لمغادرة بلادنا وأهلنا.. نحن لا نجيد الكراهية، لا نريد أن تمتلئ قلوبنا بالأحقاد.. ربما من أجل ذلك، أتى طيف ذلك الرجل من دون غيره، ليفرض نفسه على غربتي في غرناطة!

وربما لأنني كنت أتفكر كثيراً، في تلك الملاحظات اللاذعة، عن الشام ومجتمعها، لم يكن يتوقف عن إلقائها على أسماعنا،

وكأنه أستاذ في علم النفس والاجتماع، وليس في الفيزياء.. وإن كانت كل العلوم، في نهاية المطاف، تصلح لتحليل حالة التعفن، التي أصابت جماعة بشرية أو مجتمعًا بعينه.

كنت أرى تطابقًا كبيرًا بين ما ينتقده في المجتمع الشامي، وبين ما كنت أنتقده، مع فارق كبير جدًّا بين حرصي وكراهيته.. لم أصرح لأحد بمثل هذا التوافق، لكن "رشا" رفيقة كلية العلوم، نكشتني مرة، وهو يتحدث عن استكبار الناس وتنطعهم في دمشق.. همست في أذني وهي تبتسم: هذا الأحمق يتحدث مثلك عنا! أوعزت إليها أن تتستر على الأمر، وخصوصًا أن كل من في القاعة من أبناء الشام أوسعوه شتيمة وتشنيعًا.

لم تكن المشكلة في أن ينتقدنا، كانت مشكلته، ذلك الكم الهائل من الحقد الذي يحمله علينا.

لم تكن مشكلتنا كطلبة، أننا لا نتقبل نقده المؤذي، كانت مشكلتنا أننا لا نرضى المَسّ بأوضاعنا العفنة.

كانت تلك الهلوسات المحزنة، تتسبب لي خلال سنوات غربتي الأولى، بكثير من المفاجآت.. كنت كلما دخلت سوق الباغوادا، التي أسكن إحدى الساحات المقابلة لها، رأيت أختي هناك! ولولا أنني أعلم يقينًا، أنها لا تستطيع مغادرة سورية لارتكبت كثيرًا من الحماقات، بسبب ذلك الخلط الذي أصابني، وأنا أدخل عامي العاشر في إسبانيا بعيدة ووحيدة، قبل أن نصبح جزءًا من الجالية السورية المصونة في مدريد.. وكان ذلك أنجع علاج لهلوساتي.. إذ انتقلت من حالة التخيل والخلط، إلى حالات التلبس اليقيني بفواجعنا الإنسانية، وبعاهاتنا الوطنية!

"رشا" التي كانت صديقتي ورفيقتي في الجامعة، وشقيقة الروح، البعيدة في دمشق، الوحيدة وهي وسط أهلها، والتعبة

المكسورة الخاطر، لم تمنحها الحياة الحب، ولم يمنحها زوجها الاحترام، ولم يمنحها أهلها الحماية، ولم يمنحها وطنها الكرامة.. هناك في وسط الشام كانت وحيدة، غريبة، تتصل بي في الهاتف بين الحين والحين لتبكي، لم تكن تجد أحدًا يمكنها أن تبكي معه في دمشق، كانت تقول لي في كل مرة تهتف لي فيها: أرأيت.. كان أستاذ الفيزياء الطائفي ذاك مُحِقًّا فيما يقوله عنا، نحن القوم الظالمون!

القهر عنوان حياتها، الزوج الظالم الذي يقارب ظلمه الجريمة، كان قد جعل من وجودها معه جحيمًا حقيقيًّا، وسائل تعامله معها لم تكن الكلمة الطيبة والتي هي أحسن، بل الضرب وجميع أنواع الإهانات، يسبُّ أباها، ويسب أمها، ويسب إخوتها.. ويقول لها: "انظري مع أي رجل قد زَنَت أمك حتى جاءت بك"!

تبكي بحرقة، وتشهق بتلك الكلمات، وترجوني ألّا أكتب ذلك، وألّا أسجله في ذهني، وألّا أضطرها لقطع علاقتها بي، وكنت أمازحها لأخفف فظاعة الأمر: فأقول: لن أكتبه إلا بعد موتك!

تولد ضحكتها من قلب الألم، ثم تُعَقِّب: اللهم اجعله عاجلاً وفك أسري.

كانت تقول: "أمي التي تقرأ في اليوم الواحد ثلاثة أجزاء من القرآن، وتعرف الله ورسوله وتُدَرِّس الدين والفقه، يتهمها بالزنى"؟ ولمَ؟ لأنه لا يحبني، لم أعجبه منذ البداية، لم يتقبلني كما أنا، لا يعجبه شيء مما أفعل أو أقول، إنه يريد "أَمَة" بين يديه، أمَة رخيصة قذرة مثله، يخلفها في البيت وحدها مع أولاده، في حين أنه يعيش حياته كما يحلو له خارج البيت، وأنا لست أمَة، ولا أستطيع أن أكون كذلك حتى لو أردت.

كان يودّ لو كنت من مستواه، وفي مثل أخلاقه.. يريد أن يُفَصِّلني على قياسه، يريد أن أكون وضيعة مثله، وأنا إنسانة خلقني ربي كما يشاء هو، كريمة ابنة كرام، ولا يستطيع أحد تغيير البشر، ولا هُم أنفسهم يستطيعون تغيير طبائعهم كما يحلو للآخرين.

الكلام الفاحش الرهيب، كان أهون عندها من سباب ولعن أبيها طوال الوقت، من دون أي مبرر مفهوم.. وصل به الأمر أن يقول لها: "أبوك هذا التاجر الكبير، بشيبته وسبحته وصلاته في المساجد، لا يعدو كونه "تحميلة" أضعها في قفاي.. أكرهك وأكره أهلك جميعًا"!

حكت لي أنه: "على الرغم من ادّعائه المحافظة والتدين، كان يخرج قبل زواجه، مع كل فتاة تقع عينه عليها، ويتمكن من استمالتها وخديعتها، فكيف سأعجبه أنا، وأنا التي لم تعرف قط في حياتها وجه رجل غيره؟".. "صحيح أنني لست محجبة، لم يرغمني أبي الطيب على الحجاب، قال لي يا بابا هذا فرض، خذي وقتك ولا تلتزميه إلا عن قناعة، لكنني فتاة عفيفة أصلّي وأصوم وأعرف ربي.. ربما كان يريد راقصة ليلية؟ لم يطلب مني يومًا أن نسهر معًا، فنحن نسكن مع أمه وأبيه! لكن احتقاره الدائم لي كان يعني أنني لم أملأ عينه".

"انفصام رهيب في شخصيته لا أستطيع استيعابه، ونفاق اجتماعي مرعب، تزوجني لأكون زوجة وأمًّا وربة منزل، في حين أنه كان في حقيقة الأمر يريد عشيقة غير شرعية، تتفرغ لإرضاء أنانيته وأمراضه، ومن سيقوم على الأولاد الصغار هؤلاء؟ وإذا ابتلاهم الله بأب مثل هذا! فكيف أصنع وأتركهم لأرضي نزواته داخل البيت وخارجه؟".. "خطبني سافرة جامعية، ثم جعلني سجينة البيت، وضرب علي حجاب الاستعباد المطلق".

"لا أدري أأضحك أم أبكي، أتصدقين؟ أمي هي التي جعلتني أرضى به عندما وجدتني نافرة مترددة، يكبرني بخمسة عشر عامًا، متعجرفًا ممقوتًا.. لم يخدعنا في واقع الأمر، لكن أمي ظنت أنه رجل يعرف الله، وقالت لي: سيكون لك خير رفيق في درب الحياة! كم هو مضحكٌ مبكٍ ذلك؟ يا لمفارقات الأمور!".

تهتف إليّ في ساعات الفجر الأولى وتشكو وهي تبكي: "إنه يكرهني إلى درجة مريعة، وقد تركت البيت ومعي ولديّ، فأعادني أهلي إليه بسيارة تاكسي، قالوا لي: بناتنا لا يمكن أن يُطَلّقن! ونحن لسنا ملزمين بتربية أبناء هذا المخلوق"!

"بدا لي أن أهلي أكثر إجرامًا منه، وأحيانًا كنت أفكر أنهم يستحقون تلك الإهانات التي كان يمطرهم بها".

"عدتُ إليه كسيرة جريحة، أرغمني على تقبيل يده، حتى يرضى أن يعيدني إلى عصمته.. وعدت، وأصبح أولادي ثلاثة، وأصبح الضرب إجرامـًا حقيقيًّا معي ومع الأولاد، وصار الكلام البذيء أمرًا معتادًا، والإهانات تطورت، لتصبح أقذع أنواع الأذى النفسي واللفظي".

"استمر بعد الزواج بما كان يفعله قبل الزواج.. الخروج مع النساء، مغازلتهن، إنه يبحث عن "أمّ" بينهن، تمنحه المحبة المجانية، تغدق عليه نُعوت الرجولة والشهامة والمروءة.. من دون أن يفعل شيئًا ليستحقها! يمرح ويسرح معهن، يتودد إليهن بكرم حاتمي يستجدي إطراءهن، يشكوني إليهن، يطلب تعاطفهن، يذهب بهن إلى المطاعم والحفلات، بل لقد خطب بعضهن! وكان يخرج معها كونها خطيبته! لم يسأل أهلها عن زوجته وأولاده، صدّقوا أنني مختلة، وأنني زوجة غير صالحة.. ناشز"!

"هل تستحق الزوجة المختلة أو غير الصالحة، أو الناشز كل هذا التعذيب؟

ماذا أفعل، وإلى من ألجأ؟ وإلى أين أذهب أنا وأولادي؟ أنا لا أستطيع أن أترك أولادي وأتخلى عنهم".

كانت تسألني.. وتسألني.. وكان مجرد استماعي إليها، واحتمالي آلامها معها بعض إجابة، وكان في استماعي إليها بعض المساعدة، والمشاركة، والتعاطف.

أن يجد المرء من يسمع شكواه، ليس بالأمر الهين أبدًا، خصوصًا إذا لم يستهن المُستَمِع بهذه الثقة، ويتعامل معها بفوقية، تكدرها وتفسدها.

"أن يعاملك زوجك بهذا الشكل في دمشق، شيء طبيعي.. وأن تُظهري الشكوى، فذلك هو المعيب في الأمر! يجعلك تسقطين من أعين الجميع! عليك أن تحتملي وتخرسي"!

تجد في الحديث عبر الهاتف، مع صديقة قديمة بعيدة لا ترى وجهها، كُوّةً تُبَشِّر بمخرج "ما"، بانعتاق، بانفكاك من ذلك السجن المؤبد مع التعذيب والأشغال الشاقة.. ولم يكن في استطاعتي مساعدتها، ولا دفع الأذى عنها، لكنها كانت تجد في مجرد استماعي شكواها ومشاركتها مشكلتها، متنفسًا من اختناقها بذلك الألم.

كنت أنقل إليها ما أسمعه يوميًّا، في حصص التربية النفسية الاجتماعية في برنامج "خِسوس إرميدا"، خصوصًا تلك الموجهة بصورة رئيسية للنساء المعنفات في إسبانيا، لمساعدتهن على تجاوز أزماتهن النفسية، واستعادة تقديرهن لذواتهن، والتخلص من الرضوخ للشعور بالذنب، قبل أن تصل الحال بهن إلى أن

يُقتلن على أيدي الأزواج المجرمين، كما نسمع ونرى يوميًّا في إسبانيا.

الرجل الذي ديدنه تعنيف امرأته، إنما يفعله لأنه إنسان سيئ معتوه، وليس لأنها تستحق ذلك، لا أحد يستحق أن يحيا حياة العذاب والإذلال والانكسار المستمرة هذه في بيته.

رجلٌ يحطم أهل بيته، هو مخلوق مريض معتل مهزوم ضئيل جبان، يبحث لأمراضه عن مَنْفَذ وذريعة.. لا شيء على الإطلاق، يبرر أن يضطهد الرجل زوجه وأبناءه بالضرب والإهانة والأذى المستمر.

هذا لن يكون بيتًا، وهذه ليست أسرة.. إنه سجنٌ في أرض الأعداء.

هذه النظرية الإسبانية، أراحت نفس "رشا" القلقة اللَوّامة، وخففت الضغط عن دماغها، وهي البالغة الذكاء والنباهة، جعلتها تشعر بالرضى، والأمان، واحترام الذات، في مجتمع كل من فيه يلوم المرأة.. وفقط المرأة، على أيّ مشكلة يمكن أن تنشب في بيتها.

سارعت الحكومة الإسبانية، بتشكيل هيئة على مستوى الدولة، مسؤولة أمام مجلس الشعب[1]، لوضع تصور كامل عن ما سمُي "قيام المجتمع الإسباني بمحاربة العنف ضد النساء في إسبانيا"، انطلقت الهيئات المختصة، في سياق اجتهاداتها المكثفة، للعمل

---

(1) بعض مراجع الموضوع والمعلومات فيما يتعلق بالأعوام ما بين 85- 95

⁎ Soluciones de la sociedad española ante la violencia que se ejerce sobre las mujeres//

⁎ Sociedad y procesos políticos e históricos\\
editado por Freddy Domínguez Nárez y Juan Carlos Guzmán Ríos

⁎ Estudios sobre la violencia\\
Escrito por Canarias. Gobierno

على القضاء على مشكلة "سوء معاملة النساء والازدياد المرعب في عدد جرائم قتلهن في إسبانيا"، فسُنّت قوانين تُسهل التفريق بين الزوجين، وتجعل الطلاق أمرًا متاحًا لكليهما، في الوقت عينه الذي كنّا نستنسخ من الغرب نموذجه العائلي الكنسي، حيث يكون الزواج مؤبدًا، والطلاق مستحيلاً، والمرأة شيطانًا، والرجل ربًّا.

كأنهم، ما كان "يُنتظر منا أن نكون عليه"، وكأننا "ما نَظن أنهم متلبسون به"! . . كأنهم هم المسلمون، وكأننا نحن الأوروبيون**!**

كأنهم ما يجب أن "نكون"، وكأننا ما "نظن أنهم هم"!

كلما نزلتُ إلى سوق الباغوادا، رأيتها.. رأيت رشا، بشحمها ولحمها، كانت تمر بين الناس كالسَّهم، تنظر إليّ من بعد، وتنسل في رقة وتختفي، وأنا ألاحقها، وألحق بها، لكنني لا أستطيع إدراك خطوها، الذي يكاد يكون طيرانًا أكثر منه سيرًا.

يمنعني الانشغال بأمور البيت والأولاد، التفكير فيها، فيرافقني طيفها كلما خرجت وحدي.

مررت يومًا بالباغوادا، ورأيت الناس متجمهرين في إحدى زواياها، وكانت رشا بينهم ومعهم، تشرئب بعنقها الجميل وشعرها الناعم البني الطويل، فلما اقتربتُ أستطلع الأمر، اكتشفتُ رسامًا، يرسم صور الناس بشكل مباشر وآني، يمنحهم سعادة يبتاعونها.

يُسعِد الناس، أحيانًا يُبهِجُهم، وأخرى يُفاجِئهم.. أن يتأملوا وجوههم مرسومة في لوحة، تجعلهم يُبصِرون فيها، ما لا يعرفونه عن وجوههم ولا عن أنفسهم!

يُدهشُ الناس أن يروا أنفسهم في عيني آخر، حتى لو كان مدفوع الأجر، **حاجة البشر إلى المشاركة الوجدانية، كحاجتهم إلى الأوكسجين.**

اقتربت من الرجل بعد أن انفضّ الناس، وقلت له، أريدك أن ترسم صديقتي، رفع الرجل عينيه وحاجبيه، وسألني في تعجب، وأين هي؟

مددت يدي إلى جيبي، وأخرجت رزمة من الأوراق، سحبتُ من بينها صورة صغيرة لي مع رشا، حين كانت في الثامنة عشرة من عمرها، قلت له: هذه هي صديقتي، حين كانت في عنفوان ثقتها بنفسها واعتزازها بوجودها، وهي اليوم مكسورة محطمة، أريد أن ألملم شظايا نفسها، وأحاول إعادة تركيبها في لوحة كبيرة بريشتك.

– لم أفهم بالضبط ماذا تريدين مني؟

– أريد أن ترسم صديقتي هذه التي في الصورة، بشكل يسعدها عندما تراها، ويعيد إليها ثقتها واحترامها لنفسها.

طلب مني الرجل ثلاثين ضعفًا كلفة الرسم الذي اعتاد أن يقـوم به مباشرة للعابرين، أملاً في أن أعجز عن الدفع، فأعفيه من عناء مهمة كهذه!.. بعد شهر، جئت، وأخذت اللوحة المدهشة.. رأيت فيها رشا القوية السعيدة المتفتحة كوردة دمشقية بيضاء، ذات فجر ربيعي، كنتُ راضية بها، وأرسلتها بالبريد إلى رشا، وكان آخر ما سمعته منها في الهاتف: شكرًا.. شكرًا، لن أنسى لك هذا.

بعد ذلك انقطعت هواتف رشا، وانقطعت أخبارها، جن جنون "الوحش" لما رأى تلك اللوحة، قطع أسلاك الهاتف في البيت، ومنعها من العودة إلى التحدث إليّ حتى يوم موتها، صدمتها شاحنة عسكرية قريبًا من سوق الحميدية، دهستها، اختلطت عظامها ولحمها بإسفلت دمشق، التي لم تمد لها يد عون ولم ترحمها.

كانت تقول لي: أسألك بالله أن تدعي الله لي بالموت، لأرتاح منه ومن أهله، لا خلاص لي إلا بالموت، وليت أطفالي يموتون معي، حتى لا أتركهم للوحوش، أهلي لا يريدون مساعدتي، ولن يأخذوا الأولاد ليربوهم في حضنهم إن مت، ولا أجد طريقًا للخلاص مع أبنائي الثلاثة، الذين يربيهم مثله، بالقسوة والظلم.

ماتت رشا، ولم أعرف، ماذا حل بأبنائها، من واجب القاضي أن يلزم أهلها بحضانتهم، وأن يلزم "الوحش" بالنفقة عليهم! ولكن عن أي قضاء أتحدث؟ في بلادنا الإسلام معطل، والقضاء تمثيلية قبيحة، والظلم مستفحل!

ماتت "رشا"، ومات شيء من قلبي بموتها.. لم أودعها، لم أكن هناك، ولم أعلم بوفاتها إلا بعد شهرين عندما جاءت أمي لزيارتي.

ماتت رشا، وسكن حزنٌ هائلٌ روحي.. ماتت، ولم أعلم هل احتفظت بتلك اللوحة، أم مزقها ذلك الوحش، كما مزقت شاحنة الجيش جسدها.

***

قُرع الباب، ووجدتُ شابة إسبانية تسأل عني، عرفتني بنفسها أنها "لوردس"[1] ابنة أخت "ماريا دولوريس" جارتنا الممرضة التي تسكن في الطابق الرابع، والتي كانت قد لطشت[2] زوج صديقة عمرها.. وأنها خطيبة "ألفونسو"[3] رسّام الباغوادا، وراحت

(1) Lourdes: إسم اسباني مؤنث ذو أصل فرنسي، ومعناه: المقدّسة التي تبذل نفسها وروحها.

(2) معنى لطش في "تاج العروس": اللَّطشُ: الضربُ بجُمْعِ اليد والطَّعن.

(3) Alfonso: اسم إسباني مذكر ذو أصل ألماني، ومعناه: الرجل النبيل المستعد للكفاح.

تشرب القهوة بالحليب التي قدَّمْتُها لها، وهي تحكي لي أن "ألفونسو" بكى، بعدما أنهى رسم تلك اللوحة، وتمنى ألّا أمرّ، ولا آخذها، بل لقد كان مستعداًّ أن يدفع لي ضعف المبلغ، على أن أترك له تلك اللوحة.

رسمها وهو يلمّ شظايا شابة كسرتها الحياة، لا يعرفها، تعيش على بعد آلاف الكيلومترات، امرأة شابة تناثرت بقايا روحها في دمشق، بفعل ظلم الزوج والأهل والمجتمع، قمنا بجمعها في مدريد، أنا وألفونسو، أمُّ ألفونسو عاشت حكاية مماثلة، ولم تستطع الأسرة أن تحيا بسلام، إلا بعد أن طلبت مساعدة الشرطة، جاؤوا وأرغموا الوالد على مغادرة البيت، بعد حفلة تعذيب جماعية، فذهب من دون عودة، وكان في ذلك خلاصهم، لكنهم لم يستطيعوا تجاوز تلك المحنة قط.

تلك اللوحة فتحت كل جراح ألفونسو.

لم تأت "لوردس" لتحدثني عن اللوحة وعن ألفونسو فقط، لكنها أتت تطلب مساعدتي، فلقد قال لها بواب العمارة "فيليثيانو"[(1)]: إنني صحفية، وإن كان لا يبدو عليّ أنني صحفية –كما قال لها– ! وهو – كما قال – لا يعرف إن كنتُ مدّعية، أم أنني صحفية فعلاً، لأن شكلي – كما قال – لا علاقة له بمهنة الصحافة على الإطلاق! ولأنني – كما قال – منهمكة آناء الليل وأطراف النهار في الاهتمام بأولادي، فهو لا يعلم – كما قالت لوردس– متى أعمل في الصحافة! هذا إن كنت صحفية حقًا – كما أقول– !

---

(1) Feliciano: اسم إسباني لاتيني، وأصله - Félix -، ومعناه: المسعود، وهو اسم قديم نادر الاستعمال في المدن الإسبانية

كان الأمر بالنسبة إلى "لوردس" مُلِحًّا وضروريًّا، فقال لها اصعدي وتبيني، فإن كانت صحفية، فاسأليها لعلها تستطيع مساعدتك، وإن كانت مجرد مدّعية.. فلقد عرفتُ منذ البداية أنها مدّعية!

ضحكنا من تصرفات فيليثيانو حتى بردت قهوتنا، قبل أن ندخل فيما غيّر صفو جلستنا، وصفاء ضحكتنا.

كانت لوردس تحضر بحثًا أكاديميًّا في دراسات الشرق الأوسط، وكانت تعمل على موضوع تقسيم السودان، منذ ثلاثة أعوام، راجية أن تنال عليه درجة الدكتوراه مطلع 1990.

قلت لها في تعجب شديد من اهتمامها بالموضوع، ومدى أهميته بالنسبة إلى تلك الجامعة: السودان هو سودان واحد، ولايمكن تقسيمه.

– لكن كل شيء يشير إلى حتمية تقسيمه!

– وكيف ذلك؟

– المسلمون يضطهدون الأقليات، والمسيحيون لن يرضوا بهذا بعد الآن، وقد نظموا أنفسهم، وضبطوا كل الأمور التي تسير باتجاه التقسيم!

– أظن أن المنطقة مقسمة بما فيه الكفاية ليتم المزيد من التقسيم، غريب جدًّا اهتمامك أصلاً بهذا الموضوع الذي لا نكاد نلقي له بالاً في بلادنا.

– أنا كاثوليكية متدينة، ودراستي في العلوم السياسية، تجعلني على اطلاع مباشر على المظالم التي يتعرض لها المسيحيون في بلادكم.

- بصراحة أنا متفاجئة تمامًا من هذا الكلام، لا يوجد قوم يستوعبون الأقليات، يحمونهم، ويمنحونهم حرياتهم كاملة كما نفعل في بلادنا.. إذا قارنت وضع المسلمين في إسبانيا بوضع المسيحيين في سورية.... .

قاطعتني "لوردس" قائلة: في السودان المذابح ضد المسيحيين يومية، وفي بلادكم، المسيحين ليسوا مهاجرين، ولكنهم أصحاب البلاد الأصليين!

فوجئت بهذا الهجوم غير اللائق البتة، قلت لها في هدوء المستنكر:

- "الأقليات" الدينية، لا تقتصر في بلادنا على المسيحيين يا سيدة، بل إن هنالك الكثير من الطوائف والفرق والانتماءات الدينية، ثم.. ماذا تقصدين بمصطلح "سكان البلاد الأصليين".. ما هذا الكلام العجيب الغريب؟

- أقصد مع كل الاحترام، أنكم أنتم الدخلاء عليهم!

- دخلاء؟ ماذا؟ هل تُعدّين مسلمي سورية مثلاً أو مسلمي فلسطين دخلاء على هذه البلاد؟؟ يا سيدتي اسمحي لي، يبدو أن التحضير للدكتوراه الذي تقومين به يسير في اتجاه مغاير لكثير من الحقائق.. أهل تلك البلاد دخلوا في الإسلام، فالمسلمون والمسيحيون في تلك البلاد هم أهل البلاد، ثم إن الحاضر لا يمكن محاكمته للتاريخ بهذا الشكل التدميري المريع..

*****

منذ اليوم الأول الذي استأجرنا فيه هذه الدار في منطقة الباغوادا، كان كل جيراننا في البناء – إلا القلة النادرة – يتعاملون معي شخصيًّا في مودة واحترام، إلا "فيليثيانو" العجوز بواب العمارة، الذي اتخذ مني موقفًا عدائيًّا غير مفهوم، كانت كراهيته لي أكثر من أن يستطيع إخفاءها، وطال صبري عليه ونفد، وخصوصًا أنني أراه يقدم كل فروض الطاعة لزوجي الطبيب، ويبدي له من الاحترام العجب العجاب، ويستشيره في أمراضه في كل مرة تقع عينه عليه، إلا إنه كان معي ومع بناتي مخلوقًا في غاية الوضاعة.

كلما هبطت في المصعد، دخل بمكنسته بعد خروجنا منه، وبدأ يهش بها هنا وهناك، وكأنني كنت أحمل الزبالة وأنثرها فيه، وكلما أردت الصعود.. حام حولي وحول البنات، متمتمًا بأن ثلاثة أولاد يشكلون قبيلة! ومع العربة وما ابتعته من الباغودا، فإن المصعد لن يحتمل مثل هذا الوزن الفظيع!

كلما جاء أحد لزيارتي، اتصل بي من هاتف البناء الداخلي، صائحًا: أرجو أن تُنبهي ضيوفك أن هذا بناء محترم وليس "مورّيرّيا"[1]!

مرة أعلن تلفزيون مدريد، عن جمع تبرعات لإغاثة الذين تعرضوا لكارثة فيضانات في المغرب، وبدأ كل الجيران يأتون

---

(1) مجمع للموروس بمعنى "موريلانديا"، على وزن "ديزنيلانديا".

بالبطانيات، والمواد الخاصة برعاية الأطفال والنساء، والأدوية، والأغذية المعلبة، وجئت يومها بلحافين، تركتهما مع كومة المساعدات في مدخل العمارة.

فصارت عيناه تدوران في محجريهما، وهو يهمس لماريا دولورس، الممرضة خالة "لوردس": هل رأيت المورا؟ جاءت ببطانيتين جديدتين، لو أن الزلزال ضرب أوبييدو[1]، لما تبرَّعَت بكأس ماء، لكن المورورس يَحُنّون بعضهم على بعض!

أسكتته ماريا دولورس، ونهرته: استحي على نفسك فيليثيانو، كل الجيران أتوا بالمساعدات، وهذه المورا، كانت أول من ساعدنا يوم انتحرت "كريستينا"[2]، ورمت بنفسها من الطابق الخامس! هذه المورا لم تألُ جهدًا في مساعدة أمّ كريستينا، وحملت مسبلاً غاليًا جاءتنا به لنغطيها، بكت معنا ذلك الحدث الرهيب، وذهبت إلى الكنيسة لمشاركتنا أحزاننا، وحضرت معنا الصلاة من أجل السلام لروحها.. ماذا دهاك؟

لم أرد عليهما حرفًا، صعدت إلى بيتي وأنا في غاية القهر والحنق منه ومن تصرفاته معي.. ودعوت الله أن يأخذه ويريحُني منه.

لمّا عدت في اليوم التالي، بعد أن أوصلت البنات إلى المدرسة، فوجئت بورقة نعوة كبيرة، معلقة على باب المصعد! حدّقت في الورقة، مرة ومرات! ولم أستوعب ما أقرأ، لم أصدق عيني، بكل بساطة وواقعية، لقد مات فيليثيانو!! مات، واستجاب الله دعائي!

---

(1) Oviedo مدينة في شمال إسبانيا، عاصمة إقليم "إمارة أستورياس".

(2) Cristina اسم مؤنث إسباني أصله إغريقي، ومعناه: من أتباع كريستو/المسيح المعبود.

لقد قتلتُ الرجل بدعائي!

بعد مراوحة ساعات بين الشعور بالذنب، والدهشة، والعجب، والصدمة.. انتابتني حالة خاصة! إذ ظننت في نفسي البركة والولاية! استجمعت قواي العقلية، ورأيت أن أنتهز الفرصة الاستثنائية، فرحت أدعو على معلمة ابنتي التي كانت حينذاك في الصف الأول الابتدائي، وكانت تسومنا سوء الفهم والمعاملة، وقلة الذوق، ودعوت على بقال في سوق ساحة "فون ساغرادا"، وقد باعني جبنًا أصابه العفن، ظنا منه أنني أجنبية غبية! كما دعوت على موظف الاستقبال في قسم أمراض القلب، الذي يُذيقني مُرّ "الاستقبال"، كلما قصدت عيادة الدكتور "دل الكاستيو"، يصرخ ويعلو صوته، ويكلمني بالإشارات، ظنًّا منه أنني لا أفهم الإسبانية، على الرغم من أنه رآني أنطق بها وأعقل.

فقلت أدعو عليه، وأرتاح من نصف عبء زيارة "طبيب القلب"! ففي التعامل مع "دل الكاستيو" وحده ما يكفي من الإزعاج، وارتفاع الضغط، واضطرابات الأمعاء.

تذكرت كذلك سائق تاكسي، عاملني في غاية من الفظاظة، وقلة الذوق، وسوء الأدب، وصار يصرخ في البُنية الصغيرة، التي لا يتجاوز عمرها ثلاثة أعوام، لأنها داست "بحذائها" مقعد السيارة – كما قال–! ودعوت على مذيعة في القناة التلفزيونية الثانية التعليمية، خرجت تتحدث عن رسول الله، بأقبح الألفاظ وبما لا يليق!

ثم جلست أنتظر تأثير دعائي، الذي بدا لي أنه يُحْمَل على أكف الملائكة، فيخترق السموات السبع!

ولكن.. ولله الحمد لم يمت أحد! لم يحدث شيء، ولم

تنزل بالمزعجين صاعقة ولا مصيبة! ولا اشتكى أحد من رشح ولا كتم ولا مغص!

لم يكن هنالك بُدٌّ من خروجي من حالة الاعتكاف والفتوحات، وأن أعود إلى الواقع من جديد، واترك الانتظار والدعاء على الناس وأستبدله بدعاء واحد، أردده وأنا أسير في طريق الحياة، أعيش وأدع الناس تعيش بسلام: "الله يهدي الإسبان ويصلح المسلمين".. من دون أن يبارحني، ذلك الشعور بالمرارة والذنب، أن دعوت على بواب البناية.. فمات!

انتبهت من نشوة اختلاط المشاعر، وعدت إلى التفكير السليم.. لعل بائع الجبن ذاك باعني نوعًا خاصًّا من الجبن، هو في أصله يباع متعفنًا، على شاكلة "شنكليش" بلادنا؟

لعلي أنا التي لم أفهم مشكلة المعلمة مع ابنتي، فلقد قَصّرتُ في تدريسها اللغة الإسبانية، وفي انتظامها في الذهاب إلى المدرسة، تقصيرًا فادحًا في أثناء السنة التحضيرية، ظنًّا مني أنني سأعلمها العربية في البيت أولاً! وأن الذهاب إلى المدرسة هو للتسلية واللعب! ولم أفهم إلا متأخرة أن السنتين التحضيريتين قبل الصف الأول في إسبانيا، هما تأسيسيتان، أساسيتان في تربية الطفل، وتوجيهه وزرع القدرة على التعلم والانضباط في دماغه.

كنت خائفة أن تضيع لغتها الأم، ما كنت أعرف في هاتيك الأيام، أن الطفل، يجيد اللغة التي تحدثه بها أمه، مهما تعلم من لغات لاحقات، لم أفهم أن الأطفال في إسبانيا يجب أن يدخلوا المدرسة والصف الأول الابتدائي، وقد أتقنوا الكتابة، والقراءة، والفهم، والتكلم باللغة الرسمية، وبعض عمليات الحساب.

آذيت ابنتيَّ من حيث أردت الإصلاح، وأججت أحقاد تلك المعلمة الصارمة.

كانت إسبانيا تتقدم بخطى هائلة مدهشة، في مجالي التربية والتعليم، حين كان كثيرون منا يخلطون بين العمليتين والأمرين، ونظن على الرغم من ذلك أننا أعلم أهل الأرض جميعًا.

كنّا في جاليتنا نعاني حالاً محزنة، من التخبط بشأن تعليم أولادنا وتربيتهم، فأكبرنا لم يتجاوز الأربعين من عمره، ومعظم من أعرفهن من النساء، تتراوح أعمارهن ما بين الخامسة والعشرين والثلاثين، لم يكن لهذه الجالية كبير ينصح، أو يُعَلّم، أو يُقَدّم تجربته للآخرين ليستفيدوا منها.. وكلما جاءت أمّ أحدهم أو إحداهن، لزيارته، صارت "أمّ الجميع"، وبدأت تمارس وظيفتها في التوجيه والإرشاد، بما ربّت عليه ابنها أو ابنتها قبل ثلاثة عقود، في الوطن البعيد، من دون أن يكون لما تقوله وتنصح به، أدنى صلة بأوضاع الناس في الغربة.

كان الزوار الآتون من بلادنا –وما زالوا– أبعد ما يكونون عن فهم ملابسات وجودنا في الغرب وإدراك مشكلات حياتنا فيه.

ناهيك عن المصيبة الكبرى، التي نتلبس بها، وهي أن معظم أفراد جاليتنا، يتصورون أننا أفضل خلق الله، على سطح هذا الكوكب، وأن كوننا مسلمين – وسوريين على وجه التخصيص – يسمح لنا بالاستعلاء، حتى لو كنا لا نقوم بشيء من واجباتنا الإسلامية، في التفكر، والتدبر، والنمو، والتطور، بالضبط، كالرجل الذي يعتقد أن أفضليته هي في ذكورته، من دون أن يقوم بشيء من واجبات الرجولة، ومقتضيات القوامة، ومعاني المروءة، وكالطبيب الذي يعتقد أن دراسة الطب، تخوله الخوض في السياسة، وفي الفكر، وفي الثقافة، وفي الإعلام، وفي المجتمع والدين والدنيا والآخرة!

كلما ذهبتُ وأولادي، إلى "جمعيتنا" للصلاة، ولتمضية فترة ما بعد الظهر هناك، بصحبة اللائذات بالجمعية وأولادهن، وجدت نفسي وسط معارك القيل والقال، فيما يتعلق بدخول الأولاد المدارس، وخصوصًا مع أم مالك الطبيبة السورية، نفسها المعترضة على تقشير الإجاصة بالسكين! والتي لا توجد وسيلة للتفاهم معها، لقسوتها وطريقتها الفجة في التعامل مع الآخرين.

سألتها مرة، عندما ذكرتْ أنها طبخت "ملفوفًا محشيًّا باللحم والرز".. أن تعلّمني طريقة صنعها، فنحن لم نذقها منذ غادرت سورية؟

فقالت بكل جلافة: ألا تعرفين طبخ الملفوف؟ كان الله في عون زوجك المسكين!

– لا.. للأسف، ولا يعيبني أن لا أعرف، ولكن أن أستكبر على التعلم! أنا أتعلم الطبخ شيئًا فشيئًا من الجميع، وهنا المواد لا تشبه مواد الطبخ في الشام.

ضحكت في سخرية وأردفت: كيف لا تشبه مواد الطبخ في الشام؟ يعني الملفوف هنا هو خضار غريبة طعمها غريب!

– لا ليس من الخضار الغريبة المختلفة، ولكن لا شكله ولا طعمه كالملفوف في الشام، ثم ألا ترين أن الكوسا هنا مختلفة حجمًا وشكلاً وطعمًا، عن كوسا الشام، وكذلك الخيار والباذنجان.. إنها تنوعات الفصائل النباتية.

– يعني تريدين أن تبرري فشلك في الطبخ، بمعلوماتك في العلوم الطبيعية، هذا مضحك!

– لك أختي، طلبنا منك تعلم الطبخة لا أكثر ولا أقل!

– أنت هنا في إسبانيا منذ سبعة أعوام ولا تعرفين طبخ الملفوف!

– لا.. لا أحسنه، ولو كنت أحسنه ما طلبت منك أن تعلميني!

تدخلت أخت مغربية، كانت تجلس إلى جوارنا، فقالت لها متأففة، اللهم إليك المشتكى، طلبت منك تعليمها طبخة، ففتحت لها ملف تحقيق كامل، معظمنا تزوجنا صغيرات ولا نعرف الطبخ.

استدارت نحو حورية وقالت لها: ماذا تقصدين؟ أنني تزوجت متأخرة؟ حبيبتي أنا كنت أدرس الطب وأختص، ولم أكن مستقتلة على الزواج!

قالت حورية وهي تضحك محاولة تلطيف الجو: لا إله الا الله الحليم العليم.. هات علمينا طريقة طبخ الملفوف، خلصينا، وأعتقينا لوجه الله تعالى.

فقالت أم مالك: خذوا رأس الملفوف واسلقوه، ثم فكوه، ولفوه..

قلت: هي تلك المشكلة، أنه هنا كبيرٌ جدًّا، لا يدخل في أيّ طنجرة، ولا يمكن لا فكه ولا تركيبه.. من أجل هذا سألتك أختي الكريمة.

قالت أم مالك: ما دمت قد سألتني لتتسلي، لا لتتعلمي، فدبري نفسك.

ثم التفتتْ إلى حورية، وراحت تتكلم معها مغيرة مجرى الحديث، من دون أن أستفيد شيئًا من سؤالها عن طبخة الملفوف "المشحرة"، وما فتئت أذكر تلك المحادثة بحذافيرها، كلما طبخت الملفوف إياه، فلا أدري أضحك أم أبكي!

– ماذا يفعل أولادك أختي "حورية" في المدارس الإسبانية؟

– يتعلمون فيها كيف يتعلمون.

– هذا كفر وتفلت.. ولو تلاعبت بالألفاظ وقلّبت بها لسانك!

- أنا لا أقلب لساني، أنا مختصة بتعليم تجويد القرآن، ولذلك أعرف استخدام الألفاظ يا دكتورة.. ثم إنني أرجو ألّا تجعلي الأمر أمر كفر وإيمان، الأمر متعبٌ ومنهكٌ للوالدين، ولكننا نسدد، ونقارب، ونراقب، ونلاحق، ونشتغل، ثم إن 99 في المئة من أولاد المسلمين يرتادون المدارس الإسبانية.. وليس أولادي وحدهم.

- مناهج سورية أفضل من مناهج إسبانيا بمئة مرة.

- ومن أين آتي أنا هنا بمناهج سورية، المتقدمة، المتطورة، الرائعة؟ حتى مناهجنا في الجزائر جيدة ومفيدة، ولكن ما علاقة هذا بأوضاعنا التعليمية والتربوية هنا في إسبانيا؟ وإذا كانت مناهج سورية أفضل من مناهج إسبانيا التربوية، فلماذا أنتم في سورية متخلفون عن إسبانيا بمئة مرة على الأقل؟

- نحن لسنا متخلفين يا أخت حورية، سورية بلد متقدم، وأحسن من إسبانيا بكثير، لكنك أنت تشعرين بالنقص.

- طيب إذا كان الأمر كذلك، يا ست أم مالك، فماذا تفعلين أنت هنا، ولماذا لم تبقي في سورية المتقدمة تقدمًا مذهلاً؟

- لأن زوجي يتخصص هنا، وأنا التحقت به.

حشرت هيفاء السورية نفسها في المحادثة، وهي تنظر إليّ متأسفة، خوف أن يأخذ الحديث منحى صراع هويات وطنية، ووجهتْ الكلام للدكتورة أمّ مالك، التي أعرفها منذ أيامنا في الجامعة، وقالت:

- ولماذا لم يجد اختصاصًا في سورية أختي أم مالك؟ وجاء إلى إسبانيا، ما دامت سورية أفضل من إسبانيا في النواحي التعليمية، كما تقولين؟ سبحان الله.. بأي شيء تتقدم سورية على

إسبانيا؟ بالصناعة؟ بالزراعة؟ بالمنتوجات الحربية؟ بمستوى الجامعات؟ بوضع المرأة؟ بوضع الاطفال؟ بتنظيم المجتمع؟ بالدخل القومي؟! أم بالحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان؟! بأي شيء؟

أزعج أم مالك تدخل هيفاء الهجومي في الموضوع، وإعادته إلى مساره الطبيعي، قبل أن ينقلب إلى حرب جزائرية – سورية، تنذر بشر عظيم، وقالت في استعلاء وثقة مطلقة:

- بالإسلام!!

- يا عزيزتي.... عن أي إسلام تتكلمين؟ إسلام الدولة؟ أم إسلام الناس؟! الإسلام يَسمو بأهله أينما وجدوا، سواء كان ذلك في سورية أو إسبانيا أو الواق الواق، والبلاد لا تكون متفوقة لأن أهلها مسلمون أو غير مسلمين، لكنها تتفوق بالعدل، وتحيا بالحرية، وتنهض بمنح الناس كرامتهم، وحقوقهم، وهذه أشياء غير موجودة في سورية، بين الناس، ولا فيما بين الحكام والناس.

- المشكلة أنك تشعرين بالنقص أنت كذلك كحورية، وتخضعين للإسبان، وعليك تجديد إيمانك!

- يا أختي العزيزة الله يكرمنا، ويثبتنا، ويرينا الحق حقًّا، ويرزقنا اتباعه.. ويخلصني من الشعور بالنقص، والعبودية للإسبان، أنا والأستاذة حورية وأم ساجدة، ويرزقنا إيمانًا متجددًا.. أيَسُرّك هذا؟

- إذا كنت تسخرين من نصيحتي لك، فانتظري أن يمسخك الله، ويبتليك في أولادك بما لا طاقة لك به!

- سبحان الله على هذا المنطق، وهذا الحقد، يا أختي أنا لا أسخر من نصيحتك، لكن كل أسرة في الجالية تفكر، وتسدد، وتقارب بما يمكن، وما تستطيعه، ثم يختار الناس ما يرونه مناسبًا

لأوضاعهم وقدراتهم، ويجتهدون لتغطية النقص لديهم، ونسأل الله العافية.

- سترين نتيجة أفعالك هذه.. سترين البلاء عندما ينزل!

- طيب يا أختي العزيزة.. ادعي لنا الله أن يعيننا، تمني لنا العافية، تَكَرَّمي علينا بالمساعدة، اجبري خاطرنا بكلمة تشجيع، لكل ما ترينه من جهود جبارة، نبذلها للتوفيق بين الحفاظ على هوية الأولاد واستمرارهم في المدرسة الإسبانية.

- أنتم فاسقون ولا تستحقون.. وسترون!

***

تجعلك "الغربة" وأنت المزروع فيها بين بلدين، وثقافتين، ولغتين، ومجتمعين، بين الماضي "الآمن"، والحاضر "المرعب"، تجعلك الغربة مترددًا، تتخبط ما بين الخوف من الخطأ، والأمل بالقيام بالصواب، حيران متوجسًا، ما بين "الإخوة" و"الإخوة الأعداء" و"الإخوة المتوحشين"!

تجعلك "الغربة"، جزءًا من خلطة بشرية، متنوعة، متنافرة، يختلف الناس فيها، يتناقشون، ويتشاجرون، حتى على فهم والتزام أبسط العادات والتقاليد، والمصطلحات والسلوكيات، وعلى الرغم من أن أفراد هذه الجالية المدريدية، أصبحوا أهلك وإخوانك وغطاءك ولحافك، فإنك تجد نفسك في غربة على الغربة، وسط جو موبوء بالمشاحنات التنافسية، السفسطائية، المقيتة، يفتقد الناس فيه، المودة والرحمة، والأنس بعضهم ببعض.. لتتلخص كل أدوات تواصلهم فيما بينهم، بلغة انتقاد شخصي وقح متّهِم، ونقاشات تافهة حينًا، مهمة حينًا آخر، لا تقف عند حدود الاحترام المتبادل، ولا الأخوة المتوقعة، ولا حتى رحمة الغرباء بعضهم بعضًا.

الغريب للغريب طوق نجاة، والغربة للغرباء نسبٌ وانتماء، وستكتشف لاحقًا أن طوق النجاة هذا، قد يصيبك بالاختناق.. يمنعك من القدرة على أن تتنفس هواءً نقيًّا، تملأ به رئتيك بعد رحلة السباحة الطويلة الشاقة التي خُضْتَها بحثًا عن حريتك!

يا لعارنا، ونحن نفتقد في تعاملنا بعضنا مع بعض، أبسط درجات الاحترام والرأفة، ومنح من يخالفنا الرأي، بعض هامش من تفهم آلامه ومبرراته.

أغبط الإسبان على علاقاتهم البينية الوطيدة، وعلى صداقاتهم المستديمة، وعلى صراحتهم المنضبطة، وعلى نقاشاتهم التي لا يمكن أن تصل درجة القطيعة من دون رجعة، وعلى خلافاتهم التي لا يسمحون لها بأن تفسد المودة فيما بينهم.

بعد كل ما جرى بيني وبين لوردس من نقاش عنيف، وخلاف في الرأي، بدا أنه لا لقاء بعده، جاءت لزيارتي من جديد، شربنا القهوة، وكنت قد دعوت "مارتا"[1] المسلمة الإسبانية المتزوجة من سوري، لتشاركنا لقاءنا، وهي شابة في عمرنا، كانت قد تأهلت للمساعدة في المعالجة الفيزيائية، لكنها تعمل في بيتها في حياكة الملابس الصوفية الفنية، فتبيعها أمها في الكنيسة أو في إحدى أسواق الأحد التي تُنصب في مركز مدريد، حيث تسكن أمها المدريدية أبًا عن جدّ، تجمعها بابنتها علاقة "إعصارية"، طالما هبت رياحها العاتيات، وأصابتني بوابل صبّها، أو لطمتني بعض أغصان أشجارها المتكسرة، تحملها تلك الرياح من دون هدى.

قضينا وقتًا غنيًا، ولم يكن جميلاً بسبب وجود مارتا، حتى إنني ندمت على دعوتها، فلقد عبّرت لها لورديس عن استغرابها

---

(1) Marta اسم مؤنث إسباني من أصل عبري ، يعني بالعربية "السيدة".

الشديد، وامتعاضها من اكتشافها أنها مسلمة، تتحدر من أسرة مدريدية خالصة – كما وصفتها –! وأما مارتا، فلقد ردّت عليها ردًّا شديد القسوة، إذ ذكرتها بأنها تعيش في دولة ملحدة، ولا ينبغي لأحد أن يتدخل في قناعات أحد الدينية.

وأنها أي مارتا، كانت قد كفرت بأكاذيب الحرية، ونفاق الديمقراطية، قبل أن تكفر بأي شيء آخر في حياتها!

صرفنا الحديث إلى اتجاه آخر، قبل أن ينقلب إلى معركة محمومة، ولئن كان من شيء يمتاز ويبرع فيه معظم الإسبان، فهو إنقاذ علاقاتهم الاجتماعية من الغرق، والخروج بأخف الأضرار الممكنة.

تحدثنا عن "رشا"، وعن وضع المرأة المؤلم في سورية كما في إسبانيا، وأن الألم الإنساني يجمع الناس ولا يفرقهم، حكت لوردس عن رغبتها في الزواج والإنجاب، لكن ألفونسو لا يريد.. وما يفتأ يقول: انهما يعيشان معا منذ سنوات، وأنهما متفاهمان على كل شيء فما حاجتهما إلى جعل الأمور رسمية معقدة!.

كانت لوردس تشعر أنها تتقدم في العمر، وأنها في حاجة إلى اختبار مشاعر الأمومة، الشيء الذي لا يفهمه الرجال – كما قالت – ثم أردفت: الأمر عندكم مختلف، أنتما أصغر مني سنًّا، وكلاكما أمّ ولأكثر من طفل، يبدو أن حب التملك لدى رجالكم يفوق أنانيتهم الذكورية!

عندما وصلنا إلى هذه النقطة من النقاش، ووجدنا أن الأمر سينتهي بنا من جديد إلى مشادة أخرى، قطعتُ الحديث، وقمت إلى بُنياتي أساعدهن فيما هنّ فيه، وتشاركنا جميعًا أنا ولوردس والبنات، بناء الأبراج من تلك المكعبات الصغيرة الملونة.. اللعبة المفضلة في بيتنا.

ما أسهل أن تهدم برجًا، بنيته من عشرات المكعبات الصغيرة الملونة المختلفة الأحجام والأشكال، وما أصعب أن تحافظ عليه كما هو. . قطعة فنية وحيدة، في كل مرة نبني فيها "برج المكعبات" هذا، نساهم في تلوين الحياة، والحفاظ على مكاننا فيها، بكل ما يقتضيه ذلك من الحفاظ على توازننا ونحن نسكن إحدى جنباته.

كانت علاقاتنا الاجتماعية، فيما بيننا في الجالية، تمر من ثقب إبرة التنافس، والتحاسد، والتناجش، والتنابز بالألقاب، والتكبر، وفرض الرأي على الآخرين، إلى درجة أن بعضهم وأثناء جلساتنا شبه اليومية تلك في باحة المسجد الخارجية - والتي كنا نستعيض بها عن أخذ أولادنا إلى الحديقة -، كانوا يوجهون إلى بعضهم الآخر، إهانات لا تقتصر على الكلمات البذيئة، والشتائم المُذلّة، بل تصل في بعض الأحيان، درجة التدافع بالأيدي، والاعتداء على أطفال الآخرين بالدفع، وأبلغ أنواع سوء المعاملة النفسية!

وعلى الرغم من أن الإسبان، مشهورون بالحسد فيما بينهم، فإنهم يدركون ذلك ويعترفون به ويتندرون بمرضهم هذا، لكنهم يعرفون كيف يديرون خلافاتهم من دون قطيعة، كنوع من أنواع المعالجة الذاتية، أما نحن.. فلطالما خلّفنا وراءنا "إخوة" و"أخوات" في درب الغربة المرير الطويل هذا، بسبب سوء فهم، أو سوء ظن، أو سوء تصرف.

معظمنا.. وعلى عكس كل ما يمكن أن يُنْتَظَر منا كأمة أخلاقية.. لا نحسن الاعتذار، ولا نعرف الغفران، ولا نتلطف في النقد، ولا نحسن النصيحة، ونمتنع عن التجاوز عن زلات الآخرين.. ونكره أن نعترف لأحدنا بالتفوق والأفضلية.

كانت دربنا ملأى بجثثنا المتفسخة.. وكانت الغربان تنهش ذكرياتنا التي تركناها على قارعة تلك الدرب، كلما فقدنا أخًا أو صديقًا، ومن دون أمل بعودة أو مصالحة.

لكأن الإسبان "هُم" الذين يرقبون في إخوانهم إلاًّ وذمة، ولكأننا "نحن" الكافرون بأنعم الله علينا، في أعظم ما يمكن أن يمنحه الرقي الإنساني للبشرية : الأخوة في الله.

"حسناء" شابة فلسطينية في الرابعة والثلاثين من عمرها، تفرغت لبيتها وأبنائها، على الرغم من إجازتها في التربية والتعليم، فنّانة رسّامة تمتلك مهارات يدوية لافتة، قصيرة القامة، ممتلئة الجسم، حسنة الوجه والخلقة والأخلاق، قوية الشخصية، متزنة، أنيقة، هادئة، أحببتها منذ تعرفت عليها في مسجد الجمعية، ووجدت فيها شخصية متميزة عن كل من حولنا من الشخصيات "البارزة" بروزًا يسد على الآخرين منافذ التنفس.

أشياء كثيرة شدتني إليها، جمعتنا أخوة في الله وصداقة كبيرة مثمرة، كنا نتعاون في كثير من النشاطات الاجتماعية للكبار والصغار، خصوصًا في حفل العيد، الذي فكرتُ في إقامته للأولاد المبهورين بالأعياد وبهارجها في إسبانيا، من دون أن يكون لهم أي بديل خاص بهم.

تعاونّا أنا السورية و "حسناء" الفلسطينية، و"ليلى" و"فوزية" المغربيتان، وآنيتا وكونسويلو الإسبانيتان، فأقمنا للأطفال حفلاً رائعًا، يشبه في فكرته ذاك الذي أقمناه "ماري أنخلس" وأنا في غرناطة، جمعناهم فيه، وأشركناهم في نشاطات تعليمية تثقيفية، صنعتُ لهم مسرحًا للعرائس، لم يحتفظ به أحد للاستخدام

لاحقًا، مع أنه الأول من نوعه في جمعيتنا، ولقد وجدته لاحقًا مكسورًا ومحطمًا في حاوية القمامة!.

كثيرة هي الأشياء – وعلى مدى أعوام طويلة – التي وجدتها لاحقًا في حاوية قمامة جمعيتنا، من تلك التي صنعتها مع آخرين، واجتهدنا فيها لخدمة الجالية!.. بعضها لا يقدر بثمن، وبعضها كان استثنائيًّا فرديًّا من نوعه لخدمة الجالية والإسلام، رماها القوم في الزبالة، لسبب بسيط جدًّا، هو أنهم ليسوا "هم" من صنعها أو قدّمها.

ارتَدَت "ليلى" الزي الخاص بإسبينيتة صاحبنا القنفذ بطل مسلسل "حي السمسم" الخاص بالأطفال، ووزعنا عليهم هدايا العيد 114 كتابًا للأطفال! وعلى الأمهات الورد والهدايا المضحكة النُكتيّة، كعبوات التنظيف وأدواته! وأشياء من هذا القبيل.. وجعلتُ الحفل وقفًا على موضوع "القراءة"، لتشجيع أطفالنا على احترام الكتب واقتنائها.

114 طفلاً، يحضرون أول حفل عيد يُقام في مسجد في مدريد، في هاتيك الأيام.. كان عددًا كبيرًا لجالية شابة صغيرة كجاليتنا.

هذا الإقبال الكبير على الحفل، فاجأنا، وجعلنا نرى حجم التحدي الحقيقي لوجود هؤلاء الصغار من حولنا.. كانت أعداد أولادنا، تزداد بسرعة لا تتناسب مع قدراتنا على تأمين ما يحتاجونه، من دعم نفسي، وعمل مضن لتنمية قدراتهم على التشبث بهويتهم، والتمسك بحبل متين يحميهم من الذوبان.

في العيد التالي كان عدد الحضور من الأطفال الضِعف، في الذي يليه لم تتسع قاعة الجمعية الإسلامية في مدريد للحضور، فقررت أن أقيم الحفل للأولاد من دون حضور الأمهات.

بعد ذلك.. جاء من "نشل" الحفل بما فيه، مغتنمًا فرصة غيابي لمرضٍ أَلَمّ بي، فغيّر الحفل والهدف منه، وجعله حفلاً للآباء والأمهات.. حُبِس الصغار بعيدًا في غرفة الحضانة في الطابق الأرضي، يتصايحون ويبكون يوم العيد، بينما الكبار جلوس يصفقون! مستمتعين بحفل العيد في قاعة الاحتفالات!

وهكذا كان..

تعبنا كثيرًا، وبذلنا جهودًا مضنية لإنجاح حفل العيد ذاك، لكن حسناء نالت من الأذى ما أصابها بجرح في القلب والروح يصعب أن يشفى، خصوصًا من صديقتها "المقربة" نبيلة، التي راحت تنتقد كل صغيرة وكبيرة في الحفل، وتعيب على حسناء أن سمحت لابنها بالظهور في تلفزيون مدريد، يتكلم وكأنه هو وأمه فقط من قاما بذلك النشاط، وكأنه ليس بعمل جماعي.

دافعت حسناء عن نفسها وعن ابنها، وقالت لنبيلة، أن الكاميرا التي جاءت تصور الحفل، كانت تصور كل الأطفال، وأنها لم تكن تعرف أنهم اقتطعوا كلام ابنها، وبثّوه وحده، وأنه ليس مُهِمًّا من ظهر في التلفزيون، لكن المهم أن المدريديين أخذوا فكرة عما نصنعه في حفلاتنا.

لم تقتنع نبيلة، واستمرت أيامًا في تأنيب صاحبتها كلما هاتفتها، حتى تسببت لها وهي لا تدري، بحالة خطيرة حُمِلت على إثرها إلى المستشفى!

ذهبتُ أعودها ففاجأتني بهذه الحكاية!

حسناء شابة مرهفة الأحاسيس، دمثة الأخلاق، فنّانة، مبدعة في كل شؤونها، كان يحلو للأُخريات التحرش بها، وتعييرها بأنها تبالغ في ردود أفعالها ومشاعرها، حدّ أن يحملوها أحيانًا على البكاء.

كان التميز في هذه الجالية كارثة على صاحبه!

أمراض كالغيرة والأثرة والأنانية في القلوب، تستتر بعباءة صفيقة، لتنفجر دُمّلاً متقيحًا في أول فرصة سانحة.

وماذا يعني أن يخرج ابن حدّو، أو ابن طنوسيان، في مقابلة تلفزيونية؟ المهم أن نؤدي رسالة، ليس أن "نتبروز" أو يكسر بعضنا برواز وبللور بعض، ويعلو بعضنا على بعض، ويسحب بعضنا البساط من تحت أقدام بعض.

بقي موضوع "الظهور" في وسائل الإعلام الإسبانية، سنوات، مدار جدل وخصام وأحقاد بين أبناء جاليتنا المصونة، قبل أن تحل محلّه صراعاتنا بسبب الظهور في وسائل الإعلام الناطقة بالعربية، والتي بدأت بالتواجد في حياتنا، باهتمامها اللافت حينها، بأوضاع الجاليات المسلمة في الغرب.

شيء "ما" يسير بطريقة خاطئة، شيء "ما" ينبئك أننا نعاني مشكلة أخلاقية خطيرة كجالية، بل كمجتمع، فلم تكن جاليتنا إلا عينة صغيرة دقيقة جدًّا، عن حال المجتمع الكبير الذي ننتمي إليه، والذي نظن أننا خلفناه وراءنا في ذلك الوطن.

كنت أرى نفسي في مرآة الجالية، وأتفحص تقاسيم وجه جاليتنا في مرآة المجتمع الإسباني، وأتفرس في ملامح الصورة الشعاعية للمجتمع الإسباني في الشاشة المضاءة الكاشفة للحضارة والإنسانية.

تكتشف وأنت ترى نفسك في مرآة الآخرين، حجم ارتكاس مجتمعك وإنسانك، في مهاوي الاستبداد والفساد، بعيداً من روح الدين الحقيقية، بعيداً من مُضي العالم بسرعة الضوء، نحو آفاق

جديدة للفكر والفلسفة وبناء المجتمع والنظرة إلى الإنسان.

هنا طرق مختلفة للتعامل بين الناس، وسبل حديثة منتظمة للتعايش في المجتمع، وأدوات أخرى لمد شبكات العلائق فيما بين البشر.

وعلى عكس كل ما كان يُشاع عن الغربيين، تكتشف أن إسبان الثمانينيات والتسعينيات، أشد إيمانًا منا – نحن الآتين من بلاد الشام– بالقضاء والقدر، وأكثر تمسكًا وتماسكًا، وقيامًا بواجب صلات الرحم في عائلاتهم، وأوفر عطفًا وإحسانًا إلى أولادهم، بل إلى حيواناتهم ونباتاتهم.. وأندى منا احترامًا وحرصًا على أصدقائهم.

مجتمعنا مقارنة بمجتمعهم، ليس بخير، طريقة تفكيرنا الاجتماعية منكوسة، آليات فهمنا للأولويات معكوسة، علاقاتنا البينية ليست بخير! وعلاقتنا مع المجتمع المضيف كذلك غير منضبطة.

علينا أن "نفرمل" قليلاً، ونكبح جماح تَحَدُّرِ هذه "المركب" نحو هاوية، وأن نقف لنفكر مليًّا، في أوضاعنا وأخلاقنا الفردية والاجتماعية.

تكتشف وسط هذه الفوضى التي تبعثرك، أنك أصبحت جزءًا من مجتمع جديد عليك، غريب عنك، عليك أن تفهمه وتندمج أو تتعايش معه أو.. تصبر عليه صبر أيوب!

أصبحتَ جزءًا من مجموعة بشرية طارئة في حياتك، غريب عنها كغربتك عن بلدك، لكنك تعرفها وتدرك مكنوناتها، فأنت إليها تنتمي وبها تبقى.. تعيش مرحلة مستحدثة في حياتك، لا تكاد تجد

فيها ما يسرك ولا ما يرضيك، ولا تشكل في الخلاصة، إلا محنة جديدة كبرى في حياتك، لا تختلف كثيرًا أو قليلاً عما خلفته وراءك في بلادك، واجتماع كل ذلك على المرء يصيبه بالتعب والإنهاك.

طرح الأسئلة متعب مرهق، والتفكير في الإجابة أكثر إرهاقًا ومشقةً!

تلتفت إلى الوراء لتجد شيئًا تتمسك به، تتعلق بأهدابه، في مواجهة مشكلتك مع من حولك في غربتك، فإذا أنت أمام غابة مخيفة من الأغصان الواهية الهشة، التي ما إن تتشبَّث بها، حتى تتحطم بين أصابعك، وتسقط على الأرض فتنكسر ركبتك، ثم تقوم من جديد فتمسك بأخرى فتنسحق في قبضتك، وتسقط، فتنكسر كتفك، وتعاود الكَرّة، مرة بعد مرة.. تسقط وتقوم وتعود للإمساك بتلك الأغصان، ثم لا تلبث أن تكتشف أنها لا شيء.. لا منطق أخلاقيًّا، لا قواعد سليمة في التعامل بعضنا مع بعض، ولا قناعات إيمانية حقيقية تسمو بنا وتحول بيننا وبين الفظاظة وغلظة القلب.

الصديق، رفيق الدرب، الصاحب في الغربة، والأخ في الله.. كل منهم جزء من تاريخك على هذه الأرض، فإذا فرّطت فيه وأهنته وخذلته وخنته أو خوّنته.. فقدت بعض تاريخك وبعض هويتك.

لم يكونوا على خطأ أولئك الذين كانوا في بلادنا يعاكسون مَن حَوْلَهم، يختلفون معهم، ويخالفونهم الرأي حول الأوضاع الاجتماعية والأخلاقية السائدة هناك، كانوا على بعض صواب، عندما أحدثوا بينهم وبين مجتمعاتهم تفاصلاً، مؤكدين لمن حولهم أن ما انغلقت عليه هذه المجتمعات لم يكن إسلامًا ولا أخلاقًا.

كانت هوية مجتمعاتنا، تُصنَع في بوتقة العادات والتقاليد، والمفاهيم العقيمة التي توارثها الناس خلال المئتي عام الأخيرة، من دون أن تكون لدى الحكّام الرغبة في تغيير شيء، ومن دون أن تكون لدى الشعوب القدرة على الاستجابة لدعوات التغيير.

كان المصلحون يقولون للناس، بأن هذا الوضع الاجتماعي ليس من الدين في شيء، وإن هذه العادات والتقاليد، التي تحكم حياتنا، لا تمت للإنسانية بصلة، لم تكن غير لفيف من العلاقات القمامية، القائمة على العبث، عبث وسذاجة إنسانية بدائية، وتفاهات فرضها توقف المجتمع عن النمو، بسبب انشغاله بالخلاص من الاستعمار والاستبداد، وما ترتب عنهما في حياتنا، من فساد، وظلم، وقمع، وقهر، وتكميم للأفواه، وحرمان من الحريات.. ليس على المستوى السياسي فحسب، بل لقد أصبح القمع والقهر والحرمان من الحريات، مما يمارسه الناس، في بيوتهم ونواديهم، أشد قسوة وإجرامًا من هذا الذي يعانونه من حكوماتهم!

كنا نعيش حالة اجتماعية مزرية، من الارتكاس الديني والأخلاقي، ونمضي بسرعة مخيفة نحو الهاوية، من دون أن نمتلك القدرة على كبح زمام هذا الانحدار.

تقلص الدين إلى مجموعة من العبادات والمظاهر، واستُلِب من قبل الأنظمة المستبِدة، وغرِق الناس في دقائق الفقه، وشكليات العبادة، وفسيفساء السفسطة العقيدية. . وهدموا نصف الإسلام، المتمثل بالمعاملات والأخلاق.

لا أحد في دمشق الثمانينيات والتسعينيات، يريد أن يستمع إلى هذه "الحقائق"، لا أحد تلفت نظره الخطورة الكامنة، في تركيبة شبكة تلك السلوكيات التي تسود بيننا، تكبل الإنسان

والمجتمع، لا أحد يحاول، أن يضع حدًّا لتلك الأخلاقيات، التي تهبط بالإنسان في بلادنا إلى مرتبة التقهقر الموجع، والدمار الذي لا مفر منه.

كان أمام الرافضين لهذه الأوضاع المخزية في تلك الفترة، في مجتمعاتنا، أحد طريقين، إما الانسلاخ جملة وتفصيلاً عن الهوية، وإما الهجرة.. بحثًا عن أرض يمكنك أن تعيش فيها هويتك كما تريد، لا كما يرغمك عليه مجتمع مقبل على انتحار معلن.

كغريب مهاجر.. حذار أن يتحطم رأسك عندما تقع، وإياك أن تصاب جمجمتك بسوء، احرص على أن يسلم دماغك، حتى تستطيع أن تفكر وتختار، كيلا تذوب وتتلاشى، وحتى تتمكن من بناء قناعاتك السليمة من جديد، خذ من ديارك التي جئت منها نور الحق، وضياء الحقيقة، وذلك القبس الذي يهديك إلى أصل الأشياء ومنتهاها، وتعلم في بلد المهجر الذي وجدت نفسك فيه، قواعد المنطق، وأصول الإنسانية، وتَنَعّم فيه برياض المعرفة، وامنح نفسك فرصة للبناء.

*****

إذا ما نزل بالمرء القدر المحتوم وقرر الذهاب إلى النزهة المفضلة في هاتيك الأيام لدى أفراد جاليتنا الموقرة، وهي ضاحية "التلفريكو" فإن عليه أن يتأهب لذلك قبل أسبوع، ليس من جهة صُنْعِ الطعام وإعداد حاجيات الرحلة فحسب، بل عليه الاستعداد والتفكير في كل كبيرة وصغيرة، في مواجهة أفراد الجالية الكريمة من جهة، ومواجهة المواطنين الإسبان الأشاوس من جهة أخرى! يذهب واحدنا إلى السيران[1]، وكأنه ذاهبٌ إلى امتحانٍ لدخول السلك الدبلوماسي، يلبس أولاده لباس الذاهبين إلى عرس المختار، ويسرح شعورهم، وينظف حذاءه، وأحذيتهم، وقبل ذلك وبعده يستعيذ بالله من الهمّ والحزن، وأن يَظلم أو يُظلم، أو يَجهَل أو يُجهل عليه.. ما بين العربان والإسبان.

وهنالك في التلفريكو – teleférico – ووسط إخواننا في الإنسانية أبناء الشعب الإسباني، يترتب على المرء أن يضبط أعصابه إلى أبعد حدود ضبط الأعصاب! إذ ليس من السهل عليه أن يأكل في حضرة عشرات الأعين التي تنحشر مقحمة نفسها في صحن من الفول المدمس! فتحلل مواده الأولية – ولا نبالغ – وتتفحص مرقه وبقدونسه وبندورته وملحه وحمضه – ولا نبالغ –!

كما عليك تنظيف المائدة قبل الطعام وبعده، كي لا يقال: إن "الموروس" قذرون، وأن تلملم الأقذار والفُتات التي رماها أولادك، وأولاد كل مرافقيك الذين يبدون هناك من دون إحساسٍ بما يجري

(1) كلمة السيران كلمة عربية فصحى "سَيَرانٌ"، جاء ذكره في الشعر/معجم تاج العروس، وهو في لهجة بلاد الشام: النزهة.

من حولهم، وأحيانًا وللأسف الشديد يبدون وكأنه لا أدب ولا سلوك منضبط! فالرجال يتركون الطعام ويقومون إلى شرب الشاي، والأولاد يرمون بكل القاذورات، فوق العشب وأماكن الزهور وفي ممرات الناس، على الرغم من وجود عشرات صناديق القمامة في كل مكان، والنساء وفي سلوك معاكس تمامًا لنظافتهن وتفانيهن المعروف في ترتيب بيوتهن، تبالغن في إهمال حفاضات أطفالهن القذرة على قارعة الطريق، يرمين فوقها قشر البطيخ بعد أكله باليد من دون شوكة أو منديل، على مرأى ومسمع من الإسبان، الذين لا تعني النزهات في قواميسهم الأكل فحسب، فالنزهة في قناعاتهم، تمشٍ على الأقدام، ورياضة للنفس في أحضان الطبيعة، وعناية فائقة بالأطفال، واستمرار لعملية التربية التي تتعاضد فيها المدرسة مع وسائل الإعلام مع المجتمع، الأبوان والأجداد والعمات والخالات والأعمام وأبناء العمومة إلى الدرجة الخمسين، يمارسون تربية أطفالهم وتعليمهم في البيت، وفي الشارع، وفي السوق، وفي الحديقة، وفي المسرح، وفي النزهة، وفي المطعم.

عملية مستمرة متكاملة، لا تكاد تتوقف، ولا حتى في أثناء نوم الطفل، النزهة عند الإسبان، تخفف من أعباء الحياة اليومية، تعايش مع الطبيعة، تقارب بين الناس، مساهمة في حماية البيئة، ولا تعني عندهم الأكل فحسب.. وحتى إن أكلوا فيها، أكلوا وشربوا، وكأنهم في مأدبة عشاء، سكينة وهدوء وانضباط ونظافة، تتخللها الأحاديث الوديّة، والضحكات المتبادلة، وحتى المشاجرات، لا يرتفع فيها صوت، وإن ارتفع لا يتعدى حدود تلك النقاشات العائلية، أو بين الأصدقاء.. ويكون الأطفال في نزهتهم محط عناية الجميع ورعايتهم، ينشغلون في إكرامهم وتدليلهم وتعليمهم وتأديبهم في كل لحظة من حياتهم، وجعلهم قرة العين ونجوم الرحلة والمائدة.

بَصْمَتُنا في نزهاتنا.. الضجيج، المشادات، والمشاكسات، والقاذورات، والأكل والشرب، التي هي عماد النزهة، الطعام، ثم الفاكهة، ثم الحلوى، ثم الموالح، ثم القهوة، ثم الشاي، ثم نجدد الطعام، وهكذا دواليك، جلوسٌ لا يتحرك فينا إلا أفواهنا، ماعدا القلة النادرة.

لا مكان للأولاد بين الرجال، ينأون بأنفسهم عن المشهد، فلا يستطيعون الاقتراب منهم، يريدون أن يرتاحوا بعيدًا من صخب النساء وأصوات الأولاد، وكأنهم لا يعيشون بعيدًا منهم جلّ أيامهم ولياليهم في مشاغلهم وأعمالهم ونشاطاتهم!

تدفع الأمهات بِدَورهن، الأولاد بعيدًا منهن كذلك، يعطينهم شطائر ملفوفة ليتسلوا بالأكل وهم يلعبون، من حقهن بعض الراحة والاستجمام، ومن واجب الآباء أن يحملوا قليلاً من العبء والمسؤولية، الشيء الذي لم نره في جاليتنا، إلا في الجيل اللاحق من المهاجرين، الذين بدوا آباء يعرفون معنى حمل مسؤولية أسرهم، ويتمتعون بصحبة نسائهم وأطفالهم.

تستسلم النساء للجَمْع الذي أصبحت النزهة فيه تعني نقاشات حادة، وتدخلات، يحشر فيها كلٌّ أنفه فيما لا يعنيه، وأسئلة خاصة محرجة، عن كل كبيرة وصغيرة في حياة الأخريات.. وما يستدعيه ذلك من تعليقات لاذعة، وملاحظات مؤلمة، وتكذيب، وشجب، واستقباح، واحتقار، وإهانات متبادلة، كانت ديدن بعضهن خصوصًا من أكابر "المتشمخرات"[1]، وطريقتهن التي سنّنها بين الناس للتعامل مع رفيقات الغربة والهمّ.

بعضهم لا يحسن فن الحفاظ على صديق، كيف يمكن لصداقة أن تنشأ أو تستمر في أجواء الخذلان والتصّعر، البعض لا

---

(1) **شمخر** الرّجل: تكبَّر: لا يُشَمْخِرِ إلاّ الوضيعُ/ قاموس المعاني الإلكتروني.

أصدقاء لهم، لأنهم يريدون مَن حولهم أتباعًا وخدمًا يدورون في أفلاكهم، وليس أندادًا يتبادلون معهم الاحترام والمودة.

دائمًا تبدأ المعركة أم رياض، الصخّابة الشديدة، امرأة رِّبْعَة[1]، رقيقة الجسم، سليطة اللسان، غليظة المشاعر، تتمتع بقدرة مدهشة على إهانة الناس وجَرحِهم بطريقة استعراضية لا حياء فيها ولا رحمة.

تلتفتُ إلى أم ياسمين اللطيفة المهذبة، بنت الناس المحترمين، وكلتاهما سوريتان، وتسألها على مسمع من الجمع:

– كيف يعني زوجك مشغول عنك طوال النهار والليل؟ ما هذا الكلام، أكيد أنت التي تسببت في هربه من البيت!

– لا والله يا أختي، لكنه يصرف على أهله في البلد، عائلته سبعة عشر نفرًا كما تعلمين، فهو مضطر للعمل في الليل كذلك.

– يعمل في الليل؟ أكيد أنت لا تعرفين استجلاب زوجك واستمالته! كم أنت غبية!

– يا أختي.. أقول لك إنه يعمل في الليل، ولا يأتي إلا في الثامنة صباحًا!

– وماذا يعمل؟ ما هذا الكذب؟؟ زوجك ليس طبيبًا، إنه يدرس الصيدلة منذ خمسة عشر عامًا.

وتُطرِقُ أم ياسمين تكاد تبكي، فهي لا تريد أن تقول لهن، إن زوجها يعمل حارسًا ليليًّا، في إحدى العمارات.. فتتبرع سميرة، وهي شابة فلسطينية يافعة حديثة عهد بالزواج وبإسبانيا، لإنقاذ الموقف والدفاع عن أم ياسمين:

---

(1) رِّبْعَة: الوسيط القامة من النساء والرجال/ معجم المعاني الجامع الإلكتروني.

– وما المشكلة إن كان يعمل ليلاً؟ كلنا نعاني من المشكلة نفسها؟

فتقول أم رياض في استكبار وتسلط:

– لا... لا... ليس كلنا، تكلمي عن نفسك! المرأة التي تعرف.. تعرف!

– وما الذي يجب أن تعرف؟

– لا أعرف... افهميها وحدك!

– لا والله لا أفهم، هاتي علمينا، لعلنا نقنع أزواجنا بترك أعمالهم، والجلوس معنا في البيوت، للتسلية وفصفصة البذور!

– يا لطيف كم أنك نكدية؟ أنتي شو مشكلتك.. زوجك هربان من البيت دائمًا يا مسكينة!

– لا.. هو مشغول وليس هربان.

– قولي الصدق، قولي إن زوجك لا يطيق أن يجلس معك لحظة واحدة!

– سبحان الله.. هذا عجيب! وعلى كل حال فإن زوجي معي في كل الأوقات التي لا يكون فيها مشغولاً.

– كفاك كذبًا.. هو ألمح لزوجي أنه لا تفاهم بينكما!

احتقن وجه سميرة، وأصبحت على وشك البكاء كذلك، لولا تدخل أم يسار المغربية في الموضوع:

– شيء طبيعي أن يكون بينهما بعض سوء التفاهم، فهو يكبرها كثيراً، كان الله في عونها، لماذا تُضيقين على الناس بهذا الشكل القبيح؟

قالت أم رياض: وأنت ما علاقتك في الموضوع؟ ومن طلب رأيك لتتدخلي بيننا؟

وقبل أن تجيب أم يسار، وهي تتميز غضبًا، التفتت فتيحة السورية إلى سميرة التي صمتت في قهر وانكسار، فسألتها:

– كم فارق السن بينك وبين زوجك؟

– خمسة عشر عامًا!

– يا لطيف.. ما هذا الكلام، وهذه المبالغة؟ إنك تكذبين؟

– ولماذا أكذب؟ أنا لست مضطرة للكذب، أنت سألتني، وأنا أجيبك!

– كيف يعني خمسة عشر عامًا، هذا الكلام غير صحيح البتة.. زوجك شاب متل الفلة!

– سبحان الله، وهل اشتكيت لكن من زوجي، أنتن حكيتِن، أن زوجي قال أن لا تفاهم بيننا، وأنتن اللاتي سألتن عن الفارق العمري بيني وبينه!

– كذابة!

– والله هذا أعجب ما رأيت وسمعت، أنا لا أسمح لك بتكذيبي.. وهل أنت تعرفين عمري وعمر زوجي أكثر مني؟

تدخلت بقية الجالسات لفكّ الاشتباك، وتبين أن ثلاثة أرباع الحاضرات، كنّ يصغرن أزواجهن بأكثر من عشرة أعوام! ولكن لا أحد يريد الاعتراف، بأن هذا هو السبب الرئيسي، لانعدام التفاهم والانسجام والصداقة –وليس المودة والرحمة– بين الأزواج والزوجات في هذه المجموعة.

معظم رجالنا في مدريد يعملون طوال ساعات النهار، وبعض ساعات الليل، يستوي في ذلك الطبيب واللحام والتاجر وعامل البناء، ولا يكاد معظمهم يجد الوقت للاهتمام بأسرته، هذه حالة عامة كانت تعيشها الجاليات المسلمة المقيمة في

الغرب، معضلة حقيقية في حياة الأُسَر الشابة، حيث يقع كل العبء على عاتق المرأة وحدها، فضلاً عن أن معظم أبناء الجيل الأول من المهاجرين، كانوا قد تربوا أصلاً في بلادهم، على عدم الانشغال ولا الاشتغال في بيوتهم مع أسرهم وأطفالهم.

كانت هذه مشكلة عامة، ولم تكن مشكلة سميرة أو أم ياسمين وحدهما، وكان هذا الهجوم المتكرر، على الأضعف، والأقل حيلة، والأكثر أدبًا وحياءً، نوعًا من أنواع الصلف والعجرفة الغبية.

كلما خرجنا في رحلة أو نزهة، ساد جلساتِنا المزاح الغليظ الثقيل، والغمز واللمز ودجّ[1] الكلام،كالقنابل في واحات أمن الآخرين، من دون أي مبرر، إلا شهوة الأذى والإيلام، ورؤية الآخر في حيص بيص، لا يحير جوابًا أمام مثل هذه الرعونة والصفاقة وامتهان "الرفاق" بعضهم بعضًا أمام الآخرين.

حجمٌ هائل من الغضب، كان في صدور الجميع، بسبب أوضاع بلادهم المؤلمة، وأوضاعهم المعيشية الصعبة في الغربة، وأوضاعهم الأسرية في بيوتهم، ينفسون عنه بالانفجارات غير اللائقة فيما بينهم.

ذلك كان بدء انفراط أواصر المودة، وعِقد المحبة، التي كنت أتصور أنها "في الله"، بين أفراد هذه المجموعة من جاليتنا المُكرّمة.

كان "الله"، آخر ما يفكر فيه بعضهم لدى تعاملهم مع إخوانهم.

---

(1) **دَجَّ الليل**: أظلم/المعجم الغني- دَجًّا، ودَجيجًا، ودَجَجانًا: دبَّ. وأسرع/ المعجم الوسيط.

اخترت لنفسي مهمة خاصة بي في هذه النزهات مع "جماعتنا" هذه، التي كان عدد أفرادها يومئذٍ، يناهز الثلاثين فردًا بالغًا، فضلاً عن الأطفال الصغار، أصبحتُ.. تلك المرأة التي تحمل دائمًا أكياس الزبالة وتَقُمُّ المكان!

كلما خرجنا في نزهة، حملت معي أكياسًا ضخمة لجمع القمامة، من الدائرة الكبيرة التي ترسم حدودها، مختلف أنواع القاذورات التي يخلفها أصحابي، لا تخطئ العين المجردة حدودها المميزة، بعلب اللبن بالفواكه الخاص بطعام الصغار، ومخلفات السَلَطَة، وقشور الفواكه والبذور المملحة والفستق، ومناديل الطعام الورقية، ومناديل تنظيف الرضَّع المعطرة، وعشرات المواد، تدل على قوم يعتنون عناية فائقة، بنظافتهم ونظافة أبنائهم، إلا أنهم يحتاجون إلى إعادة تربية اجتماعية فيما يتعلق بسلوكهم الوخم خارج بيوتهم.

ولو أنهم تابعوا تلك الدعايات التربوية المتلفزة، التي ساهمت في إعادة تربية الشعب الإسباني، لتحسَّن سلوكهم الاجتماعي، ولاستفادوا من ذلك على كل صعيد.. كما يفعل الإسبان.

إحدى تلك الدعايات تقول: "أنت نظيف قطعًا، أرضية بيتك لامعة، صحونك لا تتركها في المجلى قذرة، ملابسك تغسلها في الغسّالة، تزيل الغبار يوميًّا عن أثاث البيت، تمسح المنضدة، تنظف الحمام، تلُّم الحاجيات المبعثرة، ترتب الأشياء في أماكنها.. فلماذا تفعل عكس ذلك خارج بيتك؟ بلدنا هو بيت الجميع، حافظ على نظافته"!

بجمع الزبالة كنت أقوم بعمليتين فدائيتين! أولهما استنقاذ سمعتنا من ألسنة الإسبان الحِداد، والثانية استنقاذ أذني ونفسي، من تلك الحوارات المُمْرِضة القميئة، ومن الأذى المتبادل

المتعمد، وكأن أولئك الأنفار رجالاً ونساءً، كانوا يخرجون إلى النزهة لتصفية الحسابات لا للترويح عن النفس.

كانت الإساءة إلى الآخرين سلوكًا ثابتًا لدى بعضهم، شهوة عارمة تدعوهم إلى ارتكاب تلك الجريمة، التي يمكن أن نسميها بجريمة كسر الخواطر، وقهر الناس مع سبق الإصرار والتصميم! خصوصًا عندما يتعلق الأمر ببعض المتنمرين والمتنمرات، من الذين يتداولون أخبار الآخرين، وفقط بهدف "الاتجار بها"! تجارة جديدة على معظمنا تمامًا، لم نسمع بها ولم نعاينها ونعانيها من قبل!

بعض السيدات، يتلقطن أخبار الأخريات بلهفة منقطعة النظير، يبحثن عنها في صبر ودأب، يتصيدنها في المجالس، وعبر الأحاديث الهاتفية، ومن خلال أحاديث الأزواج وسؤال الأولاد.. يتباهين أنهن على علم بكل شاردة وواردة، مما يجري في هذه الجالية المسكينة! محتفظات لأنفسهن بمكانة خاصة من خلال تداول هذه الأخبار!

أعلمتِ أن فلانة حامل؟ هل سمعتِ بأن فلانة قد تشاجرت مع زوجها؟ هل تناهى إلى سمعك بأن فلان قد أفلس وأغلق عيادته؟ هل علمت أن أنابيب المجاري قد انفجرت في بيت فلان الفلاني، وغرق البيت والسجاد والأولاد بالقاذورات؟ مساكين كان الله في عونهم! وهذا الخبر فقط لك أنت.. مسكينة فلانة لقد اكتشفوا أنها مريضة بالمصران الأعور وربما عليها استئصاله! وتلك المخلوقة الأخرى، كم نصحناها لكنها لم تستمع.. لقد رسب كل أولادها في مدرستهم هذا العام!

ولم يكن الأمر يقف عند هذا الحد، بل كنّ يواجهن صاحبات الشأن بما يعلمنه عنهن من أخبار، ليُقارِنّ بين الكاذب

والصادق منها، وويلٌ لمن تواري أو تُحاول إخفاء شيء لا تريد أن يعلم به القاصي والداني!

وتجاوزت نشاطات هذه الفئة من الناس، حدود الغربة، وطارت معهن إلى ربوع الوطن.. إذ كنّ يذهبن كل عام، بأخبار الناس من مدريد، ينقلنها إلى الأهل في سورية، ويأتين بأخبار الأهل من هناك، يُحَوّلْنها إلى من يعنيه الأمر هنا!

ومن هذا الذي لا يسعد بسماع أخبار أمه وأبيه، اللذين هاتفاه قبل يومين فقط، من "صديقة" ذهبت إلى الديار، وعادت بما لم يكن الوالدان يريدان نقله من الأخبار لأولادهم في غربتهم! أو على العكس، تتبرع هذه الوكالات المكوكية لأخبار الناس، بنقل كل تفاصيل ما يعرفنه، أو ما يتوهمنه، عن حياة بعضهم في مدريد، إلى أهلهم في سورية، بطريقة فجة حشرية.

كان شيئًا معيبًا ومحزنًا، أن تتقلص هموم بعضهم، إلى إذلال وإيذاء "إخوانهم" و"أصدقائهم"، ووضعهم في مآزق اجتماعية لا مبرر ولا تفسير لها، إلا "الشر"، الذي يستحكم ببعض الأنفس المعطوبة، خصوصًا عندما تُستخدم أسماء الناس وقصصهم لخدمة مآرب شخصية، وجرد حسابات خلافات لا علاقة للشخص الآخر بها من قريب أو بعيد.

أعجب ما في الأمر، كان احتمال أفراد الجالية لبعضهم البعض، ومرور تلك العواصف وكأن شيئًا لم يحدث، كانوا يتشاجرون، ويتخاصمون، ويُعرِضون، ويقطعون العلاقات فيما بينهم، ثم يعودون فيعيدون تدويرها بمهارة عجيبة، وإقامة أحلاف جديدة، يتفقون فيها على طرف ثالث منهم، يتخذونه عدوًّا، يسلقونه بألسنتهم وقدرتهم على الكراهية.

كانت امرأة بانياسية هنا في مدريد، تجد نفسها وسط مشكلة عائلية في دير الزور، لا علاقة لها بها البتة، إلا إن إحداهن استخدمت اسمها، تشد أزرها بها في خلافاتها مع زوجها وحماتها! ومن دون علمها! ولقد ابتُليت إحدى السيدات الدمشقيات في مدريد، بوصوليةٍ نقلت عنها بهتانًا، تقربت به إلى "شيختها" في حمص، لترتفع عندها وتصبح موضع عناية وثقة!

هكذا كانت تدور لقاءاتنا، ونزهاتنا، وبعض حياتنا، في مدريد.. ما بين مستبدين، ومتنمرين، وشبيحة، و"استخبارات اجتماعية"! وشعب مهيض الجناح مغلوب على أمره، يشكل الغالبية العظمى، من المساكين والمظلومين والضعفاء عديمي الحيلة في هذه الجالية.

أخذت على عاتقي، وحسناء معي، مهمة جمع القمامة في كل نزهة نخرج فيها، نبدأ بتنظيف مكان النزهة، ثم نجمع الأطفال، نجلس إليهم، نلتقط عصفورين بحركة واحدة، ننأى عن قيل وقال، ووجع الرأس، ومعاناة هذه الشجارات والخصومات، التي نخرج منها ودائمًا بهزيمة منكرة، ونوفر حصة حكاية ما قبل النوم لأولادنا!

نقص على الأولاد حكايات الأنبياء، بتصرفٍ من يصطاد القصة ليحوّلها إلى مسرح شامل، للفكاهة واللعب وإثارة الانتباه، وإسقاطها على واقعهم الذي يعيشونه في إسبانيا، كانت تلك الحكايات تبهرهم وتسعدهم، بعيداً عن تصرفات الإسبان المؤذية، وعن سلوكيات ذويهم المؤلمة، وكنا نشعر بسعادة غامرة بسبب سعادة الصغار، على الرغم من تلك النظرات التي كنا نتلقاها صواريخ أرض أرض عن بعد، من بعض سيدات مجموعتنا تلك، وفيهن بعض أمهات هؤلاء الأطفال أنفسهم.

يا لنكران العشير ما أقساه..

اكتشفت إعجاز وشمولية هذه الصياغة اللغوية النبويّة، مع مرور الأيام والسنين والأحداث معي في مدريد، تلك "النظرات الصديقة اللئيمة" لم تكن تؤلم وتجرح وتهين فحسب، بل كانت تقتل ببطء.

تقتل عندي، تلك الشعلة المقدسة، التي منها يولد الإحساس بالأُخوة، أو الصداقة، أو المودة، تقتل القدرة على إدراك حاجتنا للارتباط بالجماعة، والرغبة في الاستمرار معها وفيها، وتقتل مع ذلك كله الشعور بالانتماء إليها! خصوصًا أن تلك الأخلاقيات الدنيئة، كانت في هاتيك الأيام، علامة فارقة في معظم العلاقات التي تربط بين أفراد جاليتنا المصونة، امتدت معنا من الهجرة إلى الإقامة إلى التجنيس، بالضبط كما يستصحب أحدنا ثألولة في أنفه من المهد إلى اللحد، إلا إذا عمد إلى جرّاح تجميل، فاستأصلها له بمهارة، ولم يترك له آثارًا تشوه وتؤلم.

كل هذا الوضع المتعب المعيب فيما بيننا، كان مُحتملاً! مقارنة بما كان يفعله الإسبان معنا في هذه النزهات! . . فالمهاجرون يؤذون أنفسهم والبيئة، أما الإسبان فهم يؤذون البشر.

لم يكن الإسبان يجدون في نزهة يقوم بها جمع من "المورو" في أحد منتزهات مدريد في هاتيك الأيام، إلا ملهاة تغنيهم عن زيارة "السيرك"! كانوا ما زالوا حديثي عهد بالاستبداد والتخلف، ولا يمكن مقارنة سلوكهم بسلوك بعض الشعوب الأوروبية المتقدمة المتحضرة، ففي ألمانيا على سبيل المثال، لا يمكن لأحد أن ينظر إليك، أو أن يحشر نفسه في شؤونك الخاصة، أو أن يتدخل في أمورك، يمر القوم بقربك، أو تمر بهم، فتشعر أنك

شبح غير موجود، يبالغون في تهميش الغرباء، وكأنهم لا يرونهم، في حين أن الإسبان يبالغون في حشر أنوفهم في شؤون الآخرين، كأنهم معنيون بتغيير سلوكهم وتعليمهم التحضر والمدنية!

كانت سلوكيات الألمان والإسبان تجاه الأجانب في بلادهم في تلك الأيام، طرفي نقيض في أوروبا، التي ما لبثت أن ضمت الجهود، ووحدت السلوكيات، وسادت فيها طريقة واحدة للتعامل مع الأجانب، تمليها وسائل الإعلام التي توجه وتربي وتعلم بشكل مباشر أو غير مباشر.

تخرج إلى النزهة، وكأنك خارج إلى معركة، هذا ما كنت أشعر به، وهذا ما كنت أتجهز له، كلما خرجت في نزهة جماعية، تتحسب فيها مما يمكنك أن تجده من الناس، في زمن لم يكن الإسبان قد اعتادوا فيه بعد تواجد الأجانب المهاجرين بين ظهرانيهم، أوعلى وجه الدقة.. ما كانوا يريدون اعتياد هذا الأمر ولا تقبُّله ولا الرضى به.

يمكن أن تنتظر منهم أي شيء، من أذى نفسي، أو حشرية[1]، أو سخرية، أو إهانة، أو محاولة لإثارة بعض المشكلات.. كان لا بد من أن تأخذ في الاعتبار سلوكيات المدريديين معك، كلما خرجت إلى نزهة، وخصوصًا إذا كانت جماعية!

كانت تلك أيام "الفقاعة الاقتصادية" الكبرى في إسبانيا، أيام الالتحاق بالمركب الأوروبي، أيام دخول حلف شمال الأطلسي، أيام ترسيخ الديمقراطية وحقوق الإنسان، ورفع شعور الإسباني باحترام ذاته إلى سوية تقديره الكبير لنفسه كونه أوروبيًّا، بعد

(1) "حشر : جمع وحشد، حشر نفسه فيما لا يفهمه، تدخل فيما لا يعنيه"/ معجم المعاني الجامع.

عقود متطاولة من الحكم الاستبدادي الذي كسر شوكة الإنسان وجعله ذليلاً في مواجهة كل ما هو أوروبي أبيض استعماري.. فلا عجب، أن كان كثيراً من الإسبان يمارسون دور المُربي المُستَعلي، مع كل أجنبي مهاجر يحتكّون به، إنها عقدة النقص التي انعتقوا منها للتو.. وكان لا بد من تعليق نِيْرها[1]، بعد أن انفكوا منه، في رقاب الآخرين!

بعد عشرة أعوام ونيف، على موت الجنرال فرانكو، لم تكن قد تعززت في ذلك الوقت الشخصية الجمعية الوطنية الإسبانية، كانت تخطو في دأب ومثابرة، لارتقاء سلم الرقي والتهذيب الاجتماعي، الذي يعزز احترام المرء لنفسه، فيُحجم عن أي فضول يحمله على إقحام أنفه فيما لا يعنيه.

منهم من يقف وينظر إليك مليًّا، على بعد نصف متر فقط من مائدة الطعام! يُديم النظر في وقاحة عجيبة، ناقلاً نظراته بين الصحن وفمك! متابعًا حركة سير كل لقمة من لقيمات الطعام، وهي تُمتَضغ بين طواحين أسنانك، حتى يدفعها لسانك لتستقر في بلعومك، من دون أن يشعر بخجل ولا حياء! ومن دون أن يزعجه الإحراج أو الإرباك، الذي تُسببه نظراته لك وأنت تأكل.

كأن من حقه أن ينظر ومن واجبك أن تخرس!

بالضبط كما يجري في بلادنا، الناس تحملق في وجوه الناس، من دون حياء ولا حشمة، بعض الرجال ينظرون إلى النساء، ينتهكون أعراضهن بنظراتهم القذرة الشرهة، بينما يشعرن بالصَغار والانكماش، ولا يملكن فعل شيء، بل إن المجتمع

---

(1) ن ي ر : الخشبة العرّيضة في عُنق الثورين/معجم مختار الصحاح، والنِّيرُ: عُبوديَّة، إكراه مادّيّ أو أدبيّ يرهق إنسانًا، ويستبدّ به، نير المستعمرين والمتسلِّطين، نير الظُّلم: قيوده/ معجم المعاني الجامع.

ليُلقي باللائمة على المرأة الضحية المُتَحَرَّش بها، وخصوصًا إن لم تكن محجبة، مع أن المتحرشين يزاولون هواياتهم الساقطة هذه، مع المتحجبة ومع غير المتحجبة على قدم سواء.

النساء بدورهن يقفن في وسط الطريق، أو على مواقف الباصات، يُدمِنَّ النظر بعضهن إلى بعض، من دون أدنى قدر من الإحساس بأن هذا يسبب بالغ الإحراج والاضطراب للآخرين! كأن من حق المرء أن يتفرج على الناس، كما يتفرج على عصافيره التي سجنها في قفصٍ، تُسليه رؤيتها ومراقبة حركاتها وسكناتها.

مسكينة تلك الفتاة، التي تقرر إحداهن "فحصها"، والتمعن فيها بهدف الخطبة في مكان عام وأمام أعين الجميع! مسكينة مستضعفة!

هكذا بالضبط كان وضعنا مع الإسبان في مدريد.

منظر النساء، نائيات عن الرجال، مجتمعات، مفترشات الأرض، بحجاباتهن وجلابيبهن، كان أكثر ما يجذب هؤلاء المتطفلين، وقبل أن تُتِم هؤلاء النسوة طعامهن، يكون الإسبان قد انتشروا حول المائدة، ينظرون، ويتندرون، ويحملقون من دون حياء ولا خجل، كذلك الذي يذهب إلى حديقة الحيوان، ليتفرج على قفز القرود في جنباتها.

كثيرًا ما كنت أترك طعامي، وآخذ في تبادل النظرات مع هذا "الحشريّ"، الذي يبدو أنه قد آذاه أشد الأذى مجرد وجودنا في هذا المنتزه أو ذاك، وخصوصًا وأن النساء يجلسن معتزلات عن الرجال، والأطفال سائحون مُهْمَلون، قد بالغ الرجال في الابتعاد عن النساء والأولاد، إلى درجة غير مفهومة، حتى إن وقوع أي أذى أو اعتداء بين الأولاد والنساء أو عليهم، يمكن أن لا يعلم

عنه الرجال شيئًا إلا "بعد أن تكون الفأس قد وقعت في الرأس".. ولا نعرف شيئًا عما يقوم به أطفالنا، إلا بعد أن يأتينا أحدهم مضرجًا بدمائه، أو مخلوعة كتفه، أو مكسورة سنه!

بعض رجال الجالية يعانون نوعًا من اللامبالاة المطبقة، لا يهمهم ما يجري هناك في جمع النساء وأولادهن، لا يساعدون في شيء، ولا يقتربون، ولا يسارعون لنجدة أو تقديم خدمة.. بعضهم منخرطون في النقاشات العقيمة التي تقتل سأمًا وغيظًا، والتي تتكرر في كل نزهة نقوم بها، يتصايحون، وتعلو أصوات بعضهم إلى درجة مضحكة، يريدون أن تسمع زوجاتهم أحاديثهم في صراعات الديكة التي يخوضونها مع أصحابهم، بينما ينهمك فريق منهم في لعب الطاولة، على الرغم من أنه كان هناك من يردد طوال الوقت أن اللعب بالنرد حرام ومنهي عنه، وأن من الأفضل للجميع اللعب بالشطرنج، يقوي الذاكرة والتفكير، ويمنح الأطفال عادة جميلة يتعلمونها من آبائهم.

لم يكن من الممكن إطلاقًا تغيير أي عادة درجنا عليها، حتى لو تمّ تمرير محاولة التغيير، من خلال سيف الحلال والحرام، الذي كان الجميع يَدّعون أنه مصلتٌ على الرقاب!

يُعدّنا الإسبان من المتخلفين بسبب تلك التصرفات الذكورية البادية للعيان، والتي كانت لا تختلف كثيرًا في هاتيك الأيام عن تصرفات بعضهم، لكنهم كانوا يجاهدون جهاد المستميت، على كل المستويات للخلاص منها وتغييرها، في ضمائر وسلوكيات الأجيال الجديدة، المولودة في زمن اللحاق بأوروبة المتمدنة والتحول الديمقراطي الحثيث.. يعدوننا دخلاء على حياتهم، ووجودهم، وأرضهم، ووطنهم، وربما كان أحد أسباب كراهيتهم

لوجودنا بينهم، أننا نذكرهم ببعض ماضيهم القريب الموجع، وبعض تاريخهم البعيد المجيد، الذي لا يريدون استذكاره ولا الانتماء إليه.

بينما ومن طرفنا، نعدّهم أنانيين متشاوفين، حديثي نعمة، يفتقرون إلى اللياقة والذوق، على الرغم من المشاركة الوجدانية التي لطالما عُرِف بها الإسبان، بتضامنهم مع كل محتاج ومظلوم ومعذب في جميع أنحاء الأرض، ما دام بعيدًا منهم، لا يشاركهم الهواء الذي يتنفسونه، ولا قطعة السماء التي يصدف أن تمر بها أرضهم، كلما استكمل هذا الكوكب التعيس دورته اليومية حول الشمس.

ولعل أحد الأولاد يسقط على ركبتيه، فترى الناس من حولنا، ومن دون أن يحركوا ساكنًا لنجدته، قد أخذوا في الشهيق والزفير، وركبت أذقان بعضهم فوق أكتاف بعض، يعلن كل منهم القول لصاحبه عن أخلاق "الموروس"، الذين هم نحن، وسوء عنايتهم بأولادهم، وإهمال النساء لأطفالهن الذين يسقطون على ركبهم كل حين، وكأن أولاد الناس الآخرين ملائكة منزلون!

ولا تتحرج العجائز من تكرار العبارة نفسها التي نسمعها طوال الوقت: "طبعًا كل واحدة عندها عشرة أولاد، فمن أين ستأتي بالوقت والرغبة لتهتم بواحد منهم على الأقل"!

مرة اصطحبت إحدانا دراجة ابنها معها، عندما خرجنا في رحلة إلى منتزه "الديهيسة دي لابيا"[1]، قريبًا من مقر جمعيتنا، أرض هذا المنتزه غير منبسطة، فيها تعاريج ومنخفضات ومرتفعات، فجرى الطفل بدراجته منحَدِرًا بسرعة كبيرة، والأم تلحق به

(1) Dehesa de la villa منتزه مدريدي معروف في مناطقها الشمالية.

راكضة لاهثة، وهي تدفع أمامها عربة تحمل فيها ابنتها الرضيعة، الولد مندفعٌ نحو سقطة ستؤذيه لا محالة! والأم تجري خلفه ولا تستطيع اللحاق به، كما لا تستطيع ترك العربة.. فجأة خرج في وجهها من ناحية الطفل ثلة من الشباب، الذين كانوا يمارسون رياضة الجري، فتنفست الصعداء، ظنًّا منها أنهم سيقومون بمساعدتها، فإذا بهم يفسحون الطريق لدراجة الطفل لتمضي في انحدارها السريع، من دون أن يقوم أي منهم بحركة تساعد الطفل على كبح جماح دراجته..

وعندما رأوا منظر الأم الملهوفة تجري بهذه الصورة مع العربة خلف الطفل، صاروا يضحكون متندرين على شكلها ولهفتها!

وقع الطفل، وجرح كوعيه وركبتيه، وتمزق سرواله وكُسرت الدراجة.. وتجمع كل من في المنتزه من الإسبان، ممن كان قريبًا، يلقون باللائمة على الأم! وهي حائصة تتلوّص تحاول الاهتمام بولديها، لم يبذل أحد منهم أي نوع من أنواع المساعدة.. ولا حتى بدفع العجلة عن الطفل الباكي، وسحبه من تحتها ريثما تصل الأم الملهوفة.

كل هذا.. ونحن بعيدات منهمكات في حواراتنا الدجاجية، والرجال جلوسٌ ناؤون بأنفسهم عن كل ما يجري.

ولعل أحدنا يقوم فينصب موقد الغاز ليُعّد الشاي، فترى القوم من الإسبان، الذين ساروا شوطًا في طريق التقدم والرقي! يُخرجون آلاتهم لالتقاط صور هؤلاء الموروس، يتندرون لجهلهم بالأواني المستحدثة لحفظ حرارة الشاي وتناوله بأناقة، يصورون فينا احتفاظنا بعاداتنا "البدائية" في صنع طعامنا أثناء النزهة، غير عابئين – كما يؤنبوننا طوال الوقت – بسلامة البيئة، على الرغم

من تعليق اللوحات في كل مكان، تمنع منعًا قاطعًا استعمال أي نوع من أنواع المواقد في هذا المنتزه، الذي تحيط به المناطق السكنية، خوف نشوب حرائق تأتي على البقية الباقية من الغطاء الأخضر، الذي تقلص في مدريد بشكل مخيف، في تلك السنوات بعد قحط امتد سبعة أعوام، لم تر فيه مدريد المطر، حتى كادت تدخل في عداد الأراضي المقبلة على التصحر البيئي، من قلة الماء، وكثرة التلوث، وشدة القيظ، الذي أصابها في العقد التاسع أواخر القرن العشرين.

وكيف لا يكون هذا هو تفكير وشعور وسلوك الإسبان، ونوبلِهِم "كاميلو خوسه ثيلا"[1] الذي حاز "الجائزة" قبل أيام فقط، قد ملأ وسائل الإعلام غضبًا وزمجرة، لِما دعاه "تأخر لجنة النوبل عليه، فكان أول ما قاله في وسائل الإعلام لدى نشر خبر الجائزة: "لولا قليلاً لرفضتها، لقد أصبحوا يمنحونها لكل من هب ودب.. وما أفعل اليوم بالنوبل، بعد أن مُنِحت قبلي لشقفة[2] المورو الخِرائي"[3]، هذا المدعو "نجيب محفوظ"!

وإذا كان الإسبان يتصرفون بهذا الشكل غير الحضاري تجاه هؤلاء الغرباء، الذين يدعونهم بالموروس، فلقد كان "الموروس" يردون عليهم بتصرفات منفصمة عن الواقع تمامًا، فمعظم النساء يقابلن تطفل الإسبان على جلساتهن بالضحك شبه الهستيري،

---

(1) Camilo José Cela الروائي صاحب النوبل للآداب.

(2) "شقفة" جمع شقفات وشقف: شريحة، قطعة مكسورة من شيء/ معجم اللغة العربية المعاصر.

(3) هكذا حرفيًّا قالها الرجل.

والتندر بأشكالهم وشيبتهم وتصرفاتهم، وتنطلق مجموعة من التعليقات اللاذعة:

– ختيارة الجن!

– انظروا كيف تتعلق بزوجها التسعيني تكاد تأكله!

– اذهبي فانظري شيبتك المقرفة قبل أن تتفلسفي علينا!

– إنهم يتضورون جوعًا، من أجل هذا يراقبوننا ونحن نأكل!

غير مرة، كنا ندعو الناس الذين يقفون ويفعلون هذا معنا، إلى مشاركتنا الطعام، وغالبًا ما كانت معالجة ناجعة ليتركونا وينصرفوا:

– تفضلوا شاركونا طعامنا أيها السادة..

– لا.. لا شكرًا، لا حاجة إلى ذلك.

– رأيتكم مهتمين كثيراً بنا وبما نأكله، تفضلوا شاركونا المائدة.

– لا.. لا.. نحن منصرفون، كنا نقف هنا لنرتاح قليلاً.. بالعافية.

– شكرًا.. ولكن إن أحببتم فالطعام وفير.. تفضلوا.

– طبعًا وفير، هذه هي الحال في إسبانيا، وإلا فلماذا أنتم هنا؟

هكذا بهذه القسوة تنتهي الأحاديث عادة، أو أن ينصرف القوم خجلين من أنفسهم، وتنبري رفيقات النزهة بتأنيب وتوبيخ من قام منا بدعوتهم، والتندر عليهم وعلينا معهم.

وبينما تصطف مجموعة من الشباب للصلاة، مجتهدين في تحسين ركوعهم وسجودهم، دعوةً إلى الله وحركةً أصوليةً وعملاً إسلاميًّا مُجيدًا أمام الإسبان! يختلف الإسبان النَظّارة، متسائلين فيما بينهم: هل تصلي نساء "الموروس"؟ أم أن الصلاة لدى "الموروس"

هي فقط عبادة خاصة بالرجال؟ ويجيب أحد المتخصصين في علم الأديان: – على ما يبدو المرأة عند المورروس هي حيوان للتكاثر فقط، كما الحال لدى الكنيسة في العصور الوسطى، ألا ترون أن الرجال يقومون وحدهم للصلاة ثم يجلسون منتبذين مكانًا قصيًّا لشرب الشاي، لكي لا "تقذر" صفو لحظتهم الروحية بعد الصلاة مجالسة نسائهم وأولادهم؟

تحتدم نقاشاتهم حول أوضاعنا في أثناء حملقتهم بنا، وعلى مرأى ومسمع من جمعنا، المغتاظ بعضه، المهتاج بعضه الآخر، وقسم ثالث قد غرق في الضحك والطعام وتفصيص بذر البطيخ المملح، يرمونه في وجه الإسبان، لا يهمهم من كل ما يجري من حولهم شيئًا.. تلك طريقتهم في حماية أنفسهم من هذا التحرش الظالم البشع، لا يبالون برؤية هؤلاء المتحرشين من حولنا بهذا الشكل المزعج، لا يعيرونهم، ولا نقاشاتهم، ولا نظراتهم، ولا تحرشهم، أدنى أهمية.

هنيئًا لمثل هؤلاء القوم "برودة أعصابهم" المُثلى.. فهي تقيهم أمراض الدم والقلب والبنكرياس والكلى!

لقد كانت هذه أنجع طريقة ممكنة، ليقتحم المرء عقبة غربته وكربته والتهاب أعصابه.

قلت لماجدة، إن هذه السيدة الإسبانية آتية تسألك عن "حفل الشاي والصلاة"، فاستعِدي لها، رأيتها مقبلة علينا، قد وقع اختيارها على "ماجدة" من بين خلق الله، لعلها توسمت فيها الفهم، وقد كانت تساعدنا يومها في جمع القمامة، محاولة إحكام ربط كيس الزبالة، الذي انتفخ، وكأنه بطن بقرة تَحْمِل عجلين، لكثرة مارمى أصحابنا من قاذورات.

سألَتْها السيدة الإسبانية:

– هل يشرب المورس الشاي قبل الصلاة أم بعدها؟

ماجدة، السورية الشابة، التي لا تتجاوز السابعة والعشرين من عمرها، والتي كانت قد درست الرياضيات والفيزياء في جامعة دمشق، ثم خُطِبت وساقها قدرها إلى مدريد قبل عامين ولا عودة، بسبب وضع أُسرتها وزوجها، جاءت مدريد "على عماها" كما يقولون، تزوجت من ابن خالتها الذي لم تره ولم يرها منذ ولدا، يكبرها بعشرة أعوام، ممنوع من دخول سورية، نشاطاته "مشبوهة" ضد النظام السوري – كما قالوا – وتاريخ أبيه "الإخونجي" – الإخواني، نسبة إلى الإخوان المسلمين – معروف خارج البلد، كان أبوه مجرمًا خطيرًا! يرتاد المسجد ويخطب الجمعة في أحد مساجد لندن حيث يقيم، ويجلس للشباب في درس قرآن نهاية الأسبوع، ولا يدخل السفارة السورية، وكان في هاتيك الأيام داخلها مفقود والخارج منها مولود! يُضطهد الطلبة السوريون فيها، ويمارس موظفوها عليهم الإرهاب والإذلال، كلما سنحت الفرصة لمعظمهم من التابعين للنظام المنتظمين في سلك مخابراته.

ماجدة شابة، متدينة، مؤدبة، هادئة، حزينة، تختلف عن كثير ممن نعرفهم من نساء الجالية، أحد إخوتها نزيل سجن تدمر الرهيب، الذي لا يتجرأ معظم السوريين على مجرد التلفظ باسمه، والآخر فارّ من "الأمن" الذي يدعوه الناس في سورية "مؤسسة نزع الأمن"! والثالث لا أحد يعرف عنه شيئًا منذ أواخر السبعينات.. عشرة أعوام مرت من دون أن تعرف ماجدة عن أخويها خبرًا.

همستُ لماجدة: تبدو هذه السائلة "عالمة أجناس بشرية"! ولا أشك في أنها لا تحسن أن تقرأ كتابًا! لأنها لو كانت كذلك،

لانتبذت من البشرية مكانًا قصيًّا تقرأ فيه، كما يفعل المثقفون، والذين يريدون للناس أن يظنوا فيهم الثقافة[1].

أجالت ماجدة النظر في صويحباتنا، اللاتي بدأن بالسخرية ضاحكات، وقالت وهي تُتَمْتِمُ باللغة العربية، ناهضة نحو السيدة: أصبتِ عالمة فقيهة والمسألة فيها قولان!

لم يكن من عادة ماجدة أن تسيء الأدب مع الناس، **لكن الإنسان يمتلك قدرًا معينًا من الصبر وبعده إما أن يصبح إرهابيًّا وإما أن ينفجر ضاحكًا.**

شرحتْ ماجدة للسيدة، أنه لا توجد أيّ علاقة، بين شرب الشاي والصلاة، وأن شرب الشاي ليس طقسًا دينيًّا، إنه عادة غذائية يستطيع الواحد معها، أن يهضم ما كان قد تناوله من طعام على الطريقة الإنكليزية، التي جاء بها الإنكليز من الصين، فهو سلوك إنساني اجتماعي عالمي، ليس وقفًا على "المورروس".

ثم دَعَتْها إلى تناول كوب من الشاي معنا، فنظرت المرأة إلى المجموعة التي كانت ترافقها، فهمزوها منتهرين ولمزوها معنفين، فشكَرَتْها وانصرفت.

لما عادت ماجدة إلى المجموعة، بعد أن ودّعت تلك السيدة، وأعطتها عنوان الجمعية الإسلامية، لتزورها لعلها تجد بعض الإجابات عن أسئلتها حول الإسلام والمسلمين، وجدتْ القيامة قد قامت! إحدى رفيقات المجلس من وجيهات القوم، أزعجها أشد الإزعاج أن تُعدّ ماجدة نفسها فقيهة، أمام الإسبان، فقالت لها:

(1) وذلك قبل أن تنتشر عادة القراءة بين جميع أفراد الشعب فلا تكاد ترى منفردًا منهم إلا مع كتاب.

- على الرغم من الحديث السخيف، الذي أفضتِ فيه أمام المرأة الإسبانية، يجب أن تعلمي أنه لا يجوز شرب الشاي قبل الصلاة، وكان عليك أن تُفهمي المرأة هذه القضية الفقهية.

- هذه القضية الفقهية؟

- نعم.. كان عليك إذْ لم تكوني تفهمين في هذه الموضوعات، أن تستشيرينا على الأقل!

- أن أستشيركم؟

- نعم... فأولاً هذا كتم للعلم، وثانيًا نحن لا نفهم ما الذي جعلك تظنين أن المرأة كانت توجه الكلام إليك أصلاً.

- هاتي علمينا مما علمك الله..

- لا خير في عمل يسبق الصلاة!

قالتها، وكأنها جاءت بِعِلْمٍ لم يأت به أحد، من قبل ولا من بعد! واعتقدتْ أنها سدّدت ضربة "كورنر"، وأصابت ماجدة بشبه مقتل! ولكن، وقبل أن تنبري هذه للرد، انتهرتها ثالثة من طرف الطاولة، وهي تصيح:

– لقد استحب رسول الله الوضوء، بعد أكل الساخن من الطعام، فإذا توضأ المرء صلى، وهذا وحده دليل قاطع على أن الشاي يُستحب أو يَجب شربه قبل الصلاة!

أجابت رابعة: أهو مستحب أم واجب؟ انظري ماذا تقولين فهذا دين، وأرى والله أنك لا تفهمين شيئًا في الفقه، حتى لو كان زوجك مسؤولاً في جمعيتنا، وإيش يعني هذا؟ الشاي لا ينبغي شربه إلا بعد الصلاة.

قاطعتها خامسة بصوت ولهجة تنشق لهما نياط القلوب:

ذلك حديث موضوع، وأما أن يكون زوج الواحدة منا، إمام مسجد، أو رئيس جمعية، أو مركز إسلامي، فطبعًا هناك علاقة، وعلاقة كبيرة، امرأة المسؤول مسؤولة وهي أفهم منكن جميعًا!

قالت صاحبتنا الأولى: هذا أمر لا ينبغي لنا أن نشك فيه، لكن هذا ليس موضوعنا، يجب أن ينحصر الكلام في الرواية الصحيحة لهذا الحديث الشريف، لكنني أظن – في وقار وإسهاب وتفكر– أن هناك من حَسَّنه.

قالت ماجدة: لقد قرأته منذ أيام في كتاب الأحاديث الموضوعة، للشيخ الألباني.

قالت السيدة "المسؤولة زوجة المسؤول"، في غضب وحنق: إذن أنت سلفية، لم تأتنا المصائب إلا منكم أيها السلفيون!

أجبتها: يا حبيبتي.. أختنا هنا من الإخوان المسلمين المغضوب عليهم، فما علاقة السلفيين في المسألة!

تكلمت أخيرًا كبيرة القوم فقالت: يا جماعة.. يا جماعة، أنتنّ تعرفن أن في كل مسألة مئة قول وخلاف، فكفى صياحًا ولتتبع كل واحدة منكن مذهبها وتسكت.

سألت إحدى الشابات نصف الإسبانية والنصف فلسطينية، حديثة عهد بجمعاتنا ونزهاتنا، وهي مذهولة: في كل مسألة في ديننا مئة قول؟

فأجابتها بنت المسؤول والمسؤولة، والتي هي لا شك مسؤولة! كأمها وأبيها، ومن دون أن تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها! أجابتها من طرف المائدة التي انقلبت إلى حلبة مصارعةِ فقه وأصول: مئة قول وربما أكثر، أنت تدرسين في مدرسة إسبانية ولذلك فأنت جاهلة في الإسلام ولا تعرفين منه شيئًا!

ردت الشابة الفلسطينية، بالتلفظ بشتيمتين إسبانيتين شهيرتين، همست بهما لنفسها، لم توجههما لأحد، لكنهما كانتا اللفظتين المناسبتين للجواب في تلك اللحظة.. كما كانتا المبرر اللازم لتفجير الجلسة.

شنت إحدى أولئك السيدات هجومًا "مسلحًا"، بجميع ما يحفظْنه من نصوص قواعد الأدب، والأخلاق، والتربية، على الفتاة وأمها وأبيها، وعدّت أن ما تلفظت به، هو التأكيد القاطع على افتقارها إلى الأدب والأخلاق، وخصوصًا أنها ترتاد مدرسة إسبانية!

قالت ماجدة: أنتن انتهكتن قواعد الأدب والأخلاق، قبل أن تنتهكها هي، **فقواعد الأدب والأخلاق، ليست مجرد نصوص نحفظها، كسر الخاطر، والتعدي على كرامة الناس، وإهانة الآخرين، من دون وجه حق، لمجرد المزاح والتفكه.. هو انتهاك لقواعد الأدب والأخلاق.**

صاحت سيدة أخرى: والكلمات النابية التي تلفظتْ بها؟ هل هي من قواعد الأدب والأخلاق؟

قلتُ ضاحكة ملطفة الجوّ: كلنا نتلفظ بها في سرنا وخلواتنا، أنحاسب فتاة يانعة إسبانية أن تلفظت بهما؟ ثم إن "كاميلو خوسه ثيلا"، من أكبر الكبار بين الكتّاب الإسبان، قائم قاعد يدعو إلى تفعيل كل كلمات القاموس اللغوي الإسباني، وعلى رأسها الشتائم الفصيحة.. بالنسبة إلى الطلبة هذا أمر عادي!

قالت كبيرة القوم، بينما أخذت ماجدة تلك الفتاة تتمشى معها بعيدًا من مثل هذا اللغط: إسبانية؟ لا وألف لا! إذا كان والدها فلسطينيًا فهي فلسطينية، وعليها أن تفهم هذا! ثم لماذا أخذتها هذه السلفية بعيدًا؟

قلت: إنها "إخونجية"، إخونجية، وليست سلفية! ثم إنه يجب علينا، أن نخاطب الناس بلطف ولياقة وأدب، وبما يمكنهم استيعابه وفهمه، لا الهجوم على طفلة!

قالت المرأة: طفلة؟ عندما تزوجتُ كنت أصغر منها!

قلت في نفسي: ويبدو أنك بقيت في ذلك العمر، على الرغم من مرور السنين!

ردت إحداهن معلقة على موضوع "كاميلو ثيلا": هذا كلام صحيح، نحن نستعمل اللغة الإسبانية في الشارع، وفي مدارس أولادنا، ونستمع إلى التلفزيون الإسباني طوال النهار، فنحن نتأثر كثيرًا بهذا الأمر.. لنرحم أولادنا، يعني يمكن أن ننبههم بلطف إلى أن هذا لا يليق.. كان الله في عون هؤلاء الأولاد على ما هم فيه بين مجتمعين وثقافتين ودينين.

لكن صاحبتنا الأولى، لم يعجبها ذهاب الحديث في هذا الاتجاه، فانفلتت من عقال كل أنواع اللياقة، قائلة:

– الجماعة عم يفلسفوا قلة الأدب والأخلاق، يا أختي ربّوا أولادكم، ربّوهم يا جماعة المدارس الإسبانية! أحسن ما أنتن دائرات على "حل شعوركن" من زيارة إلى زيارة، ومن سوق إلى سوق! هذه نهاية أولادكن وبناتكن.. قلة الأدب والانحطاط.

انبرت سيدة يرتاد أبناؤها المدارس الإسبانية، فردّت:

– ما يقال هنا، وما يجري، هو منتهى الانحطاط وقلة الأدب والحياء! وليت بعضهم، يتعلم التربية والأدب، من أصغر طفل من أطفالنا في المدارس الإسبانية، لأن الأدب لا تعلمه المدارس، والذي لم يتعلمه في بيته يموت وهو يفتقر إليه!

تركتُ الحلبة على ما هي عليه، وقمت إلى كيس الزبالة،

حملته، ورحت أشتغل عن القوم، بجمع القمامة التي رموها هنالك غير عابئين.. أعود بذاكرتي إلى مسجدنا، إذ رأيت في أحد الأيام سيدتان توليان هاربتين منه، وبعد أن سألت عن الموضوع، تبين أنهما جاءتا تستفسران عن هذا المسجد، وعن الإسلام، تريدان أن تستطلعا ما تجهلانه منه، فما كان من أحد المصلين الأكارم، إلا أن تبرع بنفسه ليشرح لهما عن الإسلام، فبدأ من المراحيض والمُوضأ، فأسهب في شرح طريقة استنجاء المسلمين، وأنه ينبغي على المسلم أن يستعمل لذلك ثلاثة أحجار!

جمعتُ القمامة التي خلَّفتها أحاديثنا، وقد وصلت إلى الرجال، فراحوا يخوضون في نقاش فقهي هو أشد وأدهى، من نقاشات النساء "السُوقية"، وكان يتعلق بحرمة قصّ المرأة شعرها بغير إذن زوجها! وارتفعت الأصوات، واشتد التجاذب، وانتصر كلٌّ لرأيه.. وتخلل الحديث إهانات، واتهامات متبادلة، واستعمل القوم كل الكلمات النابية الممكنة بالعربية وبالإسبانية! والألفاظ التي يمكن للمرء أن يشكر "خوسه كاميلو ثيلا" أن ساهم في نشرها ورواجها بين الجميع في إسبانيا، مهاجرين ومقيمين!

ذكرني نقاش الرجال هذا، بيومٍ زرنا فيه الأستاذ عصام العطار في ألمانيا، بُعيد اغتيال زوجته في بيتها، على أيدي وحوش النظام السوري، جاؤوا لقتله، فلما لم يجدوه قتلوها غيلة وغدرًا، وقد طلبتْ منه النساء يومها أن يعقد لهن جلسة خاصة، ضمن سياق المؤتمر الإسلامي الدوري، المنعقد سنويًّا في مدينة آخن، وبعد أن اجتمع ما لا يقل عن مئة سيدة، جلس الرجل الوقور، تحدث إليهن في موعظة جميلة لطيفة مختصرة، ثم قال: لعلكن تردن أن تسألنني، فأجيب، فأن يكون بيننا حوار، خيرٌ من أن أتكلم وتستمعن فقط.

صارت النساء تتصايحن، أردن أن يقرأ عليهن قصيدته الشهيرة في رثاء زوجه، فامتقع وجه الرجل، وكان حديث عهد بالفاجعة، وطفح الألم في تقاسيمه، وكنت أجلس في الصف الأول قريبًا من المنصة، فهمست لمرافقه الذي يدير الجلسة، هذا موضوع مؤلمٌ جدًّا، إذا لم يكن الأستاذ مستعدًّا لذلك، فلا تُحملونَه ما لا يستطيع، نهرني الرجل وقال لي بالحرف: ششششششش!

وراح الأستاذ يردد مرغمًا: "بنان يا جبهة الإسلام ناصعة"... ولم يستطع إكمال هذا البيت من شِعْرِه، فصار يبكي، وبكى الجمع معه.

ووسط هذا الجو المشحون، وكانت الأحداث في سورية الشغل الشاغل للجميع، في هاتيك الأيام العصيبة من عام 1984، وعندما ساد القاعة صمت تتخلله تنهدات الباكيات، رفعت إحداهن يدها، وبقيت يدها مرفوعة لأكثر من عشر دقائق، ومدير الجلسة، ينتظر أن يهدأ الأستاذ، وتهدأ القاعة، لكن الأستاذ رآها فقال له: الأخت هناك تريد أن تسأل، فلما أُعطيت الأخت مكبر الصوت، سألت:

يا شيخ، أفتنا هل يجوز للمرأة أن تقص شعرها؟

مصيبتنا في أنفسنا كبيرة جدًّا، أكبر من كل ما يمكن للمرء أن يتخيله.

زاد كيس الزبالة الذي أحمله انتفاخًا، وخِفت أن يتمزق تحت وطأة قشر البزر، ولفافات الحلوى الفارغة، وقوارير الماء، وحفاضات الأطفال، فذهبت أربطه وأستعد لفتح كيس جديد، لعله يستوعب كل قمامتنا.

*****

بينما نحن في السوق نتبضع في الباغوادا، يسألنا رجلٌ يمر إلى جانبنا:

– أنتم عراقيون؟

نجيب: نحن من سورية، وهي من فلسطين، وهذه من المغرب.

– أوه.. مساكين اهل العراق، حرثتهم الحرب! كان الرب في عونكم، أنتم أهل العراق مظلومون! مرة من قبل صدام المجرم المجنون هذا، ومرة من إيران تريد أن تصدر ثورتها للآخرين، ومرة من قبل الغزو الأمريكي الذي اضطركم للهرب والهجرة ودمّر بلادكم.

ترد إحدى السوريات، وكأنها تدفع عن نفسها عار الحرب، والغزو، والهرب، والهجرة، وكأننا لا نمت بِصِلة إلى أهل العراق: يا سيد نحن لسنا من العراق، نحن من سورية!

فيقول الرجل: سورية، العراق، فلسطين، الحال من بعضه، كل بلادكم في البلاء سواء، البترول البترول! لولا أن لديكم بترولًا ما تدخل أحد في بلادكم.

كانت تلك أيام غزو العراق، وسقوط بغداد على أيدي الأمريكان، لتسليمها إلى إيران، أمام عجزنا وقلة حيلة حكامنا، كانت الولايات المتحدة قد بدأت عملية استبدال الإيرانيين بالعرب، ليكونوا شُرطييها في المنطقة، وكنا كلنا رغم أنوفنا فيها.. عراقيين.

بينما كان العالم، يشهد أولى خطوات تفكك الاتحاد السوفييتي، وانهياره الرنان، كانت الولايات المتحدة، تتقدم نحونا لتثبت من خلال سيطرتها على منطقتنا، أنها أصبحت السيد الأوحد الذي يهيمن على سير الأمور، في هذا العالم.

كنا على موعد، مع زمن من أشد أيام "العرب" المعاصرة سوءاً وسوادًا على الإطلاق. . نشهد، ونعيش، كارثة حقيقية كبرى، نرى بأم أعيننا كيف يُمهد تحت سمع وبصر الجميع، لسقوط المنطقة كلها جملة وتفصيلاً في مستنقع الحروب الطائفية الرهيبة، والحروب الباردة – الساخنة، بين القوى الإقليمية والعالمية، التي تصطرع عليها، ولكن بأشلائنا ودمائنا وعذاباتنا.

الساعة تناهز الرابعة فجر يوم الثاني من آب/أغسطس 1990 وأمام شاشة التلفاز، مثل ملايين العرب والعجم، واجمون نرقب، صامتون ننظر، مصدومون ننتظر.. لا نحير جوابًا، ولا نملك حيلة.

الألم يعتصرني، الوساوس والهواجس، والأفكار تمزقني، "نحن" في حاجة إلى الاتحاد، أن يضم كل منا أخاه، "نحن" في أمس الحاجة أن ننتزع البترول من سيطرة الشركات الغربية، وأن نحتفظ بثرواتنا، ونتحرر.. "نحن" في حاجة إلى الخلاص.

"نحن" في حاجة إلى "الخلاص"، إلى الخروج من هذا النفق الصخري، الترابي، المظلم، المغبّر، الموحش، "نحن" في منعطف مفصلي من حياتنا.

"نحن"؟.. عن أي "نحن" أتحدث؟ "نحن" كأفراد وجاليات في المهجر! "نحن" كمجتمع واحد في الوطن! "نحن" كشعوب في المنطقة! منطقتنا هذه، التي لا نعرف لها اسمًا حقيقيًّا، ولا وصفًا

شاملاً، إلا إنها منطقتنا! اللغة الرسمية فيها هي العربية، وتمتد جغرافيتها من المحيط إلى الخليج، وحدة من الأراضي المتصلة، والأقطار المتكاملة، والشعب ذو الهوية الواحدة.

وربما، ولولا سقوط آخر دولة جامعة مانعة، كوحدة سياسية في المنطقة، لما وصلنا إلى هذه الحال من التشرذم، والارتكاس، والسقوط المدوي، إثر ضياع الهوية؟ ربما؟ فمن يمكنه أن يدّعي أنه يدري، كيف كانت الأمور ستسير لولا هزيمة الامبراطورية العثمانية، بعد الحرب العالمية الأولى؟

"نحن"؟ من "نحن"؟ وما "هويتنا"؟

"الهوية"؟ أيّ هوية؟ من نحن؟ سوريون؟ فلسطينيون؟ مغاربة؟ عرب؟ أكراد؟ أمازيغ؟ مسلمون؟ مسيحيون؟ من نحن؟ تهترىء "القومية العربية"، التي قامت على أساسها أنظمةٌ ودول في منطقتنا، تهترىء وتتآكل يومًا بعد يوم، بفعل أعاصير حركات إحياء النزعات القومية والطائفية، في معامل الاستعمار العالمي، الذي يخطط، ويُفَصّل، ويُهنْدِس، ويُصمّم، ونحن.. بكل غباء وتغييب، نتبع خططه، ونحشر أنفسنا في الأوكار، التي يرسل إليها "دليله"، يدخلها، فندخلها من ورائه شبرًا فشبرًا، وخطوة فخطوة!

نحتاج إلى الخروج من تابوت الاستعمار، والتخلص من حالة التجميد التاريخي القسري، التي دفعنا نحوها، فدخلناها بكامل إرادتنا وخياراتنا، مبهورين مستسلمين.

يجب أن نخرج. . يجب أن نتحرر. .

الحياة في انتظارنا، وما إن يزول تأثير هذا التجمد "القهري – الاختياري" في وجودنا، حتى نعود إلى الحياة، نستشعر أولى نسمات الربيع تداعب جباهنا المفتقرة إلى أن تشي بالكبرياء والعزة.. أنسجة رئاتنا تشتاق إلى الأوكسجين النقي، بل الأوزون

الصافي، ينطلق كل فجر قبيل شروق الشمس بلحظات، سئمنا الذل، والهوان، والركوع، والموت. هل من سبيل إلى خروج من هذا الكهف المرعب الذي دخلناه، واستسلمنا فيه لنوم طويل مخيف مهول؟

نحتاج أن نجد أنفسنا، نحتاج إلى بعض من كرامة، وبعض من يقظة، وكل الجرعات الضرورية واللازمة، من الحرية، حتى نتمكن من بدء السير في درب الخلاص.. نحن في أمس الحاجة، أن نعيد النظر من جديد في أخلاقنا، وفي أساليب تعاملنا مع بعضنا وفي معاملاتنا التي تفتقر إلى القيم الأخلاقية، كما نحن في أمس الحاجة أن ننتزع البترول من سيطرة الشركات الغربية وأن نحتفظ بثرواتنا، ونتحرر.

ما بين النوم واليقظة، أغفو وأصحو على صوت المذيعين والمذيعات يسردون أخبار ما يجري في العراق في تلك الليلة، شكٌّ عميق يضرب بعضي ببعضي، تبدو درجة حمق "الرجل" أعلى مما كنت أظن! هؤلاء الطغاة القتلة، من سَقَطِ الرجال كبار المجرمين، الذين استولوا على مقاليد الأمور في بلادنا، أُجراء لدى المستعمر، خَوَّلَهم سلطات محلية فرعونية متغولة، أطلقت أيديهم لقتلنا، وسرقتنا، وترويعنا، وتجويعنا، وتركيعنا، مقابل قيامهم بالحفاظ على مصالحه، وبقائهم ضمن منظومته، واستكانتهم كالكلاب المُرَوّضة للقيام بالأعمال القذرة، التي لم تعد تتماشى مع ادّعائه "الدفاع عن حقوق الإنسان"، و"حماية الحقوق"، و"ترسيخ القيم الديمقراطية"! **هذا المستعمر يحتاج إلى من يقوم عنه بالأعمال القذرة، ذات اللونين الأحمر والأسود . . لون الدم، ولون القهر.**

وهكذا كان.. كانوا "ضباعًا" علينا، ونحن العُزّل النُوَّم، المحاصرون في حدود مزرعة العبودية، التي سمّوها لنا بالاستقلال! استقلال شكلي شبحي مزيف! وكانوا "نعامات"، بل أحقر من

ذلك، وأذلّ، بين أيدي أسيادهم، مكّنوهم من رقابنا، ثم خدعوهم، فأسلموا رقابنا ورقابهم إلى الذبح.

أضاعوا الفرصة الذهبية الوحيدة المعاصرة، للنهوض بالشعوب على هامش تدفق مليارات البترول، فلم نر منه إلا البلاءات والكوارث، وصبغ كل شيء في حياتنا، بلون أسود لزج، قذر قابل للاشتعال في كل حين.

تعاملوا معنا كعبيدهم، خِرافهم، مواشيهم في مزارعهم الخاصة، رسم حدودها "سايكس وبيكوت"[1]، وتعاملنا مع أنفسنا بالرضى أن نكون رعايا، غنمًا، أرانب، بعضنا أبقار للحلب، وبعضنا جواميس للحرث والنطح، وآخرون اختاروا أن يكونوا عقارب تُرعب وتلدغ وتقتل.

كانت الخيارات كثيرة أمامنا، بعد خروج المستعمر عسكريًّا، من باب فراره من مواجهة حركات التحرر الوليدة، لكن بصيرتنا القاصرة المُنهَكَة التي أخلدت إلى الخنوع، واستسلمت للوهن والموات.. جعلت سبل النجاة أمامنا محدودة جدًّا!

التلفزيونات تعرض صورة "صدام حسين"، ينظر بكل صفاقة وتحدٍّ فارغ غثّ، إلى ساعته في انتظار لحظة الصفر! وأقول في نفسي: سيغتنم الفرصة التي تبدو "مُذِلة"! منحتها له الدول التي

---

(1) DESMEMBRAMIENTO DEL IMPERIO OTOMANO El Acuerdo Sykes-Picot: el contexto histórico.
Eduardo Montagut.
"تفكيك وتدمير الامبراطورية العثمانية، اتفاق سايكس وبيكوت: المحتوى التاريخي: إعداد ادواردو منتاغوت".
ملاحظة: الأسماء الأجنبية مثبتة في هذا الكتاب كما هي في الأصل باللغة الإسبانية.

سمّت نفسها بالمجتمع الدولي، سيستفيد من هامش "الكرامة" الصورية الذي نفحوه به، ليحفظ له ولجيشه بعض قطرات الماء في وجوههم الكالحات! سينتهز فرصة ذلك الوقت المستقطع من التاريخ بين الساعة التي حُددت له، ودقائق الفجر، ليوقف احتلال جيشه للكويت.

لكنه لم يفعل.. ضجة وهمهمات وحركة غير عادية، أيقظتني من غفوتي على الأريكة في بيتي، ذلك اليوم في الباغوادا، في مدريد، تمام السابعة فجرًا، انتبهت مذعورة، كل القنوات التلفزيونية كانت تبث باللون الأخضر، نقلاً عن "ال س. إن. إن" الأمريكية، لقد دخل الجيش العراقي الكويت!

دخلها كمجموعات من القتلة، والسُّراق، وقطاع الطريق، دخلها لينهب، ويقتل، ويدمر، ويُخرّب، كأن أهل الكويت ليسوا أهله! كأن رجال ونساء الكويت أعداؤه! كأن بينه وبين رفاهية الناس في الكويت ثأرًا! كأن بينه وبين شعب الكويت داحس والغبراء.

لم يدخل الكويت ليُسقط نظام حكم، أو يمحو حدودًا تمزق "الأمة"، أو يفرض "وحدة غبية" بسلطة سلاح غاشم، وقيادة مجرمة! لكنه دخلها ليدمرها وينتقم! وممن؟ من الكويتيين الذين هم أصهاره وأنسباؤه وجيرانه وإخوانه.

وجدت نفسي أبكي، دموعي تسبق كلماتي، وقدرتي على استيعاب كل هذه الحقائق مجتمعة، في ساعة واحدة من تلك الساعات السَخْماوات.. كانت أقل من حجم ألمي وشعوري بالفجيعة.

صليت الفجر وأنا منكمشة على ذاتي، وهل يكون فجر في قلب هذا الليل البهيم؟

الأولاد لا يريدون تناول الفطور، واجمون أمام الشاشة الخضراء، يراقبون الحرب الإلكترونية، ولا شيء غير الحرب الإعلامية الإلكترونية.. سنوات أعمارهم التي لا يتجاوز أطولها العاشرة، لم تترك لهم مجالاً لفهم ما يحدث، كل ما في الأمر، أن هناك كارثة! كارثة حقيقية تُبَثُ على الهواء مباشرة من بلاد أبيهم وأمهم.. بلادهم، حتى لو وُلِدوا في إسبانيا، وعاشوا فيها كل حياتهم! لقد تكفل الإسبان ومنذ ولدوا أن يُذَكّروهم بأنهم غرباء، وبأنهم غير مقبولين كمواطنين بين ظهرانيهم، حتى لو حملوا الجنسية، وكانوا إسبانًا أكثر من الإسبان أنفسهم.

عاشوا أعمارهم القصيرة غرباء، لكنهم وعلى الرغم من غربتهم، كانوا يشعرون بانتمائهم الوثيق إلى إسبانيا، لغة وثقافة وحياة، وبانتمائهم الوثيق إلى بلاد أمهم وأبيهم، عقيدة ورسالة وحضارة و.. آلامًا لا تكاد تطاق.

إسبانيا وطنهم، وتلك البلاد وطن والديهم. . اجتمعت في وجودهم الفَتيّ، القارتان العدوتان، والثقافتان المتناحرتان، والحضارتان المتحاربتان، وضِفَتا المتوسط القريبتان البعيدتان.

لم تكن لديهم أي مشكلة في الانتماء، في هاتيك الأيام، على الرغم من البعد عن ذلك الوطن، الذي يدعى سورية، واجتهاد أهل هذا الوطن – الذي اسمه إسبانيا– الذي ولدوا فيه، ليُفهموهم أنهم غرباء فيه!

بكل بساطة الواقع، كانوا إسبان المولد والثقافة، عرب اللغة وأصل الوالدين، مسلمي الهوية والانتماء. . هذه الهوية التعددية،

في تلك الأيام المدريدية الثرية إنسانيًّا وثقافيًّا، لم تكن تشكل لدى أولادي أيّ مشكلة، بل كانت منبع ثراء وغنى.

إسبانيا وطنهم، والعراق بلدهم الأصل، والمغرب بلدهم الأصل، ولبنان بلدهم الأصل، لم يشعر أولادي قطّ بأن سورية وحدها هي بلد والديهم، وأن انتماءهم إليها، يفوق انتماءهم إلى أي بلد من بلاد المنطقة، كان انقطاعنا عن سورية، صلة وصل لنا ببقية بلاد الله وخلق الله في المنطقة، التي كانوا يسمونها باللهجة الشامية: "تبعنا"، خاصتنا! فيها أهلنا، ونحمل بصمتها اللغوية والثقافية.

يا إله السموات والأرض.. ماذا كان يحدث هناك في أرض العرب؟ أرض البترول! ماذا كان يحدث في العراق والكويت؟

خرج أبو الأولاد وقد احمرت عيناه من الغضب والحزن، ومن دون أن ينبس ببنت شفة، تعليقًا على هذه الأخبار المفجعة، فتح الباب وانصرف إلى عمله.

كل الجيران يستمعون إلى الأخبار، سكونٌ مريب، وأصوات نشرات الأخبار وحدها، تشق ضجيج هذا السكون المرعب، وتهز الجدران ذبذبات أصوات المراسلين نقلاً عن "ال سي. إن. إن".

أخذتُ البنات ونزلت إلى المدرسة، استقبلني أول ما استقبلني وجه سالبادور[1] بواب العمارة الجديد، كان يستعبر على عادته، رخيصٌ دمعه في سوق الرجال، فهو نصف امرأة، يتثنى، مقززًا، مثيرًا عندي كل مشاعر الرفض والشفقة، يمسح دموعه بمنديله الذي لا يفارقه، وهو يضبط إشارة المذياع على "راديو 5 كل الأخبار" في مكتبه إلى جانب المصعد، قال لي:

---

(1) Salvador يلفظ بالإسبانية كما يُكتب "سالبادور" بالباء، اسم إسباني مذكر من أصل لاتيني ، ومعناه "المُنقِذ/المسيح".

آسف جدًّا من أجلكم، لقد احتلّ بلد من بلادكم بلدًا آخر من بلادكم! أين يظن حكامكم أننا نعيش اليوم؟ في العصور الوسطى؟ سيتسبب هؤلاء بحرب عالمية، قلبي يتمزق من أجل أولادك المساكين، لن تستطيعوا العودة أبدًا إلى بلادكم بعد اليوم.

لم أستطع قول شيء، حييته ومضيت.

خجلت من تقييمي بالغ السوء لإنسانيته، وقلبه الكبير المتعاطف معنا، حتى سالبادور، الذي لم يصل إلى المرحلة الإعدادية من الدراسة، يفهم ويعرف أن ما يجري في بلادنا منافٍ لحركة التاريخ.

جيراني، في هرج ومرج، كلهم ينظرون إليّ في وجوم وألم، كلهم يتحدثون عن الحرب، كلهم لا يعرف ماذا يقول لي! كان الإسبان ملائكة رحمة عند المحن، لم أر مثل تعاطفهم الجميل ذاك مع الممتحنين.. الشيء الذي بدأ بالانحسار "معنا" شيئًا فشيئًا، منذ بدأت وسائل الإعلام - بسبب أفعال بعضنا المؤذية- تهيئ لهم أننا الأعداء الأشرار.

أهالي زملاء أولادي في المدرسة، تحلقوا حولي يُعزونني بالمصاب، إنهم يعرفون أنني من الشرق الأوسط، إحداهن ضمتني إلى صدرها والدموع في عينيها، وقالت لي: لا بأس مساكين أنتم!

ما عدت أستطيع الاحتمال، ولا حبس دموعي، أولادي واجمون لدى باب المدرسة، أمهم تبدو وسط جنازة عزيز، وسنوات أعمارهم الصغيرة لا تسعفهم ليستوعبوا عِظَم ما يجري من حولهم.

شيء خطير، بل خطير جدًّا، قد حدث، بلد عربي قومي اشتراكي ثوري، يحكمه "حزب البعث الاشتراكي القومي الوحدوي"! اقتحم بجيشه بلدًا عربيًّا آخر.

نعم.. الكويت قطعة من العراق، بالطريقة نفسها التي نفهم فيها أن العراق قطعة من أرض "العرب" كلها! هل يمكن للعرب أن يصبحوا دولة واحدة بهذه الطريقة؟ هل يمكن لأمجادنا أن تعود في أواخر القرن العشرين، بهذه الوسائل القبلية البدائية الهمجية المتوحشة، التي لا تمت للحضارة ولا للمدنية ولا للأمجاد بصِلة؟

أتساءل: كيف زيّنت لنا، الأحلام البعثية القومية، رؤية وحدة تُفرض على دولٍ تعيش في أواخر القرن العشرين بالقوة الغبية؟ بدل أن تُبنى بالعمل، والتخطيط، والرضى الذي يستجيب للضرورة؟ كيف هللت بعض شعوبنا لمثل هذا الغزو، كونه تحقيق لأهداف الأمة الواحدة! التي يُفرض على الجميع فيها أن يكونوا "عربًا" رغم أنوفهم، كيف يمكننا أن نُصَدّق في عصرنا، أن بإمكان الأمم – الدول، والتجمعات "الدولية الجغرافية" الكبرى، أن تتشكل بفعل رعونة بعض الهزّات، السياسية والعسكرية والاقتصادية هنا وهناك؟ كيف؟ ولماذا؟ أي انفصام عن الواقع نعيش؟ وأي مستقبلٍ مظلم ينتظر بلادنا؟

لم يأتنا من "حزب البعث"، وحكمه في العراق وسورية، إلا البلاء المبين، ركب الحزب في البلدين مركب الطائفية، في اتجاهين متعاكسين رأسيًّا فيما بينهما، وفيما يتعلق بأهداف هذا الحزب القومي الوحدوي، جملة وتفصيلاً! **ذُبح الشيعة في العراق باسم البعث، وأُحْرِق الأكراد هناك بالكيماوي باسم البعث، وباسم البعث كذلك، تم استلاب سورية، وتركيع شعبها، وقتل وتغييب كل من سولت له نفسه أن يرفع رأسه من أبنائها الأحرار كائنًا ما كان انتماؤه،** لكن الغالبية السُنِّيّة فيها كانت قد حازت نصيب "الأسد" من القمع والإذلال والاستلاب والتهميش والتغييب.

يا إله الأكوان – كنت أتمتم فيما بيني وبين نفسي–، **أي شيطان اشتمل على كتفيه عباءة البعث القومي هذه. . ليُحدث في بلادنا من الدمار والخراب، ما لا يمكننا رؤيته على حقيقته، إلا بعد عقدين من الزمان.**

انتهى تيار "البعث"، إلى واقع رهيب، جاء على العكس، من كل ما أعلنه مؤسسوه، ليصبّ في خانة المُضي قُدمًا، في تحقيق كل ما كان يريده الاستعمار الغربي والشرقي، لهذه المنطقة، من ترسيخ للتقسيم، وتركيع، وتشرذم للشعوب، ورفع للحدود الوطنية، المصنوعة في مخابره الاستعمارية، وتأجيج جميع أنواع الصراعات، القومية، والدينية، والفكرية، وقطع الطريق تمامًا على "الأمة"، لتستعيد هويتها، ووحدتها، وصحتها، وتحافظ على وجودها.

ذهبت آخذ بناتي بعد انتهاء الدوام المدرسيّ، تتقافزن من حولي، حكين لي، عن انشغال التلاميذ، والأساتذة، وهيئة الإدارة، وهيئـة النظافـة، في المدرسـة بموضـوع الحـرب، وأن الجميـع – الجميع تقريبًا – كان متضامنًا معهن، مشفق على ما يمكن أن تؤول إليه الأمور.

البُنيات يتحدثن ويصخبن، من حولي، وأنا كالمُغيبة، تأتيني أصواتهن القريبة الملامسة للقلب، وكأنها صدى بعيد، تلك الجلبة، كانت تُشوش على الصمم الذي خلفه دويّ الأحداث في نفسي، وعقلي، وواقعي الذي أعيشه.

أُحَدّثُ نفسي كمن مسّته لوثات، مراوحة ما بين إذاعة لندن، وإذاعة "الدوتشه بيله"[1] الألمانية اللتين تبثان باللغة العربية،

---

(1) القسم العربي في هيئة الإذاعة الألمانية Deutsche Welle وتلفظ بالإسبانية "دوتشه بيله" بالباء،/رمزها DW عربية. تأسس القسم العربي عام 1959. وتوقف بثها بالعربية عام 2011.

والقنوات الإسبانية التي صار بثها وقفًا على الحرب، لعلّي أفهم ما يدور في تلك الساعات الثقيلة، كان الحصول على المعلومات صعبًا، ومعرفة ما يجري حقيقة، مهمة شبه مستحيلة.

متى سيكون لدينا وسائل إعلام عربية، تبث بالعربية لمصلحة الناس والأوطان؟

في البدء كانت "إذاعة لندن"[1] ذات المهنية العالية، والتي دأبت على دسّ السمّ، في كل ما تذيعه باللغة العربية، كانت ملجأ وملاذًا اضطراريًّا للجميع، لا أستطيع أن أذكر نفسي، منذ وعيت نفسي، إلا وأنا أستمع إلى إذاعة لندن.

إذاعة لندن فضلها علينا كبير، وامتهانها لنا كأمة مُستَعمَرة، أكبر.

وأي امتهان لأمة، أكبر من ترسيخ وضع ثقافي– فكري فيها، يقودها إلى الهاوية.

***

من أجل أن تتمكن دولة العراق، من ضم دولة الكويت إليها جغرافيًّا، وسياسيًّا، وإداريًّا، كان ينبغي أن يشعر كل كويتي، بأنه جزء من وجود العراق، بماضيه، وواقعه، ومستقبله!.. عمليات توحيد الدول والشعوب لا تتم بالألعاب البهلوانية على مسارح الدم الدولية.

سقط في زمننا هذا، الاتحاد السوفييتي، وتفكك بعد سبعين

(1) القسم العربي في هيئة الإذاعة البريطانية BBC، تأسس عام 1922.

عامًا على قيامه، على أشلاء وجماجم الأوراسيين[1].. وسقطت، وتفككت، قبله الامبراطورية العثمانية، عندما انتهت في أواخر عهدها، إلى البطش والمجازر، وسقطت قبلهما، وتفككت، كل الامبراطوريات التي قامت بالدم.

تلك هي النهاية التاريخية الحتمية، لكل من يحاول فرض إرادته على الشعوب بالقوة.

حتى تتم عملية إعادة زرع جغرافية في التاريخ، كهذه التي يتمسح صدام حسين بمرجعيتها التاريخية والشعبية، كان ينبغي لكل عربي في الخليج، أن يعود لاستشعار انتمائه إلى "الجسد الواحد"، حضاريًا، ثقافيًّا، بشريًّا، عقائديًّا، فكريًّا، اقتصاديًّا، ووجوديًّا.. السياسات الجغرافية تُبنى على قواعد الأفكار والاقتصاد الراسخين.. وليس بأسنة الحراب الهزيلة، المبتاعة من الأعداء بشروط الأعداء، مجنونة، منفلتة، من عقال الزمان والمنطق.

في مسجدنا، وفي انتظار صلاة الجمعة، كانت أحاديث النساء المغربيات، اللاتي يتجمعن كل أسبوع هناك لحضور الصلاة، واللقاء بالصديقات والمواطِنات، تدور وفقط، حول غزو العراق للكويت، ومعظمهن من السيدات العاملات في مهنة التنظيف، أصواتهن تشق سكينة المسجد، يحاولن تحليل وفهم ما يحدث، تلكنّ السيدات، كُنّ يعشن حالة من القهر عظيمة، بسبب ما يحدث في مشرق المنطقة، وكأنه يحدث في بيوتهن وقلوبهن.. **صِدقُ مشاعر الانتماء لهذه الأمة لدى المغاربة مذهل، برُّ الإيمان في قلوبهم، يجعل من هذه القلوب المشفقة، جسرًا لتواصل جناحي**

(1) الشعوب التي تسكن منطقة أوراسيا، وهـي المنطقة المشتركة جغـرافيًّا ما بين أُوروبّا وآسيا، والتي قام الاتحاد السوفييتي على قمع وضم معظم بلدانها ما بين 1922 و 1991 بالقوة المتوحشة.

الأمة، من البشر الذين يقطنون هذه المنطقة الناطقة بالعربية، على الرغم من كل ما يقابل هذا السلوك النبيل من جهة كثير من الشرقيين من عقوق وإنكار.

بكت ربيعة، وهي تحكي لبقية السيدات، كيف ناداها الرجل الذي تعمل في بيته، وكان رئيس مجلس الشعب الإسباني يومها، لتشهد في التلفاز ماذا يحدث، وقالت: صرت أبكي وأنتحب، والسيد يخفف من حزني، ويقول لي: لا عليك يا ربيعة، لقد مررنا في بلادنا بأكثر من هذا! ثم انصلحت الأحوال، وها نحن نعيش ديمقراطية وحرية و"بُمًّا"(1) اقتصاديًّا!

فأجبته – والكلام لربيعة باللهجة المغربية–: ما بغيتش هاداك الشي يوقع للمسلمين يا لصاحبي.

بكت ربيعة، وبكيتُ مع ربيعة، وانخرط جميع من في مسجد النساء بالبكاء، عندما راح خطيب الجمعة الفلسطيني يدعو: اللهم احقن دماءنا، اللهم احفظ أعراضنا، اللهم اكشف غمتنا..

كلنا نفكر في العراق ونحاكم العراق، كلنا نتحدث عن العراق، ولا أحد منا فكر لحظة واحدة، بما فعلته الإيحاءات الأمريكية لكل الأطراف، لتأجيج هذه المصيبة الكبرى في الخليج، لم يلتفت أحد منا إلى حقيقة ما كان يحدث داخل الكويت، ربما لأننا لم نكن نتخيل، أن تقوم قوات عربية، بارتكاب الفظائع في بلد عربي مجاور! ظننا الأحقاد تقتصر على الطبقات الحاكمة، ولم نكن نتخيل أن جيشًا عربيًّا، يمكن أن يفعل مثل هذا، بإخوة الأرض والعقيدة والدم والبترول!

---

(1) "بُم" أو "بوم": صوت الانفجار. بمعنى الانفجار.

كانت تلك بداية هتك الأستار، عن وجه الجيوش في بلادنا، لم تكن تلك جيوشًا وطنيةً، لحماية البلاد وشعوبها، كانت عصابات من القتلة المرتزقة، أُعِدَّت بانتقائية دقيقة وفقط.. لحماية الأنظمة، ومصالحها، ومصالح المستعمرين، الذين خلّفوها نائبة عنهم، في إدارة شؤون المنطقة، وتدميرها!

هذه ليست جيوشًا، إنها قطعان، من القتلة، واللصوص، وقطاع الطرق، أتى بها حكامنا من قاع قيعان مجتمعاتنا، فغذّوها بأحطّ مشاعر النذالة، والتوحش، والعبودية.

ما كنا نظن أن "العرب" يمكن أن يكونوا وحوشًا بعضهم مع بعض إلى هذه الدرجة! مع أننا كنا نعيش بدمائنا، ولحومنا، من المحيط إلى الخليج، مآسينا المحلية، في تعامل هذه الجيوش وأجهزة الأمن "العربية"، مع المواطنين المغلوبين على أمرهم، بضراوة ما بعدها ضراوة، وبقمع ما بعده قمع، وبقذارة وخِسّة ما بعدهما خِسّة وانحطاط!

أليس هؤلاء العسكر عملاء بأيدي المستعمرين – الأسياد الكبار–؟ يحركونهم أنى شاؤوا؟ جردهم الأسياد الصغار، من الشعور بالإنسانية، والأخلاق، فكانوا قتلة، أشقياء، مأجورين لأرباب نِعَمِهِم.

كنا نعيش حالة من الانفصام الرومانسي، والخلل الشعوري، نعرف وحشية جيوشنا، وقوى الأمن في بلادنا، وافتقارها الشديد إلى الإنسانية والرجولة والأخلاق، في الوقت عينه، الذي نظن فيه، أن بعض هذه الجيوش يمكن أن تؤدي دورًا بَنّاءً في اتجاه إيجابي ما! نحلم به، ويسيطر على مساحات اللاوعي لدينا!

في كل المنطقة العربية، لا نكاد نجد إلا دولة واحدة تتمتع بجيش وطني، متزن، مستقل، يعمل حقيقة على خدمة الشعب.

نحن شعوبٌ مسكينة، مضحوكٌ عليها، اختارت أن تكون مُغَيّبة، مهمشة، محطمة.

كنا حتى ليلة غزو العراق للكويت مازلنا نؤمن بالمروءة، والشهامة "العربية"، كنا وعلى الرغم من كراهيتنا للبعث، وشعاراته، موقنين بالأمة الواحدة، ذات الرسالة الخالدة، كثيرون منا يظنون بكل سذاجةٍ، وصفاقةٍ، وجهل، أن الهدف من حماقة العراق في الكويت، إنما كان توحيد الأمة!

انكشفت الأقنعة وانجلى بعض المستور، بدت الفضيحة، وسقط اللثام عن وجوهنا، وسقط القناع عن قناعاتنا.. وبدا جهلنا بأنفسنا عاريًا، لم يعد بالإمكان ستره لا بالأحلام الغبية، ولا بالأماني البليدة.

استئساد الجيش العراقي، على مدنييّ الكويت العُزّل، أسفر عن ركوعٍ، وسجودٍ، لأفراد هذا الجيش، أمام الجنود الأميركان، وتقبيل ذليلٍ لأيديهم! صورة ذلٍّ، حقير، مرير، رآها العالم بأسره، أصابتنا بالصدمة، والفضيحة، وارتجاج في المخ، لم ينج منه أحد! لكنهم قلة قليلة جدًا، أولئك الذين عرفوا أنهم مصابون به!

هل كنّا أمام مسرحية كبرى، من تلك المسرحيات التي اعتاد الغرب إعدادها، بدمائنا، وأشلائنا، وغبائنا، ليمرر في منطقتنا ما يريد، في الوقت الذي يريد؟ هل كنا نحضر واحدة، من أكثر المشاهد "العربية" المعاصرة مأسوية وشناعة؟ هل كنا نعيش فصلاً جديدًا، من فصول "المؤامرات المؤبدة"! التي لا يمنحها الحياة، والفاعلية، والقدرة على الإثمار، إلا مواتنا، وشللنا الرباعي، وعجزنا عن الحراثة؟

وجد الغرب لنفسه، في غزو العراق للكويت، المبرر اللازم والكافي، لدخول بلادنا من جديد بعسكره، ليزيح عميلاً من عملائه، ويستبدل به عملاء آخرين، أشد إجرامًا، وعمالة، وعبودية، **عادت القوات العسكرية الاستعمارية، من جديد، إلى أرضنا، لتحمي "ثرواتنا المنهوبة"، منا!** من أهلها، وأصحابها الشرعيين! ولتحمي أمن إسرائيل! قاعدة المجتمع الاستعماري الدولي، بشقيه الغربي والشرقي، والتي أقامها هناك، تمامًا في قلب المنطقة لضمان وجوده ومصالحه فيها.

***

اسمٌ جديد إذًا، لصق ببناتي في المدرسة، صار الأولاد يُنادُون ابنتي باسمها الجديد "صدّام"! لتشابه جرس اسمها مع اسمه.. يضحكون منها، يعيرونها بأن اسمها يطابق اسم الرجل المجنون في العراق!

قبل ذلك كانوا ينادون أختها بالفلسطينيَّة، وقبله بعام، بالأفغانيِّة...

وبعد ذلك.. وبتوالي مِحَنِها، وحروبِها، وبلاءاتها، وكوارثها، كرّت على أولادنا أسماء بلداننا العربية والإسلامية المنكوبة، وأسماء ونُعوت كبار "أعداء" الغرب من "خَدَمِه" فيها!

نحن "أمة" مستَعْمَرَة حتى نوى خلايانا، وكثيرٌ منّا لا يدري، أو لا يريد أن يدري.

وما لم نعترف بهذا الواقع. . فلا خلاص ولا تحرر.

هكذا نحن في غرباتنا، ككل الغرباء في هذا العالم، ندفع ودائمًا، ثمنًا مناسبًا، لكل ما يحدث في بلادنا سلبًا أو إيجابًا، حتى المصائب، والكوارث، والبلاءات.. التي يريد بعض أهل بلادنا، أن يمنعنا شرف الاصطفاف معها، والبكاء على آلامها، ولأوائها، كوننا بعيدًا في عافية ورفاهية ووفرة!

كم تتطابق حكايات الغرباء، في كل زمان ومكان، كل الذي أرجوه، ألّا تتحول حكايتنا الإنسانية، المؤلمة، إلى ما يشبه حكاية "آل كورليوني"[(1)]، الذين انقلبوا في غربتهم ونأيهم، إلى وحوش تنهش الأجساد، وتهرق الدماء، ولا تفكر إلا في نجاتها هي، وكأن للوحوش نجاة!

لقد رأى العالم في هذا الفيلم العظيم، كل شيء، إلا غربة هذه الأسرة الإيطالية المهاجرة، ووجودها "بعيدًا – قريبًا" من إيطاليا في الولايات المتحدة، في تلك الحقبة التي كان الأقوى، والأكثر توحشًا، وتغولاً فيها، هو الأبقى.

تعاطف العالم الاستعماري، مع "آل كورليوني"، وهم القتلة، المجرمون، المتوحشون، جعلهم جزءًا لا يتجزأ من تاريخه الثقافي الإنساني، في حين أنه يُجَرِّمنا، ويُقصينا، ويُبعدنا، ويُعاقبنا جماعيًّا، بجرائم فرديّة، يقوم بها بعض مجانيننا!

كنا حتى تلك الساعة، نعيش في ظل إعلام غربي، منصف نزيه إلى درجة كبيرة، كنا حتى تلك الساعة نُعامَل كبشرٍ مهاجرين دخلاء مكروهين.. يتعاطف الناس مع مآسينا، ويتفهمون بعض آلامنا.

---

(1) فيلم العراب بأجزائه الثلاثة 1972/1990 التي تحكي حكاية "آل كورليوني" خلال ثلاثة أجيال، في هجرتهم واغترابهم في الولايات المتحدة.

لم تكن وسائل الإعلام الغربية، قد بدأت تعاني من التحول الشامل، الذي شهدته بُعيد حرب العراق مباشرة، باصطفافها جبهة واحدة وراء الولايات المتحدة الأمريكية، القوة الوحيدة التي تمخضت عنها الحرب، ما بين أجنحة الاستعمار الشرقي والغربي، أواخر القرن العشرين.

هنالك بدأ التغيير الكبير والخطير، في سياق بداية عصرٍ جديد في أُورربا، عصر "عودة" التعصب، والكراهية، والرفض، والشعور بالاستعلاء على "الآخر"، عصر تحويل المهاجر الإنسان، إلى الوحش العدو! عصر رفع أسوار البغضاء النفسية، بين المواطن الأوروبي، والمُهاجر ووطنه الذي جاء منه، تطورت الدفة في هذا الاتجاه، رغبة في إحداث المفاصلة الكاملة بين الطرفين.. وبدأت وسائل الإعلام الغربية، بعمليات غسيل جماعية رهيبة للعقول، بـ "مطهراتٍ" تستل ضمير الإنسان، فتشويه على نيران الحقد، وهو لا يدري!

أصبح الغرب السياسي الاستعماري الرسمي، في حاجة ماسّة، إلى تجييش الغرب الاجتماعي الإنساني الشعبي، لخدمة عصر عودة الغزو الاستعماري العسكري المكشوف، للمنطقة العربية المجاورة.. ولكن وعلى الرغم من كل هذا التجييش ضد العرب والمسلمين، والذي آتى أكله، في صياغة الرأي الأوروبي العام لاحقًا، فإن المشاعر الإنسانية الرفيعة، التي تربى عليها المواطن الغربي، خلال النصف الثاني من القرن العشرين، بقيت على براءتها وطهرها، لدى شرائح واسعة من الناس في المجتمعات الغربية، لم يتغير جوهرهم الإنساني المتألق، ولم تستطع وسائل الإعلام، أن تحملهم على تغيير قناعاتهم الإنسانية الأخلاقية، فيما يتعلق بالنظرة إلى "الآخر" .

ما زال كثير من الإسبان، وعلى الرغم من كل مخاوفهم، يتعاملون مع المورو بشكل فردي شخصي، مفضلين، أن يُحسنوا الظن فيه، متأملين الخير، ولو خيّب آمالهم! على أن يسيؤوا إليه، حتى لو تحققت فيه أسوأ ظنونهم!

لا يُحب خيرة الناس، كسر خواطر الآخرين في وقاحة وصلف، مهما كانت الصورة المسبقة عن هؤلاء الآخرين، في الذهن الجماعي لديهم، قاتمة.

***

طبول الحرب تُقْرَع في العالم، وقَرْعُ الإسبان الأحرار على الطناجر، في مظاهراتهم السلمية الليلية الرائعة، تعلن رفضهم للحرب، يهز الضمائر والساحات والحارات والشرفات.. ويرفع ذلك الشعار، الذي يختصر بكلماته الأربع كل الحكاية: "لا للنفط مقابل الدم"!

اصطف الشعب الإسباني ضد الحرب[1]، وبينما كان الاتحاد الأوروبي، يُحَضر ليضع آخر اللبنات، في بنائه الاقتصادي والجغرافي والسياسي الموحد، الذي عمل عليه حثيثًا منذ خمسين عامًا، كان الاتحاد السوفييتي يتهاوى متفككًا، في حين أن الولايات المتحدة، تتخذ من حماقة الديكتاتور العراقي الأخرق، ذريعة للعودة إلى المنطقة العربية، صواريخ سكود العراقية تضرب أهدافًا باهتة غبية، في تل أبيب الإسرائيلية، والظهران السعودية، لبس جورج بوش خوذة الحرب، يريد أن ينتقم لكرامته الطفولية، بينما كان

(1) حرب الخليج الثانية /موقع الويكيبيديا باللغة العربية.

الإعداد في البنتاغونو-Pentágono- ماض على قدم وساق، لارتكاب واحدة من أكبر جرائم الحرب التاريخية على الإطلاق.

أحرق الجيش العراقي، آبار النفط في الكويت، وجعَ الغرب، وحبّة فؤاده، وبؤبؤ عينه! وأحد أهم أسباب قيام مدنيته واستمرارها، لم يكن الجميع يعرفون، أن توقف تدفق النفط على الغرب، في تلك اللحظات، من تلكم الأيام، سيُترجم فورًا وبعد ساعات، بتعطل المصانع، والمزارع، والمطارات، والموانئ، وحركة السير على الطرق السريعة، وتحوُّل البلاد الغربية، إلى حالة من الفوضى العارمة، يتراكم في أرجائها، صفيح السيارات العاجزة عن السير والحركة، كما سينطفئ هدير آلات تلك المصانع الجبّارة، التي تضخ الحياة في شرايين آلات الحرب والموت والدمار العالمية.

خوف الغرب مِنّا مبرر، خوفه على مصالحه مبرر، لكن وحشيته، وسقوطه الإنساني، لتحقيق مآربه الاستعمارية، لن يكون مبررًا أبدًا!

بغير البترول، ستنتهي المدنية الغربية المعاصرة إلى وضع بائس.. لا بقاء لمدنية الغرب من دون هذا الذهب الأسود، الذي صُبِغت بسببه منطقتنا – ومناطق أخرى في العالم تمتلكه – بلون الدم.

هذه هي الحقيقة السياسية الرنانة–المستترة، في الربع الأخير من القرن العشرين، والتي حملت الغرب على العمل بجنون وإجرام، للسيطرة على ما تبقى منه من جهة، ومن جهة أخرى لإيجاد بدائل للطاقة، يستغني بها عن الثروات الحبلى بها أراضي "الآخرين"، والتي توشك أن تنفد، بعد أن امتصتها آلة الإجرام الغربية بأبخس الأثمان، و...بأبهظها!

البحث عن حقول جديدة للبترول، والغاز الطبيعي، كان محمومًا، يسير جنبًا إلى جنب، مع صياغة جميع المكائد الممكنة، لإبقاء المنطقة حيث هي، في مربع تاريخها المعاصر، على أبواب القرن الحادي والعشرين، شعوبٌ مغلوبة على أمرها، مسلوبة الإرادة، مغيبة الهوية، مكسورة الركب، غير قادرة على معالجة جراحها، ولا على صناعة كرسي للعجلات، تتمكن به من متابعة طريقها في الحياة.

الله وحده، هو الذي يعلم الثمن، الذي سيترتب على الشعب السوري دفعه لاحقًا، لقاء دخول النظام السوري، منظومة التحالف ضد صدام! الله وحده، هو الذي يعرف، كم سيكلف المنطقة العربية غاليًا، مرور صواريخ التوماهوك الأمريكي، من الأجواء الإيرانية، لتستعين بتضاريس جبال زاغروس، لشل قدرة العراقيين الجوية، والتمكن منهم تمامًا، والقضاء المبرم على جيش صدام.

بدأت الولايات المتحدة الأمريكية، عملية نقل قواتها إلى قواعدها العسكرية، في الخليج، استعدادًا للقضاء على النظام العراقي بأركانه كافة، والانقضاض على ذلك الجيش المليوني، الذي دفعه صدام حسين لاحتلال الكويت، وبدأ نقعُ غبار الحرب يصل أنوفنا في مدريد، يخنقنا، يُشعرنا بالكارثة المقتربة.

الشعب الإسباني كان بالغ الحساسية ضد الحروب والعدوان على الآخرين، في سنواته المضيئة تلك.. كان يُعَبِّر بكل الوسائل الممكنة، عن رغبته في أن تنأى بلاده بنفسها، عن "هذا" الذي يجري في الخليج "الإسلامي"، والذي كنا نعيشه في مدريد ساعة فساعة، وفظاعة ففظاعة! أو هذا ما كنا نظنه!

– الخليج الإسلامي؟ من أين أتيتِ بهذا الاسم؟

– إيران تُسميه الخليج الفارسي، والعرب يسمونه الخليج العربي، وهو بالنسبة إليكم "الخليج البترولي"! فأنا من عند نفسي أسميه "الخليج الإسلامي"، فهو خليجٌ محوط بدول إسلامية من كل جهاته!

– ما هذا الاختراع الغريب؟

– وما غرابة ذلك؟

– أن تنسبي منطقة جغرافية إلى دين!

– أغرب منه، أن تشتعل الحروب، بين فرقاء من الدين نفسه بسبب تنازعهم عليه!

– لو كانوا من الدين نفسه، لما تنازعوا عليه!

– ألم تتنازع أُوروبا كل سنتمتر من جغرافيتها، في حروب ممالكها، التي كانت تدين بالدين نفسه؟ وإذن لماذا تنسون تاريخكم، ولا تذكرون إلا فظاعات تاريخنا المعاصر؟

– الدين آخر ما يفكر فيه زعماؤكم.

– هم ليسوا زعماء، هم عملاء، وقتلة، مُستأجرون للغرب والشرق، في بلادنا.. وصحيح كلامك تمامًا، كلهم يركبون مركب الدين، ليُهوِّنوا على البشر أن يفقدوا حياتهم في الحروب، الدين يمنح الناس راحة أخروية، ويحصنهم ضد شعورهم بالفناء.

تمخضت حرب الاستنزاف الأمريكي على العراق، ومعها جميع أنواع الحلفاء، وفيهم ثلاثة أرباع الدول العربية، عن "عاصفة الصحراء"، والتي كان من أفظع تجلياتها، المجزرة الكاسحة، الرهيبة، المريعة، التي ارتكبتها الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى –

كما تسمي نفسها – في أرتال الجيش العراقي العزلاء، المنسحبة من الكويت، رغم أنفها، وتحت ضغط الهزائم الكبيرة، التي تعرض لها العراق وجيشه منذ بدء هذه الحرب[1].

قالت لي جارتي في البناء المجاور، والتي ألتقيها يوميًّا عند الخبّاز، المختصة في العلوم السياسية، والكاتبة في صحيفة الموندو الإسبانية: هذه المجزرة ستغير وجه العلاقات الدولية، وستقلب كل الموازين في منطقتكم، ولن يكون هذا لصالحكم.

كان زمنًا عصيبًا، زمن الحروب ذاك، تداعت علينا فيه الأمم في العـراق، وأفغانستـان، وفلسطيـن، والصومـال، والبوسنة.. بَدَونا أمة مستباحة، وكانت آلامنا على البعد، شديدة، وعميقة، ومُقْعِدة.

أحيانًا . . تكون معاينة الألم أقل من تخيله.

كانت تلك بداية معاناة طويلة مريرة . . بدا وكأنها نفق مظلم طويل لا تلوح في نهايته أيّ كوّة للنور.

كان زمنًا صعبًا مريرًا.. زمنًا نحيا فيه بعيدًا، آلام الجميع، وكوارث الجميع، ومعاناة الجميع.. دون أن يدري بنا أحد.

*****

(1) تفاصيل المجزرة موثقة من عدة مصادر عربية وأمريكية وإنكليزية، في:"مدونة غار عشتار العراقية"، تحت عنوان: "الجريمة لا تسقط بالتقادم: أكبر مذبحة للجنود في تاريخ العالم"، نشرت بتاريخ: 6.4.2010

بعد منتصف الليل، نسمع قرعًا خفيفًا على باب بيتنا، الذي يقع في الطابق العاشر، لا شيء يخيف، لا بد من أن أحد الجيران يطلب معونة طبيّة، شيء طبيعي أن تقرع أبواب الأطباء ليلاً نهارًا في أوقات غير طبيعية.

نفتح الباب، لنجد جارتنا "إنكارْناثيون"(1) التي تسكن في الطابق التاسع، تحت بيتنا مباشرة، تلِجُ الدار مباشرة، دافعة زوجي نحو الداخل، وتغلق الباب وراءها، تتحدث في همس وخِفْية.

قالت: إذا أردتم، استعجلوا حمل ما تستطيعون من حاجياتكم، وحاجيات أطفالكم، دَبَّرْنا لكم سيارة إضافة إلى سيارتكم، نحملكم أنا وزوجي، إلى ضيعتنا، على بعد ثلاث ساعات من مدريد، إذا خرجنا الآن، يمكننا أن نصل قبل طلوع الفجر، هيأنا لكم ملجأ هناك تحت الأرض، ولكن عليكم الإسراع، معكم ساعة فقط لننطلق!

ذهلنا أمام هذا العرض البالغ السخاء، أصبنا بدهشة عقدت ألسنتنا، إلى درجة أن جلسنا كلانا مذهولين، ونحن ننظر في وجه المرأة، الذي يتهلل بالصدق والنبل والمواساة.

شجعها صمتنا على المضي في الحديث، وقد جلست إلى

---

(1) Encarnación اسم إسباني، ومعناه بالعربية "تَجَسّد" وهو اسمٌ ديني مشتق من الكهنوت المسيحي.

جانبي، وأحاطتني بيدها، بحنان أم، استأنفت: لا عليكم، وفرنا لكم طعامًا، وشرابًا، لمدة شهر كامل! ولكننا لا نستطيع توفير كل أسباب الراحة التي تناسبكم، أنتم أسرة طبيب وقد اعتدتم حياة كريمة، لكنها الحرب كما تعلمون.. أرجو أن تستعجلوا في لمّ أغراضكم!

قال لها أبو ساجدة: "إنْكارْنا".. نحن عاجزون عن شكرك، ولا نجد كلماتٍ توفيك حقك علينا، ولكن ما يجري في البوسنة، لا أظن أن يتمدد لتقوم الحرب في إسبانيا.

قاطعته "إنْكارْنا" – اسم التصغير لإنكارناثيون –: أنت لا تعرف شيئًا يا دكتور، أنت لا تعرف شيئًا، لا يمكنك تصور الحقد على المسلمين هنا بين الناس، قد لا يُبدونه لكم كثيرًا، لكننا نحن الذين نرتاد الكنائس، والنوادي، والمقاهي.. نعرف، أرجوكم.. لا تضيعوا الوقت، وهيا بنا.

قلت لها: عزيزتي "إنْكارْنا"، لا حاجة إلى ذلك، لا يمكن أن تنتقل مذابح البوسنة إلى إسبانيا، شكرًا لكم، كرمكم هذا لا يُنسى، لكنني لا أعتقد أن هذا ضروري.

أصيبت "إنكارْناثيون" بالإحباط، صارت تنقل نظراتها المرعوبة، بيني وبين زوجي، وقالت: عندكم ثلاث بنات صغيرات، انظروا ماذا يفعلون في البنات والبنين والنساء في البوسنة، أنا وزوجي لا نريد أن يعتدي أحد عليكم، نحن أناس متدينون، ونعرف أن الجميع "رعايا الرب"، لقد عشنا حربًا مروعة، هنا في إسبانيا، كان الأخ يغتصب فيها زوجة أخيه، ونحن لا نريد لكم أن تكونوا ضحايا هنا، لقد بدأت الحرب في البوسنة، وستنتقل كالنار في الهشيم إلى جميع أنحاء أُوروبا، وستكونون أنتم الضحايا.. كل ما

أستطيع قوله إننا تحت تصرفكم، وأن كل شيء جاهز، لإيوائكم عندنا، في قريتنا المتواضعة.. أرجوكم فكروا في الموضوع.

ضمتني المرأة الكبيرة إلى صدرها وصارت تبكي، وبادلتها البكاء والمشاعر.. وراح زوجي يخفف عنها، ووعدناها بأننا سنفكر في الموضوع، وسنتخذ كل الاحتياطات الممكنة، وإذا ظهر أي شيء يشير إلى انتقال عدوى البوسنة إلى إسبانيا، فإنه لن يكون أمامنا من خيار، إلا جيران الطابق التاسع.. الأهل الكرام.

ذهبت "إنْكارْنا".. وبقينا في مجلسنا ساعة، واجمين، صامتين...

كان الشعور بفداحة ما نزل بإخواننا في البوسنة، يوازي، مشاعر الخوف على أنفسنا، لكنه، يفوق قدرتنا على تصور المجهول القادم! نعرف أنه قادم، ولا نملك أيّ وسيلة لدفع أذاه عنا، كانت الحال أشبه بنوع من أنواع الشلل في الإحساس والقدرة على التصرف واتخاذ القرارات اللازمة، في مواجهة هذه النازلة.

هي الحرب إذًا.. القنوات التلفزيونية الأربع الرئيسية في إسبانيا، تتحدث عن الحرب ليلاً نهارًا، تعرض صور النكبة البوسنية، تحلل هذا الحقد الذي دفع الجار إلى ذبح جاره، والصديق إلى اغتصاب زوجة وأبناء وبنات صديقه! تتحدث عن **تلك القهوة، كان يشربها الجيران معًا، كل صباح، واستبدل بها القوم الدماء! ملؤوا بها فناجين قهوتهم، وكاسات خمرِهم، وصحون حسائهم، وقنوات تلك السواقي الجميلة، الدافئة، من العلاقات الإنسانية التي كانت تجمعهم.**

إنها الحرب، وإنها سيدةٌ إسبانية يهودية، في الثمانين من عمرها، على كرسي عجلات، وعلى أنفها جهاز الأوكسجين.. تقف أمام كل الكاميرات الإسبانية، وبكل شجاعة، ترفع صوتها

لتقول للناس: "لا نريد "هولوكاوستو" جديد في أُوروبا ضد المسلمين، كفانا ما حدث قبل خمسين عامًا ضد اليهود، أنا إحدى ضحايا تلك المحرقة، ولا أريد أن تتكرر"!

الأسواق مقفرة، من الناس، ومن البضائع تمامًا، أرفف محلات بيع الأغذية عارية، اختفى من السوق، الأرز، والعدس، والبصل، سوق "الكامبو" والذي كان، من أكبر، وأهم أنواع "السوبر ميركادو" في إسبانيا، أصبح فارغًا تمامًا!

المظاهرات تجتاح إسبانيا، احتجاجات القرع على الطناجر، ليلاً، تصم الآذان، الناس لا يريدون مجازر، الناس لا يريدون الحرب.

كان الإسبان في هاتيك الأيام، يَظهرون في القنوات الإخبارية، في غاية التأثر، والتعاطف الوجداني، معربين عن تضامنهم مع كل مسلم، يريدون المساعدة، يريدون عمل أي شيء يوقف زحف المجزرة! كان ردّ فعلهم الإنساني مذهلاً.

المسؤولون السياسيون، وصناع الرأي، وكبار أساتذة الجامعات المعروفون، من الأطباء النفسانيين، والعقليين، والمختصين، في الصحة الاجتماعية العامة، يعقدون الندوات الحوارية المتلفزة ليلاً ونهارًا.. لطمأنة الشعب الإسباني، وتهدئة روعه، وتسكين مخاوفه، بأن حرب البوسنة، لن تنتقل إلى إسبانيا، وبأن تصرفات الناس، فيما يتعلق بتخزين الأطعمة، غير مبررة، وأن الغذاء، والدواء، والحليب متوافر في إسبانيا، ولا حاجة إلى أن يقوم الناس بما يقومون به، وأن المسلمين في إسبانيا في أمان، والشرطة ساهرة على الأمن، والجيش الإسباني على أهبة الاستعداد.

كانت الذاكرة الإسبانية الجماعية، لا تزال تحتفظ بمخزون كبير، مرعب، عن تلك الحرب الأهلية الفظيعة، التي شهدتها البلاد ما بين 1936 و1939، ما بين اليمين واليسار الإسبانيين، والتي كانت إحدى تجليات، نزاعات المعسكرين الاستعماريين، الشرقي والغربي في الساحة الإسبانية، حربًا أهلية مريعة قتل فيها الأخ أخاه، واغتُصِبَت فيها الراهبات من قبل الشيوعيين، ثم ذُبِح الشيوعيون بأيدي اليمينيين، وسُمِلت أعينهم.. هكذا يروي الإسبان ما حدث في بلادهم في ذلك التاريخ، الذي بقي ماثلاً في الذاكرة والضمائر إلى اليوم، ولم يرحل على الرغم من مرور ستة عقود[1]!

***

كنا نعيش حالة من الضغط النفسي الفظيع، المسلمون في أُوروبا، وخصوصًا أولئك الذين لا بلاد لهم ولا أوطان، يعودون إليها، كسوريي الـ80[2]، وفلسطينيي الـ48!.. خائفين، مضطربين، نشعر آثار سكاكين الحقد الصربي، في أعناقنا، نعاني من جديد هول حروب بلادنا، ولكن في المهجر هذه المرة! ووجهًا لوجه مع عدو نجهله، لم نسمع به من قبل، عدو متوحش متغول، يذبح، يغتصب، يدمر، يكذب، يستكبر، لا يبالي بعذابات البشر،

---

(1) الحرب الأهلية الإسبانية 1936- 1939/ موقع تاريخ القرن العشرين الإلكتروني/
LA GUERRA CIVIL ESPAÑOLA 1936-1939

لمراجعة موضوع الحرب الأهلية الإسبانية:

Por qué la República? perdió la guerra? :الكتاب// المؤلف Stanley G. Payne

Helen Graham :الكتاب/ المؤلفة Breve historia de la Guerra Civil

Breve historia de la Guerra Civil española الكتاب/ المؤلف Ramón Tamames

(2) حقوق اختراع هذا الوصف محفوظة للسيد "مأمون شيخ عثمان".

لا يفقه شيئًا من قوانين الحروب الأخلاقية، ويظن فعلاً، أن بإمكانه بهذا القدر من السقوط والتوحش، أن يحقق انتصارا!

أي عدو هو هذا؟ أي عدو؟

أي حقد؟ وأيّ بغضاء؟ اشتملت عليها قلوب هؤلاء الوحوش، الذين كانت تدعمهم، وتقف معهم، وتشجعهم القوة السوفييتية المتهاوية، المنهارة، المتفككة.

كشفت تلك الحرب، أمام أعين الجميع، كارثة البوسنة والهرسك المتكررة على مرّ القرون، وبدا أن الحكومات الغربية، لا تريد أن تحرك ساكنًا، لولا ضغط الشعوب الهائل عليها، **وتبين أن الحرب العالمية الأولى ضد الامبراطورية العثمانية، والحرب العالمية الثانية بين الامبراطوريات الناشئة، الجديدة، المنتصرة، لتقاسم تركتها، لم تنتهيا بعد، وأن الأحقاد هي أقوى من الزمن، وأن الحضارة لم تستطع أنسنة البشر بما يكفي، كي لا يكرروا عثرات التاريخ الفظيعة.**

أفزع ما في المشهد، كان ذلك الانفصام المؤلم، بين مخاوفنا وبين ما نعترف أو نُصرح به.

كنا نتحدث أنا ومنى السورية عن الحرب، وعن تصرفات الإسبان فيها، وساقنا الحديث إلى أوضاعنا ومخاوفنا، ففاجأتني بالقول:

– أنا لستُ خائفة، ما فشروا.. نحن لا نخاف أحدًا.

– يا أختي ليس الموضوع، موضوع خوف فحسب، إنها مجتمعات محتقنة بكراهيتنا، لا ندري ماذا يمكن أن يقع غدًا.

– هذا كله كلام فارغ، لا أدري من أين تأتين أنت بهذه القصص، إذا أردت أن تكتبي قصصًا، فاكتبي قصصك بعيدًا منا، ولا تخترعي أشياء غير موجودة!

– أخترع؟ ألم تحدثيني أنت نفسك البارحة، أنك طبخت الحساء، وسكبتيه في المصفاة، لشدة انشغالك بالأهوال التي تجري في البوسنة؟

– لا.. لا... هذه حادثة لا تستحق الوقوف عندها! كنت في لحظة ضعف، وانتهى الموضوع – العمى– كلما حدثناك بشيء جعلتِه حكاية!

– سبحان الله.. ألم تقولي، إنكم لا تنامون طوال الليل، وأنتم تتابعون الأخبار، وإن الأولاد عندك يبكون ويتعرضون للكوابيس الليلية.. أنا لا أفهم هذا الإنكار الآن وهذا السلوك!

– يا أختي نحن بخير، ونحن قوم لا نخاف، وليست لدينا أيّ مشكلة!

في السوق ألتقي جارتي وصديقتي، السورية "نبيلة"، ويسألنا اللحام، كيف أنتم؟ أرجو أن تكونوا وأهلكم بخير؟ نخبره أننا من سورية، وأن سورية بعيدة عن البوسنة، فيقترب منا من فوق منصة اللحم، ويهمس وهو يتطلع يمنة ويسرة: انتبهوا كثيرًا، انتبهوا جيدًا، أنتم لا تعلمون كم يكرهكم بعض الناس هنا.

نشتري اللحم، ونمضي ونحن نشكر الرجل على تنبيهه، تقول صاحبتي نبيلة:

– قسمًا بالله سأصاب بالجنون.

– لا حول ولا قوة إلا بالله.. الله يستر ويتلطف بنا، والله ما أدري ما أقول.

– أصحابنا المغاربة، يغادرون إلى بلادهم، ونحن إلى أين سنذهب؟

– نحن والفلسطينيون.. أوضاعنا مبكية، لا وطن لنا يؤوينا! حسبنا الله ونعم الوكيل فيما نزل بنا.

تمسح نبيلة دمعة عزيزة.. وتقول: والله إنني أطبخ، وأعمل، وأتجول في بيتي كالأشباح، كل ساعة، أظن أن جيراني، سيقتحمون علي البيت لاغتصابي وابني.

– الحال من بعضه... نحن بشر، أنا لا أنام طوال الليل، أدور في البيت أقرأ آية الكرسي.. أحرس أولادي، الله يتلطف بنا.

– هل تعرفين ماذا فعلت البارحة؟ بقي زوجي يبحث عن حذائه ساعة، فلقد نظفت كل الأحذية مساءً قبل أن أذهب إلى فراشي كما أفعل يوميًّا، ولا أدري أين وضعتها! ولما فتحت البراد صباحًا، آخذ زجاجة الحليب، لتحضير الفطور للأولاد، وجدت الأحذية كلها في البراد!

ثم تضيف: لقد جننا يا أم ساجدة، لقد أصابنا الخبل، ربي يثبت علينا العقل والدين ويصرف عنا البلاء! ماذا فعلنا نحن حتى ينزل بنا كل هذا البلاء؟ أنا لم أفعل شيئًا أستحق عليه كل هذه المعاناة الفظيعة.

قلت لها في تلطف شديد: لا حول ولا قوة إلا بالله يا نبيلة، نحن نظن أننا لم نفعل شيئًا، لأننا لا نحاسب أنفسنا.. نحن لا نحب بعضنا، ونكره الخير لغيرنا، ونحقد على الناجح منا،

ونؤذي بعضنا بسوء الظن، وشهوة كسر الخاطر، ونمضي في حياتنا وكأننا لم نفعل شيئًا.

سكتت نبيلة.. وددتُ لو أنها عرفت، واعترفت بما تصنع، وكيف تؤذي أخواتها في الله، وصديقاتها، من حيث تدري أو لا تدري، وخصوصًا حسناء، التي أدخلتَها المشفى، وهي لا تدري!

لم تقل شيئًا، ودعتني من دون أن تنظر في وجهي وانصرفت.

على الهواء مباشرة.. تنقل إحدى القنوات الإخبارية الإسبانية، في ذلك اليوم من يونيو/حزيران عام 1995، ذلك الموقف الرهيب، للجنرال "راتكو ميلاديتش"، وهو يشرف على فصل النساء والأطفال، عن الرجال والفتيان على أبواب "سيربرينيتشا"، تحت سمع، ونظر، ومراقبة قوات الأمن الهولندية، ويربت على أكتاف الأولاد متبسمًا، يعطيهم قطع السكاكر والشوكولا، وهو يرسلهم بعيدًا عن أمهاتهم وإخوتهم.

بعد ساعات فقط من تلك المشاهد، عمّت إسبانيا الأخبار، بأن الجنرال الصربي، قتل الثمانية آلاف ذكر، من البوسنيين المسلمين، الذين كان يشرف شخصيًّا، على تفريقهم عن أسرهم في "سيربرينيتشا"، في واحدة من أكبر مجازر التطهير العرقي، التي عرفتها هذه البشرية المنكوبة.

خرجت المظاهرات في إسبانيا، على الفور، وسهر الناس بالشموع، في الساحات الرئيسية في مدريد، يُصلون، ويبتهلون، ويبكون، ويدعون الأمم المتحدة وأُوروبا للتدخل، لوقف ما يجري في البوسنة.

بالأمس أبادت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى– كما تسمي نفسها – مئتي ألف جندي عراقي، عُزَّل، وهم ينسحبون من الكويت.

قبل عام سحقت روسية "يلتسين"، الشعب الشيشاني، ودمرت غروزني على رؤوس أهلها، وحولتها إلى أنقاض، لكن غروزني لم تكن قريبة، من حدود أُوروبا كالبوسنة!

اليوم، يقوم الصرب بقتل رجال البوسنة والهرسك، واغتصاب نسائها وأطفالها.. والأعداد بمئات الألوف.

نحن نقتل. .

إنهم يقتلوننا. .

لطالما نعيتُ باللائمة، على مجلة "المجتمع" الإسلامية الكويتية، لسياستها الإعلامية، في استثارة المظلوميات، والقول بأن العالم كله يكرهنا، يحاربنا، ويتحرك ضدنا، حتى إنني امتنعت عن الكتابة فيها لفترة طويلة، كانت مطالعتها تُمرضني، تصيبني بالقهر والإحباط والحنق!

كم كانت مجلة "المجتمع" على حق؟ وكم كنا صمٌّ بكمٌ عميٌ؟ لا نستوعب حجم كراهية المستعمرين لنا، وحربهم علينا!

***

كان الشعب الإسباني فيما يتعلق بحرب البوسنة، وبسلوكه الإنساني التضامني الرفيع، من أنبل وأكرم من عَرفتُ من الشعوب، حتى إن مجموعة من سائقي سيارات الأجرة، في مدينة برشلونة عاصمة مقاطعة كاتالونيا، اتفقوا على جعل عُشر ريع مدخولهم

الشهري، لصالح ضحايا حرب البوسنة، ومعها، ومن بعدها كوسوفو، منذ انفجرت الأحداث فيها وتناقلت الأخبار مآسيها.

بدأت الهجرات تتدفق من البوسنة على إسبانيا، كما على عامة دول أوروبا، ولكن لم يكن هنالك رفضٌ ولا عنصرية ولا كراهية، فالشعوب الأوروبية كانت مُهيئة إعلاميًّا تمامًا، لاستقبال هذه الهجرات، وكان القادمون.. أوروبيين! صحيح أنهم مسلمون، لكنهم كانوا أوروبيين!

شباب وشابات بوسنيون، من العرق الأبيض الآري، الذي يشعر تجاهه أمثالنا وأمثال الشعب الإسباني، بشيء من النقص الفيزيائي، بيضٌ، شقرٌ، ملونو الأعين، طوال القامة، يتمتعون بمقاييس الجمال "الإعلامي" بامتياز..

كان الشعب الإسباني يشعر بالانبهار أمام هذه المجموعة من المسلمين، الذين لا يشبهون البتة أولئك الآتين من الجنوب!

حتى داخل عالم الهجرة المتوحش، هناك عنصرية متوحشة!

معظم القادمين من البوسنة من المسلمين، فنيون، مهندسون، ممرضون، أطباء، تقنيون، أساتذة جامعات، موسيقيون، شعراء، كُتّاب، وأخصائيون في علوم النفس أو المجتمع.. وقد حُوِّلَ معظمهم إلى القرى الإسبانية النائية، كانت تعاني في تلك الأيام، من أزمة سكانية خطيرة، في تعداد سكانها، بسبب النقص الحاد في الولادات.. إثر السياسات الاجتماعية الناجحة للاشتراكيين، الذين راهن زعيمهم "فيليبه غونثالث"، على خفض عدد السكان مقابل رفع مستوى المعيشة، وإعادة تربية المجتمع والإنسان، سياسة آتت أكلها، في ذلك العقد من الزمان، لتبدأ معها خطط المعارضة المحافظة، بالتشجيع على زيادة النسل من جديد، بعد

أن أصبحت إسبانيا، في مصاف الدول الأفضل في العالم من حيث مستوى رفاهية الفرد في تلك الأيام.

كان رئيس ومؤسس حزب الشعب المحافظ "مانويل فراغا"[(1)]، يجهش بالبكاء، وهو يخطب في قواعد حزبه، قائلاً: يا نساء إسبانيا، إن إسبانيا بحاجتكن، إذا استمر معدل الولادات على ما هو عليه، فإننا سنصبح أقلية في بلادنا!

كان ذلك، حين كانت نسبة المهاجرين في إسبانيا لا تتجاوز 0.5% فقط!

مُنِح البوسنيون، مساكن في تلك القرى الخاوية من سكانها، ومأوى، وأعمالاً تسد النقص الكبير جدًّا، في اليد العاملة الإسبانية، في ذلك الحين، كأعمال رعي الخنازير، والمساعدة في جني المحاصيل، والصناعات اليدوية، والخدمات المنزلية.

***

لأول مرة منذ سنوات، تأتي أعياد الميلاد مع رمضان، كانت تلك مناسبة فريدة في حياتنا في إسبانيا.

الجميع في فرح، وانشغال ببهارج الأعياد، وشعور رائعٌ، بدفء المشاركة الإنسانية، يملأ الجوانح، الجميع محتفون بأعيادهم، وأفراحهم، لا يشعر الغريب بالغربة، في زمنِ عيدٍ، يتشارك فيه الجميع أمانَ سلامٍ اجتماعي جميل.

---

(1) Manuel Fraga، قانوني، أكاديمي، كاتب، ابن مهاجر إسباني في كوبا، سياسي إسباني مخضرم، كان سفير إسبانيا في إنكلترا، ثم شغل منصب وزير المعلومات والسياحة أيام الجنرال فرانكو، يُعدّ من آباء الدستور الإسباني، حيث شارك في كتابته أوائل العهد الديمقراطي 1978، مؤسس حزب الشعب المحافظ، رئيس حكومة مقاطعة غاليثيا لفترة امتدت 15 عامًا، كان من أبرز النواب في مجلس الشعب الإسباني. توفي عام 2012.

وكنا بين جملة المتواصلين مع المهاجرين البوسنيين، وكما فعل بعض الإسبان، بدعوة بعض الأسر البوسنية، على موائد النابيداد، وخصوصًا في الليلة العظيمة، دعونا أسرتين بوسنيتين على مائدة الإفطار الرمضاني.. تعرفنا عليهما في أحد الأسواق، عندما اقتربت منا سيدة بارعة الجمال، لا تبدو إسبانية، وسألتني إن كنت أستطيع أن أترك لها عنوان مسجد هنا في مدريد.

كانوا، طبيبة، ومهندسًا، ونجارًا، ومحامية، وأربعة أطفال.. كلهم جاؤوا من "سراخيبو – سراقب".. ثلاثة منهم بوسنيون مسلمون، والرابع بوسني كرواتي، لا أريد أن أسألهم عن أي شيء، **فالحزن المنضبط الصامت الذي يفرض سطوته الباهرة، يفرض معها احترامًا لازمًا**. . وجوه شاحبة، ارتسمت فيها كل الحكاية الرهيبة، جمالٌ يفرض نفسه، بين قومٍ من أمثالنا وأمثال الإسبان، بصورة رنانة، السجائر في أيديهم لا تفارقهم، حتى لتكاد تكون مع الألم، سمة ملاصقة للبوسني أينما رأيته.

اصطحبناهم إلى المسجد، هناك تعلموا الصلاة، لأول مرة في حياتهم، طلبوا مصحفًا مترجمًا، ولم يكن يومها من مصاحف مترجمة إلى اللغة الإسبانية في مدريد، وسألوا عن لحمٍ حلال يشترونه.

صوت الألم الساكت، ينبعث من أرواحهم، يلفك، ويخنقك من دون كلام، ألمٌ عميق أنيق. . ألمٌ لا يعبر عن نفسه، بغير التعالي، والسكون، لكنه لا يبارح. . إنه هنا، يصاحبهم كهالة من نور، تحيط بهم، تجلس معهم، تضع رجلاً فوق أخرى، تُدخن لفافة تبغ مثلهم، تشرب "الجعة" التي يحتسونها، وتشعر بالانكسار، لأن احتساء الخمر يكسر هالات النور، تنظر من دون أن ترى،

تعاين ملابسات غربتها الجديدة هذه، بكثير من التوجس، والارتياب، والقهر، ترفع رأسها شامخة كما يفعلون، تشيح ببصرها عن المتطفلين.. تجول بنظراتها تستجدي السماء نورًا، يمدها بالنور، كلما أوشك نورها أن يخبو.

لم يكن هؤلاء القوم، يشبهون في شيء ما نعرفه عن المهاجرين الجدد، القادمين من الجنوب، هؤلاء قومٌ، لم يهاجروا طلبًا للرزق، أو للدراسة، أو لمعيشة أفضل، لكن هجرتهم تشبه هجرة السوريين، الفارين بدينهم، وسلامتهم من أنياب "الأسد الوحش"، الذي دمّر مدينة "حماة" السورية، وقتل ثلاثين ألفًا من أهلها، كما تشبه هجرة الفلسطينيين، الذين يعانون في أرضهم المقدسة حرب استئصال، وقتلاً منظمًا بطيئًا.

قضية الفلسطينيين، أصبحت قضية فولكلورية عند الإسبان، يَهُبّون لنصرتها كلما انفجر الجرح بالدم، بين الحين والحين، أما القضية السورية.. فلقد كانت قضية "شبحية"، لم يسمع بها، ولا يعرفها، ولا يعترف بها.. ولا حتى كثير جدًّا من السوريين أنفسهم! ولا يكاد يعيشها بتفاصيل قبحها، وفظاعاتها، إلا من مرّت الغيلان على داره، أو قريبًا منها.

لقد ذُبِح البوسنيون على الطريقة "الأسدية الوحشية السورية"، في بلادهم، لأنهم مسلمون، أو لأنهم كروات، اضطرتهم السكاكين للهجرة.. لقد كانت هجرة غريبة هجرتهم، لا تدخل من ثقب إبرة ما تعارف عليه الناس، في إسبانيا عن الهجرة.. كانت هجرة معترف بها، مرحب برجالها ونسائها وأطفالها، هجرة يتعاطف مع أصحابها العالم الحر، كما تتعاطف معهم العوالم غير الحرة، تلعب العنصرية والتعصب، للعرق الآري الأبيض هنا، دورًا

قبيحًا، لكنها تجعل أهل البلاد المستقبِلة، يحبون أولئك المهاجرين، وإن لم يروا فيهم غير يد عاملة متميزة، تسدّ عوزهم لاستمرار دورة الاقتصاد!

***

دعوناهم إلى طعام الإفطار، وكان اثنان منهم صائمين، والثالث كرواتي كاثوليكي، والرابع لم يعتد الصيام كما قال، لكنه واحترامًا للموقف، توقف عن التدخين في بيتنا قبل الإفطار.

في تلك الأيام، كان أحد الشباب السوريين قد افتتح مطعمًا، للأطعمة الشرقية في مدريد، ووسط كل هذا الحيص بيص، قرر أبو الأولاد، أن يوصي المطعم ببعض فطائر السبانخ، والجبن، والصفيحة باللحم.

جاءت صواني –جمع صينية– الفطائر، ذات الرائحة الشهية والمنظر الرائع، وفرحنا بها، وخصوصًا أننا وجدنا، من يقوم بهذا العمل نيابة عني، وأنا التي مافتئت أعجن وأخبز –ككل نساء الجالية– منذ وطئت قدماي إسبانيا! قلت في نفسي: الحمد لله، وأخيرًا أُعتِقتُ من العمل مع الفرن، ولفح حرارته، كل أسبوعين، يومًا بطوله على الأقل.. أو هكذا ظننت!

وضعنا المائدة، وصففنا الصحون، والشوكات، والكؤوس، والأباريق، ومناديل الطعام، حتى إن جارتي الإسبانية التي تسكن مقابل داري، قالت لي معلّقة، وهي تراقب جَلَبَتَنا، ترى ذلك الحفل المهيب، في بيتنا ليلة الميلاد: أخيرًا احتفلتم بالنابيداد.. هكذا فليكن الاندماج!

قبل موعد الإفطار بساعتين، نظر ابني الصغير بسنواته

الثلاث إلى المائدة، فأخذ فطيرة سبانخ، وقال: أنا صائم يا ماما، ولكن دعيني آكل هذه الفطيرة، فطيرة واحدة!

أكل الولد لقمة واحدة من الفطيرة، وأسرع إلى المغسلة يلقي ما أكل، وهو يقول لي: هذه ليست فطائر بالسبانخ، يا ماما، هذه فطائر "كاكا"!! كلمة "كاكا" بالإسبانية، تعني شيئًا مستقذرًا جدًّا!

وماذا سنفعل.. جئت بالصبي أستجوبه:

– هل هي مالحة يا ماما؟

– لا!

– هل هي حامضة؟

– لا!

– كيف ليست حامضة؟

– لا ادري يا ماما.. هي فطائر كاكا!

– لا حول ولا قوة إلا بالله! وماذا يعني كاكا؟

– يعني ليست مثل الفطائر التي تصنعينها لنا!

– يا ابني إنني أعرف أنها ليست مثلها، فلا شيء على وجه الأرض يشبه فطائري! ولكن اشرح لي بالضبط ما بها؟ ماذا ينقصها؟ فأنا صائمة ولا أستطيع تذوقها!

بعد ساعة من المعالجة، وبمساعدة أخته الأكبر قليلاً، والتي تسحرت عند طعام الغداء ونوت الصوم.. تبين أن الفطائر بالسبانخ هذه، ليس فيها نقطة ليمون واحدة! وماذا سنفعل وقد بقيت ساعة على موعد الإفطار؟

من حسنات أن يكون زوجُك طبيبًا، أنك قد تجد في البيت، لدى الحاجَة حُقَنًا طبية!! أتيت بحُقنتين، وجلست وأولادي، وسط الضحك والمزاح واللعب والجد، نملأهما بعصير الليمون الحامض، ثم قمنا بحَقْن الستين فطيرة سبانخ واحدة واحدة بالليمون، تلك التي كان صاحب المطعم قد جاءنا بها، وقد نسي أن يضيف للخلطة، الحامض الذي لا تستقيم من دونه أكلة الفطائر بالسبانخ هذه، ويا "فرحة ما تَمّتْ"!

رفع "أبو ساجدة" الأذان لدخول وقت المغرب، وأفطرنا مع ضيوفنا البوسنيين، وصلينا معهم، ودعونا الله أن يرفع البلاء عن البوسنة، وفلسطين، وسورية، وأفغانستان، والشيشان، والصومال، والسودان، وحمَّلْناهم كل ما كان على المائدة من طعام، وتمنينا أن لو كان في استطاعتنا، أن نحمل عنهم ولو جزءاً يسيراً، من ذلك الحِمل الثقيل، الذي أرهقهم حربًا، وعذابات، وهجرة، وغربة.. ودّعناهم واستودعناهم الله، وأوصلهم زوجي إلى البيت، الذي منحته لهم محافظة مدينة مدريد، ليكونوا فيه مدة ثلاثة أشهر.

بعد أيام اتصلوا بنا وودعونا، كانوا ذاهبين إلى قرية في مقاطعة "غاليثيا"، شمال إسبانيا، ليعمل اثنان منهم في مزرعة لرعي الخنازير، والاثنان الآخران في النجارة.

في الأسابيع اللاحقة، تواصلوا معنا عبر الهاتف، كانت "رايقة" الطبيبة، كلما اتصلت بي يتهدج صوتها، وتختنق بالكلمات الإسبانية القليلة، التي نستطيع التفاهم عبرها، وكنت أعرف أنها تتعلق بقشتنا لكي لا تغرق، لكنها ما كانت تعلم، أننا لا نستطيع أن نفعل لهم شيئًا كثيرًا، كنا أعجز من أن نحمل أسرة أو أسرتين على كاهلنا.

آخر مرة هاتفتني فيها، قالت لي إنهم يحاولون اللجوء إلى ألمانيا، ما عادوا يحتملون العمل في مزرعة الخنازير، إنه شيء فظيع.. وبعد ذلك انقطعت عنا أخبارهم.

رسخت في أرواحنا، سهام ألمهم العظيم ذاك، لا تُمحى آثارها أبدًا، وبقيت في ذاكرتنا حُقَن الحامض لفطاير السبانخ، لا تُنسى.

يختلط الألم بالابتسامة في تلك الذكرى الفريدة، ويترك في النفس جُرحًا لا يُبارح، إخواننا أولئك، الذين جاؤوا إسبانيا هاربين من مجازر الصرب، والذين لم تستطع الجاليات المسلمة، مساعدتهم إلا بالقليل النادر من جهد المُقِل.

صار اسم البوسنة جرحًا مفتوحًا، تنبض شرايينه، بأقسى أنواع الوجع، والإحساس بالظلم والقهر، لكن الشعور، شعورنا.. بالعجز كان الأشد قسوة وإيلامًا من كل ما يمكن للمرء أن يتخيله من معاناة.

معاناة الغرباء، تفوق معاناة المقيمين في بلادهم وأوطانهم، فالغريب يتألم، يحزن، يعيش المحنة مضاعفة، منفعلاً، لكنه لا يستطيع أن يكون فاعلاً فيها.

يعاني غربته، ويعاني محنته، ويعاني محن الآخرين، الذين لا يستطيعون استيعاب ألمه، في غربته ومحنته، ويريدون له أن يعيش محنهم بكامل أبعادها.

يتولى دماغك، مهمة لومك، وشعورك بالعجز، ويتولى أولئك البعيدون، مهمة جلدك، وحملك على إدراك تقصيرك.

عاشت إسبانيا، وعشنا في إسبانيا، مأساة تلك المجازر الرهيبة، وبينما كان الإسبان، يتعاطفون في رقيٍ إنسانيٍ رائع، مع ضحايا حرب البوسنة، كان كثيرون من أبناء جلدتنا تلك الأيام، لم يسمعوا باسم البوسنة، إلا عن طريق الصدفة من إذاعة لندن! المصدر شبه الوحيد، الذي كان يستقي منه الناس، في بلادنا أخباراً يمكن تصديقها عن بلادهم، في غياب كامل، للنزاهة والصدق في خطاب الإعلام العربي الرسمي.

كان الإعلام، يؤدي دوره الشائن، في توجيه السياقات العامة لتفكير الشعوب، يدفعها للتعاطف مع قضية، ويصرفها عن الوقوف مع ضحايا قضية أخرى.

حين التقينا بالسفير البوسني في إسبانيا، كان وجه الرجل، يحكي حكاية الوجع، والخذلان، والشعور بالعجز، أمام فظاعة ما يجري في بلاده.

قال: "هذه هي حرب الاستئصال العاشرة، التي تشهدها البوسنة، خلال القرون الثلاثة الأخيرة"!

كلما رفع القوم رؤوسهم من قبورهم الجماعية، واستعادوا وقفتهم في وجه التاريخ، جاءهم منجل الموت يحصدهم، وكل ذنبهم أنهم موجودون في قلب أُوروبا، على الحدود، ما بين شرقها الروسي الاستعماري، وغربها الأوروبي الاستعماري.. لا أحد يريد لهم أن يبقوا، ولا أن يعيشوا، ولا أن يكون لهم وطن مستقل، يريدون لهم أن يكونوا مجرد أقلية في بلاد الآخرين، لا تريد أُوروبا بلداً مسلماً ذا تاريخ يتصل بالسلطنة العَدُوَّة.. كما لا تريد للأقليات أن تحيا بسلام أبداً، ما دامت لا تستطيع امتطاءها،

واستخدامها، في حروبها الخاصة والعامة، لتحقق بها مرادها هنا وهناك، ثم لتتخلص منها بأنجع الوسائل، التي تتقنها أُوروبا الاستعمارية بشقيها: تأجيج الأحقاد الطائفية والقومية هنا وهناك كلما اقتضت الحاجة!

أُوروبا التي تركت بعد الحرب العالمية الأولى، "تركيا الناشئة" – التي انتهت إليها الامبراطورية العثمانية العظيمة، بعد أن كانت تحكم ثلاث قارات–، واقفة ببابها عقودًا، تستجدي "حقها" في الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، لم تكن لتقبل ببلد مسلم، من مخلفات العثمانيين على تخومها!

تظن أُوروبا، كما كثيرون ممن يمتلكون القوة، خلال دورات التاريخ المتتالية – ومنهم الامبراطورية العثمانية نفسها –، أنه بالذبح، والقتل، والبطش، يمكن القضاء على بذرة الإنسان! **بذرة الإنسان التي تنطوي على روح الله! وما تلبث أن تُنتش، ويمتد جذرها الصغير، نحو الأرض ليتشبث بها، ويقوى ساعدها، وترفع رأسها بورقتين خضراوين، حرية وكرامة.. لتصافح الشمس بهما وتحيا.**

تكلم السفير في لقائه معنا، عن خذلان الأصدقاء، وكذب المنافقين، وعجز الإخوة، تكلم عن الحصار، والموت، والتجويع، والذبح، وما هو أعظم من الذبح والتجويع، وشكر الشعب الإسباني، ومجمل الشعوب الأوروبية، على ما قدمت وتقدم.

كانت غصة في القلب، أن نرى، ونعيش، على هامش ما يجري في البوسنة، هذه الظاهرة الإعلامية المخيفة، التي تُساق من خلالها الشعوب كالقطعان، لتؤمن بما يَشاء لها، مَن يقف وراء الإعلام، أن تؤمن به، ولتكفر، بما يشاء لها، مَن يقف وراء

الإعلام، أن تكفر به، ولتتحرك لإغاثة من يريد لها، مَن يقف وراء الإعلام، أن تغيثه، ولتقف متفرجة، على آلام ومعاناة مَن لا يرغب من أولئك الذين يقفون وراء الإعلام، في أن يحرك أحد ساكنًا لإنقاذهم من الغرق، ولا حتى لاكتشاف حقيقة الحكاية، التي يظن الناس، أنها تجري تحت سمعهم وبصرهم، لكنها في واقع الأمر، تمرر من خلال غربال الإعلام، ليرى الناس ويسمعون وفقط، ما يريد لهم الإعلام أن يروه ويسمعوه.

كانت حرب البوسنة، آخر حرب تخص المسلمين، سَمح فيها الإعلام الغربي، لصحفييه بأن ينقلوا للشعوب الغربية، حقيقة ما كان يحدث فيها!

***

في زحمة هول ارتدادات مجازر البوسنة والهرسك، التي كنا نعيشها في إسبانيا، كنت قد ركَنت في كهف نفسي، خبرًا سوريًّا، كبيرًا، خطيرًا، هزّنا عنيفًا كسوريين، ضغطُ تهيُّبِ المجزرة القريبة، جعل ذلك الخبر في آذاننا مجرد رجع صدى، كذلك الذي كنت أشعر به، على باب مدرسة أولادي، يوم اقتحم الجيش العراقي الكويت، وهُنّ يتصايحن من حولي، بكل ما يمت إلى هذا الغزو من صلة بحياتهن اليومية الطفولية البريئة.

رؤية الكارثة الكبرى، المستقبلة الأودية، تفقد المرء القدرة على الإحساس بغيرها من الكوارث.

بعض الأخبار تذهلك، لا تفرحك ولا تحزنك، تصدمك،

تسدد لك ضربة في وسط وجهك، قد تصيب أنفك وتهشمه، ولا يهمك تهشيم أنفك، لأن اللكمة جاءت قوية بما فيه الكفاية، لتدعك مذهولاً، متفكرًا، في أحوال الدنيا وتقلباتها.. هكذا جاءنا خبر موت ابن الأسد! قبل أشهر من مذبحة سيربرينيتشا، ليس ذلك الأسد، ملك الغابة، الحيوان، المنضبط، المهيب.. لكنه هذا الضابط الطائفي، من فصيلة مصاصي الدماء، مغتصب الحكم في سورية، بالتآمر مع فرنسا، والولايات المتحدة، وروسيا، ذلك الديكتاتور الطاغية، المجرم، الذي هدم مع أخيه، مدينة حماة، على رؤوس مئات الآلاف من أهلها، فقتلا عُشرهم، وشردا ربعهم، من دون أن يرف لهما جفن، أرهبا سورية بالقمع المتوحش، وتكميم الأفواه، واستلاب الحريات، وسحق الكرامة، والأعراض، تحت أقدام عائلتهما وأعوانهما وجندهما.

مات "ابن الأسد" إذًا! قُتِل في حادث سير، وحده –كما قيل–! لم يقتله أحد من الناس، لم يكن لأحد يد، في ذلك الحادث الرهيب، المدهش، المذهل.

كان "الأسد الوحش الأب"، يُعدّ ابنه هذا، ليكون خليفته في حكم سورية، وليرثها من بعده، كأن سورية حظيرة أغنام ورثها هو عن أبيه! لكن كيده ذهب أدراج الرياح! تدخل الفعل الإلهي، ليُزيحه من المشهد في دقة عجيبة، استجابةً لدعاء آلاف الأمهات والآباء، بأن يَحْرِق الله قلبَهُ على ولده، كما تسبب هو، بإيقاد لهيب نيران الفراق، والخوف، في قلوب السوريين، بعد أن تَخَطَّفت قوى الأمن السورية، النخبة من شبابهم، وزجّت بهم في غياهب السجون، أو دياجير المصائر غير المعروفة.

مات باسل الأسد، الفارس.. الذي أودع "فارسًا" حقيقيًّا، السجن المؤبد والتعذيب، أنْ سبق فرسه فرس باسلٍ هذا! مات الوريث قبل أبيه، واسترحنا منه في غمضة عين وانتباهتها، ومن حيث لم يحتسب أحد! ومُنِح السوريون فرصة ذهبية فريدة، لا تمنح للشعوب إلا نادرًا، ليُغَيِّروا أوضاعهم، ويثوروا على جلاديهم، ويخلعوا عنهم ربق العبودية لآل الأسد.. لكنهم لم يفعلوا!

لم تجتاحني مشاعر الشماتة، ولم يشف موت الرجل غيظ قلبي، ولم يطفئ نيران القهر فيه.. لم أشعر بغير الصدمة، والصدمة فحسب، ربما كان موضوع البوسنة، وأنهار الدماء المتدفقة، وحجم الفظائع، التي ارتكبها الصرب فيها، مما لا تستطيع الأنفس استيعابه، قد أصابني بتبلد في الأحاسيس، ربما الصدمة والدهشة، من فعل الله وتصريفه الأمور، ربما الذهول أمام الفرصة التاريخية الاستثنائية، التي مُنحت للسوريين في تلك اللحظات، فلم يغتنموها.

كنا في دمشق، لا نتجرأ على الخروج وحدنا ليلاً، كان أهلنا يُخوِّفوننا برفعت الأسد، كان هذا الاسم يوازي عندنا، اسم الغول، والعنقاء، والعقرب، والصرصار معًا.. كان قد استقر في أنفسنا، أن هذا المخلوق المُرعب، يخطف النساء في شوارع دمشق، ليتزوجهن ليلة واحدة ثم يُطَلِّقهن، وإذا كانت إحداهن متزوجة، أُتي بزوجها، فأُجبر على طلاقها، ليتزوجها هذا الوحش لليلة واحدة، ثم يُسرّحها، ويستدعي زوجها، ليحملها إلى الدار!

تقيٌّ حريصٌ هذا "المخلوق" على ما يبدو! ما كان يتزوج بنات الناس، اللاتي يختطفهن من الشوارع، إلا على سنّة الله ورسوله! أو هذا ما كان يرويه الناس همسًا ورعبًا وتخويفًا لبناتهم!

مداركنا الصغيرة في هاتيك الأيام، ما كانت لتستوعب كل جوانب حقيقة الحكاية.

وإذا ما سألْتَ أحدًا، أو حاولت التنقيب قليلاً، في الذاكرة الجماعية، لجاءك الجواب جاهزًا: ما هذا العلاك؟ لم نسمع بهكذا قصص قط!

الخوف من العار الجماعي، وفضيحة شعب، أكبر بكثير عند السوريين، من الخوف على مستقبل هذا الشعب، وسلامته العقلية الجماعية.

لم تكن مصيبة أن يحدث ذلك، وينتشر بين الناس بالتواتر.. كانت المصيبة بالنسبة إلى السوريين، في أن تحتفظ الذاكرة به، وأن يقوم أحدهم أو إحداهن بتوثيقه، وحفظه، ونشر الفظائع التي ارتكبتها الغيلان في محاولاتها تركيع الشعب.

المهم أن نحتفظ لأنفسنا، عن أنفسنا، بتلك الصورة المبالغة في الرياء والكذب.

كان "الكذب على الذات"، ملهاة السوريين المأسوية بامتياز.

كان أهل دمشق –وكل أنحاء سورية–، يَحْكُون، ويُحَذّرون أبناءهم، ويصيغون بحكاياتهم وحكيهم، ذاكرة سنوات القهر والمحنة والدم، يوشوشون بعضهم بعضًا، خوف أن تلتقط آذان الحيطان ما قالوه! لكنهم لم يقبلوا قط، أن يردد أبناءهم ما قالوه، ولا أن يسجلوا للتاريخ ما يحدث.

بدت الشام مقبرة كبيرة للذاكرة. . وبدا للغيلان، أن أهل الشام قد استكانوا وصمتوا، لقد صمتوا، لكنهم في واقع الأمر، لم يسكتوا

قط. . كانوا يتكلمون، وخوفًا على أبنائهم كانوا يحرصون، لدى زرع الكلمات في ذاكرتهم الفتية، على ضبط صمت اللغة والفعل، أرادوا لزرعِهِم السريّ ذاك، أن يبقى مطمورًا إلى حين.

تركوا لدى أبنائهم الأمانة، التي عجزوا عن القيام بها، لم يضيعوها قط في واقع الأمر، وإن لم يتمكنوا من حملها بحقها، تركوا في ضمائرنا نبأهم الموجع، وقصة شعب غفل عن حريته وكرامته، أغلى ما يملكه شعب على وجه الأرض، فانتهبتها منه الغيلان المتوحشة، وأوسعته ذلًّا وهوانًا.

كان الجميع يتحدثون عن ابن الأسد الثاني "ماهر"، الذي ورث وحشية، ورعونة، وإجرام عمه "رفعت"، رُبي، وأُعِد ليلعب مع "باسل"، دور "رفعت" نفسه مع "حافظ"! وكما يَقُصّون.. فقد كان مجرمًا بالفطرة، متوحشًا بالوراثة، جبارًا بالتربية، يحكون أنه استلّ مسدسًا، فقتل به حارسه الخاص، حين أغضبه ولما يبلغ التاسعة من عمره!

سواء صدقت تلك الحكايات، أم كانت من ترويج أجهزة المخابرات نفسها، لتشيع الخوف في القلوب، أم ولدت من بنات الفزع، والهلع، وانعدام أيّ فرصة لمعرفة الحقيقة، فلقد كان أبناء "الأسد المتوحش"، يبدون وكأنهم أكثر تحضرًا، وتمدنًا، من الجيل الأول من هذه الأسرة من القَتَلة.. المعروف منهم، والذي يتصدر المحافل، على أنه وجه النظام الذي يمكن "هضمه"! وذلك الآخر الذي يعمل في الخفاء، ناشرًا الرعب والخوف، بين الناس، مجرد التلفظ باسمه.

لم يكن يخفى من أمرهم على الشعب شيئًا، على الرغم من

كل محاولاتهم الإخفاء.. هذا الشعب الذي -وفي جحيم مرضه الاستكهولمي[1]- راح يسمي جيلاً من أولاده، بأسماء أبناء "ولي الأمر".. المجرم، القاتل، الوالغ، في دماء الأحرار والأبرياء.

أخبار الرئيس، وإخوته، وأبنائه، وأبناء خالته، وأصهاره، وأعوانه.. تصلنا ونحن في مدريد بتفاصيلها المملة، إجرامهم، تنطعهم، استكبارهم، تصرفاتهم الطائفية القذرة، سرقتهم للشعب، استحواذهم على مقدرات الناس وأموالهم، سيطرتهم المخابراتية الرهيبة على كل شيء في البلد، حتى إن الناس ما كانوا يستطيعون إقامة عرس، ولا دفن ميت، دون الرجوع إلى موافقة أجهزة "نزع الأمن".

تحولت سورية في عهد "الأسد الأب" – الداهية – إلى مزرعة خاصة بآل الأسد، وأسيادهم الإيرانيين والروس!.. كان "دهاء" الأب الوحش، يتلخص في قدرته، على ربط خيوط اللعبة الاستعمارية الدولية في سورية، بحيث يُطْبِقُ مخالبه، ومخالب أبنائه، من بعده، على سورية ولبنان والأردن وما تبقى من فلسطين، إلى.. ما كانوا يَدْعونه، ويظنونه، ويسمونه: "الأبد".

---

(1) **متلازمة استوكهولمو** - el sindrome de estocolmo -: مصطلح يطلق على الحالة النفسية التي تصيب الفرد، عندما يتعاطف أو يتعاون مع عدوه، أو من أساء إليه بشكل من الأشكال، فيظهر المخطوف مع المختَطِف علامات الولاء والتعاطف.

أطلِق على هذه الحالة اسم "متلازمة ستوكهولم" نسبة إلى حادثة حدثت في ستوكهولم في السويد حيث سطا مجموعة من اللصوص على بنك كريديتبانكين هناك عام 1973، واتخذوا بعضًا من موظفي البنك رهائن لمدة ستة أيام، خلال تلك الفترة بدأ الرهائن يرتبطون عاطفيًّا مع الجناة، وقاموا بالدفاع عنهم بعد إطلاق سراحهم/ ويكيبيديا النسخة العربية

اقتصر "دهاؤه" المزعوم المزيف، على قدرته الفائقة، في إرضاء أسياده كلهم، شرقهم وغربهم، وكان الشعب السوري أشد دهاء منه، لأنه كان يفهم ملابسات اللعبة وأهدافها! لكنه لم يمتلك الشجاعة الكافية، لنصرة ثواره، الذين كشفوا أدق تفاصيلها! كان الشعب السوري مذهلاً، يظهر "عدم الفهم"، اتقاء لشرور هذه الضباع.

ضباع تتلمظ للدم السوري، حاول السوريون مبادلتها الخديعة والمكر، وراحوا يُرَقّصونها ويراقصوها، على أنغام تراتيل، كل أنواع الموت المعلن منه والمكتوم.

وجد الشعب السوري نفسه، مضطرًا، لإظهار "عشقه" وولائه لباسل الأسد، وبدأ هذا يحلّ شيئًا فشيئًا، مكان أبيه الوحش الكبير، الذي بدا مهترئًا، جسميًّا ونفسيًّا بفعل السرطانات التي نهشته، لم يُعلَن عنها، خوف شماتة الشعب!! بقيت كل أمراضه ومعاناته، طي السِرْيّة! كذلك كان قد بليّ وتلف، بفعل الدماء البريئة، التي سفكها في جميع أنحاء سورية.. شأنه في ذلك، شأن كل طغاة الأرض، منذ خلقها الله.

دماء الأبرياء الطاهرة.. دائمًا، تنقلب في أجواف الغيلان إلى سُمٍّ، يتمدد في شرايينهم، يُقتلون بها عاجلاً أم آجلاً.

– لماذا تسكتون يا أمي على كل هذا الظلم والهوان؟

– لأننا لا نستطيع احتمال التعذيب، وليس لنا طاقة على التخلص من هؤلاء الوحوش.

– لو لم تسكتوا عنهم.. ما تغولوا عليكم بهذا الشكل.

– كفاكَ عنتريات.. هؤلاء معهم فرنسة وأمريكا وبريطانيا وروسيا وإيران وإسرائيل.

– ونحن معنا الله..

– وربنا – يا ابني- قال: وأعدوا، ونحن لا عدة عندنا، دعنا من لومِك الدائم.. ألم ترَ ما فعلوا عندكم في الجامعة يوم مقتل ذلك الأستاذ؟ ألم يشنقوا كل الشباب الذين قلتم أنهم ثاروا؟ أين مصعب ابن جيراننا؟ ما زالت أمه تدور في الشوارع، وتذهب إلى القصر الجمهوري يوميًا، تقف هناك متذللة، ليتعطف عليها أحدهم، ويدلها على مصير ابنها! خمسة عشر عامًا كان عمره يوم اعتقلوه، ولماذا؟ لأنه كان يصلي الصبح مع جماعة مسجد الحي.. الله أعلم كيف ورطّوه بمصيبة أودت به.. رحمة الله عليه حيًا وميتًا.

– يا أمي.. أنتم سكتم وتواطأتم، وذهبتم لانتخاب البعبع، لم يجبركم أحد على الذهاب، نزلتم للانتخاب بمحض إرادتكم.

– أف لك وللومك الدائم لنا.. لو لم نذهب للانتخاب لسرحونا من أعمالنا! يمكنهم طردي من عملي، وطرد أبيك كذلك، ألا يكفينا أنهم أنزلوا مرتبته من مفتش عام في المحافظة، إلى مدير فرع في مؤسسة حقيرة؟! دع عنك لومنا وتقريعنا، ستصبح خلال ساعات خارج البلد، وسنستطيع أن ننام.

ثم أضافت والدموع في عينيها: لا أعرف النوم منذ سنوات، خوفًا عليك، وعلى إخوتك.. الله يطالعك من المطار على خير وسلام.. اللهم سترك ولطفك ورحمتك.

– لو لم ترغموني على المغادرة ما غادرت..

– يالله كم أنك عنيد يا ابني، ولا ترى الكارثة، هل تستطيع الصمود في وجه هؤلاء القتلة ساعة واحدة، لو اعتقلوك واغتصبوك؟ إنهم وحوشٌ، لا يعرفون الله، ولا الرحمة، ولا الإنسانية يا ابني.. كف عن هذا، وسل الله العافية.

كان هذا آخر حديث، جرى بين مؤتمن وأمه، في مطار دمشق، أثناء مغادرته سورية، في مثل الأيام التي غادرتُها فيها من عام 1980، ومن دون عودة، ربما كانت أمه مصيبة في مخاوفها ومبرراتها ساعة الوداع المؤلمة تلك، ربما كان متهوراً، ولا يرى أبعد من حدود نيل الحرية؟ ربما كانت ثورة الشباب في العروق طاغية فوق تحذير الألم المخيف؟ أم لعله اليقين بوعد الله، أنه لن يغير ما بقوم حتى يمتلكوا "هم" إرادة التغيير، ويُحْدِثونه بأيديهم، في أنفسهم، ومَن، ومِن حولهم.

مخطط جهنمي، لاستمرار استعباد الشعب السوري، مخطط تمّ اختراقه بمقتل باسل ابن المجرم الكبير رأس النظام، أفظع ما في هذا المخطط، تمريره بصورة سريّة شبحية على الناس، وعلى الرغم من ذلك كان السوريون يعرفون.

كان الشعب يراقب ويرتقب، كان ينظر ساكتًا وينتظر، كان يظن أنه وبهلاك الأسد الأب، يمكن أن تأتيه فرصة التحرر، وكان الناس يدْعون في صلواتهم، يحلمون في نومهم ويقظتهم بموته، وهم يرون تماثيل الابن تنتصب في كل مكان من الخارطة السورية، كانوا يتأملون معجزة تخلصهم، من هذا الحكم الاستبدادي، الطائفي، الأخطبوطي، البغيض، لكنهم لم يفكروا قط في نوع مختلف من المعجزات، تتيح لهم فرصة الخلاص التي ينتظرون، فلما أن حدثت.. لم يحرك أحد منهم ساكنًا! جبنوا عن أن يقفوا في وجه ديكتاتور عجوز مريض مجرم.

كانوا ينتظرون من "الله"، أن يقوم هو نيابة عنهم، و"مجانًا"، بكل ما كان يجب عليهم هم القيام به.

"الخوف" قد استحوذ على القلوب، والوهن قد تمكن من الشعب، إلى درجة الشعور العام القاتل بالشلل، الناس يعرفون

كل ما يجري من حولهم، من أسرار هذا الحكم الرهيب، الذي استقدم الروس إلى مدينة طرطوس، على شواطئ سوريا، فسمح لهم بإقامة قواعد عسكرية منيعة فيها، ليقوموا بحمايته من شعبه، مقابل منحهم كل ما يريدون من استثناءات في البحر الأبيض المتوسط.

الإيرانيـون بدؤوا بالتسلل إلى مفاصل الدولة، ويعملون حثيثًا وبكل وسيلة ممكنة على "تشييع" الناس، حتى إن بعض المسلسلات التلفزيونية السورية الشهيرة، التي كانت تُعْرَض بإذن خاص من النظام، كانت تغمز من هذا الوضع، وتضعه أمام الجمهور بطريقة أو بأخرى.

يعرف السوريون أن في أرضهم ثروات وبترولاً، لا يصلهم من ريعها أي شيء، كانت تذهب مباشرة إلى "القرداحة" – مسقط رأس حافظ الوحش– حيث أقام النظام هناك، مستعمرات تشبه المنتجعات السويسرية، بكل ما تحويه من مرافق، حوّل القرداحة من قرية منسية في جبال العلويين، إلى مدينة مشهورة باسم القاتل صاحبها! بالضبط كما حوّل سورية كلها، من حاضرة عربية وإسلامية، كانت عاصمة دولة الأمويين، أشهر وأقوى الدول التي عرفها تاريخ العالم، إلى مزرعة خاصة بآل الأسد، تُجبى إليهم أموالها وخيراتها، ويُسيمون أبناءها مرّ الذل والهوان.

اشتروا بأموال السوريين، إعلاميين، وكتّابًا، ومؤسسات خاصة بالعلاقات العامة ليُسوقوا للنظام، أغدِقت الملايين على قطعان الشبيحة، الذين أُطْلِقت أيديهم لقمعِ الشعب، اشتروا بمئات الملايين، ترسانات أَسلحة كيماوية، ساعدهم الغرب على بنائها، ولم تكن معدّة لقتال إسرائيل كما كان يدّعي!.. كان هذا النظام صديق إسرائيل، وكلبها الأمين الحارس، لحدودها على مدى أربعين عامًا.

لم يكن الشعب السوري فقيرًا ولا محرومًا، لكنهم ما كانوا يسمحون له، بنيل أدنى أنواع الحقوق، إلا بكثير من الذل، ولعق أحذية الطغاة.

كان السوريون يعرفون، ويفهمون، ويدركون.. وكان الرعب يلجمهم عن القيام بأيّ خطوة لدفع هذا الظلم عن أنفسهم.

الخوف والرعب، سلاحان فتّاكان، في محاولات الطغاة القضاء على تطلعات الشعوب إلى الحرية والكرامة والانعتاق.

دمشق، دمشق.. الغافية في حضن قاسيون، يحشوه الأسدّيون بكل أدوات الموت والدمار، مما يعتقدون، أنه يمكن أن يُسْكِتَ الشعب طويلاً!

الآليات المجنزرة العسكرية، والمدنية، لا تكف عن الحركة ليلاً نهارًا في جوف قاسيون، وعلى سفحه، حتى خشي الأهالي من انهيارات كبيرة للأبنية، في منطقة "المهاجرين" على سفح الجبل، الجميع يتحدثون عن شبكة ممرات محصنة ضد الأسلحة النووية، تبنى في الجبل، حول مأوى خاص بالرئيس وأسرته، في حال فكّرت إسرائيل الهجوم على البلد! لم يسأل أحد، أين سيذهب الشعب في حال وقوع هكذا هجوم؟

لم يفكر أحد في واقع الحال، ولا للحظة واحدة، أن هذه الترسانة العسكرية والكيميائية، إنما كانت تُعَدّ لإعلان الحرب على الشعب، إذا ماجنّ وثار!

***

دعتنا إحدى البنات، من صاحباتنا في الجامعة، لمشاهدة فيلم "الرسالة" الشهير - الذي أخرجه مصطفى العقاد بتمويل

ليبي- في بيت أهلها العامر، وكان الفيلم يومها ممنوعًا في جميع بلدان المنطقة العربية، ولا يمكن مشاهدته إلا في جلسات خاصة، وفي بيوت وجهاء القوم، وصاحبتنا هذه.. كانت من وجهاء القوم.

استقبلتنا لدى الباب في بهو واسع كبير جدًّا، ودعتنا إلى قاعة "السينما"، صالة كبيرة مظلمة، خصص أحد جدرانها ليكون شاشة سينمائية، وكانت قد أعدت هنالك، مائدة لتناول ما لذ وطاب من مآكل المقبلات الشامية الشهيرة، والخادمات رائحات غاديات علينا، وقد ارتفع صوت الموسيقى في الصالة بانتظار بدء عرض الفيلم، جلسنا مبهورات، ومضيفتنا وأمها تقومان باستعراض قدراتهما اللافتة في التثني والتغنج، وأخيرًا في الرقص على أنغام تلك الموسيقى..

في الواقع كانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها شيئًا من هذا القبيل، لم أر بيوتًا في دمشق كهذه، أعرف بيوتًا حديثة كثيرة، لبعض كبار القوم، وأغنى أغنيائهم، بيوتًا لا تنتمي إلى حياتنا في دمشق، كأنها اجتُثت من عالم آخر، وزُرعت هناك في غفلة، لا البيوت تشبه بيوت الناس المستورة في دمشق، ولا ناسها يشبهون الناس المستورة فيها.

رأيت من قبل في دمشق السبعينيات دُورًا فارهة، ونوافذ وستائر تعمل بالكهرباء وبالتحكم من بعد، رأيت حمّامات، كأنها صالات استقبال وتشريفات! ورأيت مطابخ، تفوق في هندستها وفخامتها، مطابخ الأميركان في أفلامهم الهوليوودية، لكنني لم أر مثل هذا البيت من قبل.

رأيت أقوامًا يتقلبون في النِعم، وكأنهم لا يسكنون على بعد أمتار فقط، من أقوام يعيشون كَفافًا، وآخرين يتمزقون حاجة وفقرًا.. كان عقد السبعينيات في دمشق، عقد المفارقات

والانفجارات الاجتماعية، والصعود الاقتصادي، وانتهاز الفرص النادرة.

سألت ليلى غادة: مالك لم لا تشاركيننا.. تعالي ارقصي معنا.

– والله أنا لا أجيد الرقص، ولا أحب الرقص أمام الجمهور!

– كم أنت مضحكة يا غادة، أي جمهور هذا، نحن نقضي منذ سنتين أيامنا معًا في الجامعة، تعرفيننا ونعرفك.. عن أي جمهور تتحدثين.

انتهرتها غادة قائلة: لطفًا ليلى.. أنا أتيت لأرى معكن فيلم "الرسالة".

– وسنعرضه فورًا.. طولي بالك... يا لطيف كم أنت جدية!

– ليس الموضوع موضوع جد أو هزل.. الموضوع أنه يجب أن نعود إلى بيوتنا قبل أن تتأخر الساعة.

– لا مشكل حبيبتي أرسلك مع سائقنا.

– لا داعي لذلك.. يعجبني أن أتمشى، وأرجو أن نستطيع رؤيته قبل أن يُؤذّن المغرب لننصرف باكرًا.

– لا عليك.. سنقدم القهوة ويبدأ العرض فورًا..

كان الوضع مزعجًا ومريبًا، حتى إنني ندمت أن لبيت الدعوة، معظم البنات كنّ في نفس حالي، نتبادل نظرات الارتياب، جالسات في صمت ننتظر أن يبدأ عرض الفيلم.

سألَتْها رنا: على فكرة من أين أتيتم بالفيلم إذا كان ممنوعًا؟

قالت: مِن رفعت!

قالت رنا في استفهام: مَن رفعت؟

قالت: "يؤبر"[1] قلبي.. ومن غيره؟ سيد الرجال "الجنتلمان" رفعت أخو الرئيس!

كأنها رمت قنبلة وسط الجمع! صمتت الضجة في الصالة، ووجم جميع من فيها، كان ذلك الجواب كفيلاً بانتزاع مشاعر ومظاهر الانبساط من وجوه الحاضرات جميعهن.

مرّ في أذهاننا، أنها تقصد أي "رفعت" على وجه الأرض، إلا هذا "الرفعت"!

كان مجرد التلفظ في أي مكان في دمشق، بِاسْم "رفعت" هذا.. كارثة، فكيف بيؤبر قلبها؟

قالت رنا في انشداه واستنكار شديد: رفعت الأسد؟

قالت: نعم! وما بك انخبطت هكذا؟

تدخلتُ وسألتْ: رفعت رفعت؟.. صاحب سرايا الدفاع، المجرم، خاطف النساء؟

قالت: إيه إيه.. صلّي على النبي، شو مجرم ما مجرم؟ يسلملي على هذه الشبوبية[2] وهذه الرجولة! ولك يا ريت يخطفني!.. لعلكن تصدقن علاك الناس؟

---

(1) كلمة من اللهجة الشامية الأنثوية الشعبية، أصلها "يقبر" أي إن صاحبتها تتمنى موتها قبل الحبيب أو العزيز، وأن يقوم بدفنها، وهي من التراث الذي تستخدمه الأمهات والجدات في صيغ التودد للأولاد، وحُوِرت من "يقبر" إلى "يؤبر" تخفيفًا للفظ واحتفاظًا بمعنى المودة.

(2) الشبوب، وتطلق على الحصان،أي الذي يرفع يديه ويقوم على رجليه/معجم المعاني عربي-تركي / وتستعمل في اللهجة الشامية بمعنى الشباب والنضارة.

قالت رنا في غضب شديد وتقنفذ: "رفعت" يسلملك على شبوبيته ورجولته؟ وأنت بنت الناس الكرام، تتمنين أن يخطفك وحشٌ قذر مثله؟

قالت: ليت كل الرجال مثله عمو رفعت! شو صاير عليكن ياجماعة!

رددت رنا وهي تتهيأ للنهوض: عمو رفعت!.. عمو... رفعت!

قامت رنا، وقمنا معها ثلاث من البنات، توجهنا نحو الباب نتحضر للمغادرة، لحقت بنا ليلى مستعطفة: قلنا صلّوا على النبي، ما بكنّ، لا تنكدوا علينا جمعتنا هذه، أذّن المغرب، سنصلّي جماعة، ونتفرج على الفيلم، وستذهب ماما معكن في السيارة ليوصلكن السائق إلى بيوتكن.

قالت لها رنا وهي تنتفض قهرًا من رأسها إلى أخمص قدميها: أبي وأخي في سجون "أُسودِك" هؤلاء، لا نعرف عنهما شيئًا منذ ثلاثة أعوام، وأنت تقولين "يؤبر قلبك"؟

وانبرت غادة: لا يا حبيبتي، لا أستطيع الانتظار، قلت لك، إذا أذن المغرب لا أستطيع التأخر عن المنزل.. استأذنتُ أمي لصلاة المغرب فقط، والآن سأتأخر عن الموعد نصف ساعة.

قالت ليلى مستجدية: يا جماعة أنا لم أقصد الإساءة، أبي وعمو رفعت أصحاب، ونحن لم نر منه إلا الخير، ولا أظن أن لعمو رفعت علاقة بسجن والدك، أرجوكن.. رنا أرجوك..

لم تنبس رنا ببنت شفة، توجهت نحو الباب، ونحن من ورائها، التفتت إليها وقالت:

– نراك في الجامعة.

تدللت ليلى علينا، في سماجة وقالت موجهة الكلام لغادة: لا تكوني حنبلية، وتقلبين لنا الجلسة نكدًا.. وتحملين السّلم بالعرض!

ردت غادة متعجبة متسائلة: حنبلية؟ والد رنا والآلاف مثله، في السجون، لا أحد يعرف عنهم شيئًا، المسألة فيها دم.. دم يا ليلى.. دمنا.

كررت وكأنها لم تسمع شيئًا: ارجعوا الله يكرمكم، لا أريد أن أخرب الجَمْعَة، لقد قضيت أيامًا أعدّ لهذه الجلسة.. ارجعوا أنا لست من المخابرات ولا أهلي، وأنتن تعرفن ذلك.. كل ما في الأمر أنني قلت رأيي، وآسفة إن أزعجكن، لماذا تمارسن عليّ هذا القمع؟

نظرتُ إليها نظرة فارغة جوفاء، وأنا أضغط زر المصعد، ولم أنبس ببنت شفة، وامتقع لون صاحباتي.. ودّعناها من جديد ووجوهنا كأنما قُدّت من جَمْر.

عندما انفتح باب المصعد، ولجنا، بقينا هنالك صامتات مطرقات الرؤوس، نجول بأعيننا في أرض المصعد، كأنما قد سقط منا قِرطٌ نبحث عنه.. افترقنا لدى موقف الباص، لم يكن هناك من شيء يقال، غير إلقاء التحية: السلام عليكم، أراك غدًا في الجامعة.

لم تنم أي منا في بيتها تلك الليلة، خوف الاعتقال والتعذيب، كان ما قمنا به عملية انتحارية.

***

ألتقطُّ إذاعة لندن بصعوبة بالغة، في شرفة بيتي التي تطل على الباغوادا، في الطابق العاشر، أجلس هنالك كلما استطعت، أشرب قهوة، أقرأ وِرْدِي وتسابيحي اليومية، أتسلى برؤية الناس يكتظون عند مداخل "الباغوادا".. لا يَملّون ارتياد الأسواق، ليس لشراء حاجياتهم فحسب، بل لتمضية الوقت مع الأصدقاء، والتسلية بمختلف الملاهي، التي اشتمل عليها هذا المُجمع.. يرتاد الناس المجمعات التجارية الضخمة، ليشعروا أنهم ينتمون إلى المجتمعات التي يعيشون فيها، وأنهم قادرون على التواصل مع الناس بالكلام، بالمشي، بالجلوس في المقاهي، بالنظرات المتبادلة، نظرات حقد، تحرش، كراهية، مودة، تواطوء، تساؤل، استفهام، تَشارُك، تفاهم، استغراب، استهجان، تأنيب، إعجاب.

يرتاد الناس المجمعات التجارية، ليشعروا بأنهم مازالوا في هذه الحياة.. أحياء.

أبحث عن إذاعة لندن، تأتيني الإشارة بصعوبة شديدة، فهي موجهة إلى الشرق الأوسط، وأنا الآن في مدريد، كنت أبحث عن خبر، عن تحليل، عن أي شيء يُنبئ بقيام الشعب بانتهاز الفرصة.. ولكن لا شيء، ولا إشارة.. لا شيء، سوى السكوت، والصمت، وتمشية الحال.

قلتُ لرجاء السورية جارتي في حي البيلار، أم البنتين اللتين كانتا في مدرسة الراهبات، ونحن نأخذ أولادنا الصغار صباحًا إلى المدرسة:

– مات إذن "باسل الأسد"، وارتاح الشعب من نصف الإله هذا، الذي كان يُعَدُّ للعبادة.

أصيبت رجاء بما يشبه الهلع، وصارت تتلفت يمنة ويسرة، ارتجفت شفتها السفلى وهي تردد: أعوذ بالله، مالنا وللناس، ما علاقتنا نحن بمن مات ومن عاش.. أنا لا علاقة لي إطلاقًا بهكذا موضوعات، ولا أريد أن أسمع!

قلت: سبحان الله.. نحن في مدريد، وأعرفك وتعرفينني، مم أنت خائفة؟

فوجئت بها تنفجر في وجهي قائلة: أنا لا أعرف أحدًا، أنا لا أعرفك.. جارتي في الحارة، وماذا يعني هذا، زوجك طبيب وشيخ في الجمعية.. تشرفنا، وما يدرينا من أنتم؟ وماذا تريدون منا؟ لماذا تحدثينني عن هذه الأخبار؟ الله أعلم بكم وبنياتكم!

ثم وهي تنصرف وفي أشد حالات الغضب تمتمت: السلام عليكم.. يجب أن أسرع بالعودة، لقد تركت الطبخة على النار.

قلت لأبي ساجدة: هنا قريبًا في إسبانيا، وفي منتجع ماربيا الساحلي، يقيم المجرم "رفعت الأسد"، في قصره المحصن وحرّاسه، متحكمًا بجزء من سياسة سورية الداخلية والخارجية، مديرًا لأوضاع وأحوال وحاضر ومستقبل الأقلية الدينية التي ينتمي إليها، كونها "الطائفة الكريمة الحاكمة"، متقلبًا متنعمًا بأموال السوريين المنهوبة، تاركًا لنا ذكريات الدم والألم لنختنق في لجحها ما بقي لنا من حياة.. ونحن لا نملك أن نصنع شيئًا.

قال: وماذا نستطيع أن نفعل؟ أن نرفع ضده قضية كونه "مجرم حرب إبادة"، في مدينة اسمها حماة مثلاً؟ من الجهة التي سترفع القضية؟ وأين هم الشهود، الذين يرضون بتقديم شهاداتهم، على ما حدث في حماة ولما تمض خمسة عشر عامًا على

المجزرة، التي لا يعلم ولا يعترف بها أحد إلا أهلها؟ ومن أين سنأتي بالمحامين؟ والأموال اللازمة لهكذا خطوة.. هذه خطوة يجب أن تقوم بها منظمات حقوقية، ونحن ليس لدينا مثل هذه المنظمات، ولا من يستطيع تأسيس إحداها، الجالية هنا فقيرة في الإمكانيات والكوادر.. ربما في ألمانيا أو فرنسا، أو إنكلترا.

قلت: قُتِل من أهل حماة، ثلاثون ألف نسمة، بإمرة هذا الغول.. ونحن وبعد مضي هذه السنين، لا نملك الأدلة القانونية اللازمة، لا نملك الإرادة، لا نملك المعرفة، لا نملك الاختصاص، لا نملك القدرة على أن نحرك ضد الرجل شيئًا..

قال في مرارة: وهو ضيف إسبانيا المدلل، القابع هناك في ماربيا.. إنها تفاهمات السياسيين في البلدين!

استأنفت: عقلي لا يحتمل مثل هذه المعادلة! أليست إسبانيا بلدًا ديمقراطيًّا؟ كيف لهم أن يتحالفوا مع ديكتاتورية إجرامية، كالتي تحكم في سورية؟

قال: حكومات الغرب شريكة، في مد شبكة الديكتاتوريات وتثبيتها في سائر بلاد العالم، وليس في بلادنا فقط! أو تظنين أنهم قتلوا من قتلوهم في سورية من دون علم "العالم" وتغاضيه؟

بأي منطق سياسي، تستقبل إسبانيا مجرم حرب كهذا؟ في حين أن أنس، وطريف، وعبد القادر، وحسان، ومحمد، وغطفان، ووجيه، وأحمد، ونبيل، ومصعب.. من أبناء جيراننا، وأقاربنا، وأصدقائنا... كلهم يقبعون في سجون "البعث"، لا أحد يعرف عنهم شيئًا، ولا يجرؤ أحدٌ أن يسأل عنهم، أو أن يحاول معرفة أي شيء يخصهم.

هذا "البعث" الذي تبين لاحقًا أنه بعث خاص بآل الأسد، ينطوي على تركيع بقية أبناء الشعب السوري.

إنه "البعث" الذي كتب عنه رفعت الأسد، نفسه مرة يقول: "آمنت بالبعث ربًّا لا شريك له، وبالعروبة دينًا ماله ثاني"!

يشعرني بالغثيان ونزع الموت، مجرد التفكير في أنني أسكن في البلد نفسه الذي يسكنه، حتى لو كانت تفصل بيننا المسافات الشاسعة.

*****

"**راديو** 5 كله أخبار"، ما يفتأ منذ الصباح، يتحدث حول إعلان الأمم المتحدة أن عامنا هذا 1995.. عام "التسامح والقبول بالآخر"، وأن "لُولا فلورس" قد ماتت.

سمعت الخبر فجرًا، في مطبخي وأنا أعد طعام الإفطار للأولاد، سمعته في التاسعة، في مذياع البواب "سالبادور"، يلعلع على مدار ساعات النهار، بأغاني وخبر وفاة "لُولا فلورس"[1]، ماتت فملأت سمع إسبانيا وأمريكا اللاتينية وبصرهما، كما كانت تفعله، في حياتها الطويلة، وكفاحها المرير، ومعاناتها الكبيرة، وأمراضها التي تحدتها، واستطاعت قهرها، احتملت ذلك كله، لكنها لم تحتمل أن ترى ولدها صريع المخدرات.. بعد أن جاهدت جهاد المستميت لإخراجه منها! ماتت قهرًا.

"لُولا فلورس"، الغجرية، كمهرجانات مصارعة الثيران، بصمتان إسبانيتان لا تخطئان.

يا للبشر كم عذاباتهم مشتركة، يا لقلوب الأمهات من كل صنف وطبقة وفي كل زمان ومكان كم هي متشابهة.

"لُولا فلورس".. الراقصة الغجرية، والمغنية، والممثلة، ومقدمة أشهر وأنجح البرامج التلفزيونية في تاريخ الإعلام الإسباني، لم تكن تمر من ثقب أي إبرة، من تلك التي تحاك بها،

---

(1) Lola Flores 1923- 1995 إحدى أهم مشاهير الفن الفولكلوري في إسبانيا، تُعدّ علمًا بالغ الأهمية في الثقافة الإسبانية.

التصورات العامة عن النساء الفنانات أو الإعلاميات.. لا شكلها المغرق في أصوليته الغجرية، ولا لون بشرتها الداكن، ولا قسمات وجهها عميقة الملامح العِرْقية، ولا شخصيتها الشعبية، شديدة القرب، والالتصاق بهموم الشارع الإسباني وإنسانه.. ولا أناقتها غير الأنيقة متفجرة الألوان والتركيبات، تصدم الحواس وتستفزها.. ولا حركاتها التي تعبر عن حمولة ثلاثمئة عام من الحزن، تنبع من عمق ثقافة قاع الشخصية الإسبانية الحديثة، التي ولدت ما بين مخاضات حروب الاستئصال الصليبية، التي لم تتوقف في شبه الجزيرة الإيبيرية، إلا قُبيل مئتي عام ونيف، وحرب الإسبان الأهلية، الرهيبة، الحديثة، مطلع القرن العشرين.. ولا حتى صوتها الأجشّ، الذكوري - في آخر عمرها - المتحدي، النائح بعويل الفلامنكو، يشق الروح ويخترقها بألم رنان، يعبر تارة عن عشق المسيح، وأخرى عن معاناة العشيق، وثالثة عن ألم الألم[1].

كانت روحا غجرية، قلقة، ثائرة، صاخبة، تحمل في دمها بركانًا، لم يكن ما تُقَدِّمه على المسارح "رقصًا"، كان حكايات جسد، بعذاباته، بآلامه، بأشواقه، بأفراحه. . كانت شجرة متحركة تراقص على المسارح الأعاصير!

كانت "أمًّا".. أولاً وآخرًا، لم أرها إلا أمًّا، ولم أسمع أغانيها إلا كأمّ، ولم أشهد شجاراتها ومشكلاتها، وفضائحها، ونزاعاتها، واصطفافاتها السياسية، وكل غسيلها وغسيل أسرتها الوسخ، يُنشر على حبال الإعلام.. إلا من خلال كونها أمًّا، مُقاتِلة من دون

---

(1) pena penita pena الأغنية الأكثر شهرة وأهمية للراحلة لولا فلورس، يمكن ترجمة العنوان على النحو التالي إلى العربية: "أيتها الحسرة، يا حسرتي، أيها الحزن، ياحزني".

أولادها الثلاثة، الذين ساروا على نهجها، وتركوا بصماتهم على إسبانيا، وثقافتها الفنية الغنائية، رفيعة المستوى، بحيث يصعب تخيل كلمة إسبانيا، إلا مقترنة باسم "لولا فلورس" وأبنائها الثلاثة، خصوصًا ابنها "أنتونيو"[1]، الذي لحق بها بعد خمسة عشر يومًا فقط على موتها.

كان الحزب الشعبي المحافظ، يستعد لإسقاط الاشتراكيين، وتسلُّم الحكم، عندما ماتت "لولا فلورس"، وتصرف بعض "الكبار" في هذا الحزب، بصورة فيها بعض امتهان للوليتا فلورس– ابنة لولا فلورس كونها غجرية وداعمة لليسار– بعد يومين حين أُعلِنت وفاة أنتونيو فلورس، بسبب جرعة مضاعفة من المخدرات، بعد أن كانت أمه قد دفعت كل أموالها قبل وفاتها، لإخراجه منها.. كان الرد الشعبي مذهلاً، في مدريد وحدها، عشرات الآلاف من الشباب الإسبان الصغار، من تلاميذ المدارس الخاصة في المناطق المؤيدة لليمين المحافظ، توجهوا إلى قبر أنتونيو لوداعه هناك.. وجعلوا من قبره مزارًا.

دائمًا تنتصر الإنسانية على العنصرية. . دائمًا ينتصر الإنسان.

القلوب الطيبة، لا تعرف الاصطفافات السياسية، وتستعلي في ساعات الألم الجماعي، على الانتماءات.

"لولا فلورس"، جمعت الشعب الإسباني، حيّـة وميتة، ومن كل الانتماءات، السياسية والثقافية والفكرية، بالضبط كما كان يفعل ملك إسبانيا، لا عجب، أن الجميع ينعتونها "بالفرعونة"، سلطانة خشبة المسرح وقلوب الإسبان.

---

(1) Antonio يُلفظ بالاسبانية كما يُكتب "أنتونيو" بالتاء ، اسم إسباني من أصل لاتيني ، ومعناه "ذلك الذي يقارع مناوئيه": المناضل أو المقاوم.

ستمر "لولا فلورس"، في تاريخ إسبانيا حقبة الخروج من عنق الزجاجة، على أنها الأم، التي تمثل جهاد وعذابات كل أم إسبانيّة، لكي يحيا أبناؤها، حياة أفضل من تلك التي عاشتها هي.

تسألني رفاه على باب المسجد، ونحن في انتظار خروج أطفالنا من مدرسة نهاية الأسبوع: عجيب أمرك، لم كل هذا التأثر لموت شقفة مغنية إسبانية جربانة؟

هززت رأسي أسفًا، قلت لها: هذه المغنية الإسبانية الجربانة، هي إنسانة حقيقية، ذات تاريخ طويل من المعاناة والكفاح، للخروج من البؤس والشقاء، الذي كانت تعيش فيه هي شخصيًّا، والأقلية الغجرية كافة في إسبانيا، احترامي لها ينبع من هذه النقطة، وليس لأنها مغنية، فهي أصلاً لا تدخل إطلاقًا، في بوتقة تصوراتنا عن المغنيات.

قالت: ما رأيك لو قلت الشيء نفسه، عن صباح أو أم كلثوم، المغنيتين العربيتين؟

قلت: شتان بين هذه وأولئك، فالمقارنة لا تستقيم، خصوصًا فيما يتعلق بأم كلثوم.

قالت: كلهن كافحن للخروج من الفقر والشقاء..

قلت: صحيح، لكننا لم نر لهاتين المغنيتين قضية، ولم نسمع حكاية كفاحهما، لأجل تغيير التصور العام لأقلية من الأقليات المسحوقة في البلاد، ولم نعرف شيئًا عن جهادهما من أجل أولادهما، وانتشالهما لأسرتيهما من الحضيض إلى مصاف أعلى طبقة ثقافية فنية، ولم تكن أغانيهما إلا عن الحب والعشق والغزل.

قالت: وهذه غنت للحب والعشق!

قلت: صحيح، ولكن ضمن سياق قضية إنسانية كبيرة، شخصية وعامة، عاشت وماتت من أجلها، أرجو من الله أن يخفف عنها، ويرحمنا ويرزقنا رقة القلوب والتعاطف مع البشر.

لا يمكن فهم قضايا الناس، إلا ضمن حواضنهم، وثقافاتهم، ومجتمعاتهم، وأوطانهم.. أنا لا أستطيع أن أقارن بين مغنية عربية في بلاد العرب، وأخرى غربية في بلاد الغرب.. تقييم الغناء في بلاد العرب، يختلف تمامًا عنه في بلاد الغرب، ووضع المغنين في بلاد الغرب، يختلف عنه وضع المغنين في بلاد العرب.

هنالك يتعلق الأمر بالطرب، والتغييب، والتغريب، والانسلاخ عن هموم الوطن والمواطن، وهنا يتعلق الأمر بالثقافة، وحمل قضايا الإنسان والمجتمع.

قالت: أنا لا أحبها.. ذهبت إلى جهنم..

قلت: يا سبحان الله، أنا لم أمررها من مفهومَي الحب والكراهية، إنها حكاية إنسانية عميقة، عاصرتها خلال خمسة عشر عامًا، فكيف لا أتأثر لهذه الأحداث المحزنة التي انتهت إليها.

قالت: تقصدين ابنها المدمن، رؤية وجهه تقطع الرزق[1].

قلت: لو أننا أحببنا الناس أو كرهناهم لقُبْحٍ في وجوههم، أو تَجَهُمٍ أو عبوسٍ، لظلمناهم وظلمنا أنفسنا، نحن لا نكره الناس بسبب ما جَنَتْه أيديهم، لكننا نكره جناياتهم! كم من شاب في إسبانيا، وفي بلادنا، من مدمني المخدرات لا يجدون آباء وأمهات يضحون من أجلهم، ويكافحون لكي لا يقع أبناؤهم في هذه المصائب، فإذا وقعوا كافحوا وضحوا لانتشالهم منها!

---

(1) مثل شامي يعبر عن قبح الوجه أو عبوسه.

قالت: أنت غريبة وتبالغين في تأثرك.

قلت: كلاهما نعمة، وليست سُبّة.. وإن كانتا أحيانًا نقمة وبلاءً.

***

لم يكن "راديو 5 كله أخبار"، مجرد قناة إعلامية عادية، كان مؤسسة إعلامية، تربوية، ثقافية، فكرية، تعليمية، مذهلة، أنشأه الاشتراكيون لتأدية هذه الوظيفة بالذات، بعيدًا عن التوجيه، والاصطفاف السياسي، في إسبانيا المنشقة على نفسها أبدًا ما بين اليمين واليسار، لكنه كانشقاق نصفيّ القلب، لا يؤثر في وظيفته، بل يساعده على أدائها المتكامل.

كانت هذه المحطة الإذاعية، تقدم نشرات إخبارية على رأس الساعة، وموجزًا للأنباء كل نصف ساعة، ونشرات إخبارية محلية، عن كل مقاطعة، ومدينة، وقرية في إسبانيا، وكانت ما بين هذا وذاك، تقدم برامج متنوعة، مدة كل منها خمس دقائق أو أقل، كبرنامج "شؤون لغوية إسبانية"، لتصويب الكلام باللغة الإسبانية السليمة، وعرض إضافات واستعمالات لغوية جديدة، على المستمعين لإثراء لغتهم، لا يتجاوز الدقيقة الواحدة فقط، كما كان يقدم مقابلات مع صفوة النخب، الثقافية، والفنية، والسياسية، والعلمية.. واستعراضًا يوميًّا للصحافة، والكتب المطبوعة في إسبانيا، وأُوروبا، والولايات المتحدة، وأمريكا اللاتينية، والمحاضرات العلمية، والمهرجانات الثقافية.

مهم وضروري ورائع كان "راديو 5".. كان بالنسبة إليّ كنزًا، هدية، جامعة متنقلة، ترتادها الأذن، فيتعلم المرء ويتربى ويرتقي.

ربما كان السبب الرئيسي، لقيام الأمم المتحدة بإعلان هذا العام، عام "التسامح والقبول بالآخر"، أن البغضاء والكراهية ورفض الآخر، بدأت تتمدد من جديد في جسد أوروبا، مثل سرطان واضح الأعراض والملابسات، قام من سباته القديم، يستشيط تخريبًا، لمواجهة عدو وهمي جديد، صار معه احتقار الغجر، ونبذهم من المجتمع، أمرًا لا يُلتفت إليه!

قلة قليلة جدًّا من النُّخَب، كانت تعترف بهذا الوضع، الذي بدأ يثير التساؤلات والمخاوف، وسط تدفق المهاجرين على أوروبا، من العراق، والبوسنة، وكرواتيا، وإفْريقِيَّة، هربًا من المجازر والحروب، ومن المغرب، وأمريكا اللاتينية، فرارًا من الفقر المدقع، واغتنامًا للهَبّة الاقتصادية الكبيرة فيها.

فبينما كانت بلدان كثيرة في هذا العالم، تشهد انهيارات، وتراجعًا، وتفككًا، وتفسخًا، ونزاعات، ومجازر، تَسْحَق في دوران عجلتها، الشعوب والإنسان وحقوقهما، بدأت إسبانيا تصبح قِبلة المهاجرين، تشهد تحولات كبيرة متسارعة.. نحو الأمام وربما نحو الهاوية، فمن يدري؟

بعد عشرة أعوام، على التحاقها بالمنظومة الاتحادية الأوروبية، لم تعد شواطئ إسبانيا، مقصد أثرياء وأمراء العرب، وتجار المخدرات والأسلحة، مِن الروس والشيشان ومَن لف لفهم، من مجرمي الحروب ومجازر الإبادة والاستئصال في مختلف أنحاء العالم، كانوا يقصدون منتجعاتها الشهيرة عالميًّا، ليقبعوا هناك، بعيدًا عن متناول أيدي الشعوب والعدالة، فيُبَيّضوا أموالهم بملاهي السياحة والدعارة.. **تحولت الشواطئ الإسبانية لتصبح مقصد مقتحمي لجج الأبيض المتوسط، يرمون بأنفسهم فيه ينشدون الموت أو الخلاص.**

ينهار الاتحاد السوفييتي، يتفكك، يتشظى، وتشتعل الحرائق السياسية والعسكرية، في كل ركن من أركانه المتهاوية، تنشب الحرب الأهلية، ومجازر التطهير العنصري، الشنيعة، الفظيعة، في رواندا، في حين أن دول العالم تبدأ واحدة إثر أخرى بالاعتراف بالكيان الإسرائيلي، من كان ليتخيل أن الفاتيكان، أو الصين الشيوعية، تعترفان بهذا الكيان الإرهابي المغتصب لأرضِ شعبٍ، وتاريخه، وحاضره، ومستقبله؟

كانت كفة الميزان، تميل بشكل كبير جدًّا لمصلحة الغرب، معلنة بدء العهد الأمريكي العالمي، وفي ظلّهِ، كان الاتحاد الأوروبي يتمدد ويُرَسِّخ أركانه، يحفر الأنفاق تحت البحار، يعقد الاتفاقيات فـوق مناضد المصالح المشتركة، ليصل ما بين أجزائه، التي كانت حتى الأمس القريب جدًّا، أممًا متنافرة متحاربة، أزهقت أرواح 42.000.000 إنسان، في آخر حرب شنتها فيما بينها قبل خمسين عامًا فقط! لتقتسم مناطق العالم، وتفرض عليها نفوذها، تمتص ثرواتها، وتغزوها باستعمارها الثقافي والاقتصادي.

إننا نشهد ونعيش ولادة عهد عالمي جديد، كل ما فيه ومن فيه، يريد أن يتأمرك! كل ما فيه ومن فيه.. إلا من رحم ربي!

وبينما يحتفل العالم، بإحياء ذكرى ملايين ضحايا الحرب العالمية الثانية، بدأت أُوروبا أولى خطواتها، لاستعادة سيرتها العنصرية القديمة تجاه "الآخر"! أُوروبا البيضاء الموحدة، تحتاج إلى عدو مشترك، تحتفظ بوجوده، بتراصّ صفوفها، يصرفها البتة عن نزاعاتها البينية، التي تواضَعَ القوم، على حلها، وفقط بالحوار والسياسة والتفاوض.

إننا نعيش عصر هيمنة، ثقافية، غربية، استثنائيٍ بامتياز، يؤذِن في الحين عينه، بصورة غير مباشرة، لعودة "الاستعمار"

المباشر، إلى مستعمراته القديمة، بعد أن فشل مَن "أنابتهم" عنها، في إدارة مصالحهم فيها، وحل مشكلاتها، التي تعود على "السادة المستعمرين" بالقلق والمخاوف والهجرة!

لم تكن القوة المتجبرة، قط، مرادفًا للازدهار، والرفاهية، والنمو، والتمدن، في أرضها، فحسب. . لقد كانت دائمًا، وعلى مر التاريخ، تعني الاستعلاء، والاستحواذ، والهيمنة، والطغيان، والغزو، والعدوان على الآخرين.

لم تمر قط حرب البوسنة والهرسك، مرور "الكرام" على أُوروبا.. أرادت لها "أُوروبا السياسية"، أن تكون آخر الحروب "الحقيقية"، ما بين "حق" و"باطل"! كانت آخر الحروب، التي يمكن للمواطن الأوروبي، أن يعرف ما يجري فيها على وجه التحقيق، ليصطف مع المظلومين والمنكوبين والمغتصبة حقوقهم!

انتقلنا.. **انتقل الإعلام الغربي، في صمت ومن دون كثير ضجة إعلامية، إلى مرحلة "الحروب الغامضة"، "البعيدة"، "التي لا تهمنا"، و "التي لا يعرف عامة الناس، مَن فيها العدو، ومن الصديق"، وتلك "التي تدور حول كلمة الإرهاب"! والتي لا يفهم المواطن الأوروبي فيها، على وجه الدقة، من يقف فيها مع من، ومن يحارب من، وما دور بلده فيها، وما الهدف منها!**

يسألني أحد مديري البرامج الحوارية، في قناته المحلية الصغيـرة جـدًّا، والتـي كانت توجه بثها في هاتيك الأيام، إلى حيٍّ واحدٍ في مدريد، استضافني فيها بعد أن ساقته الصدف، للاستماع إلى إحدى الجلسات الجامعية، التي كان يدعوني إليها

بعض الطلبة المسلمين، في جامعات مدريد، يسألني وهو يعبر عن أعلى درجات الدهشة، بعد حديثه معي عن المرأة المسلمة، وعن أوضاع المهاجرين، وعن الإسلام:

– هل أنت متأكدة تمامًا، من أن ما تقولينه لنا، في هذا البرنامج صحيح ودقيق؟

– المشكلة ليست فيما أقول، المشكلة في درجة جهلنا المتبادل بعضنا ببعض، نحن لدينا تصورات مسبقة خاطئة تمامًا عنكم، وأنتم لديكم صور وتصورات سابقة، ليست مخطئة فحسب، بل إنها مدروسة، ومقصودة، وتتكرس يومًا بعد يوم في وسائل الإعلام.

– أصدقك القول يا سيدتي، إنها المرة الأولى في حياتي، التي ألتقي فيها سيدة مسلمة مثلك!

قلتُ ضاحكة: وأنا أؤكد لك يا سيد، أنها المرة الأولى، التي تلتقي فيها امرأة مسلمة!

– هذا صحيح.. لقد أحدثتِ شرخًا في دماغي، أعاني الآن، وأعترف بذلك من "كراك - طقطقة" في رأسي، تنسف كل ما كان فيه عن الإسلام والمسلمين!

– هناك وسائل إعلام، ومؤسسات صحفية وثقافية في إسبانيا، ولن أتحدث عن كل دول أوروبا، مهمتها الأساسية تشويه الحقيقة، ولن أقول تشويه الإسلام والمسلمين، نحن شعوب لديها مشكلاتها وأمراضها، ما زلنا نعيش تحت الهيمنة الاستعمارية، حتى لو ظننا وظنت الشعوب التي يستعمرنا حكامها، غير ذلك.. لكننا لسنا بالصورة التي ترسمها وسائل الإعلام هذه.. هناك من يريد تأجيج الصراعات بيننا، ورفع أسوار الجهل والكراهية.

– اعذريني فيما سأقوله لك يا سيدتي، فهو قاس وصعب: إما أننا لا نفهم، ولا نعرف شيئًا عن الإسلام والمسلمين، ولا عن كل ما يجري من حولنا.. وإما أنك لا تقولين الحقيقة!

***

بعد عصر الانفتاح الثقافي الهائل، وبدء نوع من أنواع التعايش الصعب، بين المواطنين والمهاجرين، بدأنا نشهد مرحلة إعلامية جديدة، عُوِّمَت فيها الأخبار حول الحروب التاليات، وتمت غربلة كل ما يتعلق بالحق والباطل فيها، شوِّهت الأخبار، وانتهى عصر الإعلام المفتوح.. وبدأ عصر الاستقطاب الإعلامي، مع ثابت واحد، يُجمع الكل على الالتزام به تحت مسمى "المصلحة القومية العليا"! ما عاد من المصلحة القومية العليا لأُوروبا، أن تطّلِع شعوبها على حقائق الأمور، ولا أن يعرف المواطن الأوروبي، حقيقة ما يجري في العالم، وفي المنطقة العربية على وجه التحديد.

اصطفاف هذه الشعوب، إلى جانب مسلمي البوسنة، المظلومين والمذبوحين، بهذا الزخم الإنساني العالي، لم يَرُقْ، لأولئك الذين يديرون السياسات الأوروبية من وراء الكواليس! إذن كيف سيُجَيِّشون شعوبهم ضد الشعوب التي يريدون غزوها، وتدمير بلادها، ونهب ثرواتها، والتمكن من إرادتها؟

كانت مسألة حياة أو موت. . مسألة وجود! هكذا يفعل الخوف من "الآخر"، يدكّ الحصون من الداخل، ويُدمرها بأيدي أهلها، منتهزًا تخبطهم وغيابهم الهلوسي، تحت سياط المستبدين من عملائه وأجرائه.

هذا "الآخر".. الضعيف، المهزوم، المُستَعمَر، الممزقة أرضه، المسحوق بين أنياب الطغيان والتخلف، والذي لا يمتلك قوة عسكرية، ولا اقتصادية، وليس لديه طائرات مدمرة، ولا دبابات الكترونية، ولا صواريخ عابرة للزيف والكذب، لأن كل مخزونه من القوة، كان قد تُرِك وفقط، وقفًا لحماية الأنظمة، التي خلّفها الغرب في كراسي الحكم في تلك البلدان!

هذا "الآخر"، الضعيف، المهان، المغلوب على أمره.. المخيف، المرعب، والذي يتخذ القائمون على السياسات الغربية، كل الوسائل الممكنة، لإبقائه كما هو، وإبقاء جذوة الكراهية والحقد، متقدة حية ملتهبة حارقة، بينه وبين شعوبها!

"الآخر"، في الربع الأخير من القرن العشرين، لم يكن الروسي الاستعماري المنافس، الصعب، الصلب، ولا الألماني الهتلري، النازي، الموغل في الانسلاخ من الإنسانية، ولا الغجري، الذي تود أُوروبا تطهير أرضها منه، لأنها تعدّ تمسكه بهويته، واستحالة تأليف "قلبه"، عارًا لا بد من التعامل معه بطريقة اجتثاثية.

"الآخر" في هذه الدورة من دورات التاريخ، أصبح من وجهة النظر الأوروبية المستعلية، هذا "المسلم المهاجر".. "المورو"، الغريب، الدخيل، المكروه، المحتَقَر.. "مورو" كما يُسمى في إسبانيا، "توركو" كما يُدعى في ألمانيا، "باكي" – نسبة إلى الباكستانيين - كما يُنادى في بريطانيا.

هذا المخلوق، الدخيل، المهزول، المتعب، الذابل، الآتي من الجنوب، بفقره، وذُلِّه، وتخَلُّفِه، بعدم اهتمامه بنفسه، ولا بسلوكه بين الآخرين، بسُمرة بشرته أو بُنِيَّتِها، بسواد عينيه

الكبيرتين، المتحرشتين، الشرهتين لا تشبعان، بطيبة قلبه حدّ الهبل.. أحيانًا، بخبثه الكريه حدّ الخديعة.. أحيانًا أخرى.

بكرمه... وهو الذي يقولون عنه إنه يموت جوعًا! بعدم فهمه لطبيعة آداب السلوك العامة، باستعصائه على الدخول من ثقب إبرة المدنية الاجتماعية الأوروبية، بعدم التزامه الانضباط المدني، بتعاونه المنقطع النظير مع الآخرين، بانخراطه المدهش فيما لا يعنيه، "باندماجه" المذهل في المجتمع الإسباني، بتلهفه غير المفهوم لنجدة المضطرين.

بتمسكه غير المُستساغ بـعاداته وتقاليده ودينه، باصطفافه المذهل في صفوف الصلاة، ساكنًا منضبطًا، وهو المستعصي أبدًا على السكون والانضباط!

بمودته لإخوانه، حتى لو كانوا من غير جنسيته، بشفقته على الغريب حتى لو كان مَن ظَلَمَه، ببره بوالديه الذي يبلغ حدّ المرض النفسي، بسوء معاملته لامرأته وأولاده، من دون أن يشعر بالذنب، بتمسكه بوطنه، الذي لم يوفر له أي شيء من مقومات المواطنة، بحزنه الذي لا يبارحه، بأفراحه الرنانة، لا تعبأ في ضجيجها بأحد، برغبته الكبيرة في أن يأخذ ويأخذ على الصعيد الشخصي.. بينما نادرًا، ما يعطي على الصعيد الاجتماعي، خارج حدود الجالية التي ينتمي إليها.

هـذا الغريب.. المكروه، المرفوض، النازح، والمهاجر هربًا من الأوضاع السياسية، والاقتصادية، والحروب الطاحنة، والتهميش، والتضييع، في بلاده.. الباحث عن واحة من أمن، وشيء من حرية، ومساحة من كرامة إنسانية.. المتطلع إلى أن يحيا، بأيّ طريقة ممكنة، إنه يريد أن يعيش، وأن يبتعد عن

الموت والدم والتعفن.. حتى لو اضطر إلى الحياة في أُوروبا، على هامش المجتمع والمدنيّة والحياة.

هذا الغريب، خصوصًا المغربي الذي يشكل لحمة الجاليات المسلمة في كل دول جنوب أُوروبا على أعتاب القرن الواحد والعشرين الميلادي، محسودٌ يثير حنق القوم وغيظهم! هذا الجار القريب جغرافيًّا، البعيد.. والذي يريدون له أن يبقى بعيدًا!

بكل مقاييس أُوروبا الاستعمارية، محسودٌ على كل ما هو فيه! وحق للأوروبيين أن يحسدوا المغربي المهاجر! فعلى الرغم من غربته، وفقره، ووضعه الذي لا يعجب أحدًا.. فإنه محسود، يحسده أهل البلد المضيف، على وجوده بين ظهرانيهم، وتمتعه بخيرات بلادهم، يحسدونه على قدرته على الضحك بقلب أبيض، كلما سنحت له الفرصة، يحسدونه على قدرته على التأقلم، يحسدونه على تشبثه بدينه، حتى لو لم يكن ملتزمًا به، يحسدونه على هذه الطاقة الحيوية الغريبة، التي تجعله أحيانًا، أكثر إيجابية، وهو الذي يفتقر إلى الثقافة والمعرفة، في حين أنهم يغرقون في سلبيتهم وتقنفذهم.

يحسدونه، على عودته كأسراب السنونو كل عام لزيارة بلده، وأهله، مُحَملاً، بما يحمله الغريب كلما عاد إلى وطنه.

يحسدونه حسدًا يبلغ أن يصبح حقدًا.

شوط واسع، من الأخلاق الإسلامية الاجتماعية، يفصل ما بين معظم المغاربة ومعظم المشارقة من المهاجرين، شوطٌ واسع، حقيقي، من كرم الروح، والتماسك الأُسري، والشعور بالانتماء، والتشبث بالهوية.

تبدو المغرب، بالنسبة إلي، وأنا الآتية من الضفة الشرقية للأبيض المتوسط، المقيمة في ضفته الشمالية، وعلى الرغم من كل ما يعانيه معظم شعبها من عوز وافتقار إلى مقومات الحياة الكريمة، تبدو لي، "جنة"، من حيث كونها وطنًا حقيقيًّا لأبنائها.

لا ضياع للهوية في المغرب، لا ضياع، ولا ذوبان في "الحقيقة الاستعمارية"، على الرغم من الاستعمار المباشر، الذي يُطوّق المغرب لغويًّا، وسياسيًّا، وعسكريًّا، واستراتيجيًّا، ضاربًا إسفينًا في قلبها، مقتطعًا به نصف مساحتها، يريد أن يمنح نصفها الجنوبـي، إلى مئة ألف "عربي" فقط، ليقيمـوا دولتهم على بحر من الفوسفات، يحتاج إلى عملاء يديرون الأمور لصالح المستَعْمِرين!

يثير الغثيان والتعجب، موقف إسبانيا بالذات، من قضية الصحراء!.. إسبانيا، التي تحارب منذ نصف قرن، وعلى كل الجبهات المحلية والدُولية، من أجل وحدة أراضيها، تقارع بكل الوسائل الممكنة كل محاولات الانفصال فيها، تلك الإرهابية في إقليم الباسك كما هذه المدنية في إقليم كاتالونيا، إسبانيا هذه نفسها، تقوم بالدعم، والتشجيع، والعمل ليلاً نهاراً، من أجل انفصال إقليم الصحراء عن المغرب الأم! ويقوم كبار مثقفيها و"أحرارها"، بدأب وتصميم، بصياغة رأي شعبي عام، يصب في هذا الاتجاه، وكأن الأمر مسألة إنسانية، وليس مسألة استعمارية وجودية!

يالنفاق المستعمرين، وكذبهم الرنان، على شعوبهم، وعلى التاريخ.

لا هجرات إلى المغرب، تُذوِّب التشكيلة الاجتماعية الأساسية للبلد، لا طائفية، تُحدِث في جسد المجتمع شرخًا لا

يمكن ردمه، وذلك على الرغم من المحاولات الإيرانية المستميتة لاختراقه! لا شعور بالدونية "التاريخية"، عن طريق تشويه دؤوب للتاريخ العام المشترك، والمحلي القريب، كما هي الحال عندنا.

شعور المغاربة بالنقص، نابع من الجوع والقهر الإنسانيين للمواطن في أرضه، أما شعورنا بالنقص، فهو متأت من عدم القدرة على التحقق بكامل "الصورة الاستعمارية"، التي استعبدنا الاستعمار من خلالها، نود لو ندخل كل الجحور التي دخلها.

لا نكاد نلمس – ونحن نراقب من خارج المشهد المغاربي– بين المغاربة على اختلاف انتماءاتهم الفكرية والسياسية، هذا التخلي والانخلاع والتنازل عن الهوية "المغاربية– الإسلامية"، بكل دقائق ملامحها التاريخية والثقافية، بالحجم نفسه من الشقاق والإنكار والإجحاف، الذي نجده بين المشارقة لهوياتهم الوطنية.

الشرقي – السوري خصوصًا – يكفر ويفجر، أما المغربي فينخلع ويفلسف.

الشرقي – السوري بخاصة – لا يتعلق بوطنه، يتطلع إلى الهجرة، عشقًا بالمستعمر، وتعلقًا به، المغربي يهاجر، لأنه على يقين بأن الرزق الذي يهاجر من أجل استجلابه، هو رزقه الذي سرقه المستعمر.

***

"العنصرية" في إسبانيا، والمتأخرة عقدين من الزمان عن بقية بلدان أوروبا، راحت تتبلور، في مواجهة بدء سيل الهجرات إليها، من الاتحاد السوفييتي المتفكك والمنهار، من دُوَلِه التي انفصلت عنه، وشهدت حروبًا طاحنة، كالشيشان والبوسنة، ومن دُوَلِه التي وَجَد الناس فيها أنفسهم يموتون جوعًا، كرومانيا،

وبولندا، وليتوانيا، وأخيرًا تسبب غزو العراق، بتدفق العراقيين على البلدان الأوروبية من كل الانتماءات، مما جعل التوجس، من انفجار النزاعات في أرض المهجر سيد الموقف.. على الرغم من عدم إعطاء العراقيين، ولا البوسنيين، ولا الرومان، أي مبرر للقوم بهذا الصدد.

الجهل الكبير والخوف هما سيدا الموقف.

جُنِّدت وسائل الإعلام، لتعميق هذه المشاعر، والترويج لمشهد كارثي، مخيف، يزحف فيه "الموروس"، عبر قوارب الموت عابرين المضيق، لينقَضّوا على الإسبان، المتحضرين، "العُزّل"، المساكين، فيقتلونهم، ويذبحونهم، وينهبون ممتلكاتهم! كما... حدث أول مرة!

هذا ما انتهت إليه في أذهان إسبان اليوم، ثمانية قرون من الحضارة، والمدنية، والعلم، والإنسانية، والرقي الاستثنائي في الأندلس!

تلك كانت بعض أبرز معالم الصورة.. ما بين المُنَجِّم "رابيل"، وأمثاله من المتنبئين بعودة المسلمين الهمجيين للاستيلاء على الأندلس، وكثير من صناع الرأي الإسبان، الذين يؤججون الأحقاد والكراهية، وكثير من تصرفاتنا نحن كمهاجرين.

ما بين هذا وذاك، تمت إعادة صياغة الرأي العام الإسباني - والأوروبي عامة- ليُغَلَّف بالكراهية والرفض، لكل ما هو عربي أو مسلم، والكلمتان عند القوم سواء، من حيث المعنى والمغزى.

لم يقتصر الأمر على إتلاف التاريخ، وحذفه من الذاكرة الجماعية.. بل عمد القوم، إلى تشويهه بالكامل، وقلب حقائقه العريقة، الناصعات، التي عاشتها الأندلس، والتي لولاها لما

قامت لأوروبا قائمة، ولا ازدهرت فيها علوم، ولا عرف أوروبي اليوم، كيف ينظف قفاه بعد كل مرة يذهب فيها إلى "بيت الخلاء"[1]! كما يسميه الأندلسيون، الذين علّموا أُوروبا ماذا يعني بيت الخلاء، وكيفية استعماله!

***

في مؤتمر برشلونة للشراكة الأورومتوسطية – الذي عقد هذا العام – كنتُ الصحفية "المحجبة" الوحيدة، في جمعٍ من الصحفيين تجاوز عددهم الألفين، كنتُ أول صحفية مسلمة عربية "محجبة" تشارك في حدث سياسي وإعلامي، كهذا العابر للقارات، أَثَرْتُ بحجابي اهتمام الصحفيين، أكثر من اهتمامهم بالمؤتمر نفسه، وكانوا من نخبة النخبة، من مختلف وسائل الإعلام، جاؤوا من مختلف أنحاء العالم، لتغطية حدث بالغ الأهمية بالنسبة إلى الغرب كهذا.

وإذا كان صحفيون، وسياسيون، عالميون، لا يستطيعون في أواخر القرن العشرين، تَقَبُّلَ صورة امرأة مسلمة محجبة واحدة بينهم، من دون التعبير بكل الوسائل الممكنة، عن صدمة كبرى، وهم من هُم ثقافة واطلاعًا وتحررًا وانفتاحًا، فكيف لا نثير بهويتنا الظاهرية،كل هذا الحجم، من فضول الشعب الإسباني، الذي يشهد في ذهول، توافد "الغرباء" على أرضه، من دون أن يفهم السبب الكامن، وراء هذه الظاهرة، إلا ما تزينه له بعض وسائل الإعلام، مما يسمونه "عودة الغزو الإسلامي إلى إسبانيا"، لاسترداد الأندلس!

---

(1) بيت الخلاء: هو المكان الذي يقضي فيه الإنسان حاجته، وسميّ بذلك، لأن الإنسان يخلو بنفسه ليس معه أحد/المعجم: مصطلحات فقهية.

استوقفني وفد إيران، وانحنى رئيس الوفد شخصيًّا، لتحيتي، وهو يضع يده اليمنى على صدره، تعبيرًا عن المودة الخالصة للمرأة، التي لا يريد أن يزعجها بمصافحة، وسألني والمترجم بيننا:

– من أين الأخت؟

– من سورية..

– الله الله من سورية، من أين؟

– من دمشق!

– نحن فخورون بك وبحجابك، هذا شيء عظيم جدًّا.

– أشكرك أهلاً وسهلاً.

– هذا شيء جديد وعظيم، هذه أول مرة أرى فيها أختًا محجبة غير إيرانية في محفل كهذا.

– حان الوقت لتأخذ المرأة المسلمة الملتزمة فرصتها ودورها.. كفى تهميشًا للمرأة المسلمة.

فاجأني بالسؤال: هل أنت متزوجة؟

أجبته: ورزقني الله بأربعة أبناء.

قال وأعضاء الوفد كافة من حوله: ما شاء الله، ما شاء الله.. نحن سعيدون جدًّا بك وبوجودك في مؤتمر كهذا، هذه ظاهرة طيبة.

التفت إلى أحدهم، فأخرج هذا بطاقة، ودفعها إلي، لأتواصل معهم، سواء احتجت إلى أيّ خدمة، أو لمجرد التواصل الأخوي والثقافي.. وأردف:

يسعدنا كثيرًا أن نستضيفك في طهران.

قلت: شكرًا لكم.. إن شاء الله يكون خيرًا.

في تلك الأيام، وعلى الرغم من خذلان إيران المؤلم، لثورتنا في سورية، قبل خمسة عشر عامًا، كنا مازلنا شعبين مسلمين متجاورين، في منطقتنا المنكوبة، لا يبدي بعضنا لبعض إلا المودة في الله، والصلة فيه.. كانت الأسوار الملغومة، التي تبنيها الأطماع السياسية والاستعمارية الدفينة، غير مرئية بعد للجميع، وكنتُ من الذين لا يريدون تصديق حكاية اتّقاد نيران الطائفية بيننا، ولا هبوب أعاصيرها التي لا تُطْفَأ إلا بأنهار من الدماء.

كنا نحن والإيرانيون.. لا نزال في منطق الغربة، والوطن، والأمة.. إخوة في العقيدة، وكان الإيرانيون، وأينما التقيناهم، يُظهرون لنا أرقى أنواع المودة في القربى.. لم تكن قياداتهم الدينية المستبدة، قد أبْدَت، وعلى العلن، دعمها غير المشروط، للعصابة الأسدية الطائفية في سورية، ولا مشروعاتها التوسعية، في أرضنا وبلادنا، لم تكن قد أعطت الإشارة، لرفع الضغط تحت القِدْر، التي كانت تُطْبَخ فيها، المبررات الطائفية، اللازمة، والكافية، لتأجيج الأحقاد والكراهية والرفض.

لم أشعر، ولن أشعر بالكراهية يومًا، ولن أُرَبّي أولادي أبدًا على الشعور بالكراهية، والرفض للآخرين، كان أبوهم يقول: نحن نكره الأفعال السيئة، ولا نكره مرتكبيها، ولا نعمم.

كذلك ربّانا جدي الشيخ، أن نترفع عن البغضاء والكراهية، وألّا نكون أبدًا، وقودًا، للنزاعات الدينية والطائفية والعرقية.

باكرًا أدركنا، أن الطائفية، والعنصرية، والقومية، في بلادنا، ليست إلا مطيَّة المستعمرين، لتمزيقنا إربًا إربًا.

رآني ذلك الرجل، الذي تبدو عليه الطيبة والدماثة[1]، في غرفة انتظار الدَوْر للدخول إلى عيادة طبيبتي، وصار يدقق النظر، في قلق واضطراب، ثم يشيح بوجهه، حياءً عني، فلما اطمأن، قام من مكانه، وجلس إلى جواري، وبلسان أعجمي، ولغة إسبانية ركيكة، تَنُمّ عن أنه حديث عهد بإسبانيا، ألقى التحية وهو يضع يده على صدره، دليل المودة والاحترام، على طريقة المشايخ في تحية النساء.

قال لي: السلام عليكم.. الأخت من سورية؟

– نعم.. كيف عرفت؟

– من لباسك ووجهك الطيب.

– شكرًا لك..

خَمَّنْتُ أنه من إيران، بسبب كرمشتهِ وجَعْلَكَتهِ[2] "الوطنية" الرنانة! متواضع حدّ المسكنة، مسكين حَدّ الذل، طيب درجة التنزه.. لا تشعر في وجوده، أنك أمام غريب، بل أخ، من البلد، من الوطن..

استطرد قائلاً: جئت آخذ الوصفة، لشراء الدواء لزوجتي، فلقد انتهى، ولم يقبل الصيدلي أن يبيعنيه ثانية، من دون وصفة موقعة من الطبيبة.

قلت متعاطفة: عافاها الله وشفاها.

(1) الدماثة: حسن الخلق واللطف والرقة واللباقة/ معجم المعاني الجامع الالكتروني.

(2) في موقع "منتدى معجم الدخيل والمشهور في العربية": ورد نص المثل الشعبي التالي (كذب مرستق ولا صدق مجعلك)، وفي موقع "معجم" لشرح اللهجات في المنطقة العربية: مجعلك، كلمة فلسطينية، هي صفة تقال عن الأقمشة والملابس عندما تكون مكرمشة وغير مكوية/وهي تستخدم بهذا المعنى، في عامة بلاد الشام.

قال: انظري إلى الإسبان من حولنا، كيف يزعجهم جداًّا، أننا نتحدث فيما بيننا.

قلت: طبيعي أيها الأخ الكريم، إنهم لا يحبون أن يكون الغريب للغريب سنداًا، ويعتبرون أننا ينبغي أن نبقى غرباء، ولا نستند إلا إليهم في غربتنا.

قاطعني قائلاً: أرجو من الله ألّا يدعنا نحتاج إلا إلى وجهه الكريم وكرام الناس من أمثالكم..

ثم استطرد: أنا كلما رأيت غريبا من بلادنا، كأنني أسترد روحي، وكلما رأيت أختًا فاضلة مثلك.. كأنني رأيت أمي.

أغاظني قوله، ما كنت أعلم أنني وأنا في الثلاثين من العمر أبدو كأمه!

سكتُّ، فسكت..

ثم قال: والله، لا أنسى إكرام أحد الأطباء السوريين، لي ولأهل بيتي، ما حييت، يوم طلبنا الإسعاف، فكانت نوبته، وجاء إلى بيتنا.. لهفته علينا وإكرامه لنا أبكتنا، حتى إنه ذهب بسيارة الإسعاف، فاشترى الدواء لزوجتي وعاد به، حين علم أنني لا أستطيع تركها مع الأطفال لآتي بالدواء، ولم يرض أن أدفع له ثمنه! هذا على الرغم من أنه عرف أنني إيراني!

قلت: الحمد لله الناس بعضهم لبعض أيها الأخ، الله يعافي زوجتك ويخفف عنكم.

راح يشرح لي، بإسبانية فقيرة، ملابسات مرض زوجته وهجرتهم، وأن الحياة في بلادهم صعبة وعرة.

ثم عاد فقال: أنت من سورية من سورية؟ من أين في سورية؟

قلت: من دمشق..

صاح مسرورًا: سبحان الله، من مدينة ذلك الطبيب الطيب نفسه، هل تعرفين يا أختي.. ظل مدة ثلاثة أيام يتصل بنا، ليطمئن عن زوجتي، وترك لي رقم هاتفه لأطلبه في أي ساعة لعيادة أم أولادي..

سكتَ قليلاً، ثم قال: يا أختي.. أنتم أناس طيبون ومتحضرون، أنتم مسلمون حقًّا.. لا حول ولا قوة إلا بالله، على الذين يريدون لنا أن نكرهكم ونحاربكم.. لا حول ولا قوة إلا بالله!

أثارني الفضول "المعرفي" و"الأسري" وسألته: ما اسم ذلك الطبيب؟

قال: للأسف لا أدري..

وراح يصفه لي بدقة متناهية، وأنا التي عرفته من قبل أن يصفه.

سألته: عيناه زرقاوان ونظارته ذهبية..

قال: هو بعينه.. الآن تذكرت، كانوا ينادونه في مسجد السوريين بأبي ساجدة!

ابتسمت وقلت له: إنه زوجي.

قام الرجل من مكانه، وأخذ يحييني، بضم يديه إلى صدره، وينحني أمام الناس، قائلاً: يا أمي توسمت فيك الخير، منذ رأيتك، قولي له إنني أقبّل يديه.

أمي؟ مُصرٌّ الأخ على رؤيتي كأمه، وهو الذي يكبرني كما يبدو عليه بعشرين عامًا!

تُدخِلُنا الغربة في هلوسات الحنين، وتجعلنا نرى في كل من حولنا شَيئًا يُذَكِّرنا ببعيدٍ حبيب.

تُدخِلنا الغربة، في متاهات البحث عن الحقيقة، وتجعلنا نـرى الحق أبلج.. شعوبنا هذه ولولا ساستها المتوحشون، ما كانت لتتعامل فيما بينها بالكراهية والبغضاء والتكفير والاتهامات المتبادلة.

تُدخِلنا الغربة، في ملابسات اكتشاف جوهر الإنسان، وتجعلنا نرى كل عَرَضٍ يعتريه، هباءً منثورًا، في منظور البعد، والألم، والوحدة، والغربة .

*****

قالت لي حسناء: عجيب أمر الإسبان، وهذه القفزة التاريخية الهائلة التي جعلتهم في القمة؟

قلت لها: إنهم يتقدمون بالسرعة نفسها التي نتقهقر فيها.

– أي والله يا أم ساجدة، إنه لأمرٌ محزنٌ جدًّا، بلادنا تمضي نحو الخلف، بسرعة البرق، وهذه البلاد تسير إلى الأمام بسرعة الضوء.

– ربما يكون الأمر معكوسًا.. فمن يدري، رحم الله جدي، لطالما نبهني إلى رؤية يد الله فوق كل شيء.

– أوف.. إذا كان الأمر معكوسًا، فهذا يعني أن علينا أن نغير جميعنا النظارات، التي نضعها على أعيننا! ما نعرفه اليوم، أن القوم في إسبانيا يتقدمون وبخطوات كبيرة جدًّا.

– لأنهم "يريدون"! ولأن حكامهم لا يجدون تعارضًا بين العمالة للخارج، وخدمة شعوبهم، ولأنهم هم أنفسهم، قرروا بعد هلاك فرانكو، ألّا يسكتوا على الضيم، وألّا يرضوا الإهانة.

– العمالة للخارج؟

– طبعًا.. **أوروبا كلها عميلة للولايات المتحدة اليوم، العمالة هنا ليست بمعنى الخيانة حبيبتي! إنها بمعنى التبعية والاعتماد والشراكة والتحالف، أن يصبح الطرفان، جسمًا واحدًا، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى!**

ضحكنا، ضحكنا كثيرًا.. ضحكنا بدل أن نبكي على أوضاع منطقتنا التي يزيد تفككها، يومًا بعد يوم، أوَ ليس هذه حال الطير الذي ينتفض، مذبوحًا، حتى ليظنه الجاهل بأمره يرقص طربًا؟

كانت بداية عصر الاستيقاظ المتثائب، في المنطقة العربية، وبداية عصر الخوف الشديد، من ذلك الاستيقاظ في المنطقة الأوروبية، وكان هنالك دائمًا من يعمل بكل دأب ونشاط، للقضاء على أيّ مشاعر، يمكنها أن تجمع ضفتي هذا الأبيض المتوسط، على السلام والأمن، حتى لو كانت مجرد مشاعر إنسانية عامة مشتركة.

هنالك من لا ينام، ليُحدِث هذه الهُوَّة بين الطرفين، وليشتعل البحر الأبيض أبدًا، بنيِران الحقد والكراهية والشعور بالعدوان المتبادل.

تغييرات هائلة، تضرب ضفتي هذا البحر، الذي يفصل "بيننا"، **بحر الأطماع التاريخية، بحر الكراهية، بحر الحروب، بحر الغزو، بحر الحملات المتوحشة، بحر الهجرة، بحر الموت.**

كل نعتٍ يمكننا أن نَصِفَ به هذا البحر المتوسط بيننا، إلا بالأبيض!

التغييرات، التي شملت، طبيعة الشخصية الإسبانية المعاصرة، وعمق تفكير المجتمع الإسباني.. كبيرة جدًّا، مهمة ولافتة، حين كنت في غرناطة قبل سنوات عشر فقط، كنت أشعر، بين كثير من أبناء حي الكارتوخا، الذي أسكنه، وكأنني ابنة المدينة التي هاجرت إلى قرية! طريقة تفكيرهم المسطحة الطبيعية، سلوكهم العاطفي، ضجيجهم، تصوراتهم عن العالم، وعن الأشياء والأحداث.. حيٌّ كامل، يجد بغلين، فيظن أنهما بغلايّ، وأنا

زوجة الطبيب، التي تسكن الطابق الرابع من دون مصعد! وفقط لأنني مورا ومحجبة؟ بدا ذلك مضحكاً، لكنه كان يشير إلى سذاجة وطيبة!

الآن وبعد مرور هذه السنوات العشر، لم تختلف الأمور كثيراً، من حيث تصور الناس عنا، كمسلمين، و"كعرب"، وكمهاجرين. لكن الفرق شاسع وكبير جدًّا، بين طريقة تفكير الأندلسيين قبل عشرة أعوام، وطريقة تفكير الأندلسيين والمدريديين اليوم.

لم يكن تصور الغرناطيين عنّا، استعلائيًّا، ولا عدائيًّا، إلى الدرجة التي أصبحت عليها الأمور اليوم، في حين أن "العدوانية الاستعمارية"، كانت متغلغلة في تفكير، ومشاعر، وسلوك، معظم المدريديين، حتى من قبل أن يتكثف توافد الهجرات، إلى ديارهم، بعقدين من الزمان.. وتحوَّلَت اليوم إلى كراهية رنانة.

تطورَ الشعب الإسباني، اجتماعيًّا، وإنسانيًّا، وأخلاقيًّا، وتربويًّا، تطورًا مثيرًا للإعجاب، والرغبة في المحاكاة، تخلصَ من عاداته الاجتماعية السيئة، التي كانت تُلصِق به نعت "المتخلف" عن أُوروبا، تخلص الإسبان من غلبة التفكير العاطفي، ومن الرغبة في الضياع في زحمة الضجيج، الذي صار مقننًا، ومنتظمًا، ووقفاً على ملاعب الرياضة، وحلبات مصارعة الثيران، والساحات التي تقام فيها الحفلات الموسيقية الكبيرة.. كما تخلصوا من السطحية، بانضباطهم بالتفكير الجماعي، الموجه من قبل وسائل الإعلام، التي تسنمت دور التربية والتعليم معًا، في هذه السنوات العشر، جنبًا إلى جنب مع المدارس والجامعات والمؤسسة الدينية.

انتقل الشعب الإسباني، ما بين عشية وضحاها، وفي أقل من عقدين من الزمان، من شعب مهاجر هربًا من تداعيات الحرب الأهلية المريعة، ثم الديكتاتورية، والتخلف، والفقر.. إلى شعب

غني متمدن ديمقراطي حر يسير على طريق التحضر، يستقبل الهجرات التي راحت تتدفق على إسبانيا، كما على كل أنحاء أوروبة، في زمن الطوفان الذي يضرب العالم، تاركًا عقر دار الاستعمار جُزُرَ أمن واستقرار وازدهار وسط الإعصار.

هذه المعجزة الإسبانية المعاصرة، جديرة، بأن يفكر المرء فيها، كثيرًا جدًّا.

أخطاء الإسبان، وتصرفاتهم غير الإنسانية، وغير اللائقة، في تعاملهم مع اللاجئين، والمهاجرين الوافدين، إلى أراضيهم، لم تكن لتعمينا عن حسناتهم، وميزاتهم، وإنجازاتهم المدنية والاجتماعية.. كما أن أخطاءنا وزلاتنا وارتكاساتنا، ما كان يجب، أن تجعل شعبًا يمضي في طريق التحضر والرقي، كالشعب الإسباني، يتصرف بهذه الطريقة غير اللائقة، مع "الآخر".. فينسف كل صلة لهذا "الآخر"، بالحضارة والتاريخ والإنسانية!

أصبحنا أنا ولوردس، رفيقتين، على الرغم من الخلاف في الرأي والرؤية، وهذه إحدى أهم الدروس النبيلة، التي يمكنك أن تتعلمها من الشعب الإسباني، عدم الفجور في الخصام، والاحتفاظ بثلاث شعرات، من شعرات الجدّ الرابع عشر، تُبقي على المودة، فيما بين الناس ولو ظاهريًّا، بحيث لا يمكن لإسباني أن يقطع علاقته بك بعد مشادة وخلاف..

قلت لها: هذه المعجزة الإسبانية، جديرة بالتفكير، وبالدراسة والبحث، بل بالمحاذاة والاستنساخ، فليس من السهل على شعب، أن ينتقل بهذه الطريقة المذهلة، خلال عشرين عامًا، انتقالاً سلميًّا حضاريًّا هادئًا، من مصاف دول العالم الثالث، ليكون في ركب الدول الاستعمارية الأكثر قوة وتقدمًا، ربما كانت المشكلة حقيقةً، أن إسبانيا كانت فعلاً من دول العالم الثالث،

وليس من دول العالم السابع عشرة بعد المائة!!.. فأخذت أوروبا بيدها، وبإرادة شعب، مصمم على التقدم والتحضر والازدهار، أصبحت في مصاف العالم الثاني.

– قالت لوردس: لعلك ستكتبين عن هذا.. ولنر كيف سترسمين صورتنا في سطورك! **لسنا بالسوء الذي تصورينه أحيانًا، ولا بالحُسن الذي نظنه في أنفسنا.**

– مخيفة هي الكلمة.. كم هي مخيفة؟

– مخيفة جدًّا يا صديقتي؟

– حتى لو كُتِبت بيد "مورا"!

– من ينادونكم بالموروس هم الجهلة.

– الجميع ينادوننا بالموروس، ويسبون بها أولادنا، بل حتى مواليدنا.

– أرجو أنك لا تبالغين..

– يا للمبالغة.. يااا للمبالغة، العرب والإسبان، يطلبون إلي ألّا أبالغ! كلمة الحق موجعة يالوردس.

قالت في غيظ وتحذير:

– أنا أنبهك فقط، لأنني أعرف كيف سيستقبل الإسبان كتابًا كهذا!

قلت وأنا أضحك:

– يا إلهي.. أصبح كتابًا! وطُبِع، ووزع على المكتبات، واشتراه الناس وقرؤوه؟ في برنامجيهما، "لولا فلورنس"، و"خسوس إرميدا" واستضافني "برنامجيهما"، لأتحدث عن كتابي الذي نلت عليه جائزة نوبل! وغضب الشعب الإسباني، ولاحق الكاتبة المورا الخائنة، وأحرقها في الساحة العامة على صليب الساحرات!

ضحكت لوردس، وقالت لي: خطيبي وصفك بالمخيفة، وإنك أرْعَبْتِه، منذ اللحظة التي حدثته فيها عن صديقتك - نرجو لها الراحة في قبرها بسلام-، التي طلبتِ منه أن يرسم صورتها.

أخذت أزمجر ضاحكة، وأردد: كم هي مخيفة الكلمات؟ أنا البعبع المورو، الذي سيقيم القيامة ولا يقعدها في مدريد!

جاء الأولاد يتضاحكون.. ظنّوا أننا نلعب لعبة الساحرات، والديناصورات الطيبة الطائرة!

***

بعد تخلفٍ عن ركب التقدم الأوروبي، بفارق أربعين عامًا على الأقل، وأمراض سياسية واقتصادية، وخلال زمن قياسي مذهل، أصبحت إسبانيا، بلدًا تتطلع إليه أعين الحزانى، في المنطقة العربية، وأمريكا اللاتينية، بعد أن انقلبت الموازين، بينها وبين ابنة عمها هذه الأخيرة، بشكل غريب مذهل.

فمنذ ثلاثين عامًا فقط، كانت تشيلي وكوبا والأرجنتين، محطات يهبط فيها الإسبان، هاربين من الظلم، والاستبداد، والفقر، والجوع، والذل، -سبحان مغير الأحوال- فإذا بمدريد، تصبح نُزلا للهائمين على وجوههم، فرارًا من أقدارهم، من أبناء هاتيك البلاد، فضلاً عن أنها صارت، محطة للمهاجرين من بلادنا نحو أوروبا، بلادنا التي دالت عليها الدول، وعمّها الحزن، والألم، والظلم، والاستبداد، والفساد السياسي، والاجتماعي، والديني، واليأس، والإحباط، والدمار.

الفرق بين الحالتين، أن الإسبان، كانوا قد استُقبِلوا في هاتيك الرياض، استقبال الأهل والسهل، أما المهاجرون، الذين تدفقوا من تلك البلاد إلى إسبانيا، بدعوة من أحزاب اليمين الإسباني، ليسدّوا بهم باب الهجرة المغاربية، إلى إسبانيا.. فإنهم صُدِموا بالكراهية والرفض! تخنق النظرات القاتلة وجودهم، وفرحتهم باستنشاق هواء جديد، يمنحهم فسحة من أمل بحياة أفضل.

المهاجرون الآتون من بلدان أمريكا اللاتينية، يتمتعون بميزات نفتقر إليها، كتنظيماتهم الاجتماعية، البالغة الدقة والفاعلية، وتماسك بنيان جالياتهم، فيما بينها، ورقة عذبة، ولطف كبير، وأدب جمّ، يتحلى به معظمهم بشكل لافت. تجمعهم معنا، قناعات راسخة بالمظلومية وبالغُبْنِ، وأحزانِ البُعد والنأي، عن الأهل والأوطان، وشعور موجع بالغربة.

يجمعهم بالإسبان، الدين، واللغة، والثقافة العامة، وعلاقات النسب والمصاهرة، الممتدة عبر قرون، وتاريخٌ مشترك عمره خمسمئة عام من الاستعمار، وحروب الإبادة، والاستيطان، وهجرة الإسبان إلى بلادهم، خلال عقود الحرب الأهلية، والفقر، والجوع، والاستبداد.. وعلى الرغم من ذلك، فإن السمات الاثنية التي تميزهم، تجعلهم محط كراهية، ورفض، من هذا المجتمع، الذي بدا، وكأنه بدأ يرتكس نحو إحدى أكبر الموبقات، في تاريخ البشر: العنصرية النازية الجديدة!

منحهم الإسبان اسم "السوداكاس"، كما منحونا اسم "الموروس"، بالضبط، كما فعل "العرب" قبلهم، أيام عزهم، وقوتهم، وتسنمهم دورتهم المدنية في التاريخ، منحوا الغرباء

عنهم، المهاجرون إليهم، اسم "الأعاجم"[1]! **"العصبية القومية"، مرضٌ تدول به الدُّول، وتنحطم الأمم، وتُدّك الحضارات.**

لم يكن عجبًا، أن يسمي كثير من الاسبان، أولئك الآتين من جنوب أمريكا اللاتينية، بـ"السوداكاس"[2]، لكن الغريب والعجيب واللافت للنظر، وبالغ الاستهجان، أن يقوم "بعضنا" بمناداتهم بهذا الاسم الشائنة دلالاته!.. هؤلاء أنفسهم، الذين يرفضون الاعتراف، بتسميتهم بـ "الموروس"!

لا تقتصر النظرة العنصرية الاستعلائية للآخر، على الغرب وأهله، لكنها مرضٌ، يشترك فيه كثير من خلق الله، من المصابين ببؤسٍ إنساني موجع، يجعلهم يحتقرون الغريب والمهاجر والفقير والضعيف، حتى لو كانوا مثله، أو مروا بظروف مطابقة.

كيف يمكن لمهاجر، أن يظن حقًا، أن الإسبان يميزون، بين قادم من المشرق، وقادم من المغرب؟ نحن في نظر القوم كلنا سواء، إلا من رحم ربي، ممن يحمي نفسه بالعلاقات الشخصية، التي تربطه ببعض الشرائح الاجتماعية الإسبانية، من عمل أو دراسة أو مصاهرة، ومعظم هؤلاء الأهل والأصدقاء، يُظهرون المودة، وقلوبهم تغلي بالقهر والحسد والبغضاء، وألسنتهم لا تُخفي مشاعرهم هذه، تارة مزاحًا، وتارة صراحًا.

---

(1) **العجم**: خلاف العرب، أي من ليس منهم، نطق بالعربية أم لم ينطق، ويقال للفرس خصوصًا/المعجم الوسيط- أعجمي: من لا ينطق بالكلام الفصيح ولو كان عربيًّا/معجم المعاني الإلكتروني الجامع.

(2) "جنوبي" نسبة إلى جنوب أمريكا اللاتينية sudamericanos/sur.

تقول أم مارتا لمارتا[1]: ما هذه "القذارة" التي تعلقينها على جدارك؟

تنظر مارتا إلى أمها في ألم وقهر، وتقول: ألم يحن الوقت لتتركيني، وشأني، وما أعتقد، في سلام؟

– لا، لا أريد أن أتركك وأترك معتقداتك الخرائية في سلام.. هذه القذارة تزعجني، وكلما جئت أزورك، أشعر أنني مستهدفة من قِبلها!

– مستهدفة من لوحة، فيها كلام مقدس، مكتوب مزين، هو أقرب إلى اللوحات الفنية منه إلى أنه من القرآن!

– كلام مقدس؟ خذي كلامك المقدس هذا، واجعليه في مرحاضك! هو كلام مقدس عندك، أما أنا فلا يمكنك أن تحمليني على تقديسه!

– وهل حملتك على تقديسه؟ أنت من يبدأ بالإهانات والشتائم! ولا تحترمين خياري وديني وحياتي!

– أيّ حياة هذه التي تعيشينها كالكلاب، مع هذا المورو، الذي لا يعلم إلا الرب، كيف أقنعك لتصبحي مورا مثله؟

– والله يا أمي.. حياتي معكم قبل أن أعرفه، هي التي كانت حياة الكلاب، ولم أعرف طعم الحياة الحقيقية، إلا بعد أن تعرفت عليه.. ثم أَنَسيتِ أنه لم يكن يريد أن أعتنق الإسلام! وأنني ذهبت وأعلنت إسلامي أنا وحدي، ولم يرد أن يرافقني، خوفاً منك أن تقولي هذا الذي تقولينه.

---

(1) Marta اسم اسباني مؤنث من أصل عبري ، وتعني "السيدة".

– هذا لا يعني أنه ليس مورو ابن كلبة[1]!

– حتى متى سأحتمل هذا الأذى منك يا أمي، الولدين الآن صغيرين ولا يفهمان ماذا تقولين، ولكن عندما يكبران، لن أسمح لك أبدا بإهانة ديني وزوجي أمام أولادي.

– لن تسمحي؟ أنت تعيشين في بيتي هذا، الذي أجرتكم إياه، بربع قيمة أجرته، وأنا وأخواتك نصرف عليكم، ونشتري ملابس الأولاد، والأدوية، وملابسكم الداخلية.. قولي للمورو، أن يعود إلى بلده، أو أن يجد عملاً كرجل، السيد المورو لا يعجبه أن يعمل في أعمال لا تناسب مقامه العظيم.. ولا يريد أن يعمل إلا في الأعمال المتأنفة العَلِيّة.. عشنا ورأينا رجال الموروس القاذورات!

– أتعرفين يا أمي.. أنا أحتملك فقط لأن ديني يأمرني باحترامك.

– لم أطلب منك أن تحترميني، ولا أريد.. أنت كافرة، تركتِنا ولحِقت هذا المورو القميء، الذي يثير القرف، ماكنت أعرف أنك ساقطة، إلى درجة أن تلحقي بقمامة كهذه.. إنهم يأتون إلى بلادنا، يستولون على بناتنا، وأموالنا، أي ذل ومصيبة أكبر من هذه؟

أجهشت مارتا بالبكاء، وهي تحكي لي عن شعورها بالعجز، أمام تصرفات أمها، قلت لها: اصبري ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(1) بالإسبانية تُسب الأم وليس الأب.

قالت: أنا أشد منك شعوراً بالغربة، وأنا إسبانيّة في بلدي ومع أهلي!

– لا حول ولا قوة إلا بالله يا مارتا.. لا أدري ما أقول، إلا إن أمك تستغل ضعفك بين يديها، أحيانًا **يغرينا الضعيف بالاعتداء عليه، فنُخرِج أبشع ما في أنفسنا مبررين ذلك باستكانته.**

– هو هذا بالضبط، كلما صمتُّ عن أذاها، كلما بالغت فيه.. كأن ضعفي يستثير جنونها.

– أتعلمين أنني لا أعتقد أن برّ الوالدين يتضمن تحمل كل هذا الأذى!

– وكيف ذلك؟

– لأن ربنا قيد كل شيء بعبارة واحدة ﴿**لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾.

ضحكت مارتا وهي تقول: إذن أنت تريدين لي أن أتمرد؟

– ليست هذه هي العبارة الدقيقة، التي تصف ما قصدته!

– وإذن؟

– ربما أريد لك أن تتحرري، من نفسك، وضعفك، واستكانتك.. نحن وحوش تبحث عن ضحية، تغرز في جسدها أنيابها، وأنا لا أعتقد أن من البرّ الاستكانة للأذى، ولا أقوله لأن أمك إسبانية، ولكن لأن أمك متنمرة... وكم رأيت من أمهات متنمرات، في سورية، وفي مدريد، من سوريات ومن غير السوريات.

– التنمر لا علاقة له بهوية الناس.

– هو ذاك..

– لكنك لا تدركين مقدار حقد أمي، وكل عائلتي، عليّ بسبب الإسلام..

– كانت أمك حاقدة عليك، من قبل أن تعلني إسلامك، أليس كذلك؟

– صحيح..

– هل تعرفين ذلك الأخ الإسباني الذي أصبح يدعو نفسه عثمان، يأتي إلى دروس القرآن مع أمه، تجلس معه، وتستمع، وتقول: أريد أن أفهم ما الذي جعل ابني يُغير دينه.. وفي البيت توفر له كل أسباب الراحة، حرّمت على نفسها الخمر والخنزير، إكرامًا لابنها، تصوم لصيامه، وتبذل كل جهدها لإكرامه.

المشكلة في تعامل الشخص نفسه، مع نفسه، ومع مَن حوله، سواء كان ذلك على علاقة بالإسلام أم بغير ذلك.

– يجب ألّا نكون أغبياء، فنظن أن كل الإسبان، يمكن أن يكونوا مثل أم "هوغو"[(1)].. هناك حقد، وهنالك غضب مكبوت، وهناك الكثير الكثير من الكراهية.. يجب أن تتفهموا الوضع وأن تفهموه، بعد تلك الدعوة إلى العشاء، التي أقمتِها هنا في بيتك من أجلي، خرجت أمي من عندك، وكان أول ما قالته لي: هذه المورا الساقطة زوجة الطبيب، تتقلب في النعم، في حين أنك أنت تعيشين على حسابي! ألم يكن في وسعِك أن تتزوجي طبيبًا، بدلاً من هذا الأجرب زوجك؟ فَهِمَتْ إكرامك لها، بذخًا، وتعبيرًا عن الثراء، والغنى، ولم تفهمه كما أردته أنتِ، إكرامًا لي.

– كم موجع هذا الوضع بالنسبة إليك مارتا؟ كم هو مؤلم؟

---

(1) Hugo اسم إسباني مذكر من أصل ألماني/يعني الذكي اللامع سريع البديهة.

استأنفت مارتا: أعلمُ أنك دعوتِها، من أجل أن تطلع على أوضاع المسلمين، ولكي تعرف، أنهم ليسوا جميعًا، بالسوء الذي تتحدث عنه، وأن بين الموروس، كثيرين من أكابر القوم، وأنك حَضَّرْتِ ذلك العشاء، بكل طاقتك على إبداع المآدب، في محاولة لحملها على تغيير قناعاتها عن المسلمين.. ولكن لا فائدة.

قلت لها في حزن شديد: "لن"!

قالت: لن[1]..

قلت: وعلى الرغم من ذلك، فإننا لن نكف عن المحاولة.. أنا أتفهم غضبها، أن غيّرت دينك وانتماءك، ولكنه في حقيقة الأمر، غير مفهوم بالنسبة إلى مجتمع منفتح، ديمقراطي، يملي علينا ليلاً نهارًا، آيات الحرية الشخصية! أعني أن مفهومهم لتغيير الدين، ليس كمفهومنا عنه.

أجابتني: أنت مخطئة تمامًا يا صديقتي.. مخطئة تمامًا... ربما يتعامل مجتمعنا مع هذا الأمر، بدرجة أقل بكثير جدًّا، من درجة العنف الديني، التي يتعامل بها مجتمعكم، لكنها أبدًا، ليست بأقل إثارة للحنق، والغضب، والغيظ الشديد، والشعور بالاختراق، والهزيمة.

***

(1) في إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ سورة البقرة، الآية 120.

أسأل نفسي، كلما أخذت الأولاد إلى مجمع "الباغوادا" التجاري الترفيهي، كلما دخلت سوق "الكامبو" الضخم، أشتري حاجياتنا اليومية، كلما اصطحبت أطفالي إلى الحديقة، كلما تمشيت معهم في حينا "البيلار"، كلما وقفت أنتظرهم أمام باب المدرسة ساعة انصرافهم، كلما اضطررت لخدمات الإسعاف لمرضٍ شديد أو حادث، أو إلى عيادة أحد الأطباء، كلما بَكّرت في شراء الخبز أو "التشوروس"[1] الذي يُفطر عليه المدريديون، أيام الآحاد والعطل والأعياد، أو كلما ذهبت مع الأولاد، إلى مطعم "الماكدونالد"، قبل مقاطعتنا له، إثر اندلاع انتفاضة الحرم المقدسي.

كلما اشتريت كتابًا، وجلست أقرؤه، وأنا أراقبهم وهم يلعبون، كلما اعتدى ولد في المدرسة، على ابنتي بالسباب لمجرد أنها ابنة "مورا".. وشتمها قائلاً: أمك ترتدي الحجاب لأن رأسها يأكله القمل! أسأل نفسي لماذا؟ وكيف؟ لماذا صارت حياتي بين عشية وضحاها، ضربًا من العذاب والمعاناة الدائمتين، في هذا البلد؟ وكيف أصبحت ما بين غمضة عين، وانتباهتها، أُعامَل بصورة دائبة، على أنني دخيلة ممتهنة، وسواء اعترفت صويحباتي، بهذا "الاحتقار"، أم لم يعترفن، فإنه حقيقة.. إنه واقع نعيشه جميعًا!

---

(1) Churros أكلة شعبية مدريدية، يتناولها الناس في فطورهم الصباحي في المقاهي والمطاعم والساحات والأمكنة الشعبية، وتُؤكل ساخنة مع مشروب التشوكولاته الساخنة، تشبه عجينتها عجينة العوامات أو اللقيمات في البلدان الشرقية، ولكن من دون أن تغمس في القطر.

الفرق بيني وبين كثيرات من صاحباتي، أنني أعرف وأعترف، وأنهنّ لا يعرفن ولا يعترفن، ويُسَمّون الاعتراف بهذا الوضع المخزي "مبالغة"!

ربما كنت أظن، أن رأي أمّ مارتا فيّ، لا يعني لي الكثير! فأنا لا علاقة لي بإسلام ابنتها، لا من قريب ولا من بعيد، ولم أعرفها إلا بعد إسلامها بسنوات، لكنها تكرهني، و"تعاقبني"، لأنني صديقة ابنتها المقربة، تجد مارتا معي الأمن والطمأنينة، وتشد عضدها بي، كمسلمة إسبانية، وأجد أنا بدوري، لديها الأمن والطمأنينة، وأشد عضدي بها، كسورية مضطرة للعيش في إسبانيا.

كنت أظن أنني غير عابئة، بما تصنعه أم مارتا ومارتا، وما تقولانه.. ولكن وفي واقع الأمر كنت أكذب على نفسي! كان ذلك مؤلمًا جدًّا!

ربما لم تكن مارتا، تتمتع باللياقة الاجتماعية اللازمة، ورهافة الإحساس الضرورية، للتعامل مع أمر بمثل هذا الإحراج، فهي لا تتأخر عن إبلاغي رأي والدتها فيّ، على الدوام! وبأقذع الأوصاف الممكنة! الشيء الذي صار، وخلال السنوات الثلاث، التي كنا نسكن فيها قريبًا من بعضنا، في الباغودا، مصدر ضرر وإساءة كبيرين، صحبتي معها، تحولت مع الوقت، إلى جلسات تعذيب وإهانات غير مباشرة.. وكثيرًا ما حرمتني النوم بما تقوله، أجلس في فراشي، أضع رأسي بين يدي، وأبكي.

ما الذي يمكن أن يحمل أم مارتا، على مثل هذه الكراهية والحقد تجاهي؟ لعلها تشعر بالغيرة، بسبب ثقة ابنتها العمياء بي؟ ولكن ما الذي يجعل مارتا تواظب على هذه الأذية؟ لعلّها أرادت

أن تشركني في ألمها الكبير، المترتب عن إساءة معاملة والدتها وإخوتها لها.

بعضهم، لا يشعر بالراحة، إلا عندما يجدك تعاني درجة معاناتهم نفسها!

بعضهم، لا يرضى، إلا أن يكون الجميع، أصدقاء، ورفاق، ومعارف، يعيشون آلامهم نفسها بحذافيرها، يؤذيهم أن يعيشوا هُم محنة، ويكون مَن حولهم في عافية.

لعلها أرادت أن أدفع بعض "الثمن"، ثمن شعورها القاتل بالغربة، في وطنها وبين أهلها! ولربما ابتُليتْ بدرجة عالية، من قلة الذوق والإحساس بالآخرين؟

لم أحدثها عن ذلك، كنت أخشى أن أجرح مشاعرها، تَكَفَّل تماديها في إيذائي، واستمراري في السكوت على الأذى، بتلاشي علاقتنا الأخوية المؤلمة تلك، شيئًا فشيئًا، وما زالت.. لا تفهم سبب إعراضي عنها! **هناك آلام، تفوق في قدرتها على التدمير، قدرة المودة على الاستمرار.**

ضعف بعضهم، يُخرج أسوأ مافينا ويغرينا بإيذائهم، وتسامح بعضهم الآخر الدائم لنا، على أخطائنا، يشجعنا على الاستمرار في الأذى، من حيث ندري ولا ندري.

مازلت في نظر مارتا نفسها، مُهاجِرة..لايمكن لإسباني حتى لو كان صديقًا أو أخًا، أن يراني إلا "مهاجِرة"، مع أنني لا أستطيع أن أرى نفسي كذلك! **إنهم مرآتنا، التي نرى فيها فداحة مصائبنا، وإننا مرآتهم التي يرون فيها بشاعة أنفسهم!..** لست "مهاجرة" بمعنى الهجرة المزروع في أذهانهم، لم أترك بلدي وآتي إلى هذه البلاد طلبًا للرزق، أم أنني فعلت بطريقة أو بأخرى؟ أرغمني

أهلي على أن أترك سورية، وألتحق بزوجي في إسبانيا، طلبًا لأعظم ما في هذه الحياة، النجاة بنفسي وبديني من الطغاة.

ما الهجرة إذًا؟ ولمَ أصبَحَتْ عارًا، وسُبة، وتهمة، على المُضْطَرين المكلومين المعذبين في الأرض؟

هل تمتلك الدول الاستعمارية، الحقّ في أن تمنع "الآخرين" من دخول أراضيها، واقتحام مجتمعاتها؟ بعد أن اغتصبت هي أرضهم، وثرواتهم، ووجودهم، وحريتهم، وكرامتهم؟ لِمَ نُعامل في هذه الدّول التي تُلَعْلِعُ بالديمقراطية، والدفاع عن حقوق الإنسان، بهذا الحقد، المبالِغ بالإهانة والأذى الدائمين، وعلى كل الأصعدة؟

أُدْخِلْتُ رغم أنفي، تحت خيمة الهجرة الواسعة الضيقة، وأصبحتُ مثل كل المهاجرين، أحمل آمالهم وآلامهم، لأنني أنتمي إليهم، إلى وجودهم، أو بلادهم، أو دينهم، أو معاناتهم، أو غربتهم.. أو ذلك كله.

أصبحتُ بعد خمسة عشر عامًا، من إقامتي في إسبانيا "مهاجرة"! ماذا كنتُ قبل ذلك؟ وفي أي خانة كان يمكن تصنيفي؟ لعلّي لا أختلف في حقيقة الأمر، كثيرًا ولا قليلاً، عن ذلك الفتى "إبراهيم"! كان يتبرأ من الموروس لأنه سوري أبيض أشقر ولِد في إسبانيا، وأنا لم أعدّ نفسي قط مهاجرة، لأنني أرى نفسي سورية مثقفة متحضرة السلوك، أتيت إلى إسبانيا لأرافق زوجي في تخصصه!

من الذي يحدد هويتك وانتماءك؟ من الذي يمتلك الحق في تأطير الآخرين، وجعلهم يشعرون بانتماءات يرفضونها؟ من هذا الذي يمنح نفسه السلطة المتغولة، لإنشاء أقليات جديدة في هذا

العالم المريض، يسميها، يضع لها شروط الانتماء، يؤطر حدود وجودها..

يحدّها من الشمال، رؤية الآخرين لها! ومن الجنوب، حريتك داخل سجنها! ومن الشرق، تعامُلك مع نفسِك، ومع من فُرِض عليهم أن يكونوا معك داخلها! ومن الغرب، محاولتك التفاهم، مع من يعدّون أنفسهم خارجها!

هل وجودي في إسبانيا، مع الروماني، والبولندي، والروسي، يوجب عليّ، أن أدفع الثمن فأدرك وأعترف بأنني "مهاجرة"؟ أم أن انتمائي إلى "الأمة" نفسها التي ينتمي إليها البوسني والتركي والمغربي والفلسطيني والمصري.. هو الذي أرغمني على أن أدفع الثمن؟ أم أنهما الأمران معا؟

أصبحت "الغربة هوية"، وفُرِض على كل مهاجر أن تكون "هجرته" هويته الإجبارية الجديدة، هوية مركبة شائكة، متعددة الأبعاد، مغلقة أضلاعها علينا ولا أمل في انخلاع أو خلاص.. خصوصًا إن كنت مسلمًا، لأنك إذ ذاك ستدفع الثمن مرتين!

أنت غريب ومهاجر و.. مسلم، ثلاثية تؤهلك للسير على درب الآلام، في أي مجتمع أوروبي، ساقتك أقدارك للعيش فيه أواخر القرن العشرين.

"حجابي" هوية، ولون بشرة، وعقيدة، وثقافة، وتصورات، عن الإنسان والحياة والآخر.. هذا الآخر، المخيف، المرعب، الذي يغزو هذه القارّة، بفقره وذله، ووحدته وبؤسه، وتاريخه الذي يحمله، أثقالاً مضاعفة على ظهره، وحاضره المحاصر بشهوة "الالتهام الاستعمارية"، وعجزه عن الفعل، وعن التفكير، وعن

التغيير.. **فلا يجد أمامه إلا أن يلقي بنفسه في لجة البحر، وسيّان عنده أحملته اللجة إلى شواطئ نجاة ذليلة، أم إلى موتٍ يريحه من مكابدة واقعه المرير.**

دخلتْ تحت "جلبابي"، آهات المعذبين، وهوان المساكين، وقهر المغلوبين على أمرهم ومعاناة الذين جاؤوا إلى هنا، مجتازين المضيق بأهواله، والصحراء بفحيح قيظها.

صار الموت، في محاولة بحثك عن شيء من كرامة، وشيء من حرية، عملية تحد واستهزاء، بوجودك نفسه! فأن تموت في المحاولة خير من أن تموت قرفًا وتعفنًا.

حياة المُهاجِر في أوروبا – كما في كلّ المَهَاجر – سلسلة من المتاعب، كفاح مستمر في طريق مزورعة بالأشواك، لا يُرغمه على الاستمرار في السير فيها، إلا غول متوحش في بلاده، فاتح فاه كل حين يريد ابتلاعه، كائنًا ما كان ذلك السبب الذي هاجر من أجله، سياسيًّا أم اقتصاديًّا أم اجتماعيًّا، أو البلد الذي جاء منه، فلسطين أم المغرب أم العراق أم غواتيمالا أم البيرو أم أفغانستان أم سورية.

تصل الحال بمعظمنا إلى قبول هذا الوضع، الذي يبدو شاذًّا مقلوبًا.. على الرغم من أنه الوضع الذي يسود العالم كله منذ أدرك العالم نفسه، كل الأنبياء قد تركوا أرضهم وهاجروا، معظم العباقرة والعلماء لم تثمر أشجارهم إلا في أرض غربة ومهجر، دائمًا.. كانت الهجرة طريقًا تغري الغرباء، بسراب أوطان تُؤويهم، ولكن ندر في التاريخ أن يكون الغريب محبوبًا، والمُهاجِر مقبولاً مرحبًا به.. حتى لو كان نبيًّا.

لا أستطيع الاستسلام لهذا الوضع المجحف، شعوري بالإهانة أكبر من ابتهاجي بالنجاة من الغيلان وبشيءٍ من حرية، كل يوم أزداد انغماسًا في غربتي، ورفضًا لحياتي على هذه الشاكلة.

تعبت، لا يمضي يوم واحد، دون أن أفكر فيه، بطريقة للخروج من "جحيمي" هذا، والعودة إلى سورية، أو إلى أي بلد قريب منها.. في حين أن أرتال المهاجرين الآتين من بعدنا لم تكن تتوقف! قادمين من بلدان الخوف، والحروب، والقهر، ونهب الثروات، واستلاب الإرادات.. سَواقٍ بشرية بائسة لا تتوقف.

ليس الجوع قطعًا، على قائمة الأسباب التي تأتي بالمهاجرين إلى أوروبا، كما يحلو للأوروبيين أن يتوهموا! لكنه الحرمان.

لم يكن البحث عن الأمان، ولا تحصيل شيء من كرامة، ولا التحقق بهلوسات حرية، يعلم الجميع أنه لن يكون لها أي طعم حقيقي، ولا لون، ولا رائحة، خارج أوطانهم.. لكنه الجوع لحياة بشرية طبيعية، في دولة طبيعية، تجعل الإنسان يشعر بإنسانيته.

البحث عن سُلطة تهتم بك، تعطف عليك، تفكر فيك، هو الباعث النفسي الأول، على لائحة الموجبات، التي تدفع الناس إلى مغادرة أرض التغييب والتضييع والإهمال.

تغير وجه الهجرة السورية جملة وتفصيلاً، ومقصدها، وأسبابها، يأتي فردٌ واحد، تنضم إليه زوجته، وما يلبثون أن يصبحوا أسرة من ستة أفراد، يعملون على استقدام الجدة، وبعدها الجد، ثم الأعمام والأخوال! عائلات كاملة بأجيالها الثلاثة هاجرت من دمشق بالذات، إلى مدريد، خلال سنوات قليلة، فرحين بما أتاهم الله في غربتهم، بعيدًا عن "مزرعة الأسد" التي

انتهت إليها سورية، بعيداً عن حياة الخراف، والعبودية، حياة الذل والعذاب والخوف والاستعباد.

لم يأت بهم فقر مدقع، بل انعدام الفرص، وسد الأبواب في وجوههم، وامتهانهم في أرضهم.. وسلخ هويتهم، واستلاب إنسانيتهم، وعوزهم الموجع للشعور بالقدرة على الحياة كما يريدون.

لم يكن ما يجري فيما يتعلق بخروج الناس من دمشق، هجرة.. كان نزوحًا جماعيًّا اختياريًّا، إنه هجيجُ[1] شعبٍ يبحث عن خلاص.

كلما التقيت ثناء، أجدها مبتهجة سعيدة، مشرقة.. تمسك بيد طفلها ذي الأربعة أعوام، وتحمل ابنتها الأصغر، بينما تنتظر مولودها الثالث.

– ما شاء الله.. ما شاء الله، كان الله في عونك، الأولاد مسؤولية كبيرة جدًّا في هذه البلاد، ولا أنصحكم بأن تقعوا في الخطأ نفسه الذي وقعنا فيه، نحن الذين نكبركم بعشرة أعوام.

– عن أي خطأ تتحدثين، هذا أجمل ما في الحياة.. الله يسلمهم ويحميهم.

– آمين آمين.. لكنني أتحدث عن مسؤولياتهم الكبيرة جدًّا.

قاطعتني: باسم الله ما شاء الله، أيّ مسؤوليات، انظري حولك إلى هذه الأقمار، باسم الله ماشاء الله، رؤية أولادك تشجعنا على الإنجاب.. ثم باسم الله ما شاء الله، باسم الله ما شاء الله، إذا كنتم

(1) هجّ الرجل، فرّ هاربًا من ظُلمٍ إلى مكان بعيد/معجم المعاني الجامع الإلكتروني.

أنتم تقولون هذا، وأنتم أسرة طبيب، فماذا نقول نحن وزوجي عاطل عن العمل!

– هذا الذي قصدته بالضبط! أولادي، وكل أولاد الجيل الأول – إذا كنّا نُعدّ جيلاً أول– نالوا كثيرًا جدًّا، من العناية والرعاية، ذلك أن معظم الآباء السوريين، كانوا من الأطباء كما تقولين، لم يأتوا مهاجرين، أتوا للدراسة، والأطفال هنا يحتاجون إلى المال والعناية والرعاية والانتباه الدائم.

– ستي.. يرزقنا الله بهم!

– يا أختي ما اختلفنا، ولكن إذا كان الأب عاطلاً عن العمل، فمن أين سيأكلون ويتربون.

– ألم تعلمي أن هناك مساعدات اجتماعية؟ والله إنهم يعطوننا كل شيء، حتى إن "أم مجد" أخذتني معها إلى مركز العناية الاجتماعية، لنجلب الحليب للأولاد.

– أم مجد ما غيرها زوجة الصيدلي؟

– نعم.. ولم لا؟ الخير موجود، هم المحسنون، ونحن المستحقون!

آلمني أن نكون في موقع المتسول، أيعقل أن نبرر لأنفسنا إنجاب المزيد من الأطفال، نتعيش على حسنات المساعدات الاجتماعية، المخصصة للفقراء والمحتاجين في إسبانيا؟

– يا أختي يا ثناء.. الأمر ليس بهذه البساطة، أنا أحدثك عن تجربة.. رفقًا بكم وبأبنائكم.

– بلا تجربة، بلا رفقًا.. الله يسعدك يا أم ساجدة – يعني أنا – نحن نأخذ على كل طفل مولود مساعدة من الدولة!

– كل شهر؟

– لا حبيبتي، كل مولود!.. الله يسعدك، كأنك لا تعيشين في إسبانيا!

– وماذا تفعل مساعدة صغيرة كهذه للطفل في حياته؟

رنت ضحكتها الطيبة وهي تقول:

– لك اسكتي، لقد أتيت بأمي بها، وبما سيدفعونه لي عندما ألد الولد الرابع سآتي بأبي!.. قولي الله!

هل بلغت الأحوال بالشعب السوري، هذا الحد من استساغة الذل والصغار؟ أين وصلنا؟ وأين أوصلنا حكم الأسد المتوحش، خلال خمسة عشر عامًا بعد خروجي من بلدي؟ صار الشعب السوري متسولاً، على أبواب منظمات الإغاثة في المهاجر، لا يهمه أن يمد يده، ليشحذ[1]، ما دام يستطيع بهذه الطريقة تأمين لقمة عيشه، وأسباب استمراره، دون أن يفكر في المستقبل، أو أن يشعر بالإهانة.

سألتها في قهر: ألهذه الدرجة وصلت الأمور في سورية؟

تلفتت يمنة ويسرة، وسألتني في ريبة شديدة: عن أيّ أمور تتحدثين؟

قلت: الأمور المعيشية طبعًا...

قالت: نحن لم نكن نعيش في سورية، لا عمل ولا كرامة ولا حياة.. هنا توفر لنا الدولة كل شيء، لك "يقبرني سماها" لإسبانيا، الله يخليلنا حكومتها، ويبارك لأهلها فيما أعطاهم..

---

(1) شَحَذَ الناس، سألهم مُلحًّا/المعجم الغني.

اللهم لك الحمد، والله يا أختي عايشين ومبسوطين تمام التمام، هنا، آخذ أولادي إلى الطبيب والمسبح وحديقة الحيوانات، وأتعلم قيادة السيارة، وأدرس اللغة الإسبانية.. هناك.. لم أكن أعيش.

هكذا إذًا، يجد المهاجرون الجدد طوق النجاة، من ضغط إحساسهم بمحيط الكراهية والازدراء، الذي كنا نغرق فيه ويغرقون.

مقارنة بسيطة، بين الأوضاع التي يعيشونها في بلادهم، مع ما استطاعوا الحصول عليه في بلد المهجر، تجعلهم يبتهجون بوجودهم في إسبانيا، الشُطّار هناك يخبطون ويتخبطون ولا يُحصِّلون إلا الفتات، هنا.. يظنون أن شطارتهم أتتهم بالمكاسب، التي ليست غير حقوق أساسية، توفرها دول الحقوق والقوانين، لكل فصائل المخلوقات الحية التي تقيم وتتواجد على أراضيها.

بينما تجدنا نحن "قدامى المهاجرين" –بفارق خمسة عشر عامًا فقط – مكتئبين دائمًا، مكفهرة مشاعرنا، تجاه أي حادث أو حديث عنصري مع الإسبان، ومهما كان تافهًا.. **أغبطهم أم أحسدهم؟ هؤلاء الذين يستطيعون الإفلات من قبضة الشعور الموجع بالكرامة؟**

لم نستطع على الرغم من مرور الأيام والأعوام، التأقلم مع نظرات البغضاء والرفض، وتعليقات الإسبان اللاذعة، التي لا تدعنا نعيش بسلام ولا أمن، إنها العلاقة العاصفة ما بين الشعور المتضخم بالكرامة، والشعور القارص بمقت الآخرين لك ورفضهم لوجودك بينهم!

أين المفر؟ خصوصًا بعدما يدخل المهاجر من ذلك السرداب اللولبي المتحرك بسرعة تدعو إلى الغثيان، كأنه في مدينة للتعذيب لا للملاهي! يلتف على نفسه ويدور، متمددًا داخل المتاهة، وهناك وفي آن، يعاني أهوال الانفصال عن الجذور، وعذابات تضييع القدرة على الإيناع[1].

كل شيء يتفلت من بين أصابعك تفلت الماء، فأينما تتكرس الإهانة فثم شعب لا وطن يلمّه[2] ويؤيه ويحميه.

أنت أمام خيارين، إما أن تبدأ بالانفصال البطيء، الطويل، المؤلم عن الوشائج، التي تربطك بكل ما خلفته وراءك، لأنك تفتقر إلى الفهلويّة[3] والمراوغة والتصميم، أو أن تعمل بكل "شطارة"[4]، فتأتي بما يمكنك ممن أو مما خلفته وراءك ليكون معك في غربتك.

وهكذا، ومع الوقت.. تفقد قدرتك ورغبتك، في الاستمرار في بناء الجسور، التي يمكن لغيرك – من الإسبان أو من ربعك – أن يدمرها في طرفة عين.

كأنما جعلتنا أقدارنا في هذا البلد عمال بناء، لا بنائين.

*****

(1) أينع الثمر إيناعًا: طاب، حان قطافه\ معجم المعاني الجامع.

(2) لمَّ الشيء: جمعه جمعًا شديدًا/معجم المعاني الجامع.

(3) الفهلويّ: كلمة فارسية تستخدم في اللهجة الشامية المحلية تعني محتال، بارع، شاطر، قادر على التكيف السريع مع متغيرات المجتمع/وتطلق كلمة "فهلويّة" على اللغة الفارسية نفسها/معجم المعاني الجامع/معجم اللغة العربية المعاصر.

(4) شطارة: تجمع معاني كالذكاء، والدهاء، وحسن التصرف، وحسن التخلص، والخبث، والحنكة، والفجور/المعجم الرائد/معجم اللغة العربية المعاصر.

يوميًّا يزورني جدي الشيخ في المنام، يسأل عني، يحدثني وأنا أجلس إلى جواره في مجلس صلاته، أقرأ في كتاب "الأحاديث القدسية"، وهو يشرح ويفند، عندما يقترب انتصاف الليل، يقوم إلى المذياع، يقرب أذنه منه يستمع، لكي لا يزعج جدتي النائمة في الغرفة المجاورة، فجأة وهو يقلب المحطات، تُسْمَعْ أغنية لأم كلثوم.. يبقى جدي على حاله يستمع متأثرًا بانتظار نشرة الأخبار.

أيجوز الاستماع إلى أم كلثوم يا جدي؟ أليس الاستماع إلى الغناء حرام؟

يلتفت جدي إلي ويقول: التنطع هو الحرام.. أنا لم أبحث عن أغنية أستمع إليها، كنت أستمع إلى نشرات الأخبار فخرجت.. هل تريدينني أن أقفز عن كرسيّ منتصف الليل، أصيح في وجه العالم، أنني لا أستمع إلى الغناء!

عجيب هذا التوجه للتنبيش في قلوب الناس وأفعالها! هذا التوجه أخطر بمئات المرات من اجتراح السيئات، فالسيئة يمكن التوبة منها والإقلاع عنها، أما هذا فهو مرض خبيث، ألعن ما فيه أن أصحابه يظنون أنهم على حق!

أريد أن أناقشه، أن أبحث معه هذه المسألة العويصة، التي يبدو أنها تقضّ مضاجع الأمة المقتحمة سرداب الجهل! لكنني لا أتجرأ.. سيقول لي: كفاكم غباء، كفاكم لويًا لأعناق النصوص بغير علم.. كفاكم إهانة للإسلام باسم الإسلام.

أستيقظ من نومي لصلاة الفجر، ولا أعرف هل كان ذلك من تداعيات الذاكرة، أم من ملابسات كوابيس ليالي الغربة والقهر؟

أرقب حجم سرطان الغربة الذي ينمو في روحي، يُعَشْعِشُ فيها كشجرة صبار، بعطشها، بأشواكها، بنأيها، بشوبها، بوقوفها هكذا تحت لفح الشمس، وحدها، بعيدة، لا تتمكن من الانحناء، ولا الالتواء، ولا أن تحن إلى شجرة تلتف حول بعض أغصانها.. تعانقها، ولا أن يشتاق إليها نبات مجاور، فيقترب ليمنحها ظلًّا ومواساة.

أكتشف مع الأيام أن شجيرات الصبار الإفريقية، تطرح ثمرًا، وزهرًا، مختلفة ألوانه، وتعطي خيرًا وأملاً.. يا لأزهار الصبار الإفريقي المدهشة، الأرجوانية والزرقاء! **يا لكرم الحياة، إذ تمنحك أسرار سحر المعرفة، وأنت تظن أنك في بطن الحوت، وتهديك قلوبًا عامرة بالحكمة والحياة بينما أنت تفكر بالقفز من السفينة**، يا لتلافيف الذاكرة كم تحمينا من الذوبان، والاندثار، والضياع.. كلما قسا واقعنا وبدت الطريق موحشة.

تمتد إليك يد حانية، تخرج من جُبّ الأيام الخاليات، تُذَّكِرُك بأنك لست وحدك، ولن تكون، وأن الآلاف، بل ملايين الغرباء يسيرون معك، مسيرة حافلة بالحياة والصخب والأمل.

صوت جدي لا يفارقني، صوت أمي لا يفارقني، مافتئا معي يرشدان، يعلمان، يمسحان دمعة، يضحكان، يحملان شمعة تنير عتمة.

صوتان أصرّا على الرحيل معي من دمشق، والبقاء معي في مدريد، لا يبارحان، لا في المنام ولا في اليقظة.

الخوف من الضياع بغيض مرعب، أن لا تجد البوصلة مخيف، موجعٌ جداًّ.. أن تقف وسط الطريق، فلا تستطيع رؤية ما وراءك، وسط الظلام والغمام، ولا رؤية ما أمامك، لأن العاصفة شديدة والمطر غزير.

تمضي الدقائق، والساعات، والأيام، والأشهر، والسنوات، وتقلّ التفاتات المرء إلى الوراء، فالطريق أصبحت نحو الوطن، شديدة الوعورة، أو مقطوعة، وتلك الوجوه التي تزدحم أصواتها في الذاكرة، تلاشت ملامحها، بقي أصحابها من الأحباب هناك، في قعر الوجدان، خيالات من بعض عذاب، مقيمين في القلب، ندبة وجراحًا تنزف، ولكنك وعلى الرغم من هذا النزيف الأليم، لا تريد لقاءً معهم! لقد تغيّرتَ وتغيروا، وابتعدتْ وابتعدوا، وارتفعت بينك وبينهم الأسوار، أسوار الحدود، والمطارات، والمحطات، وأسلاك الهاتف، أسوار العادات، والتقاليد، وتراكم الأيام والآلام.

تُفَضِّل أن يبقوا في نفسك، صورة متحركة جميلة، زاخرة بالحياة والحركة، كهيئتها يوم تركتها، حبًّا وحنينًا حيًّا، كما هم، من دون أن تكون قد مسّتهم يد الزمان ولا النسيان، على أن تلتقي بهم، وقد تغير فيك وفيهم كل شيء، تصطدم الصورة بالصورة، والجرح بالواقع، وتكشف الأيام عمق الهوة.

لا أحد يكاد يفهم هذه الورطة[1].. "ورطتنا"، التي كان الجميع يمررونها من خلال تصوراتهم عن قسوة قلوبنا، التي اكتسبناها من إقامتنا بين الأوروبيين! لم يُعانوا سقم الانقطاع، لأنهم كانوا يترددون كعصافير السنونو مابين المهجر والوطن، الذي اهترأت

(1) الوَرْطَةُ: أَرضٌ منخفضة لا طريق فيها/الوَرْطَةُ: الهُوَّةُ الغامضةُ العميقةُ في الأَرض/معجم المعاني الجامع.

صِلاتُنا به إلا من خلال رسائل ذاهبات غاديات، شحّت، وأنهكتها الكَلمات ونزف العاطفة، أو عبر هواتف شهرية، جعلت ذلك الوطن، مجرد أصوات، تمرر أخبار الأهل أسلاكها، التي يراقب ما يمرّ فيها الجميع، أو في زيارات الأهل، التي باعدت فيما بينها الشيخوخة دبت في مفاصل الحياة.

كانت أمي تقول لي كلما هاتفتني: ليتهم يخترعون هواتف نتمكن فيها من رؤية بعضنا؟ ليتهم يخترعون لنا شيئًا، نكبس فيه زرًّا فتصبحون فيه عندنا أو نصبح عندكم، ليت سوبرمان كان حقيقيًا.

من لا يصاب بمصيبتك نفسها، كيف له أن يفهم حجم معاناتك وألمك؟

أنت مُدْنَف[1] . . وهم يتمتعون بتلاوة ترانيم الأشواق.

تستفهم ثناء مستغربة جدًّا: كيف لا تريدين شيئًا من الشام؟ عمي سيأتي بعد أيام، ويمكنه أن يمر على دار أهلك، مكتوب؟ صورة؟ علبة برازق؟[2] شيء من رائحة أمك.. ويلٌ لي إن فعلت هذا بأمي.

أنظر إليها وأغبطها.. ليتني كنت مثلها؟ ليتني أستطيع أن أشرح لها؟ ليتها تستطيع أن تفهم مشكلتي؟ كان المراسيل يؤذوننا في أهلنا، وكانوا يجعلون من أنفسهم ولاة أمرنا في غيابنا، وكانوا قد تسببوا، بأن نمتنع عن أن نطلب من أحد بعدها، أن يُعرِّج على دارنا يأتينا منها بخبر.

---

(1) أدنف المرض فلانًا: أضناه، أتعبه، أثقله/ معجم اللغة العربية المعاصر.

(2) برازق: كعك رقيق بسمسم /المعجم الرائد.

يذهبون للاطمئنان والطمأنة، ويعودون بمشكلات لا أول لها ولا آخر بيننا وبين أهلنا، وبيننا وبين أطراف ثالثة لا علاقة لنا بها ولا علاقة لها بنا.

اتخذ أبو ساجدة قرارًا قطعيًّا، بألّا نرسل مع مغادر إلى سورية أي شيء، وألّا نطلب من آت منها أي شيء.

بعد أن تَعِبَتْ، وأسَنّتْ، ومنعها المرض من زيارتنا، كما كانت تفعل كل عام مرة أو مرتين، كانت أمي قد أصبحت في حياتي مجرد صوت، صوت يتعلق مباشرة بصمامات القلب، ونبض الشرايين، صوت هو الروح ترتد إليك بين الفينة والفينة، هو الحبيب يأتي عبر الهاتف مرة في الشهر، وربما مرة في الأسبوع.. الآهات، والذكريات، وحكايات الأهل والجيران، صارت تُروى عبر هاتف يلهث.

الحب، واللهفة، والشوق، والحرمان.. كانت تُختصر جميعها في عبارات تفتعل القوة والصمود، المرض، واليأس، والاكتئاب.. أصبحت تصب في خلافات وديّة حول أتفه الأسباب.

فقدان الولد، أيام الشيخوخة القاسية تستجدي العطف والصحبة، لا يعدله إلا فقدان الأم، في ساعات الضعف والفاقة الإنسانية إلى الحنان، وأن تأخذ بيدك، وتضمك، إلى صدرها لتُسَكِّن فؤادك:أن لا بأس عليك، غدًا يوم آخر جديد.

هذه اللجج من المشاعر، أصبحت في غربتي أشباحًا، تستعصي على ارتداء الكلمات.

أمي تفتعل القوة، وأنا أستنسخ منها الصلابة.. وكثيرًا ما نتشاجر في الهاتف، لأنني لا أستطيع أن أقول لها: إنني أحبك، وأفتقدك في حياتي، وأحتاج إليك، فأنا أعلم أنها لم تعد تقوى

على السفر، كما كانت تفعل منذ وصلتُ إسبانيا، كانت هي وأبي يتحملان ما هو فوق طاقتهما لزيارتنا، حتى لا نفكر نحن في الذهاب إلى سورية، أرض الغيلان.

– الله يرضى عليك يا بنتي لا تنزلي إلى سورية.. وماذا في سورية يجعلك تريدين زيارتها؟

– فيها كل شيء يا أمي.. كل شيء، هنا لا يوجد أي شيء!

تقول والدموع في عينيها:

– كم هو مضحكٌ ما تقولين، الناس يحسدونك على أنك في إسبانيا، ويحسدوننا أننا نأتي لزيارتك لنرى إسبانيا.. هنا زوجك وأولادك، هُم وطنك.

– أريد أن أرى حارتي، أن أمشي في بلدي، أن أزور جامعتي، أريد أن اشتري "مثلجات من بكداش"[1] في "سوق الحميدية".. أريد أن أتذوق ولو مرة واحدة طعم "كعك[2] دمشق الاسفنجي المُزين" الذي لم أذق مثله منذ غادرت الشام، أريد أن آكل خوخًا أخضر..

– سآتيك بخوخ أخضر، لدى عودتي في العام القادم إن شاء الله، سورية ما عادت سورية يا ماما! صارت أرض أهوال، أرجوك وأتوسل إليك ألّا تفكري في العودة، ما دام الوحش باقيًا في الحكم.

– سبحان الله؟ ألهذا الحد أنتم خائفون؟

(1) محل شهير لبيع نوع خاص من المثلجات الدمشقية بالقشدة والفستق تدعى "بوظة بكداش" تقدم في الأفراح والمناسبات.

(2) كَعْك: مفرد كعكة: نوع من الحلويات يصنع من الدقيق والسُّكر والحليب والزبدة وغير ذلك / معجم اللغة العربية المعاصر.

– لا يا ابنتي.. لا، بل لهذا الحد، "هم" مخيفون!.

يحدثنا أبو سمير، الذي كان في زيارة ابنه، أثناء زيارة أهلي الأخيرة، وكان يرافق أبي في مدريد، مدة بقائهما فيها، يحدثنا في قهرٍ واستكانةِ الجريح، عن أصدقائه، جلّهم ماتوا، وهو "لم يمت" – كما كان يردد طوال الوقت –، على الرغم من أنه تجاوز الثالثة والسبعين! قال: أريد أن أموت يا عمو[1]، أريد أن أرتاح، أشتاق إلى أمي.. ويبكي: ماعدت أحتمل هؤلاء الكلاب، إنهم يخنقوننا، يسيطرون علينا، نحن أصبحنا بلا كرامة يا عمي[2].

ابن جارتنا سُمَيَة في الصف الخامس، يختصم مع ابن المُدَرّسة، فتأخذه أمام المدرسة كلها، وتصفعه على وجهه، وتنهال عليه بالضرب، ثم تدوس قلبه بكعب حذائها، وتقول له: أتتجرأ أيها الكلب وترفع يدك على أسيادك؟

في اليوم التالي، تأتي إلى المَدرسة، في سيارة للمخابرات، ينزل منها زوجها الضابط المخيــف.. ويقــول لسُميّــة، وكانت تنتظر في الإدارة: كلمة واحدة فقط، وأرميك في فرع الأمن رمي الكلاب الجربانة!

سُمَيَة لم تسكت، قالت له: هذا بلدي، وهذا ابني، وهنا قانون يحميني! وسأشكوك إلى السيد الرئيس!

فيقول لها الرجل وهو يضحك: قانونك تحت حذائي.

لا تستطيع سمية تغيير المدرسة، لظروف سكنها، تضطر

---

(1) تحوير عامي شعبي لكلمة "عمي" باللهجة الشامية، وأصلها "يا عماه"، تقال تلطفاً ومبالغة في التودد.

(2) صيغة مخاطبة عامية، تستخدم في اللهجات الشامية بالنداء العكسي، مؤداها منتهى التودد، كأن تقول الأم لابنها "يا أمي"، والأب "يابيي" والمقصود بها "ياحبة قلب أمك أو عمك.

لترك ابنها بين براثن تلك الوحوش، وتعود صاغرة مكسورة الخاطر إلى بيتها.

يهذي: أريد أن أموت ياعمي، اشتقت لأمي، أريد أن أرى وجهها.. اُدعُ الله أن يفك أسري من هذه الحياة، أريد أن أرحل.

لماذا تريد أن تعود إلى وطنك؟ أنت أعجز من أن تقلع عين تلك المتنمرة، التي غرزت كعب حذائها في قلب ذلك الطفل ذي العشرة أعوام! إنك لا تستطيع أن تقلع أعين كل رجال أسرته، المتخاذلين الجبناء، الذين رفض أي منهم، أن يرافق سمية إلى المدرسة، لمساءلة المُدَرِّسة الطائفية "المدعومة"، عن الجريمة التي قامت بها بحق هذا الطفل، لأن من يفعل ذلك..يكون قد رمى بنفسه إلى التهلكة! ويعرف أنه لن يعود إلى بيته وأهله أبدًا.

لا تستطيع أن تعترض على شيء، ولا أن تقاضي أحدًا.. ولا أن تنتقم من أحد، لا تريد أن تضرب أحدًا، ولا أن تغرس سكينًا في عين أحد، ولا أن تصبح قاتلاً مجرمًا مثلهم.. لا تريد.

دينك لا يسمح لك بذلك، أخلاقك لا تسمح، وقناعاتك عن التغيير والإصلاح لا تسمح.

كنتَ ومازلتَ، ترى أننا مسؤولون كشعب، عن هذا الذي يجري في سورية، بالضبط كمسؤولية حافظ ورفعت، السارِقين المتغوِلَين المُجرِمَيْنِ.. وكل تلك الغيلان التي نصّبت نفسها سادة في سورية.

تستغرق الأيام والليالي، وأنت تنحت في نفسك تصورًا، عن قناعاتٍ جديدة، فيما يتعلق بذلك "الوطن المتبجح الضال"، كما تبحث عن مِثالٍ يجب أن تقوم عليه العلاقات، في هذا

"المهجر التيه المُدَّعِي".. وحتى لو ظننت في نفسك القدرة على نسيان أولئك، والتعايش مع هؤلاء.. فإن الأيام كفيلة، ودائمًا بأن تكشف لك، عن كذبك على نفسك، وفشلك في خديعتها، وإخفاقك في إقناعها.

شيء وحيد بقيتَ متشبثًا به، بعد التخفف من علائق الأرض والتراب والوطن، إيمانك العميق، وجذورٌ ضخمة ثقيلة، تخترق وجودك، تشدك إلى ذلك العالم.. عالَمُك الذي خلفته وراءك.

تركة ثقيلة، تجعل من حياتك "الطبيعية" هنا، أمرًا شبه مستحيل، هنا.. حيث لا يتركونك بسلام أبدًا، وكلما بدا أن حربهم عليك قد وضعت أوزارها، يُشهرون مناجل الكراهية والحقد، تحصد كل أمل لك بشيء من دَعَة وراحة، تلتقط فيهما أنفاسك لتستأنف الطريق.

صندوق مغلق على ذكرياتك، عن دنيا خاصة بك، تعيشها في أحلامك ولا تريد اقتحامها، بعد أن أصبحت غريبًا عنها، تُفضل أن تبقى في مخيلتك صورة جميلة، على أن تكتشف أنها في الواقع، ليست إلا مجرد جرح قذر متعفن ينزف.

أصبحتَ رغم أنفك.. "مخلوقًا" تُشبه "هولك الغول الأخضر"[(1)]، الذي ينشق عنه، صدر رجلٍ نبيل صابرٍ، بلغت قدرته على الصبر مداها، فلا تعرف متى يمكنك أن تنفجر، أو أن تتحول إلى غول

(1) Hulk شخصية خيالية لبطل خارق القوى، يتحول من رجل استثنائي العلم والأخلاق، كلما بلغ غضبه درجة لا تحتمل. ظهرت هذه الشخصية في مجلات الرسوم القصصية الحوارية التي نشرتها شركة "مارفيل كوميكس"، أول مرة عام 1962، وهي من إبداع المصممين Stan Lee, Jack Kirby/ثم انتقلت إلى السينما والمسلسلات التلفزيونية واللعب الإلكترونية.

مخيف، أو ذئب جريح، أو لا شيء! لا شيء، إلا الغربة والإحباط والتلاشي.

محصورٌ، محتَبَسٌ، بين فكيّ كماشة هائلين، جذورك التي لا تستطيع الانفكاك عنها، ولا قيد أنملة.. ولا تريد، وبراعم غصنك، التي امتدت في هذا المجتمع، ونمت واستطالت، **أنت موجودٌ هنا، لكنك لا تستطيع أن تشعر بالانتماء إلى هذا المجتمع حتى لو أردت! لأن أهله وبكل بساطة لا يريدون، ولا يسمحون.**

وعلى عكس كل التوقعات، وبدلاً من أن تعتاد هذا الواقع، وتُمشي الحال، يصبح التعايش مع الناس فيه، كل يوم جديد، أكثر صعوبة ووعورة .. لا يرضون عنك، حتى لو اتّبعت ملتهم وطريقتهم في الحياة، ستبقى أبدًا بالنسبة إليهم ذلك المورو الغريب المكروه العدو! حتى لو كنت داعية سلام وتعايش وحوار!

أنت اليوم، صنف جديد من الأصناف البشرية الاجتماعية، التي أفرَزَتها ملابسات الظلم، في عالمنا الأجرب، وخصوصًا في أوروبة، التي غزت العالم عسكريًّا وثقافيًّا، حاملة إليه المدنية الاستعمارية المُدَمِرَة، وليس المُعَمِرَة! ففتحت من خلال ذلك، سبلاً عدة للحج في الاتجاه المعاكس، نحو مراكزها الحضارية، التي تراءت للبشرية من بُعد وكأنها.. لآلئ منارات العلم والثقافة والمال والأمل والحرية.

أوروبا.. التي تملأ الدنيا صراخًا، ومظلومية، وشكوى من تدفق موجات الهجرة إليها، وتوالد حركات "الإرهاب" ضدها، ولا تريد أن تعرف أو تعترف بأنها هي.. أوروبا نفسها، هي التي أسست لهذه الحركات الإرهابية، ورسخت لقيامها، ودعمت قوتها، واخترقت قياداتها، وقواعدها، بأجهزة مخابراتها، لكي تحركها كما تشاء، وكيف تشاء، كما لا تريد أن تعرف، أو

تعترف، أنها هي الغازية، المعتدية، المستَعْمِرة، الإرهابية، التي دمرت مستقبل مختلف شعوب الأرض، وسرقت ثرواتها، ورسّخت عبوديتها في قلوب الجميع، عن طريق الثقافة والإعلام والتعليم.. فجاءها المهاجرون من كل شرخ عميق، خلفتـه وراءها في أثناء سياحة جيوشها التدميرية، خلال القرنين الأخيرين في الأرض.

لم يعد أمام أُوروبا، فيما يتعلق بتعاملها مع مستعمراتها السابقة، لضبط حركة الهجرة التي تقلقها، إلا طريقين، فإما التفاهم على الحدود الإنسانية الدنيا المشتركة، التعايش والاحترام المتبادل، وإما الحوار المرّ بالطائرات الحربية، والصواريخ العابرة للقارات، والبوارج الغازِيَة للاستقلال، والحرية، وإرادة الشعوب.

أما من جهة الجنوب، فيتصدر المشهد، الغاضبون – تحركهم وتتحكم بتشكيلاتهم مراكز ومؤسسات الاستخبارات الدولية – من عابري موجات الألم الإنساني، والتغييب القسري، والتهميش العنصري، والجهل المركب، وعذابات البشر.

ليس أمامنا، "نحن" و"أوروبا" سوى سبيل واحد للنجاة.

***

اقترب موعد نهاية العام الدراسي، وبدأ الشعور بالقلق، والحزن، والانقباض، يملأ صدري كما هي الحال دائمًا، في أول العام الدراسي وآخره. معظم أولاد الناس يدرسون ويجتهدون من أجل تقديم الامتحانات ليتمتعوا بعطلة الصيف، في مرح وترويح عن النفس، وإذا ما رسب أحدهم، عوقب بحرمانه جزءاً من ملاهي الصيف، فيتسنى له حينئذٍ، أن يدرس، ويستدرك ما فاته من نجاح.. إلا أولادي، فهم كماً يقولون عن أنفسهم: "في عقوبة مستمرة" صيفًا وشتاءً!.

ما إن يفرغوا من امتحانات المدرسة الإسبانية، وقبل أن تظهر النتائج النهائية، حتى نكون قد تكلمنا مع أستاذٍ للغة العربية، يأتينا يوميًّا، نرجوه مشددين، أن يشدد على الأولاد بدوره، في دراسة العربية، لتحصيل مستوى مقبول فيها، بالنسبة إلى أولاد مزدوجي اللغة يعيشون في بلد غير ناطق بالعربية.. الشيء الذي لم يتحقق باكرًا، كما كنا نريد، ولا بالمستوى الذي كنا نأمل، فدراسة اللغات المزدوجة تحتاج إلى أساتذة متخصصين حريصين متفرغين، كما تحتاج إلى متابعة كبيرة ومثابرة طويلة الأمد من قبل الوالدين.. فلا الأساتذة كانوا متوفرين ومتفرغين، في هاتيك الأيام، ولا نحن استطعنا المتابعة والمثابرة.

كان تعلم الإسبانية – لغة البلد والشارع وأفلام الكرتون –، بالنسبة إلى الأولاد الذين يرتادون المدرستين العربيتين في مدريد، أسهل بكثير جدًّا، من تعلم العربية، بالنسبة إلى الأطفال الذين يدرسون في المدارس الإسبانية[1]، كانت اللغة العربية الفصحى، بالنسبة إلى هؤلاء الأولاد، اللغة الثالثة، بعد "لهجة" الأم، ولغة بلد المهجر!

مدة العطلة الصيفية، لدى أولادي، لا تتجاوز أسبوعًا واحدًا، سبعة أيام، يتقلبون فيها على شوك الغيظ، تخوفًا من الأستاذ الجدّي، الذي سيباشر الدرس في تمام الساعة التاسعة صباحًا، قاتلاً كل أحلامهم وآمالهم في النوم إلى ما بعد منتصف النهار، ثم يجلس وقد قطب، وعبس، وكأنه لا ينفع أستاذًا للعربية، إن لم يعبس ويقطب! محاولاً أن يخلع عن كتفيه صفة "العمومة في الله"، التي تربطه بالأولاد منذ نعومة أظفارهم، ليبدو جادًّا كل

(1) لم يكن في هاتيك الأيام من فضائيات، ولا إنترنيت، ولا أي نوع من أنواع المساعدة للآباء في هذه المهمة.

الجد، وهو يتهددهم بإنزال العقوبات بمن لا يسمع ولا يطيع، يبذل جهده ليظهر وكأنه غليظ القلب، لكنه لا يلبث أن يُفتضح أمره، ويتفطر قلبه رأفة ورحمة، على هؤلاء الأولاد، الذين حُرِموا لذة الاستمتاع بإجازاتهم الصيفية.

فهو إما "عمو الغنوشي"[1] زوج الخالة "الغنوشية" – كما يسميها أولادي، وإما "عمو أسمهانو"، زوج "الخالة أسمهان"[2].. هذا اسمه عند أولادي، وهذا وصفه!

كل صديق للوالد هو "عمو" بالضرورة، وكل صديقة للوالدة هي "خالة" كأمر مفروغ منه!

هؤلاء هم العمّات، والخالات، والأعمام، والأخوال، في غربتنا، حيث لا توجد أسرة ممتدة.

يسألني أولادي طوال الوقت: لماذا لدى رفاقنا في المدرسة أجداد وجدات، ونحن ليس لدينا إلا الجد والجدة، اللذين يزوراننا مرة في السنة؟ لماذا لدى الأولاد، عمات، وخالات، وأبناء عم، وأبناء خالة، ونحن ليس لدينا أحد؟ لماذا يذهب كل الأصدقاء، في العطل، إلى قراهم، ليقضوا عطلتهم في الحقول، والمزارع، وحظائر الماشية، وبين أحضان الطبيعة، مع الأهل والأقارب، يلعبون مع خنازيرهم وخرفانهم الصغيرة، يقطفون ثمار الكرز والتفاح من الأشجار، يساعدون الجد في حلب الأبقار، ويحضرون حفلات الكنيسة والقرية.. ونحن ليس لدينا أي شيء؟

استعضنا عن العائلة، التي تجمعها روابط الدم، بأسرة الجالية، التي تضمها المودة في الله، أصبح لدينا خالات وأعمام، يبذلون

---

(1) الغنوشي: اسم عائلة مغربية كبيرة معروفة.

(2) أسمهان: اسم عثماني يعني ملكة الأسماء/ قاموس معاني الأسماء.

– بتحفظ كبير– للأولاد بعض ما يمكن أن يغدقه عليهم، عادة، الأعمام والخالات، من عطف، ومحبة، واهتمام، لا يقتصدون معها، بالقيل، ولا بالقال، ولا بالاستجوابات العائلية المعتادة.

بعض الأعمام، والخالات، هنا في الغربة، أقرب إلى الأولاد من الأعمام، والخالات الحقيقيين في الوطن.. ولا تخلو الحال ممن يأبى، ويمرر مشكلاته الشخصية مع الكبار، عبر أذية الصغار وإساءة معاملتهم!

تَعَلُّق أولادي، بهؤلاء الخالات والأعمام في الله، أكبر من تعلُّق أي طفل مهاجر في إسبانيا بأعمامه وخالاته في الدم، ممن يزورونهم كل عام في العطلة الصيفية، وكانت معاملة بعض هؤلاء الخالات والأعمام، في غربتنا، للأولاد، أسمى وأكرم، من معاملة الإخوة والأخوات، لأولاد إخوتهم وأخواتهم في الوطن.

هكذا كان الأولاد العائدون، من رحلاتهم الصيفية المعتادة، يحكون لأولادي، يَقُصُّون عليهم، حكايات الأسرة الغريبة والعجيبة، في ذلك الوطن العاق.

وعلى الرغم من أن كثيراً من الأُسَر في سورية كانت تبذل جهوداً كبيرة لاستيعاب الأولاد الآتين من المهاجر.. فإن بعض هؤلاء كانوا يحكون في أحاديثهم، بين الأولاد همساً وسرًّا، بأنهم يحسدونهم على أنهم لم يستطيعوا السفر إلى بلادهم منذ وُلِدوا!

كُنّا في تلك الأيام، من الأُسَر القليلة، التي لا يستطيع أي فرد منها، زيارة الشام، لا في الصيف ولا في الشتاء، ولا في فصول الموت والعزاء، ولا مواسم الأفراح والليالي الملاح!

نحضر "مهرجان" الاستعدادات السنوية لسفر الناس، من حولنا، صامتين متفرجين.. غارقين في آلامنا، التي يصعب أن يفهمها القوم، أو ينتبهوا إليها، في زحمة ابتهاجهم بعودتهم، إلى أهلهم وبلدهم بعد تسعة أشهر طويلة، من معاناة الغربة والبعد.

أسراب السنونو. . لا تلتفت في اندفاع لُجتها إلى من تَخَلّف منها عن الرحيل.

بعد درس العربية يبدأ التأفف والاعتراض:

"أولاد الناس لا يدرسون صيفًا وشتاءً"! "أولاد الناس يذهبون مع أهلهم إلى النزهات والرحلات، عندما تغلق المدارس أبوابها"! "أولاد الناس لا ترغمهم أمهاتهم على الاستيقاظ، منذ الصباح الباكر، أيام العطل، وكأنهم ما زالوا يعيشون في المدرسة"!.. "نريد أن نرتاح، نريد أن نلعب، وأن نعيش أوقاتًا خاصة بنا، نفعل فيها ما نشاء"!

كانت تلك "ثورة"، بكل ملابسات الثورة، تفكير، وتدبر، وإعداد، وتصميم، وثبات، واعتراض، واحتجاجٌ، وإضرابات!

أحيانًا، أحصل على ما أريد من أولادي، بطرق غير مشروعة وغير مقبولة، أجد لها مبررًا، في حرصي عليهم، لكنني ودائمًا، أسقط في شرور أعمالي! فهم يمارسون عليّ الرقابة، والتقييم، بشكل صارم ومؤلم أحيانًا.

أقول لهم: كفاكم نقًّا واعتراضات.. أولاد الآخرين لا يُطلب إليهم حمل الأمانات، وبناء مستقبل الأمم، نهضت اليابان من إصابتها النووية، وقامت ألمانيا من هزيمتها الكبرى.. وصنع أبناؤهما معجزة.

في اليابان.. العطلة المدرسية، لا تتجاوز أسبوعًا واحدًا، وفي ألمانيا.. شهر واحد فقط! ما قصتكم، وقصة اعتراضاتكم هذه غير المقبولة؟

فاجأتني ابنتي بقولها: هذا ظلم.. أنت تبتزيننا! هذا ليس عدلاً أبدًا يا ماما، نحن لا نستطيع وحدنا، دفع ثمن تعفن الوطن، وغياب الأمة!

هكذا حرفيًّا، وبلغة إسبانية رفيعة، تساعد الأطفال على التعبير، بأبلغ المصطلحات التي تصدمك مفاجآتها اللغوية! حتى إنك تعود إلى نفسك، لتتساءل عن قسوتك مع نفسك، وأنت تُشكّك، في جدوى دراسة الأولاد في المدرسة الإسبانية! والتي مَنَحَتْهُم إلى جانب العناية المنزلية، هذه القدرة الاستثنائية على التفكير بالعربية، والصياغة بالإسبانية، بمثل هذه الاستعمالات المدهشة لأطفال في أعمارهم.

بكل تلك الصراحة، والإيجاز، والبلاغة، وبكل هذا الوعي، الذي فاق الاثني عشر عامًا لابنتي.. تجاوزت فهمي، ووعيي، وإفلاس لهجتي السورية، وضعتني أمام مسؤوليتي، عن شِدّتي مع أولادي، وهم يعيشون محنة مضاعفة، محنة الغربة عن الوطن، والدين، والأهل، ومحنة مواجهة، هذا الواقع الكئيب، الذي تعيشه أوطانهم، ودينهم، ولغتهم، وأهلهم.

محنة انتماء موجعة، كانت هذه التي يعيشها أطفالنا في غربتهم، عابرة الأجيال.

***

كان الوطن بالنسبة إلينا نحن "جيل النكسة"، محل اعتزاز وفخر، فأصبح بالنسبة إلى أولادنا "جيل الغربة"، موضع ألم ومعاناة، وخريطة من إشكاليات التاريخ، والجغرافيا، وملابسات العولمة، والهيمنة الاستعمارية، بشقيها الغربي والشرقي.

رحمة الأمومة، كثيرًا ما تتفتق عن شِدّة، بسبب الشعور المُضني بالمسؤولية.

ومن حيث لا ندري، ولا نريد، أتعبنا وجود أطفالنا، أرهقناهم، ونزعنا السلام من أنفسهم، وذلك أغلى ثمن يمكن أن ندفعهُ لترسيخ القناعات، وتثبيت التحقق بالهوية لدى أولادنا.

كان مصطفى يتحدث مع أبي ساجدة، قال له: إنه مؤلم جدًّا، أن نُحَمِّل أبناءنا مسؤولية، عجزت عن حمل أعبائها أجيال.

فيجيبه: لعل ذلك كان منتهى الرحمة بهم، والإشفاق عليهم، خوفًا من أن يذوبوا في هذا المجتمع، أو ما هو أعظم من الذوبان!

– وما أعظم من الذوبان؟ هل يوجد أعظم من هذا؟

– أن يتلاشوا، أن يكون وجودهم باهتًا كعدمه.. ألّا يتركوا بصمة إنسانية، وألّا يحملوا همّ بلادهم وأمتهم، أن يكونوا أرقامًا في هذه الجموع، التي تساق إلى الذبح.. أو ما هو أعظم من الذبح!

– أعظم من الذبح؟؟!

– أن يصبح المرء رسالة ملتبسة، مبهمة، تشوه الدين، والحضارة، والمجموعة البشرية التي ينتمي إليها.

أبو ساجدة لا يفتأ يُذَكِّر أولاده – وكل ولد من أبناء الجالية – بأنهم مسلمون إسبان، من أصل سوري، وأن عليهم كإسبان، إيصال "الرسالة" إلى المجتمع الذي وُلِدوا فيه، وأن يكونوا كمسلمين، جسور خير ورحمة وهدى، ما بين سورية التي أتى منها أبواهم، وإسبانيا التي وُلِدوا فيها.

وأنهم اليوم أولاد الجالية، وغدًا يجب أن يكونوا رجال الأمة.

حاول تعليمهم أصول الخطابة، والتحدث إلى الناس، أتاهم بالقواميس الموسوعية، منح كل واحد منهم قاموسًا إسبانيًّا – عربيًّا، ضخمًا، خاصًّا به.. لأنهم أصحاب رسالة، كما كان يردد على أسماعهم دائمًا، وعلى صاحب الرسالة، أن يلم بكل أدوات المعرفة.

كان الواجب يحمِلنا – كآباء وأمهات في الغربة والمهاجر– على أن نمنح أبناءنا هذا الشعور المؤلم جدًّا، والثقيل والجميل، بضرورة العمل وبذل الجهد، لتعود لنا كرامتنا وحريتنا.

كان لا ينفك يردد: هذا الشعور المؤلم، الثقيل، الجميل، وحده، هو الذي يعطي حياتنا وحياتهم، معنى وقيمة، وهو وحده، الذي يتكشف مع الأيام، عن أفراح الروح.. أسرار الروح المذهلة، التي كتب عنها سيد قطب: "في كل مرة أعطيت لقد أخذت".

لكننا وبكل صدق الواقع، لسنا نحن الذين أعطينا، إنهم هُم!.. بطفولتهم، التي سرقتها آلام أمة، واستسلام شعب، وتفسخ وطن.. هم الذين أعطوا، ومنحوا، وتعبوا، وعانوا، هُم.. الذين يستحقون تلك الأفراح ولسنا نحن!

***

كانت قشور البرتقال تحترق فوق المدفأة، تنشر في البيت ذلك العطر الشتوي المميز، ونحن نلعب على السجادة، أبي يشوي الكستناء، إلى جانب قشور البرتقال، يُبَرّدُها، يقشِّرها، ويناولنا الواحدة تلو الأخرى، ونحن نلهو، ونلعب، ونتشاكس، ونكيد بعضنا لبعض، بينما أمي منهمكة، في تغليف آخر الكتب، في المكتبة، بعد أسبوعين من أعمال اللف، وتجليد الكتب، التي شاركنا فيها جميعًا، حتى أعيتنا هذه المُهمة السنوية.

قالت أمي: أنتم الآن منهكون، لكنكم ستشكرون غدًا هذه المهمة، ووجود هذه المكتبة في بيتنا، كل شيء يمضي ويزول، وتبقى الكتب.. لا شيء في حياة الإنسان كالكتب، ولا شيء يبقى معه كل حياته مثل الكتب.

يعلق أبي: في حياته، وبعد مماته كذلك.

يسأل أخي الصغير بسنواته السبع: وهل سنقرأ كل هذه الكتب يا بابا.

يقول أبي، وهو يقهقه: لقد اطلعتم على نصفها، وأنتم تجلّدونها، وتعيدون تجليدها، ثم تعيدون تجليدها كل عام.. إلى أبد الآبدين!

وننضم جميعًا إلى أبي في اعتراضه هذا: لا نريد أن نُجَلِّد الكتب بعد اليوم، لا نريد.. لقد تعبنا جدًّا جدًّا.

ويقول أخي الآخر، ذو الأعوام العشرة: أنا لن أُجَلِّد ولا حتى كتابًا واحدًا من الآن وحتى أموت!.. أصلاً أنا سأموت قريبًا جدًّا، من كثرة ما جلّدت من كتب!

أقول مستنكرة: وماذا جلدت أنت؟ لم تفعل غير أن وضعت الشريط اللاصق لتثبت به ورق التجليد.

ينبري أخي الكبير بمعارضة اعتراضاتنا، وتوزيع النصائح، والإرشادات علينا، فهو صاحب العقل الراجح، في هذه الجوقة، كيف لا وهو أكبرنا، بسنوات عمره الأربع عشرة، وقد دخل معركة تجليد الكتب هذه، أكثر من عشر مرات في حياته الطويلة!

يأخذ أبي واحدًا من كومة الكتب، التي تنتظر الملصق الجديد.. يقلبه بين يديه، وهو يضبط وضع نظارته على أنفه، ثم يقرأ "الموجز في التحليل النفسي".. ويُعَقّب: الله يخرب بيتك يا فرويد أنت ونظرياتك.

وبينما ننصت في انتباه للنقاش، ونحن نأكل الكستناء، تقول الوالدة:

– بغضّ النظر عما نختلف فيه معه، فلقد أضاف إضافات كبيرة جدًّا للمعرفة، هذا من أهم الكتب، التي ينبغي لنا جميعًا قراءتها.

يقول الوالد: لا يمكن قراءة فرويد، من دون رصيد راسخ من العلم الشرعي، وإلا ضاع الشباب وهم يقرؤونه.

تؤكد الوالدة: لا ضياع ولا هم يحزنون، قرأناه وما ضعنا.. وليس لدينا لا علم شرعي ولا معرفة فقهية.

يقول الوالد: هذا صحيح، لكننا أناس بالِغون، عاقِلون، مميزون، إنه إضافة، لمن يريد أن يضيف، ولا يمكن أن يكون هو الأصل، الذي نستند إليه في معرفتنا.

تهز الوالدة رأسها موافقة، وهي تأخذ الكتاب من بين يديه، لتضع عليه الملصق، طالبة من الصغير أن يساعدها على تثبيت الملصق كما ينبغي، حتى تتمكن، من كتابة عنوان الكتاب، واسم الـمؤلف.. ولولا مساعدة أخي هذا الدعموص المشاغب، في

هذا الشأن العظيم لتكرمش الملصق، وفشلت عملية التجليد، وانهارت المكتبة على رؤوسنا!

تقول الوالدة هذا، ونضحك جميعنا، ونحن نتقلب على السجادة لاعبين، مستمتعين بهذه الجلسة، بين فوح الكستناء، والعطر الذي تنشره عملية حرق قشور البرتقال، وتغريد أختي الرضيعة في مهدها، وهيمنة اللون الأزرق المرتبط أبدًا في أذهاننا، برائحة الكتب الطيبة النافذة، كشعاع ضوء، ينسكب من كوة نور على حياتنا.

لمّا كنا صغارًا، كان أبي وفي الخامسة فجرًا، يوم الجمعة.. وكل جمعة، يأتي بطست كبير، ملأه ماءً دافئًا، يضعه وسط الغرفة، ثم يبدأ بإيقاظنا في هدوء وصبر:

يالله يا بابا..

سنصلي الفجر جماعة يا "حبّابين"..

يالله أحبابي.. يالله يا أبطال...

قوموا قبل أن ألعن أباكم!

فنقوم أخيرًا قومة واحدة، من الأسرّة، ونغمس أيدينا وأرجلنا في الطست، نرشرش الماء من حولنا، والوالد منهمك، في دلكها، واستكمال شروط الوضوء، لكل واحد منا، ونحن سعداء ما بين لهو، ووجل من الوالد، نلهو بالماء، ونستعد لحفلة الجمعة الصباحية الرائعة.

يصُفّنا الوالد.. ويصلّي بنا، نلكز بعضنا، نغيظ بعضنا بعضًا، هذا يهتز، وهذا ينكش أذنه.

ينهي الوالد الصلاة، ويلتفت إلينا.. ينظر إلينا هنيهة، ثم

يهجم علينا، سترون ما أنا فاعل بكم... ونجري هاربين إلى المطبخ، نستعيذ بالوالدة، التي تُعِّد الفطور، بمِرْيَلَتِها التي تقي ملابسها الاتساخ، منهمكة في قلي البيض، وصفّ المكدوس[1]، مع قطع البندورة والفليفلة، وهندسة صحون المقبلات والمخللات، بينما يغادر الوالد مع الصبيين الكبيرين، لإحضار طبق صباح الجمعة الأساسي.. فتة الحُمُص، تاركين لي مهمة العناية بالرضيعة.

ما إن نفرغ من طعامنا، حتى يتناول أبي من المكتبة، كتاب "صاحب الخيمة الزرقـاء"، ويبدأ بقراءته لنا.. نجلس كأن على رؤوسنا الطير، بعد أن نظفتنا الوالدة، وعطّرتنا، وألبستنا، وذهبت ترفع المائدة.

يهز كياني هذا الكتاب، أشعر أنني سأبكي، لا أريد أن يطّلع إخوتي الذكور، على ما يضجّ في داخلي من مشاعر، فيتندروا بها!.. ولربما هذا هو شعورهم ذاته، وأنا لا ادري، أغالب الدمع، ويمتلئ القلب بالحب، بالعشق، أمدّ يدي الصغيرة إلى خيمته، أراها في المنام، أعيش أيامًا، وأنا أريد اكتشافها واكتشافه.

كتاب أنيقٌ جدًّا، رقيق، ملون يطغى عليه اللون الأزرق السماوي، لا أذكر اسم كاتبه، غيّر مجرى حياتي كله، ونقلني "إليه" في سماواته، وجعله معي في كل أمري، وجعل ما بيني وبينه أقوى من الخوف، وأمتن من الطمع، وأعظم من الرجاء.. إنه الحب.

---

(1) المكدوس،طعامٌ رئيسي شائع في بلاد الشام، يؤكل في الفطور والعشاء، مع الفليفلة الخضراء والبندورة والبقدونس، يصنع من الباذنجان الصغير، الذي يُحشى بالجوز والفليفلة الحمراء والثوم، ويُملح ثم يكبس بالزيت ويُكدس للمؤونة.

يا إلهي. . ماذا يمكن لكتاب رقيق أنيق أن يفعل بقلب طفل؟ يا إلهي كيف تجعل لبعض عبادك، سُلّمًا للتشرف بالانتساب إليك؟ يا صاحب الخيمة الزرقاء، يا صاحب القلوب تقلبها كيف تشاء.

***

في نزهتنا المسائية في حديقة الباغوادا، مع الأولاد، تقول لي حسناء: هل علمت باتفاق "دايتون"؟

– سمعت الأخبار في إذاعة لندن، لا أدري هل نفرح لوقف المجزرة في البوسنة والهرسك، أم نغضب لمثل هذا الاتفاق الغريب.

– هل رأيت الخريطة؟

أخرجت حسناء صحيفة البابيس، ونشرت أمامي خارطة اتفاق دايتون، التي وزعت جغرافيا البوسنة والهرسك، ما بين الصرب والمسلمين، توزيعًا، يترك كل الأسباب اللازمة والكافية، لانفجار الحرب بينهما في أي لحظة، ممكنة قادمة!

ثم قالت وهي تشير إلى الخريطة: أرأيتِ كيف جعلوا منفذ البوسنة الوحيد، على البحر، بأيد صربية، محوطًا بأرض صربية، ومنفذ الصرب البوسنيين على البحر، محوطًا تمامًا بالأراضي البوسنية؟ أرأيت الشيطان عندما يستولي على التفاصيل؟

قلت لها: ما دام "حاميها هو حراميها".. لن نعيش في سلام أبدًا! وما دامت روسية، تقتل، وتذبح، وتقصف، وتدعم الصرب، ثم تجلس محركة دُماها من وراء ستار.. فعلى مسلمي البوسنة، أن يعرفوا أن مجزرة تالية قادمة لا محالة!

قالت: أنسيت دور أمريكا والغرب؟

– سبحان الله وكيف أنسى؟ هؤلاء يشكلون الجناح الاستعماري الآخر، لهذا النادي الاستعماري، الذي يطبق الخناق علينا، من كل حدب وصوب!

– هذا أمرٌ لا أعرف كيف، وبما أصفه؟.. كل الذي أعرفه، أننا في ورطة حقيقية، وورطة تاريخية حقيقية، الله أعلم متى ستنفجر، بما فيها ومن فيها، لا يمكن أن تبقى الأمور على هذه الحال، يا أم ساجدة، هذا مستحيل!

– الظلم لا يأتي إلا بطوفان من دم.. وسلب الأمم، هويتها، وتاريخها، وحقوقها، لا يمكن أن يمر إلا مرور اللئام! كان الله في عون أولادنا، على ما يمكن أن ينتظرهم في قادم الأيام.

سكتت وسكتُّ، بينما نعطي الأولاد وجبة العصرونية.. ثم بعد هنيهة قالت لي:

كم تفكرت في هذا الأمر، الذي طالما حدثتني عنه، نحن على الرغم من غربتنا، فإننا "محظوظون" بطريقة أو بأخرى، في حين أن أبناءنا يعانون الغربة الحقيقية، والتشرد الثقافي الموجع.

قلت لها: الوالدة والوالد، جعلا من حياتنا، رحلة بين الكتب، نزهة بين المعاني، لم نكن لننام، من دون أن يقرأ علينا أحدهما كتابًا.. كانا يُعرّفاننا إلى أمتنا، وأمجادها، وتاريخها، ورجالها، وأحداثها، كنا ننهل حتى نرتوي عزة وكرامة وإباءً.

– لا أنفك عن التفكير في أننا نحن الجيل الأول – إن صحت تسميتنا بالجيل الأول – نعرف الخنساء، وخالد بن الوليد، وصلاح الدين، وفي المدرسة على الرغم من كل شيء، كان الجميع يغنون للعروبة.. وللأمة الواحدة ذات الرسالة الخالدة، كنا نغني لحماة الديار، ولبلادي، وكنا ندرس عن ذي قار، وعين جالوت، وفتح الأندلس.

حدثتها: أتعرفين يا حسناء؟ لقد كنت أرفع الرأس عاليًا، وعلى الرغم من حكم البعث القذر، وكل ما كانوا يريدون تمريره علينا، من انحراف، وتشويه لمعاني "الأمة"، وتغييب لكل القوميات، في ملف القومية العربية الواحدة الوحيدة، التي كانوا يريدون فرضها على الناس، بقوة السلاح، وسطوة الإعلام، لكنني كنت فخورة تمامًا، بنفسي، وبانتمائي، وبهويتي،كنت أشكر الله، على أنني مسلمة، وسورية، ودمشقية.

قالت حسناء ضاحكة: وكذلك حمصية[1]!

قلت وأنا أضحك كذلك: وحمصية ياسيدتي، نصفي حمصي.. طبعًا حمصية.

استطردت حسناء، وهي تعطي ابنها الصغير طعام العصرونية: ماذا تقصدين بتغييب القوميات؟ هذه ما فهمتها ولم تمر عليّ..

– إنهم يقومون بعملية تذويب رهيبة، للقوميات في العراق وسورية، هذا البعث سيخرب ديارنا كلها، ويفجرها عاجلاً أم آجلاً.. يريدون فرض "القومية العربية"، على الناس بالقوة.

انفعلت حسناء: لا أتفق معك في هذا.. وما عليهم إن فرضوا على الناس أن يتكلموا بالعربية؟

– أنا لا أتحدث عن اللغة، وحتى تعلم اللغة، لا يكون بالفرض والقهر والجبر، إذا كان القوم يُعدون العدة، لتقسيم السودان من الآن؟ فتخيلي ما الذي يمكن أن نشهده في المنطقة بعد عدة سنوات؟ إن العالم يطبخ لنا قنبلة ذرية موقوتة، على حصى البَعْثَيْنِ الطائفيين، في العراق وسورية.. الله يسترنا، ويستر العباد مما ستكون عليه الأمور بسببها لاحقًا.

---

(1) حمصي: من مدينة حمص السورية التاريخية الشهيرة.

– أمة عربية، وبطيخ مبسمر[1]، ثم خسروا الحرب، وضيّعوا القدس، وباعوا القنيطرة والجولان، وحلّت بنا النكسة!

– هذه حكاية لوحدها، جاءت حرب حزيران، ومعها الإحباط الجماعي، والمندبة الكبرى، والنكسة.

– فعن أي فخر تتحدثين؟ والله أنا لا أشعر بأي فخر، إلا لأنني مسلمة..

– وفلسطينية!

– يا ستي وفلسطينية...

– ومقدسية؟

– طيب.. ومقدسية.

– أحدثك عن أيامي التي مضت، في دمشق.. وهذا ما كنت أشعر به حقًّا، في أول وعيي، وأنا في الثانوية، لم نكن مُلِمين بما يجري من حولنا.

قالت حسناء: مساكين أولادنا، كيف يمكن أن نجعلهم يشعرون بذلك الفخر نفسه، الذي كنت تشعرين به، نحن في فلسطين، نستمد كرامتنا، من الجهاد ضد الإسرائيليين القتلة، أما أنتم... فمشكلتكم عويصة.

مساكين أولادنا فعلاً، أحاديثنا معهم عن الأمجاد، والتاريخ، يكذبها كلها الواقع المر، الحزين، الذي نعيشه ويعيشونه، أمجاد باهتة، لا يجدون منها أو لها في حياتهم أي أثر، معنى "الوطن" في أذهانهم باهت رمادي كئيب، هذا "الوطن"، يتخيلونه غولاً

---

(1) **البطيخ المبسمر**: هو البطيخ الرديء النوعية، توجد على قشرته نتوءات على شكل مسامير.

فاتحًا فاه، ليبتلع أمهم وأباهم، اللذين لا يستطيعان زيارته، ولا الاقتراب منه، **وطن يُبكي ويُصم ويُعمي، الداخل إليه مفقود، والخارج منه مولود!**

بعيد، غريب عنهم، بتاريخه الحديث، المليء بالخيانة، والعهر السياسي، والانقلابات العسكرية، والاستحقاقات الطائفية، والكذب، والفجور.. بعيد بعيد عنهم كذلك، بعاداته وتقاليده الاجتماعية، التي لا يعثرون لها على أصل ولا فصل، لا في منطق الأمور، ولا في قناعاتهم الإنسانية الفتية، ولا حتى في دينهم، الذي يجدون فيه وحده، ضالتهم، وهويتهم، وانتماءهم، وكرامتهم، وعزتهم، وشعورهم الوحيد بالانتماء، والأمن.

تأتي ابنتي الكبيرة، وتحدثنا: اليوم احتفل صفنا بنلسون مانديلا(1).. القائد الكبير، والرجل العظيم، ماما هذا الرجل يستحق كل احترام، بعد 27 عامًا قضاها في السجن، مناضلاً سلميًّا عنيدًا، أصبح الآن أول رئيس أسود لجمهورية جنوب إفريقية.. هكذا أريد أن يكون نضالنا ضد الوحوش في سورية!

قالت حسناء: رائع يا خالة رائع.. يعجبني حماسك وفهمك للأمور.

قلت: سيرة حياة هذا الرجل، يجب أن تكون ملهمة للكثيرين، نأخذ منها ما يناسبنا ونتعلمه.

---

(1) **نلسون مانديلا**: الزعيم الأفريقي الذي وقف في وجه نظام الفصل العنصري، في ثبات وسلمية، وقاد من سجنه الذي استمر 27 عامًا، حركة تحرر، انتهت بسقوط النظام العنصري، ثم انتُخِب رئيسًا لدولة جنوب أفريقيا، وكان له دور كبير في بدء إجراء المصالحات الاجتماعية، ورأب الصدع الدموي الخطير الذي خلّفه ذلك النظام المتوحش في البلاد.

التفتت حسناء إلي غاضبة: قلت في نفسي، لا بد من أنها ستعترض على شيء ما في الموضوع!

– أنا لا أعترض مجانًا حسناء لا تظلميني!

قالت ابنتي: أرجو ألّا تقولا لي بأنه صهيوني!

ضحكنا، وقلنا: لا بالطبع ليس صهيونيًّا.

أردفتُ: لكنه كان مدعومًا، من قبل الغرب فعلاً لا قولاً، وهذا ما ساعده على الصمود والتحدي، البشر يحتاجون إلى من يدعمهم في نضالاتهم، هذا رجل عظيم بكل المقاييس، وأنا لا انتقص من حقه، لكنني أريد لك يا مام[1] أن تري الصورة واضحة، ومن كل جوانبها.. **النضال السلمي لن يفيد، إذا ما قرر الجميع قتل المناضل، إلا أن تكون قدرته على احتمال الألم كبيرة، وأن يكون مَن وراءه مستعد لحمل اللواء، والاستمرار في نضاله السلمي، حتى يتحقق النصر**.

قالت حسناء، معترضة، متأففة من "تَفَلْسُفي": لاااااا إله إلا الله!!

قلت: محمد رسول الله!

قالت: خففي الضغط عن البنات، وحلّي[2] عنهم، الله يصلحكْ يا أبا ساجدة، هو سبب كل هذه المشقة، هو الذي أورثكم، هذه النظرة النقدية، لكل شيء، إنه لشيء منهك متعب.. أرهق الشباب من حوله بهذا الأمر!

قلت: بالله عليك، أأنا التي أتيت بقصة الكفاح السلمي هذه؟ صدقًا ما سمعت بها إلا الساعة من ابنتي!

---

(1) تصغير لفظة ماما توددًا.

(2) اسم حِلّ، والمصدر حَلَّ يَحِلُّ، هو في حِلٍّ عن يمينه: متحررٌ منه.

ضحكت حسناء، حتى كادت تغص بالكوكا كولا، التي كانت تشربها.

كان أولادنا عراقيين، أيام غزو العراق، تقاسموا مع أطفال العراق، بؤسهم وعذاباتهم.

صاروا فلسطينيين، في مدريد "يرمون" مع أطفال الحجارة حجارتهم المقدسة تلك في الأرض المقدسة، يستعيدون بها بعضًا من كرامتهم، وحقوقهم المسلوبة.

ثم أصبحوا بوسنيين، في سياق مجازر البوسنة، يبكونها، يعانونها، يدفعون ضريبة دمائها وآلامها.

كان أولادنا في الغرب، يدفعون ضريبة، كل ما يجري في أوطان آبائهم وأمهاتهم، وكل ما يجري في منطقتهم المنكوبة بالاستعمار، وكل ما يجري على مستوى الأمة الأكبر.. لا حدود لها، لكنها موجودة، دليل وجودها أننا ندفع ثمن انتمائنا إليها، هنا في غربتنا.

تساءلت حسناء حانقة: خسروا الحرب أمام إسرائيل، في ستة أيام، وضيعوا بقية فلسطين، الله لا يوفقهم..

– **هكذا كُسِرت قناعاتنا، وهُشِّمت مشاعرنا القومية الرديئة، وأصيبت عزتنا بجلطة دماغية، عشناها عشرين عامًا، نرش على الموت سُكّرًا**، وهم يرددون صباح مساء بلا حياء: لم يستطع العدو، أن ينال من دولنا، وأنظمتنا، وعقيدتنا البعثية، ولا شعاراتنا، ولا تطبيلنا، ولا تزميرنا.

– والله – يا أختي – أشعر أحيانًا أننا نحن أهل فلسطين، كنا وما زلنا نعيش بخير، وأنكم أنتم المبتلون، والشرور تُحدِقُ بكم.. ومعظم الناس نائمون يشخرون!

– وهو كذلك بالضبط.. ولربما كانت صفعة البوسنة، من أقسى الصفعات التي تلقيناها في صمت وعيسوية[1]، منقطعة النظير!.. ولكن هل سيستفيق الناس في بلادنا ومنطقتنا، قبل أن يصل دور الثور الأبيض؟

بدا أن "النكسة"، و.. سقوط القدس، مرّت في حياتنا كما يفعل السرطان أول أمره، يفتك بصمت، يتمدد بثبات، يمزق الأحشاء ويهرس الشرايين، ويتوسع في وقاحة، مثابرة على حساب الحياة.

نُحَدّث أولادنا، عن أمثلة ليس لها جوهر، وعن أعراض، لا يلمسون معالم أبعادها، وعن تاريخ يؤلمهم أنهم لم يعيشوا منه إلا ما يبدو وكأنه لحظات سقوط وانحدار.

في المدرسة يعلمونهم، أبجدياتٍ يُقرأ منها تاريخ الإنسانية مقلوبًا، مشوهًا، ومختَزَلاً في تاريخ أوروبا وحدها، **وكأنه لم يكن من وجود لهذا العالم قبل أوروبا، ولن يكون له وجودٌ، منذ أعملت فيه سكاكين إرهابها الحقيقي، أبي الإرهاب كله!**

في الشارع والحديقة والمدرسة، يعاني أولادنا، الرفض والكراهية، ويشعرون بالاجتثاث، وفي حصص الأخبار كل عشية، يسمعون قصص مآسٍ، وقصفٍ، ودمارٍ، وإرهابٍ، وعذاباتٍ، وانقلابات بيضاء أو حمراء، وانتخابات سوداء، في بلاد أبيهم وأمهم، وزوارق تحمل الفارين، من شمال إفريقية، يرددون أغاني أحلامهم بالحرية، تحت جنح الظلام، على أنغام وشوشة مويجات البحر الصافي، الرائق المتلألىء، في ليالي آب/أغسطس

(1) على طريقة ما يروى عن سيدنا عيسى من منحه خده الأيسر لمن صفعه على خده الأيمن.

الصيفية، لكن هذه الصورة الآسرة لا تلبث أن تنقلب بين عشية وضحاها، إلى ولولة[1]، تشق طريقها وسط أهوال الليل والبحر، إن اشتاط غضبًا ،كما اعتاد أن يفعل بين الحين والحين.

بين الفينة والفينة، يزحف الموت، البارد المبلل، يرتجف غربة، يمد يده المخيفة، فيختطف من هاتيك الزوارق، كل ليلة، حاجته من القرابين البشرية، يأخذهم معه، فينجيهم من الغرق في لجج ظلمات وجحيم أوروبا! التي يُيَمّمُون شطرها، طلبًا لشيء من الحرية، وشيء من الكرامة، وعيش الكفاف، في شرف وأمان، ولكن هيهات هيهات!

مع كل هذا الحجم الرهيب، من الدعاية الاستعمارية تبث، في جميع وسائل الإعلام المحلية، والعالمية، كيف لهم أن يعلموا، ما كان ينتظرهم في أرض أنهار اللبن والعسل؟

ذلٌ، وهوان، ومهانة، ورفض، وكراهية، وحقد، وغضب، ضياع، وانقطاع، وجوع إلى الأهل والأرض التي فارقوها، اضطهاد شبحيٌ، غير مرئي، ولا مسموع، لأديانهم، وأعراقهم، وتراكيب عظام وجوههم، ولون بشرتهم، وشكل أنوفهم، ولغاتهم، ولهجاتهم، وطبقة أصواتهم، وعاداتهم، ووجودهم، وبشريتهم!

كيف لهم أن يدركوا حقيقة، ما كان ينتظرهم هناك؟ من استجداء، واستخذاء، وعبودية مصمتة، غير معلنة، ولا يعترف بها أحد.

كل عشية، بينما أحدث أولادي، عن أمجاد الأمة التي ينتمون إليها، كانت عيونهم تتسمر، على مشاهد جحافل النازحين الفارين، من الحروب والمجاعات، وقوافل المعذبين، بالكوارث

---

(1) **ولولت المرأة** : رفعت صوتها بالبكاء والصياح. ولولت المرأة: دعت بالويل. **ولولت القوس** : صوتت/معجم المعاني الجامع الإلكتروني.

غير الطبيعية، من المُهْمَلين المُضيّعين، وأرتال المهاجرين، الواقفين أبدًا، في أبواب، وعلى أعتاب وزارة الداخلية وشؤون الهجرة واللاجئين في مدريد!.. يتذرعون بوعود بعض الساسة، لينالوا رضى الأختام الرسمية، على أوراق إقامتهم، رجاء أن يصبح وجودهم، في هذه البلاد شرعيًّا وقانونيًّا.

فالشرعية والقانون، تخفف من وطء الغربة، وتمنح المهاجرين الشعور بأنهم أصحاب "حق"، رغم أنف كل الذين يريدون تذكيرهم كل حين، أنهم هنا غرباء.

***

السيارة تمضي بنا نحو المطار، الصمت سيد الموقف، الأولاد في المقعد الخلفي، متكومون بيني وبين أمي، يمسكون يدها، يخافون أن تتفلت من أيديهم الصغيرة.. بينما "راديو 5 كله أخبار"، يصخبُ منذ خرجنا من الدار، يتحدث عن "اتفاق دايتون"، وأنه الحل الوحيد، الذي توصل إليه العالم الأجرب، لحل مشكلة البوسنة!

أبو ساجدة.. يسبهم وهو يتحدث مع أبي: مجرمون قتلة، كلهم والغون في دماء البوسنيين، أرغموهم على توقيع اتفاق، يحرمهم حقيقة من أن يكون لهم وطن في وطنهم، حدود فسيفسائية، تحصرهم، وتحاصرهم في أرضهم، الجزارون الذين ذبحوهم، واستباحوا حرمتهم، يحيطون بهم من كل حدب وصوب، لا منافذ بَحْرية، ولا حتى بريّة، لا استقلالية كريمة.

يجيبه الوالد: هذا ليس اتفاقًا، هذه قنبلة موقوتة، ستنفجر بالجميع عاجلاً أم آجلاً.. أخوف ما أخافه في سورية حربٌ شبيهة، وأوضاع تنفجر بها المنطقة كلها.

السيارة تمضي ببطء، وسط زحام مدريد المقيت، في تلك الأيام، كان زحام مدريد مُمرضًا، الجدة تمسح دموعها، بين الحين والحين، تضم الأولاد وتشمهم.. وأنا لا أشعر بأي شيء، كأنني شبحٌ ثقيل، لا يمكنه الانفلات بحرية، ليهيم على وجهه في سلام.. فقدتُ الشعور بأي شيء.

ليس تبلدًا في الأحاسيس، لكنها صدمة العجز المدقع، تصيب المرء بالشلل.

إنه الشلل..

في كل مرة أودع فيها أمي، وهي تمضي عائدة إلى دمشق، بعد زيارتنا، أفقد شيئًا من نفسي، قطعة من وجودي، ذاتًا من ذاتي.

أمك، ثم أمك، ثم أمك، حذار، ثم حذار.. فأي أذى تلحقه بأمك، سوف يرتد إليك ثلاثة أضعافه، في نفسك، وأولادك، وحياتك! ويُحدث ثلاثة شروخ، واحدة في الروح، والثانية في القلب، والثالثة في وجودك كله، يدمرك مرة بعد مرة إلى ما لا نهاية.

ليست المسألة، مجرد واجبات، وطقوس برّ بأمك.. إنها أنتْ.

وعلى الرغم من ذلك، فكل هذه الدموع التي تذرفها الوالدة، لا يمكن مقارنتها بدموع أبيك، دموع الأب، تكسر الظهر، وضلعين أو ثلاثة من أضلاعك.

ممسكة أنا بزمام الأمور! لا أريد أن أبكي، لكي لا أزيد الطين بِلة، أريد أن أخفف عنهما، ألم هذا الفراق الموحش الكئيب، ينشب أنيابه في الروح، فينتزعها قطعة قطعة، في كل مرة

كان الجد يشم فيها الأولاد، قائلاً: لعلها المرة الأخيرة.

لا أريد أن أبكي، لا أريد لأولادي، أن يكونوا عاطفيين إلى درجة الضعف والاستسلام، لكنني لا أستطيع، رغم أنفي تفر الدموع، قاتل الله الدموع، قاتل الله الدموع.

يجتاز الوالد والوالدة، آخر حاجز في المطار، باتجاه الطائرة، بعد التفتيش والتدقيق، يقفان هناك مكسورَي الخاطر، خائرَي القوى، كأنهما خارجان من معركة، لا كفاءة فيها ولا ذمم.. مُهَمّشَي الروح، كم مرة سيفقدان ابنتهما هذه وأولادها؟ كم مرة سيعيشان هذه اللحظة البشعة؟ قاتل الله الغربة، قاتل الله النأي، قاتل الله البعد والسفر.

قاتل الله الوطن.. قاتل الله الوطن!

يلوحان بأيديهما، يرسلان القبلات، الوالدة تبكي، غير عابئة بالناس الذين يتفرجون عليها، كأنها تقدم لهم عرضًا تهريجيًّا لافتًا، والوالد يمسك بيدها، يريد أن ينتشلها من الغرق، يتعكزان على ما بقي في إرادتهما من قوة، في شيخوختهما التي تضمهما وتجمعهما في آخر العمر، كما جمعتهما المودة والمعاناة والكفاح في طريق الحياة معًا أيام الشباب.. إنهما يجدان في بعضهما السلوى، ولا سلوى ولا عزاء.

كمن يترك وليده على قارعة الطريق، نخلفهما وراءنا، نتركهما هناك في وحدتهما، وحزنهما، وآلام الفراق التي هي أضعاف أضعاف آلام الموت.

كم يبدو الموت رحيمًا، إن قارناه بآلام الفراق والغربة.

نقطع حبلنا السُرّي معهما من جديد، ونمضي نحو باب الخروج، مطار مدريد الدولي، كبير طويل عريض، لكنني لا أرى الباب، ولا أجد المخرج.. تهتز الأرض تحت قدمَيّ، أتمسك بأبي الأولاد وأسأله: زلزال؟

يقول لي: هيا بنا...

من جديد تهتز الأرض، بقوة شديدة، تحت قدمَيّ، فقدت توازني، وأشرفت على السقوط، في واحد من تلك الشقوق، التي تخلفها الزلازل الشديدة في الأرض.

وأعود لأتمسك بأبي ساجدة، وأنا أضم أولادي، من حولي في هلع وحرص.

– إنه زلزال.. الأرض تميد.

يمسك أبو ساجدة، بأيادينا جميعًا، ويتوجه نحو الباب.

ينفتح الباب الآلي، وتمتد الطريق من غرناطة إلى مدريد، أمام ناظرَيّ، ونحن نهرول فيها بسيارتيّ التاكسي، المحملتين بما استطعنا حمله، من متاعنا وبقايا مكتبتنا، وألعاب الأولاد، التي اضطررنا إلى رمي ثلاثـة أرباعها، قبل الخروج من غرناطة.. وفي المذياع تصدح من "راديو 5 كل الأخبار" أغنية مايكل جاكسون: نحن العالم.. نحن الأطفال!

يسألني عنصر الأمن، القذر، القبيح، وقد كشر عن أنيابه، بضحكة صفراوية، ما هذا الذي تحملينه معك إلى إسبانيا؟

– لك يا أخي ألا ترى أنه جهاز عروس، ملابس جديدة، ما زالت بطاقاتها معلقة فيها؟

– وهذه الدفاتر والكتب؟

يقلب الملابس بيديه القذرتين، يريد أن يكتشف هذه القنابل، والمتفجرات التي تسمى كُتبًا!

أخرجت له دفتر مادة "الوراثة"، وقلبت الدفتر أمام ناظريه:

– انظر أخي، إنها دفاتر الجامعة وكتبها، أحملها معي لأتم دراستي هناك!

صار يبتسم ابتسامة قميئة، وهو يقول: رايحة لعند جوزها، وتريد أن تكمل دراستها.. اسمعوا هل السمعة!

أخذ الدفتر يقلبه، وتوقف في أول صفحة منه يقرأ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾[1].

قال: وما هذا؟ قرآن في العلوم؟

قلت: هذه آية عن الذباب، ونحن ندرس كثيرًا صبغيات الذباب في علم الوراثة.

قال له صاحبه: مشّيها وخلصنا من العلاك.. امشي تحركي.

قلت له: ومن سيعيد ترتيب المحفظة بعد كل هذه الفوضى..

نظر إليّ العنصر الجديد، نظرة مخيفة جدًّا، فرُحت أحاول كبس الملابس في المحفظة الضخمة، وأنا أحاول إخفاء الدفاتر والأوراق، التي تكومت تحتها.. فأشفق علي العنصر الأول، وجاء يساعدني، وهو ما زال يبتسم ابتسامته القذرة تلك، آخذا الملابس الجديدة بيديه القذرتين، محاولاً حشرها داخل المحفظة من دون ترتيب، ولا عناية.

---

(1) سورة الحج، الآية 73.

مرت المحفظة بسلام، وأصبَحَتْ بما فيها من مسودات كُتبي وأوراقي، التي ما استطعت حرقها، ولا تركها في سورية، لدى المغادرة، وأمالي[1] توثيقي لجرائم النظام السوري في دمشق، وأسماء الشهداء من حولنا، تواريخ حياتهم، وملابسات استشهادهم.

أصبحنا أنا وأوراقي، خارج سلطة الدولة، خرجتْ المحفظة نحو الطائرة، وأصبحتُ في مأمن، وبقيتُ مع محفظة الكتب والملفات التي أحملها أتمشى في المطار مع ابنتي "ساجدة"، نبحث عن مكان، نتناول فيه طعام الغداء، في طريقنا من روما إلى مدريد، عائدتين من رحلة لبعض شأننا.. عندما اعترضنا أحد رجال الأمن الإيطاليين، بكلب حراسته الكبير المخيف، وبدأ يكلمنا بالإيطالية، ونحن لا نفهم مما يقول شيئًا، ثم بدأ بالصراخ في وجهنا، فقالت له ابنتي بسنوات عمرها الأربع عشرة: ألا ترى أننا لا نفهم الإيطالية، هذا مطار دولي، وعليكم الكلام بالإنكليزية.

أشار الرجل إلى المحفظة التي أحملها، ولما تلكأتُ ثوانٍ في فهم ما يريد، جذب المحفظة من يدي، فوقعتْ أرضًا، فُتِحت، واندلق كل ماكان فيها، من أوراق، وكتب، وجوازات سفر، على أرض مطار روما الدولي، انحنى الرجل فأخذ جوازيّ سفرنا، دقق النظر فيهما، وتمتم ساخرًا حانقًا مستهزئًا، وبالإسبانية المكسرة: "موراس" مع جوازات سفر إسبانية.. لنر من أين حصلتنّ عليها!

---

(1) أُمْلِيّة، اسم مشتق من كلمة "أملى" الأستاذ الدرس، وأملى الرسالة: قالها للسامع فكتب عنه ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾ سورة الفرقان 5/ معجم اللغة العربية المعاصر/كلمة أملية وأمالي: كانت تستعمل في جامعة دمشق، المقصود بها مجمل ما يجمعه الطلبة من محاضرات الأساتذة، فتطبع وتوزع بينهم.

أخذ جوازيّ السفر، ومضى قائلاً اتبعاني...

لم أتحرك من مكاني، ولا ابنتي، ولم نتبعه، صار يعوي ككلب مسعور بالإيطالية، ونحن واقفتان ننظر إليه، وحقيبتي، وأوراقي، وكتبي، وأقلامي، مرمية على الأرض.. والناس يتفرجون غير مبالين.

ذهب وحده، وعاد بعد دقائق، بزميلة له تتكلم الإسبانية، كانت أحقر منه، وأشد عنصرية وبغضاء.. سألتني بكل صفاقة: من أين جئتما بهذين الجوازين الإسبانيين؟ من أي البلاد أنتما؟

قلت لها: نحن نحمل الجنسية الإسبانية.

قالت: من أين أتيتما؟

قالت لها ابنتي في غضب شديد جدًّا: أعطني اسمك واسم زميلك هذا.. لا تملكان الحق في معاملتنا بهذا الشكل، وفقط لأننا محجبتان! نحن نحمل الجنسية الإسبانية، وأنا إسبانية مولودة في غرناطة.

هزت الشرطية الإيطالية كتفيها، وهي تبتسم ابتسامة كريهة، تحدثت إلى زميلها بالإيطالية، ثم دفعت الجوازين إلينا، وانصرف كلاهما وهما يتمتمان بالشتائم.

صرختْ ساجدة فيهما: عودا فاجمعا مارماه زميلك، على الأرض، ليس من حقه، أن يوقفنا لمجرد لباسِنا، ليس من حقكم، الاعتداء علينا بهذه الصورة غير اللائقة، ليس من حقه أن يرمي أغراضنا على الأرض.. عودا إلى هنا فاجمعا ما رميتماه.

لم يرد الشرطيّان، وذهبا من حيث أتيا، ومن دون أن يلتفت أي منهما إلينا، ونحن في حالة من الغضب، والاعتراض، جعلتنا لا نستطيع تناول أي شيء من طعام، أو شراب، خلال الساعات الأربع التالية، التي قضيناها منتظرتين في مطار روما.

كنا نجمع أوراقنا وأقلامنا من الأرض، ونعيد ترتيبها في المحفظة، عندما جاء جدي الشيخ، وبدأ يلمّ الأوراق معنا، ثم مضى في طريقه، يلملم كل ورقة يجدها في أرض المطار، يتفحص اللغة التي كُتِبت فيها، فإذا كانت باللغة العربية، احتفظ بها، وإن لم تكن، جعلها في حاوية القمامة.

ناديته: ياجدو..

التفت إلي، لوح بعكازه محييًا، واستأنف ماكان يقوم به.

قلت له: هنا لا توجد أوراق مكتوب عليها باللغة العربية.

ابتسم من جديد، ولم يقل شيئًا.. بينما كانت التلفزيونات في المطار، تبث من أفغانستان مشهد الحرائق، التي أشعلتها طالبان في الكتب والأوراق، وقال المذيع: إنهم يحرقون الثقافة والعلم.

انقبض صدري، وأحسست بالاختناق، والأرض لا تزال ترتجف تحت قدمَيّ بشدة.. لكن جدي لم يلتفت إلي، طلب إليه رجل الأمن أن يرافقه، ليجتاز بوابة الإنذار، وكلما مرّ عبرها أطلقت صفارتها، عاد جدي من جديد، طلبوا منه أن يترك عكازه جانبًا، ثم مرّ، فأطلقت صفارتها، خلعوا عمامته، آذاني أن أراه من دون عمامته هكذا، كأنني أنا التي خلعت حجابي!

ولما استمر الرنين، طلبوا إليه أن يخلع جبّته..

كنت أرقب من بُعد، وأنا أتمزق ألمًا، كيف كانوا يُهينون هيئة العالِم، وهيبته، ناديته مرارًا، لكنه لم يكن يسمع صوتي، أخيرًا اجتاز البوابة، رأيته ينظر إلي، وهو يرتدي ملابسه، ويضع عمته، ثم لوّح لي بيده، وهو يمضي مع جموع المسافرين.

في قاعة الانتظار كانت تجلس رائقة البوسنية، فلما رأتني، قامت تهرول نحوي، تناديني باسمي.. أسرعت أنا الأخرى نحوها.

لما التقينا، ضممتها، وضمتني.. كأنني استعدت أمي للتو.

بكتْ وبكيتُ، سألتها عن أحوالهم..

قالت رائقة البوسنية: منهكون والله.. منهكون جدًّا.

– أنت آتية أم مغادرة؟

– إنني مغادرة، أنا عائدة إلى سراييفو.

– مُرّي علينا لدى رجوعك إلى مدريد.

– لن أعود إلى مدريد! لا أريد لأولادي أن ينشأوا ليروني وزوجي، نرعى الخنازير.. أمي مريضة وتريدني أن أكون إلى جوارها.

– ....

– وأنت؟ ماذا تفعلين في المطار؟

– إنها أمي كذلك.. غادَرَتْ للتو..

مسحت رائقة دمعتها، وهي تقبض على يدي، قالت لي: نحن بوسنيون بلا وطن، وها نحن نعود إلى أرضنا رغم أنوفهم.. أما أنتم فلا وطن، ولا أرض، ولا عودة.

لا وطن، ولا عودة.. لكم الله.

سألتها: هل تشعرين بالزلزال؟ إنه زلزال! أرض المطار تهتز، كل شيء يدور ويهتز، وأنا أشعر بهذه الهزة الأرضية القوية جدًّا..

لا أدري لمَ لا يشعر بها مَن حولي!.. يبدو أنه لا يشعر بها أحد غيري!

آذار – مارس 2016

خارطة التسلسل الزمني للأحداث التي بنيّ عليها الكتاب
أبرز الأحداث التي شهدها العقد ما بين 1985 و1995
وكذلك بعض الأحداث البالغة الأهمية في سير حبكة المادة
على طرفي هذا الزمن
Cronología del libro

** انقلاب 1970 الذي قام به وزير الدفاع السوري في حينه "حافظ الأسد"، واستولى على أثره على الحكم، وسيطر على مفاصل الدولة كافة.

** 1975/11/20 موت الجنرال فرانسيسكو فرانكو – Francisco Franco - بعد أن استبد بحكم إسبانيا أربعين عامًا.

** 1975/11/22 تنصيب الملـك خوان كارلوس الأول ده بوربون – Juan Carlos I de Borbón - ملكا دستوريًّا لإسبانيا الموحدة، وذلك بعد أن أوصى به الجنرال فرانكو نفسه وريثًا له وتبناه وأشرف على إعداده كملك مستقبلي لإسبانيا، بعد إزاحة والده من "انتظار" المنصب بعد وفاة فرانكو.

** 1976/7/3 أدولفو سوارس – Adolfo Suárez- رئيسًا للحكومة الإسبانية، وقد بقي في هذا المنصب حتى تاريخ 1981/2/25.

** 1977/2/22 حادثة اغتيال محمد الفاضل عميد كلية الحقوق في حرم جامعة دمشق.

** 1977/6/15 أول انتخابات ديمقراطية في إسبانيا الحديثة.

** 1978/12/6 إقرار تعديل الدستور الإسباني ودخوله حيز التنفيذ يوم 29 من الشهر نفسه.

** حادثة مدرسة المدفعية في حلب والتي قادها النقيب "إبراهيم اليوسف" 1979/6/16

** مجزرة سوق الأحد في حلب 1980/7/13

** مجزرة حي المشارقة في حلب والتي نفذها النظام صباح يوم الأضحى 1980/8/11

** 1981/2/23 محاولة الانقلاب الأخيرة في تاريخ إسبانيا الحديث والمعروفة برمز "23 ف" "23F".

** شباط - فبراير 1982 وقوع مجزرة مدينة حماة السورية التي راح ضحيتها ما بين 20.000 و42.000 إنسان – بحسب اختلاف المصادر- على أيدي الجيش النظامي والقوات المدربة تدريبًا قاسيًا ووحدات من الأمن السري والقوات الخاصة التابعة لرفعت الأسد شقيق حافظ الأسد الديكتاتور العسكري الذي كان يسيطر على سورية في تلك الفترة.

** 1982/6/6 الغزو الإسرائيلي للبنان وبدء القصف على المخيمات الفلسطينية، على هامش الحرب الأهلية اللبنانية، التي بدأت في 1975/4/13، وانتهت رسميًّا عام 1985، لكنها لم تنته فعليًّا إلا عام 2000.

** 1982/9/6 انعقاد القمة العربية في فاس، والاعتراف فيها بإسرائيل، وتم فيها إقرار مشروع السلام الذي تقدمت به السعودية.

** 16-1982/9/18 مذبحة صبرا وشاتيلا على أيدي القوات العسكرية الإسرائيلية بإمرة أرييل شارون، وقوات حزب الكتائب المسيحي اللبناني، وقوات جيش لبنان المسيحي الجنوبي، وذلك ردًّا على اغتيال الرئيس اللبناني المنتخب بشير الجميل.

** 1982/9/17 أول عرض للجزء الثاني من فيلم "رامبو" الشهير.

** 1982/10/21 جائزة نوبل للآداب/الكاتب الكولومبي غابرييل غارثيا ماركيز.

** 1982/12/1 فيليبه غونثالث، المرشح الاشتراكي لرئاسة الحكومة الإسبانية، يفوز بغالبية ساحقة، ويستمر الاشتراكيون في حكم إسبانيا حتى 1996.

** 1983/9/8 إعلان الرئيس النميري تطبيق "الشريعة" في السودان، وبدء بوادر التقسيم فيه. - 2011/7/9 إعلان التقسيم رسميًّا، وإعلان جنوب السودان دولة مستقلة-.

** 1985 منظمة الأمم المتحدة أعلنت هذا العام، العام العالمي للشباب.

** 1985/1/7 تجدد المفاوضات حول مباحثات نزع الأسلحة النووية، بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، بعد 24 عامًا من الحرب الباردة بين الكتلتين الشرقية والغربية.

** 1985/1/28 إطلاق النشيد العالمي الشهير "نحن العالم.. نحن الأطفال" -*....We are the world*...- بقيادة مايكل جاكسون وآخرين، بهدف جمع التبرعات لمكافحة الجوع في إثيوبيا.

** 1985/2/11 إعادة انتخاب "حافظ الأسد" رئيسًا لسورية لمدة 7 سنوات أخرى بنسبة 99.99% من الأصوات.. سُمّيت هذه الانتخابات بانتخابات "الخوف والدم".

** 1985/3/7 اندلاع المظاهرات في السودان احتجاجًا على الضائقة المعيشية، وقيام قوات الأمن السودانية بمواجهتها بالغاز المسيل للدموع والغاز الخانق والعصي الكهربائية والرصاص.

** 1985/4/6 تدخل الجيش السوداني ضد نظام مايو وإعلان انتهاء الحقبة النميرية في التاسعة والنصف من صباح السبت 6 نيسان/أبريل 1985 وذلك استباقًا لمسيرة القضاة والدبلوماسيين التي كان من المفترض أن تبدأ عند العاشرة صباحًا. وصلت طائرة النميري القادمة من واشنطن إلى مطار القاهرة في الساعة 11 صباح السبت وأخطر هناك بالتطورات الأخيرة ومكث في القاهرة.

** 1985/4/12 ظهور أول ما يمكن اعتباره (هجومًا "إرهابيًّا" باسم الإسلام) خارج المنطقة، وذلك في مدريد – إسبانيا، عبر تفجير عبوة ناسفة في أحد المطاعم لمجموعة تسمى "الجهاد الإسلامي"، بمحصلة 18 قتيلاً، و82 جريحًا/وقد أشارت كل التحقيقات – على الرغم من تعدد الجهات التي نسبت إلى نفسها المسؤولية عن القيام بهذه التفجيرات - أنها مجموعة مدعومة من حزب الله الشيعي، ودولة إيران – كما تذكر الموسوعات الإسبانية التاريخية المعاصرة، وموسوعة الويكيبيديا الإلكترونية-، والتي تضيف أن هذه المجموعة تابعة للجهة نفسها التي قامت بتفجيرات بيروت عام 1983 والتي أدت إلى مقتل 300 جندي أمريكي، وتسببت بالانسحاب الأمريكي من لبنان.

** 1985/5/26 استئناف العراق لحرب المدن مع إيران، وقيامها بقصف ست مناطق فيها.

** 1985/6/14 قيام "مجموعة إسلامية بقيادة عماد مغنية" تابعة لحزب الله ومؤتمِرة بأمر إيران باختطاف طائرة بوينغ 847 التابعة لشركة أمريكية.

** 1985/7/22 تعيين ميخائيل غورباتشوف أمينًا عامًا للجنة المركزية في الحزب الشيوعي السوفييتي.

** 1985/7/25 محاولة اغتيال أمير الكويت الشيخ جابر الصباح على أيدي إرهابيين إيرانيين.

❊❊ 1985/8/4 انتحار أحد أعضاء طاقم الطائرة الحربية الأمريكية التي قامت بتنفيذ مهمة رمي القنبلة الذرية على مدينة ناغاساكي اليابانية 9.8 عام 1945.

❊❊ 1985/9/13 طرحت شركة "نتندو" في الأسواق لعبة "الفيديو" الأولى التي تسمى "سوبر ماريو بروس".

❊❊ 1985/11/11 أعلنت إسرائيل ضم مدينة "أم الفحم" الفلسطينية إلى سلطتها الاستيطانية.

❊❊ 1985/11/20 شركة"ميكروسوفت" تطرح في الأسواق لأول مرة في التاريخ برنامج "ويندو 1" .

❊❊❊

❊❊ 1986/1/11 دخول "قانون الأجانب" حيز التنفيذ في إسبانيا، وهو القانون المنظم لأوضاع الأجانب من غير دول الاتحاد الأوروبي، وإقامتهم في إسبانيا، والحقوق والواجبات المترتبة على وجودهم في إسبانيا.

❊❊ 1986/2/11 سقوط ميناء الفاو العراقي بأيدي القوات الإيرانية، في سياق الحرب العراقية - الإيرانية، والتي سُمّيت حرب الخليج الأولى.

❊❊ 1986/2/16 الطائرات الفرنسية تنفذ هجومًا على قاعدة ليبية جوية في شمال تشاد، أثناء الصراع الليبي – التشادي.

❊❊ 1986/2/18 اعادة احتلال لبنان من قبل القوات الإسرائيلية.

❊❊ شهر آذار/مارس 1986.. عمليات عدائية متبادلة ما بين الولايات المتحدة الأمريكية وليبيا.

❊❊ 1986/4/14 قامت 66 طائرة من طائرات سلاح الجو الأمريكي بشن غارة على ليبيا قضت فيها على كل مراكزها العسكرية الاستراتيجية، وقصفت مدنًا مكتظة بالسكان، وضربت مكان إقامة الرئيس الليبي معمر القذافي، وذلك –كما قال الرئيس الأمريكي رونالد ريغان- ردًا على قيام ليبيا بدعم الإرهاب الموجه ضد الولايات المتحدة.

❊❊ 1986/4/26 انفجار مفاعل تشرنوبيل في روسيا.

❊❊ 1986/8/27 حركات احتجاج واسعة ضد النظام العنصري في دولة جنوب إفريقية، وقيام الشرطة بقمعها بوحشية.

❊❊ 1986/9/30 قيام جهاز الموساد الإسرائيلي باختطاف أحد علماء الذرة الإسرائيليين من روما في إيطاليا، بسبب قيامه بفضح البرنامج الإسرائيلي النووي في الصحف العالمية.

** 1986/11/6 الصحافة الأمريكية تكشف عن قيام الرئيس الأمريكي رونالد ريغان بالموافقة على تزويد إيران بالأسلحة في حربها مع العراق.

** 1986/11/13 إعلان الاتحاد السوفييتي عن سحب كل صواريخه النووية ذات المدى المتوسط من عدة أماكن بينها بحر البلطيق.

** 1986/11/17 قيام منظمة إرهابية فرنسية باغتيال المهندس جورج بيس.

** 1986/11/25 الامم المتحدة تعلن مدينة "توليدو" الإسبانية – طليطلة- ومدينة ألكاثيرس – القصر-، ضمن مناطق إسبانية تاريخية وطبيعية أخرى: تراثًا إنسانيًّا.

***

** 1987 أعلنت منظمة الأمم المتحدة هذا العام، عامًا دوليًا لمنح المشردين بيوتًا ومأوى.

** 1987/2/19 المغرب تبني سورًا سادسًا لمنع البوليساريو من الوصول إلى الشواطئ الصحراوية على المحيط الأطلسي.

**1987/2/21 دخول الجيش السوري إلى المنطقة الغربية من بيروت، بعد معارك ضارية بين الميليشيات المتحاربة هناك.

**1987/4/19 تعرض في الولايات المتحدة الأمريكية الحلقة الأولى من المسلسل العائلي الكرتوني الشهير "عائلة سيمبسون".

** 1987/6/1 اغتيال رئيس الوزراء اللبناني رشيد كرامي في تفجير إرهابي.

** 1987/6/12 اجتماع الرئيسين الأمريكي والسوفييتي لدى جدار برلين، في برلين عاصمة ألمانيا الموحدة.

** 1987/6/19 قيام منظمة ايتا الإرهابية بتفجير في أحد أكبر المراكز التجارية في برشلونة بحصيلة 21 قتيلاً، و40 جريحًا.

** 1987/6/28 القوات العراقية تقوم مرتين بضرب مدينة زرداشت الإيرانية في مقاطعة أذربيجان الغربية، بقنابل تحمل غاز الخردل.

** 1987/7/11 الأمم المتحدة تعلن أن عدد سكان الأرض بلغ 5000 مليون نسمة.

** 1987/7/31 قيام بعض الحجاج الإيرانيين بمظاهرات عارمة في أثناء موسم الحج، حيث قُدِّر عدد الحجاج المتواجدين في المشاعر المقدسة يومها 2.100.000 حاج على الأقل، وقاموا بسد الطرقات وإحراق السيارات ورفع شعارات الثورة الإيرانية وصور الخميني في شوارع مكة، وحاولوا اقتحام الحرم المكي بالسكاكين والأسلحة التي كانوا

يخفونها تحت ملابس الإحرام، وقد أدت تلك الاضطرابات إلى مقتل 400 شخصٍ من الحجاج الإيرانيين ومن بقية الحجاج ومن رجال الأمن السعوديين، وما يقارب الـ 700 جريحٍ، بينهم 300 من الإيرانيين.

أوردت المصادر الإسبانية هذا الخبر على النحو التالي: مقتل 400 حاج إيراني على يد الأمن السعودي خلال مصادمات مع قوى الأمن السعودية في موسم الحج الإسلامي لهذا العام.

** 1987/9/13 اتفاق الفصائل الفلسطينية المقاتلة مع تنظيم أمل الشيعي المقاتل على وضع حد لحرب المخيمات.

** 1987/10/19 بوارج البحرية الأمريكية تقوم بتدمير قواعد بحرية بترولية إيرانية في الخليج "العربي-الفارسي".

** 1987/11/7 انقلاب "طبي" في تونس ضد الحبيب بورقيبة، وصعود زين العابدين بن علي رئيس وزرائه إلى سدة السلطة.

** 1987/11/17 أول قرار إبعاد عن فلسطين – غزة - تتخذه إسرائيل، وكان بحق الداعية الإسلامي عبد العزيز عودة

** 1987/12/8 اندلاع الانتفاضة الفلسطينية الأولى – انتفاضة أطفال الحجارة - سمّيت بهذا الاسم لأن الحجارة كانت الأداة الرئيسية فيها، كما عُرف الصغار من رماة الحجارة بأطفال الحجارة. والانتفاضة شكل من أشكال الاحتجاج العفوي الشعبي الفلسطيني على الوضع العام المزري في المخيمات وعلى انتشار البطالة وإهانة الشعور القومي والقمع اليومي الذي تمارسه سلطات الاحتلال الإسرائيلي ضد الفلسطينيين.

استمر تنظيم الانتفاضة من قبل القيادة الوطنية الموحدة الفلسطينية ومنظمة التحرير الفلسطينية فيما بعد. بدأت الانتفاضة يوم 8 كانون الأول/ديسمبر 1987، وكان ذلك في جباليا، في قطاع غزة. ثمّ انتقلت إلى كل مدن وقرى ومخيّمات فلسطين. يعود سبب الشرارة الأولى للانتفاضة لقيام سائق شاحنة إسرائيلي بدهس مجموعة من العمّال الفلسطينيّين على حاجز «إريز»، الذي يفصل قطاع غزة عن بقية الأراضي الفلسطينية منذ عام 1948. هدأت الانتفاضة في عام 1991، وتوقفت نهائيًّا مع توقيع اتفاقية أوسلو بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية عام 1993.

يُقدّر أن 1300 فلسطيني قتلوا في أثناء أحداث الانتفاضة الأولى على يد الجيش الإسرائيلي، كما قتل 160 إسرائيليًّا على أيدي الفلسطينيين، وبالإضافة إلى ذلك يُقدّر أن 500 فلسطيني يُزعم أنهم متعاونون مع السلطات الإسرائيلية قتلوا على أيدي فلسطينيين.

❊❊ 1987/12/11 هجوم إرهابي من منظمة إيتا الباسكية على قيادة القوات العسكرية في مدينة ثرغوثا في إسبانيا بمحصلة 11 قتيلاً، و88 جريحًا.

❊❊ 1987/12/14 إعلان الشيخ الشهيد أحمد ياسين عن تأسيس حركة المقاومة الإسلامية "حماس" في قطاع غزة، في قلب الانتفاضة الفلسطينية الأولى. - استشهد الشيخ أحمد ياسين عام 2004 بغارة إسرائيلية، تقصدته بصاروخ موجه أصابه في كرسي عجلاته وهو خارج من المسجد في صلاة الفجر-.

❊❊❊

❊❊ 1988/2/10 قبول إسبانيا في منظومة حلف شمال الأطلسي.

❊❊ 1988/2/24 منظمة إيتا الإرهابية تختطف أحد رجال الأعمال.

❊❊ 1988/6/31 ملك الأردن يعلن تخلي الأردن رسميًّا عن الضفة الغربية المحتلة من قبل اسرائيل منذ عام 1967، للمساعدة في إنشاء الدولة الفلسطينية المستقلة.

❊❊ 1988/8/20 إعلان نهاية الحرب الإيرانية - العراقية.

❊❊ 1988/10/1 انتخاب ميخائيل غورباتشوف بالإجماع رئيسًا للمجلس السوفييتي الأعلى.

❊❊ 1988/11/3 حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل للآداب.

❊❊ 1988/12/15 اعتراف الأمم المتحدة بالدولة الفلسطينية.

❊❊ 1988/12/21 مقتل 270 شخصًا في هجوم لوكربي الذي ثبت فيه تورط مخابرات الرئيس الليبي معمر القذافي الذي قتل لاحقًا على أيدي الثوار بعد اندلاع ثورة 15 فبراير –شباط 2011 في ليبيا .

❊❊❊

❊❊❊ 1989 يمثل هذا العام منعطفًا في تاريخ العالم بسبب الثورات التي شهدتها مختلف دول الاتحاد السوفييتي الشيوعية، مما أدى إلى تفككه وانهياره.

وتعرف هذه الحقبة بانهيار الستار الحديدي في أوروبا، وسقوط جدار برلين بين الألمانيتين، اللتين كانتا تمثلان رموز الحرب الباردة بين الكتلتين الاستعماريتين الشرقية والغربية.

هذه الثورات كانت أولى إرهاصات الاختفاء النهائي للاتحاد السوفييتي بعد عامين من هذا التاريخ.

** 1989/2/6 غادر أفغانستان 30.000 جندي روسي، تاركين العاصمة كابول تغرق في حالة من الفوضى العارمة.

** 1989/2/15 إعلان الاتحاد السوفييتي بشكل رسمي سحب قواته كافة من أفغانستان.

** 1989/2/14 أطلق "آية الله الخميني" في إيران نداء لمسلمي العالم لقتل الكاتب الهندي – الإنكليزي "سلمان رشدي".

لاحقًا قام هذا المرشد الإيراني بعرض جائزة قيمتها مليون دولار لمن يقوم بقتل الكاتب المذكور.

** 1989/2/17 اختتام مؤتمر القمة المغاربي الثاني في مدينة مراكش المغربية، باتفاقية دفاع مشترك، وأعلن في اليوم التالي 1989/2/18 عن ولادة "اتحاد المغرب العربي" – الذي بقي حبرًا على ورق- والذي وقع عليه كل من ملوك ورؤساء: المغرب والجزائر وتونس وليبيا وموريتانيا.

** 1989/3/3 توصل الحزب الحاكم وزعماء النقابات في السودان إلى اتفاق لوقف الحرب الأهلية التي جلدت هذا البلد خلال ستة أعوام.

** 1989/3/19 الاحتفال التاريخي برفع علم مصر معلنًا السيادة على مدينة طابا وإثبات حق مصر في أرضها.

طابا مدينة مصرية تتبع محافظة جنوب سيناء وتقع على رأس خليج العقبة بين سلسلة جبال وهضاب طابا الشرقية من جهة، ومياه خليج العقبة من جهة أخرى. يبلغ عدد سكان المدينة 3000 نسمة، وتبلغ مساحتها 508.8 فدان تقريبًا، وتبعد من مدينة شرم الشيخ نحو 240كم شمالاً. تمثل المدينة قيمة تاريخية واستراتيجية كبيرة لموقعها المتميز الذي يشرف على حدود 4 دول هي مصر، السعودية، الأردن، إسرائيل، حيث تبعد من ميناء إيلات الإسرائيلي نحو 7كم مشرقًا، وتقع في مواجهة الحدود السعودية في اتجاه مباشر لقاعدة تبوك العسكرية، وتعد آخر النقاط العمرانية المصرية على خليج العقبة في مقابل الميناء البحري الوحيد للأردن وهو ميناء العقبة.

** 1989/3/22 في لبنان أكثر من 100.000 إنسان يغادرون بيروت بسبب قصف الجيش السوري العنيف وحلفائه من الدروز على العاصمة اللبنانية، في صراعهم مع الميليشيات المسيحية بقيادة الجنرال ميشيل عون.

** 1989/4/2 الرئيس التونسي "زين الدين بن علي" يتمكن من تجديد ولايته على البلاد لمدة خمسة أعوام جديدة، بدعم من المجلس التشريعي الذي سيطر عليه حزب التجمع الدستوري الديمقراطي بأغلبية كبيرة.

** 1989/4/14 إطلاق أول قمر اصطناعي وتثبيته في مداره، من مجموعة الأربعة عشر قمرًا التي تتكون منها منظومة "دليل طرق السير" - GPS-

** 1989/4/15 في الصين، شهدت ساحة "تيان آن مِن" – تيانان من - بدء المظاهرات الاحتجاجية في بكين، إثر وفاة النائب العام للحزب الشيوعي الصيني السابق "هو ياوابانغ"، الذي عدّ لدى فئة من الشعب الصيني متحررًا من "مسّ الشيوعية".

** 1989/4/17 معركة تحرير الفاو – معركة فاصلة في الحرب الإيرانية - العراقية.

** 1989/4/21 في اليابان طرحت في الأسواق أول لعبة " /Boy Game / Nintendo .

** 1989/6/2 في إيطاليا مجموعة من علماء الأحياء، يكتشفون الآلية التي تمكن من إنتاج حيوانات معدلة وراثيًا في المختبرات.

** 1989/6/28 سلوبودان ميلوسيفيتش رئيس الجمهورية الاشتراكية الصربية، يلقي في كوسوفو ما سُميّ "خطاب غازيمستان" - *de Discurso Gazimestan*- وذلك كان نقطة البدء في الصراعات القتالية الجسام الخطيرة التي شهدتها منطقة البلقان.

هذا الخطاب، ألقاه ميلوسيفتش وسط تصعيد عنصري خطير بين الصرب والألبان الكوسوفيين في مكان يسمى بهذا الاسم "غازيمستان" أمام مليون شخص، كانوا يُحيون ذكرى معركة جرت قبل 600 عام في كوسوفو فترة القرون الوسطى الأوروبية، بين المملكة الصربية، والإمبراطورية العثمانية التي هزمتها شر هزيمة في تلك المعركة، وقد بقي الصرب يتباكون على هزيمتهم تلك ستة قرون بانتظار فرصة الانتقام من مسلمي البوسنة والهرسك وكوسوفو كونهم تركة العثمانيين في البلقان.. وكان ذلك بداية سنوات الدم والخوف التي اجتاحت المنطقة خلال الأعوام الخمسة اللاحقة بين الصرب ومختلف الشعوب والدول –الحديثة القديمة- التي نشأت "منفصلة" عن تفكك الجمهورية الاشتراكية الاتحادية اليوغسلافية السابقة.

** 1989/6/28 انتخاب "أكبر هاشمي رفسنجاني" رجل الدين الإيراني، رئيسًا للجمهورية الإيرانية الإسلامية، بغالبية ساحقة.

** 1989/6/30 في السودان، "عمر حسن أحمد البشير" – المولود عام 1944- يقوم بانقلاب عسكري ويحكم سيطرته على البلاد.

وكان يشغل منصب رئيس حزب المؤتمر الوطني، فقام بانقلابه العسكري على الحكومة المنتخبة برئاسة الصادق المهدي، وجمع بين منصبي رئيس الحكومة ورئيس الدولة الشرفي، وبقي في منصبه عشرين عامًا لاحقة.

وقد وجهت إليه تهمٌ خطيرة خلال فترة حكمه حيث اتهمت ميليشيات مسلحة تابعة له بالمشاركة في مجازر في كل من جنوب السودان ودارفور.

** 1989/8/8 الرئيس العراقي يعلن وقف اطلاق النار وبدء المحادثات مع ايران لإنهاء الحرب العراقية-الإيرانية.

** 1989/8/14 استقالة رئيس جنوب أفريقيا "بيتر دبل يو بوثا" - Pieter Botha W. – بعد مشادة عنيفة مع "فيديريك ويليام كليرك" - Frederik Klerk de W. - الذي عُين لاحقًا خلفًا له، مما وضع حدًّا للصراعات العنيفة بين السود والبيض في البلد التي حكمها نظام التمييز العنصري – الأبارتهايد- منذ عام 1940.

عمل على إطلاق سراح "نلسون مانديلا"، وتعاونا على نقل البلاد من حالة الحرب العنصرية إلى حالة الصلح المدني، ونالا مشاركة جائزة نوبل للسلام تقديرًا لجهودهما الكبيرة في إحلال السلم الاجتماعي في دولة جنوب أفريقيا.

** 1989/9/30 اتفاق الطائف هو الاتفاق الذي شمل الأطراف المتنازعة في لبنان وذلك بوساطة سعودية في 30 أيلول/سبتمبر 1989 في مدينة الطائف وتم إقراره بقانون بتاريخ 22 تشرين الأول/أكتوبر 1989 منهيًا الحرب الأهلية اللبنانية وذلك بعد أكثر من خمسة عشر عامًا على اندلاعها.

** 1989/10/19 الكاتب الإسباني "كاميلو خوسه ثيلا" يمنح جائزة نوبل للآداب/وكذلك منح الجائزة نفسها للسلام للدالاي لاما تينزن غياتسو.

** 1989/10/23 الإعلان عن تأسيس صحيفة الموندو الإسبانية – *El Mundo del Siglo XXI*- والتي تحتل واحدًا من أهم المواقع الصحفية الإعلامية في إسبانيا.

** 1989/10/29 إعادة انتخاب "فيليبه غونثالث" – Felipe González - رئيسًا للحكومة الإسبانية بغالبية مطلقة من جديد ولفترة رئاسية ثالثة.

** 1989/11/9 سقوط جدار برلين بعد 44 عامًا من الفصل بين الألمانيتين الشرقية والغربية.

** 1989/12/16 بدء الثورة في مدينة أو العاصمة بوخارست- تيميشوارا، رومانيا ضد النظام الشيوعي والرئيس "نيكولا تشاوشيسكو" – Nicolae Ceauşescu-، والتي انتهت بمقتله وزوجته يوم 1989/12/25.

***

1990 إعلان هذا العام، عامًا دوليًّا لمحو الأمية.

** 1990/2/7 انهيار الاتحاد السوفييتي: اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي توافق على التخلي عن احتكار السلطة.

** 1990/2/12 إطلاق سراح الزعيم الأفريقي نيلسون مانديلا بعد 26 عامًا من السجن بداية النهاية لنظام الفصل العنصري.

** 1990/2/26 الاتحاد السوفييتي يوافق على سحب قواته البالغة 73.500 فرد من تشيكوسلوفاكيا.

** 1990/3/18 أول انتخابات في ألمانيا الشرقية.

** 1990/5/20 الانتخابات الرئاسية والبرلمانية الأولى التي عقدت في رومانيا بعد انتهاء الحكم الشيوعي.

** 1990/5/22 قادة الجمهورية العربية اليمنية وجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية يعلنون توحيد شطري اليمن تحت اسم الجمهورية اليمنية.

** 1990/6/1 معاهدة غورباتشوف لتدمير ووقف تصنيع وتخزين الأسلحة الكيماوية، والتي لم تكن غير حبر على ورق، فلقد بقيت روسية تصنع وتصدر وتخزن هذه الأسلحة إلى بلدان العالم كافة، الثالث والعربي منه بخاصة.

** 1990/7/15 نمور التاميل يقتلون 168 من المسلمين في كولومبو، سري لانكا.

** 1990/7/25 الحزب الديمقراطي الصربي يعلن سيادة الصرب في كرواتيا.

** 1990/7/27 بيلاروسيا تعلن سيادتها، وهي خطوة رئيسية نحو الاستقلال عن الاتحاد السوفييتي.

** 1990/8/2 العراق تغزو الكويت.

الغزو العراقي للكويت هجوم شنه الجيش العراقي على الكويت في 2 آب/أغسطس 1990 استغرقت العملية العسكرية يومين وانتهت باستيلاء القوات العراقية على كامل الأراضي الكويتية في 4 آب/أغسطس ثم شكلت حكومة صورية برئاسة العقيد علاء حسين خلال 4-8 آب/ أغسطس تحت مسمى جمهورية الكويت ثم أعلنت الحكومة العراقية يوم

9 آب/أغسطس 1990 ضم الكويت إلى العراق وإلغاء جميع السفارات الدولية في الكويت، إلى جانب إعلان الكويت المحافظة 19 للعراق وتغيير أسماء الشوارع والمنشآت ومنها تغيير اسم العاصمة الكويتية.

أما في الطائف بالمملكة العربية السعودية فقد تشكلت الحكومة الكويتية في المنفى حيث تواجد أمير الكويت الشيخ جابر الأحمد الصباح وولي العهد الشيخ سعد العبدالله الصباح وعدد كبير من الوزراء وأفراد القوات المسلحة الكويتية.

واستمر الاحتلال العراقي للكويت فترة 7 أشهر، وانتهى الاحتلال بتحرير الكويت في 26 شباط/فبراير 1991 بعد حرب الخليج الثانية.

** 1990/8/8 حكومة الكويت المؤقتة التي فرضها الغزو العراقي، تعلن الوحدة مع العراق.

** 1990/8/10 انعقاد مؤتمر القمة العربية الثامن عشر الطارىء في القاهرة لمناقشة غزو العراق للكويت واحتلالها.

** 1990/8/16 الأمم المتحدة ومجلس الأمن يعلنان فرض الحظر التجاري على العراق ردًّا على غزوه دولة الكويت.

** 1990/9/12 إعلان الدولتين الألمانيتين والدول الأربع الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي وفرنسا وبريطانيا، التوقيع على معاهدة بشأن التسوية النهائية المتعلقة بألمانيا في موسكو، مما يمهد الطريق لإعادة توحيد شطري ألمانيا.

** 1990/10/3 إعادة توحيد ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية ضمن دولة واحدة.

** 1990/10/13 القوات السورية تجتاح جبل لبنان وتقوم بإخراج ميشيل عون من الحكومة وتدّعم وجودها على التراب اللبناني لسنوات.

** 1990/10/15 منح جائزة نوبل للسلام للزعيم السوفييتي "ميخائيل غورباتشوف" لجهوده في تخفيف توترات الحرب الباردة، وما بذله في "إصلاح" أوضاع أمته.

** 1990/11/20 تسجيل ونشر أول "صفحة ويب"/أول "موقع ويب أونلاين" في التاريخ.

الفيزيائي بولرمان شارك مع فريقه بتطوير أول آلية بحث، XFIND "كنت أواجه مشكلات دومًا في العثور على أشياء"، بحسب روايته. في ذلك

الحين كان فريق العمل في CERN يضم 60 جنسية. بولرمان على ثقة من أنه لولا صفحات الويب، لم يكن ممكنًا لشبكة الإنترنت أن تحقق هذه المسيرة الظافرة. لكن الخطوة الأكبر والأهم كانت مع تطوير أشكال المتصفح المختلفة، مثل فايرفوكس، إكسبلورر، موزيلا، وآليات البحث مثل ألتافيستا وغوغل. فقد جعلت مجتمعة الإنترنت بسيطة إلى درجة أنه بات في مقدور كل إنسان استخدامها. "إن وصول شبكة الإنترنت إلى هذه الدرجة من الاستخدام الواسع كما هي اليوم، والمدى الذي يمكن أن يتوسع إليه المضمون والتغيرات المختلفة التي حصلت، لم يكن ممكنًا حتى لتيم نفسه أن يتنبأ به"، بحسب بولرمان.

http://info.cern.ch/hypertext/WWW/TheProject.html

التي تضمنت معلومات عن حكاية إنشاء موقع الويب على الإنترنت. وقد كانت تلك هي لحظة ولادة عالم الويب، وكان تيم بيرنرز- لي هو المؤسس لها.

مصدر هذه المعلومة:

https://www.deutschland.de/ar/topic/lqtsd/lbtkr-wltqny/wl-mwq-wyb-fy-llm

❋❋ 1990/11/29 مجلس الأمــن يأذن في القرار رقم 678 باستخدام القوة العسكرية للتدخل في الكويت إذا لم تنسحب العراق منه بحلول 1991/1/15، ويصادف اليوم نفسه الذي أصدر فيه المجلس نفسه عام 1947 قرارًا يقضي بتقسيم فلسطين ما بين العرب واليهود.

❋❋ 1990/12/1 إنشاء أول اتصال أرضي بين المملكه المتحدة وأُوروبا القارية منذ العصر الجليدي الأخير، التقاء العمال من المملكة المتحدة وفرنسا على عمق 40 مترًا أسفل قاع القنال الإنكليزي.

❋❋ 1990/11 سلوبودان ميلوسيفيتش

كان رئيس صربيا ويوغوسلافيا من الفترة بين 1989 و 2000. تخرج في جامعة بلغراد في صربيا. قاد أيضًا حزب صربيا الاشتراكي منذ تأسيسه عام 1990. خلال هجوم الناتو على يوغسلافيا، اتهم بجرائم ضد الإنسانية من طرف المحكمة الجنائية الدولية ليوغسلافيا السابقة. أدَّت حركة أوتبور دورًا مهمًّا في إسقاطه. ومثل منذ عام 2001 أمام المحكمة الدولية لجرائم الحرب في لاهاي، هلك عام 2006 في السجن بينما كان ينتظر صدور الحكم بحقه، ويقال إنه انتحر أو نُحِر.

** 1990/12 عرض الجزء الثالث من فيلم العراب.

العراب بالإنكليزية: The Godfather هو فيلم من فئة أفلام الجريمة المنظمة الهوليودية "اجتماعي – سياسي - إنساني" أميركي 1972 من إخراج فرانسيس فورد كوبولا وإنتاج إلبرت رودي وسيناريو بوساطة كوبولا وماريو بوزو، مقتبس عن الرواية التي تحمل الاسم نفسه لسنة 1969. الفيلم من بطولة مارلون براندو وآل باتشينو كقادة لإحدى أقوى عائلات الجريمة في نيويورك. القصة تمتد لسنوات 1945-1955

وتتمحور حول تحول المهاجرين الإيطاليين في الولايات المتحدة، وتتمركز حول عائلة وشخص مايكل كورليوني (آل باتشينو).

يُعدّ العراب على نطاق واسع واحدًا من أعظم الأفلام في السينما العالمية وواحد من أكثر الأفلام تأثيرًا، خصوصًا في أفلام العصابات. الفيلم الآن مصنف في المركز الثاني كأعظم فيلم في السينما الأمريكية وراء (المواطن كين) من قبل معهد الفيلم الأميركي. اختير الفيلم ليحفظ في السجل الوطني للفيلم National Film Registry في 1990.

***

** 1991/1/12 الكونغرس الأميركي يصوت على قرار محاربة العراق لأجل تحرير الكويت.

** 1991/1/13 القوات السوفييتية تهاجم فيلنيوس عاصمة ليتوانيا لإيقاف استقلالها.

** 1991/1/15 انتهاء مهلة الأمم المتحدة لانسحاب القوات العراقية من الكويت وبدء حرب الخليج الثانية ضد العراق.

** 1991/1/19 العراق يطلق 8 صواريخ سكود ضد إسرائيل ردًّا على الهجوم الدولي بقيادة الولايات المتحدة على العراق وتصيب 15 شخصًا.

** 1991/1/22 سقوط 3 صواريخ سكود وواحد باتريوت على رمات غان في إسرائيل تسفر عن مقتل 3 أشخاص وإصابة 96 شخصًا.

** 1991/1/25 مجموعة من صواريخ سكود تصيب ثكنات للجيش الأمريكي في مدينة الظهران في المملكة العربية السعودية وتقتل 29 جنديًّا أميريكيًّا وتصيب 99 آخرين.

** 1991/2/13 حرب الخليج: غارتان من قبل القوات الجوية الأمريكية

على ملجأ العامرية في بغداد تسفر عن مقتل نحو 400 شخص مدني منهم أطفال، والولايات المتحدة ادعت أن الرئيس العراقي صدام حسين كان موجودًا هناك.

** 1991/2/21 الجيش العراقي يفجر عددًا من آبار النفط في الكويت.

** 1991/2/26 الرئيس العراقي صدام حسين يعلن سحب القوات العراقية من الكويت وذلك بعد أن قامت القوات العراقية بإحراق آبار النفط الكويتية.

** 1991/2/22 العراق يقبل بالمقترح السوفييتي لوقف إطلاق النار، والولايات المتحدة ترفض هذا المقترح لكنها تعد العراق بأنها لن تهاجم القوات العراقية التي ستنسحب من الكويت في غضون 24 ساعة.

وقد كذبت الولايات المتحدة بهذا الشأن، وهاجمت بالتشارك مع بريطانيا الجيش العراقي الأعزل المنسحب من الكويت من دون أسلحة ولا قدرة على الدفاع عن نفسه فأبادت ما لا يقل عن 100.000 إنسان خلال 100 ساعة، بقصف مركز وحشي بجميع الأسلحة المحرمة، وقد تم تنفيذ أكبر مذبحة للجنود شهدها العالم في تاريخه ما بين يومي 25-27 من شهر شباط – فبراير 1991.

مصدر هذه المعلومات موقع مدونة عشتار نقلاً عن صحفيين أجانب كانوا قد رافقوا الجيش الأمريكي والبريطاني في عمليتهما تلك:

http://ishtar-enana.blogspot.com.es/2010/04/1.html

**1991/2/27 جورج بوش الأب الرئيس الأمريكي يعلن انتصاره على العراق، ويوقف إطلاق النار استجابة لقرار الأمم المتحدة المتعلق بذلك.

** 1991/3/9 بدء الاحتجاجات في بلغراد عاصمة يوغوسلافيا ضد نظام الرئيس سلوبودان ميلوشيفيتش تسفر عن مقتل شخصين بعد ملئ الدبابات للمدينة.

** 1991/3/10 بدء انسحاب 450 ألف من القوات الأمريكية من الخليج العربي.

** 1991/3/15 بدأ الانتفاضة الشَعْبانية - في شهر شعبان- في جنوب العراق وفي كردستان العراق بعد انهيار الجيش العراقي في حرب الخليج، والتي قمعها وقضى عليها النظام العراقي بعد شهر من انطلاقها على الرغم من هزيمته الكبرى في الكويت، حيث قام الجيش العراقي

في 2.4.1991 بمهاجمة المناطق الكردية المتمردة وتسبب بهروب جماعـي للأكـراد إلى الجبال وإلى الدول المجاورة (إيران، تركيا) خوفًا من الإبـادة الجماعيـة مـن قبل الجيش العراقي، حيث فر أكثر من (2500000) مليونين ونصف المليون من المواطنين وسيطر الجيش العراقي – أو من تبقّى منه بعد سحقه لدى انسحابه من الكويت- على المدن الكبرى مرة أخرى.

** 1991/4/3 الأمم المتحدة تناشد العراق بالتخلص من أسلحة الدمار الشامل والعراق يوافق عليها في 6 نيسان/أبريل.

** 1991/4/5 البوسنة والهرسك تعلن استقلالها عن يوغوسلافيا.

** 1991/4/15 افتتاح البنك الأوروبي لإعادة البناء والتنمية.

** 1991/5/24 إريتريا تُعلِن استقلالها من إثيوبيا، وإثيوبيا تصبح دولة مُغلقة بحريًّا.

** 1991/6/12 بوريس يلتسن ينتخب رئيسًا للاتحاد السوفييتي.

** 1991/6/20 اختيار برلين عاصمة لألمانيا الموحدة وذلك بعد تصويت برلماني كانت نتيجته موافقة 336 مقابل 321 صوتًا معارضًا.

** 1991/6/30 إلغاء سياسة التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا.

** 1991/7/1 الإعلان عن انهيار حلف وارسو بعد لقاء الدول في براغ.

** 1991/7/31 الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي يوقعان على اتفاقية لتحديد حجم الأسلحة النووية في العالم.

** 1991/8/23 أعلن في الاتحاد السوفييتي حل جهاز الاستخبارات السوفييتية كي جي بي بعد تورطهِ في انقلاب فاشل.

** 1991/8/25 القوات اليوغسلافية مع العصابات الكرواتية تعلن الحرب على كرواتيا وتبدأ بالهجوم على مدينة فوكوفار في معركة فوكوفار.

** 1991/9/1 الاتحاد السوفييتي يعلن عن سحب القوات السوفييتية من كوبا وينهي المعونات الاقتصادية لها.

** 1991/10/18 الاتحاد السوفييتي يرجع علاقاته مع إسرائيل منذ أن قطعت في عام 1967 بعد حرب الستة أيام.

** 1991/10/30 افتتاح مؤتمر مدريد 1991 لحل المشاكل بين العرب وإسرائيل/مؤتمر سلام عقد في مدريد في إسبانيا في تشرين الثاني/ نوفمبر 1991، وشمل مفاوضات سلام ثنائية بين إسرائيل وكل من سورية، لبنان، الأردن وفلسطين. وكانت محادثات ثنائية تجري بين أطراف النزاع

العربية (لبنان، سورية، الأردن، فلسطين) وإسرائيل وأخرى متعددة الأطراف تبحث المواضيع التي يتطلب حلها تعاون كل الأطراف.

***

❋❋ 1992/1/2 دخول إسبانيا رسميًّا وبعام قبل الموعد المحدد ضمن نطاق معاهدة حرية التنقل والعمل للمواطنين الإسبان في المجال الاتحادي الاقتصادي الأوروبي.

❋❋ 1992/1/9 جمهورية صرب البوسنة تعلن انفصالها عن البوسنة والهرسك وسط عدم رضا من قبل البوشناق وكروات البوسنة والهرسك.

❋❋ 1992/1/12 مجلس الأمن الأعلى يتسلم مقاليد السلطة في الجزائر بعد الفوز الساحق للإسلاميين في الجولة الأولى من الانتخابات البرلمانية في الجزائر ويلغي الانتخابات الديمقراطية ويعتقل قادة الجبهة الإسلامية للإنقاذ.

❋❋ 1992/1/24 الصين تعيد علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل.

❋❋ 1992/1/29 الهند تعلن إقامة علاقات دبلوماسية كاملة مع إسرائيل وتبدأ في تبادل السفراء مع تل أبيب.

- 31 كلنون الثاني/يناير 1992 عقد أول اجتماع قمة لمجلس الأمن في المقر ويعلنون عن البدء في سياسة جديدة بعد نهاية الحرب الباردة.
- 1 شباط/فبراير 1992 الرئيس الأميركي جورج بوش الأب يَلتقي الرئيس الروسي بوريس يلتسن في كامب ديفيد ويعلنان عن نهاية الحرب الباردة.
- 7 شباط/فبراير 1992 معاهدة الاتحاد الأوروبي التي تعرف أيضًا باسم اتفاقية أو معاهدة ماسترخت هي الاتفاقية المؤسسة للاتحاد الأوروبي وأهم تغيير في تاريخه منذ تأسيس المجموعة الأوروبية في نهاية الخمسينيات.
- 9 شباط/فبراير 1992 إعلان حالة الطوارئ في الجزائر بعد الأزمة السياسية في البلاد.

11 آذار/فبراير 1992 دولة الكويت وبريطانيا توقعان مذكرة تفاهم كويتية - بريطانية حول التعاون الدفاعي بين البلدين

- 1 آذار/مارس 1992البوسنة والهرسك تعلن انفصالها عن يوغوسلافيا.
- 5 نيسان/أبريل 1992 بداية الحرب في البوسنة والهرسك. وبداية حصار سراييفو.

- 6 نيسان/أبريل 1992 دول المجموعة الأوروبية الـ12 تعترف بالبوسنة والهرسك.
- 7 نيسان/أبريل 1992 الولايات المتحدة تعترف بكرواتيا وسلوفينيا والبوسنة والهرسك، ودول السوق الأوروبية المشتركة تعترف باستقلال البوسنة والهرسك.
- 16 نيسان/أبريل 1992 الثوار الإسلاميون الأفغان يختطفون الرئيس الأفغاني محمد نجيب الله في العاصمة الأفغانية كابول.
- 17 نيسان/أبريل 1992 لجنة ترسيم الحدود الكويتية - العراقية تقر الخريطة النهائية للحدود البرية المشتركة بين البلدين.
- 25 نيسان/أبريل 1992 افتتاح القسم الكردي لراديو صوت أمريكا.
- 5 أيار/مايو 1992 القادة الروس في القرم يُعلنون انفصال القرم عن أوكرانيا لكنهم يغيرون رأيهم في 10 أيار/مايو.
- 16 أيار/مايو 17 أيار/مايو 1992 قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة تنسحب من سراييفو عاصمة البوسنة والهرسك.
- 29 حزيران/يونيو 1992 اغتيال الرئيس الجزائري محمد بوضياف في أثناء احتفال رسمي بأحد المسارحٍ في العاصمة وذلك بعد مدة قصيرة من توليه الرئاسة وبعد أن ظل لاجئًا في المغرب 25 سنة.
- 13 تشرين الثاني/يوليو 1992 تسلم إسحق رابين منصب رئيس وزراء إسرائيل للمرة الثانية.
- 28 آب/أغسطس 1992 إيران تبسط سيطرتها الكاملة على جزيـــرة أبو موسى بعد أن كانت تسيطر عليها جزئيًا منذ عام 1971.

❋❋ 31 تشرين الأول/أكتوبر 1992 تسلم رفيق الحريري منصب رئيس وزراء لبنان لأول مرة.

- 13 تشرين الثاني/نوفمبر 1992 المنظمة العالمية للأرصاد الجوية تُعلن انخفاضًا في طبقة الأوزون في القطب الجنوبي والقطب الشمالي.
- 1992 شركة فودافون تُطلِق لأول مرة خدمة رسائل إس إم إس في بريطانيا العظمى.
- 26 كانون الأول/ديسمبر 1992 أعيد افتتاح أبراج الكويت بعد أن تعرضت في الغزو العراقي للكويت للتخريب والسلب والدمار، حيث قام وزير المالية ووزير التخطيط ناصر الروضان بافتتاح الأبراج.

• 29 كانون الأول/ديسمبر 1992 قام تنظيم القاعدة بأول عملية هجوم بتفجير قنبلتين في عدن، اليمن. الهدف الأول هو فندق موفنبيك، والثاني موقف السيارات التابع لفندق جولد مور (شيراتون).

❋❋ 1992 عرض فيلم "الحارس الشخصي" بالإنكليزية: *The Bodyguard* من إخراج ميك جاكسون[4]، وتأليف لورانس كازدان، تكمن أهميته في الموسيقى المصورة الخاصة به، والتي أصبحت الموسيقى المصورة الأكثر مبيعًا على الإطلاق، مع أكثر من 45 مليون نسخة بيعت في جميع أنحاء العالم.

❋❋❋

• 1993/1/1 الاتحاد الأوروبي يزيل القيود التجارية بين دوله معلنًا بدء السوق الأوروبية الموحد.

• 1993/1/1 افتتاح القناة الإخبارية الأوروبية الموحدة، والتي تبث باللغات الأوروبية الخمس الرئيسية "أورونيوز" Euronews.

❋❋ 1993/3/27 بسبب حملة التشييع الجزائر تقطع علاقاتها بإيران.

❋❋ 1993/4/16 الحرب البوسنية: إعلان مقاطعة سربرنيتسا في البوسنة والهرسك منطقة خالية من السلاح ومحمية من الأمم المتحدة.

• 1993/4/20 بيل كلينتون يتولى رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية ليكون الرئيس 42.

❋❋ 1993/6/6 إعادة انتخاب فيليب غونثالث رئيسًا للحكومة الإسبانية.

❋❋ 1993/10/3 تحولت الأزمة الدستورية في روسيا إلى صدام مسلح بين أنصار السوفييت الأعلى "البرلمان" وقوات الشرطة والأمن والجيش، وتم قصف البرلمان الروسي وإخلاؤه، وأعلن الرئيس يلتسن حالة الطوارىء ودخلت قوات الجيش موسكو العاصمة.

مصدر هذه المعلومة : منتدى الجيش العربي

http://www.arabic-military.com/t21492-topic

❋❋ 1993/11/17 الإعلان رسميًّا عن انتهاء حكم الأقلية العنصرية البيضاء في جنوب أفريقيا *Apartheid*.

❋❋ 1993/12/12 أول انتخابات تشريعية في روسيا.

❋❋ 1993/12/30 إعادة العلاقات الدبلوماسية بين الفاتيكان وإسرائيل، بعد توقيع اتفاق في القدس بين الطرفين وُصِف بالتاريخي.

❋❋ 1994/1/14 الرئيس الأميركي بيل كلينتون والرئيس الروسي بوريس

يلتسن يتفقان على تفكيك أسلحتهم النووية الموجودة خارج بلدانهم ويتضمن هذا الاتفاق الأسلحة النووية الموجودة في أوكرانيا.

** 1994/1/21 هلاك باسل الأسد بحادث سيارة، وهو ابن الرئيس السوري حافظ الأسد، الذي كان يستعد لوراثة الحكم عن أبيه.

** 1994/1/22 أكثر من مئة أستاذ جامعي ومختص في اللغة الإسبانية يجتمعون في مدينة "أويلبا/ في مقاطعة أندلوثيا" الإسبانية ويتفقون على دعوة حكومات بلادهم للدفاع عن اللغة والثقافة الاسبانية.

** 1994/2/5 جيش صرب البوسنة يقتل 68 شخصًا ويصيب 200 شخص في منطقة تسوق في عاصمة البوسنة والهرسك سراييفو. والولايات المتحدة تفرض حظرًا جويًّا في أجواء البوسنة والهرسك في الثامن والعشرين من الشهر نفسه إثر هذه الحادثة.

** 1994/4/6 مقتل رئيس رواندا ورئيس بوروندي على الطائرة نفسها بعد إطلاق قذيفة عليها بالقرب من عاصمة رواندا كيغالي وبدء أعمال الإبادة الجماعية في رواندا.

يُعدّ هذا اليوم واحدًا من أكثر أيام التاريخ الإنساني سوادًا، إذ بدأت فيه مجازر تطهير وإبادة عرقية قتل فيها ما لا يقل عن 800.000 شخص من التوتسي بمعدل 11% من التوتسي الذين كانوا يعيشون في رواندا، أي 80% من أفراد هذه القومية، فضلاً عن النزوح القسري والطوعي لملايين الأشخاص باتجاه الدول المجاورة هربًا من وحشية أعمال الإبادة.

** 1994/4/12 اتفاق بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية على نشر 9000 رجل من قوات شرطة فلسطينية في قطاع غزة وأريحا.

** 1994/4/15 في مراكش تم التوقيع بين الاتحاد الأوروبي و124 دولة أخرى على مراجعة وتعديل معاهدة "الجات" التجارية، التي تعيد صياغة القيود على حركة التبادل التجاري الدولية.

** 1994/4/27 إجراء أول انتخابات ديمقراطية حرة في جنوب أفريقيا وانتخاب نيلسون مانديلا أول رئيس ديمقراطي.

** 1994/5/6 اكتمال حفر نفق المانش الذي يربط بين فرنسا وبريطانيا، بعد أعمال حفرية استمرت 7 سنوات، وقد أطلق عليه "نفق الأورو" "Eurotunnel".

** 1994/6/6 الاتفاق على وقف إطلاق النار في حرب يوغوسلافيا.

** 1994/7/16 نهاية الحرب الأهلية الرواندية.

** 1994/10/26 إسرائيل والأردن توقعان اتفاقية سلام لتنهي سلسلة حروب بينهما كانت قد بدأت منذ سنة 1948.

** 1994/12/3 اليابان تطلق أول جهاز بلاي ستيشن/شركة سوني، للبيع

** 1994/12/14 جائزة نوبل للثلاثي ياسر عرفات، وإسحق رابين، وسيمون بيريز.

***

** 1995/1/1 بدء وقف إطلاق النار لأربعة أشهر في البوسنة والهرسك.

قوات روسية تدخل وتسيطر على العاصمة الشيشانية غروزني.

** 1995/1/7 قصف وتدمير العاصمة الشيشانية غروزني من قبل الجيش الروسي وحرق القصر الرئاسي.

**1995/1/13 الأمم المتحدة توجه اتهامات لـ21 قائدًا من صرب البوسنة بجرائم حرب وضد الإنسانية بحق شعب البوسنة.

** 1995/3/14 المصادقة في إسبانيا على منح مدينتي سبتة ومليللة صلاحيات الحكم الذاتي بعد أن كانتا ملحقتين بناحيتي ملغا وكاديث التابعتين لمقاطعة أندالوثيا.

** 1995/3/21 تطوير محرك البحث ياهو YAHOO

** 1995/7/11 القوات الصربية تقوم بمذبحة سربرنيتسا بقيادة الجنرال راتكو ملاديتشو تقتل آلاف البوسنيين الذكور في البوسنة والهرسك من الشبان والشيوخ والأطفال وذلك بينما كانوا بحماية القوات الهولندية المشاركة في قوات حفظ السلام في البوسنة والهرسك/ 8000 شهيد حصيلة المجزرة.

** 1995/8/5 الجيش الكرواتي يسيطر على العاصمة الصربية الكرواتية.

** 1995/8/24 مايكروسوفت ويندوز، تطلق ويندوز 95، Windows 95، ومحرك البحث إكسبللورر- Internet Explorer web navigator

** 1995/10/5 الولايات المتحدة تفرض وقف إطلاق النار في البوسنة.

** 1995/10/15 اعادة انتخاب صدام حسين من جديد، بعد إعلان العراق تخلصه من أسلحة الدمار الشامل.

** 1995/10/22 بيل كلينتون يفتتح الاحتفال بالذكرى الخمسين لتأسيس الأمم المتحدة بإعلان ليبيا والعراق والسودان وإيران دول داعمة للإرهاب.

** 1995/11/4 اغتيال إسحق رابين على يد أحد الإسرائيليين الرافضين لعملية السلام بين إسرائيل والفلسطينيين.

** 1995/11/14 الأطراف المعنية بحرب البوسنة توقع على اتفاق سلام.

** 1995/11/15 توقيع اتفاق دايتون لرسم خارطة السلام البوسنية في باريس.

** 1995/11/15 دول الاتحاد الأوروبي تتفق في مدريد على ولادة العملة الأوروبية الموحدة "الأورو" EURO

** 1995/11/16 الولايات المتحدة توجه الاتهامات لرادافان كارادتيتش وراتكو ميلاديتش بالمسؤولية عن جرائم التطهير العرقي في مذبحة سيربرينيتشا.

** 27-1995/11/28 الشراكة الأورو متوسطية أو (عملية برشلونة) أو يوروميد ."EUROMED" بدأت عام 1995 من خلال مؤتمر برشلونة الأورو متوسطي والذي اقترحته إسبانيا ونظمه الاتحاد الأوروبي لتعزيز علاقاته بالبلدان المطلة على البحر المتوسط في شمال أفريقيا وغرب آسيا. كما اقترح فيه عديد السياسات من بينها الأمن والاستقرار في منطقة البحر المتوسط، تعزيز الديمقراطية والحكم الرشيد وحقوق الإنسان. تحقيق شروط تجارية متبادلة مرضية لشركاء المنطقة. وضعت تلك الشراكة الأسس لما بات يعرف بالاتحاد من أجل المتوسط وبناء مؤسساته من دون أن يحل محل الشراكة الأورو متوسطية.

وقد بقي كل ما فيه حبرًا على ورق، خصوصًا فيما يتعلق بحقوق الإنسان والديمقراطية، ما عدا التعاون الأمني الوثيق بين بلدان ضفتي المتوسط الشمالية والجنوبية والشرقية لقمع الشعوب وحرمانها من حقها في تقرير مصيرها.

وبدا ذلك جليًّا منذ انفجرت ثورة الربيع العربي، من خلال الطريقة التي تعاملت بها بلدان أوروبا مع هذه الثورات سرًّا وعلنًا.

***

❋❋ 1994-1996 *الحرب الشيشانية* الأولى، والمعروفة أيضًا باسم الحرب في الشيشان، هي حرب دارت رحاها بين روسيا والشيشان بين كانون الأول/ديسمبر 1994 وآب/أغسطس 1996. أدت إلى استقلال فعلي.

❋❋ 1996-2004 خوسة ماريا أثنار رئيسًا للحكومة الإسبانية عن حزب الشعب المحافظ، بعد هزيمة الاشتراكيين.

❋❋ 1996/11/1 تأسيس وانطلاق قناة الجزيرة القطرية الفضائية، التي كانت فتحًا غير مسبوق في الإعلام العربي.

❋❋ 1997 بدء انتشار استعمال الهواتف المتنقلة في إسبانيا.

❋❋ 2000 بدء استعمال الإنترنيت في إسبانيا.

❋❋❋

ملاحق لغوية

- لفظ سوريا، وسورية، وأوروبا، وأوروبة، يجوز الوجهان في كتابتهما باللغة العربية/منتدى مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية .
- جميع الأسماء الأجنبية الواردة في الكتاب، كتبت باللغة العربية بالطريقة نفسها التي تلفظ بها في اللغة الإسبانية، وليس الإنكليزية.
- كتبت الأعداد بأصل كتابتها العربي 1,2,3....

شكر وامتنان لكل من

❊❊ موقع الويكيبيديا باللغة الإسبانية والعربية.

❊❊ محرك البحث غوغل.

❊❊ موقع معجم المعاني الجامع : Http://www.almaany.com/

❊❊ موقع إسلام ويب: www.islamweb.net

❊❊❊

❊❊ الشكر موصول لكل من:

المصممين الفنانين السوريين: **تمام عزام**، و**مصطفى يعقوب**، على تفضلهما بالسماح بالاستفادة من لوحتين، من تصاميمهما الخاصة بالثورة السورية، في تصميم غلاف هذا الكتاب.

❊❊ شكر خاص:

الدكتور أيمن إدلبي

السيدة يمان إدلبي السباعي

الدكتور محمود السيد

الدكتورة خولة الحديد

يوسف زروق إدلبي

** إلى عبد اللطيف.. أبي*

الذي "أطلق الله سراحه" من هذه الدنيا،

بينما كنت أنجز آخر المراجعات على هذا الكتاب.

Mora en Madrid

Nawal Sibai